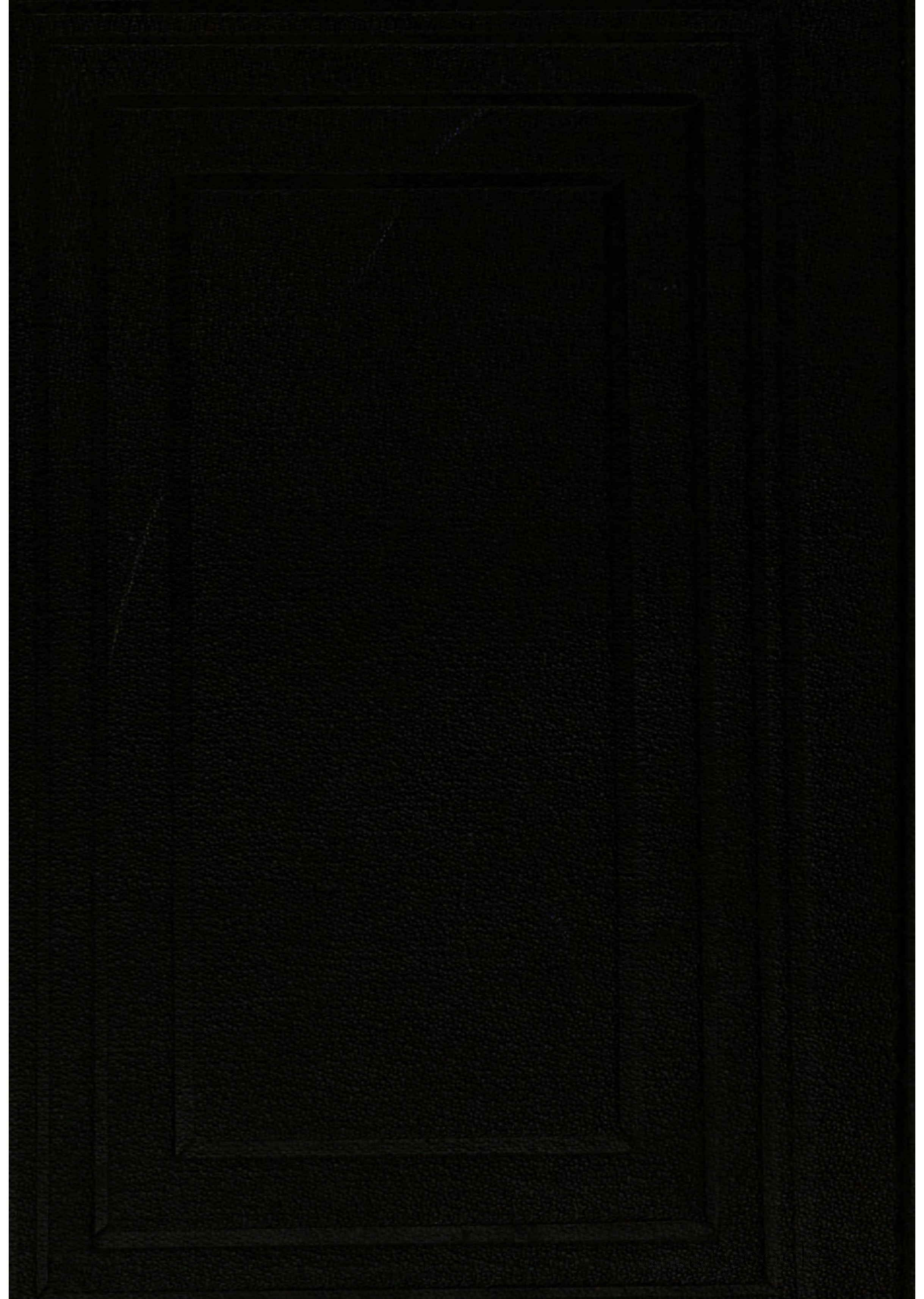



Princeton University Library
32101 076413796

بشارة تقلا باشا

١٨٥٣ - ١٩٠١

اقوال الجرائد — مراثي الشعراء

مختارات

من اقوال الفقيد المنشورة في الاهرام

طبع بمطبعة الاهرام بمصر سنة - ١٩٠٢



تقدمة الكتاب

يعزّ على قلبي الحزين ان يكون اول ما أخطه رثاءً لابي وتأبيناً لتلك النفس الطاهرة والاخلاق العالية التي سأبكيها مدى العمر . ولكنني اذكر مع ذلك ان عليّ واجباً ترتاحُ الى قضائه تلك الروحُ الشريفة وهو ان أتمم عملهُ بما يصل اليه جهدي على ضعفه وأرجو ان اقوم به حين يقوى عليه ساعدي ويتم لهُ تأهبي واستعدادي

وقد رأيت ان البر بفضلهِ والتحدث بنعمتهِ يقتضيان مني ان اجعل بين يدي محبيهِ ومريديهِ اثراً حسياً يذكرهم ما طالما اعجبوا به من آيات عقله الكبير وعمله الخطير فسألت الصديق المخلص خليل افندي مطران ان ينوب عني باداء هذا الفرض وجمع كتابٍ يخص قسما منه باقوال الصحف ومراثي الادباء والشعراء وقسما بنقل مختارات من مقالات ذلك العزيز منذ بدأ بالتوقيع على مكتوباته في الاهرام فأجابني الى طلبي ونظم هذا الكتاب بحيث يكون وافياً بالغرض على قدر ما يسعه ضيق المقام من تلك المطالب الواسعة

واني أجعله هدية برسم قراء الاهرام الكرام وأسديهم اعظم الثناء لمشاركتهم إيانا في الاسف على فقيدنا الجليل واشكر لخليل افندي مطران هذا الصنيع الذي هو برهان مجدد على صدق الاخاء وكرم الولاء والله اسأل ان يجعل ما اذكاه في قلبي من جمرة الحزن على والدي الحبيب برداً وسلاماً عليه في دار السكينة والنعيم

القاهرة في ١٥ يوليو سنة ١٩٠٢ جبريل بشاره تقلا

بشاره تقلا باشا

اكتب هذا الفصل ويكاد الحول يحول عليه منذ أودعناه في ذلك البلد البلقع . الذي يمرّ به الشجاع فيفزع .

ولقد زرته في تلك الدار الموحشة ووقفت تجاه ذلك الباب الموصد وقلت يابقية من تراب سحيق وعظم بال أعيدي عليَّ ذكر تلك الخلائق والخلال وحديث تلك الهمم والاعمال فقد كنت أيتها البقية هيكلاً وثاباً للمجد ولساناً داعيا الى الخير ناهياً عن الشر وقلباً خافقاً بالآمال الكبيرة بعيداً عن اليأس الذي هو مقتلة الافراد والامم وفكراً مائلاً مسمع الشرق ونظره اما الآن فانك قطعة من جمود . متحيرة الاجزاء بين ساب العدم وجذب الوجود .

تمهيد

اني أحاول بهذه المقدمة ان أصف فقيد الصحافة الشرقية في اعماله واخلاقه من بدء امره الى نهاية عمره اذكر جلها اقتضاباً واقلها إسهاباً ولو اردت استيفاء البيان لوجب عليَّ ان انقل من اقواله اضعاف هذا الذي نقلته مما يكاد يكون تحصيل قطرة عطر من حديقة زهر ولي في ذلك عذر فان ترجمة مثل فقيدنا العزيز لاتستوفى في صفحات معدودة ولعل الله يقيض نشر مذكراته يوماً من الايام فيتسع لوصفه ووصف عمله العظيم مجال الكلام

طفولته

كان مولده في قرية كفرشيما من قرى لبنان وهي بلدة مجاورة لبيروت مطلةٌ عليها من سفح الجبل قائمة بيوتاً منضودة من صعد الى صبب على جانبي وادٍ خصيبٍ نقيّ الهواء عذب الماء زاهي الخضرة ينسلُ فيه الآباء الاذكياء الاشداء ابناء اذكياء أشداء اكسبتهم وعورة الصخر بأساً وأنبت في قلوبهم جمال الطبيعة فطرة شعرية ودمثت اخلاقهم مجاورة المدينة وموالاة المعاملة بينهم وبين اهلها وربما علمهم ذلك الاناة والحيلة فهم عند الاقتضاء يرقون كلمس الحرير الذي يصطنعونهُ وعند المنافسة يصلبون صلابة الجبال التي يعيشون بينها

وكان في طفولته جريئاً متقحماً متقد المزاج إلا انهُ لم يشب عن الطوق حتى حدثته نفسه بأن يكون رجلاً مذكوراً بين قومه كما كان قبله افراد من بيت اليازجي ومن بيت الشميل سمع ماكان يتناقلهُ اهله من سيرهم ومناه الضمير بمجاراتهم فلهذا غلب قصده على طبعه فأكبَّ على الكتب يحبس فيها نظره الطامح الى الغايات البعيدة وضيق نطاق حركته على وسع المدرسة وهوَّن عليهِ تحمل استبداد المعلم ومشاكسة الاتراب وكانت تلك اول امارة من امارات مستقبلهِ الحسن

صباهُ ودخولهُ في الصحافة

فلما فرغ من تلقي الدروس الاولى لم يجد مالاً متوفراً بين يديهِ لامرٍ يقوم به في بلاده او رحلة يرحلها عنها فيأتي فيها مأتى عظيماً فانتهز اول

فرصة سنحت ودخل في مدرسة عين طوره يعلم ويتعلم وهناك اخذ من المادة ما وافق مشربه بمعنى انهُ اتقن الادب وشارك من العلوم فيه ما يكون لهُ معواناً على السلوك في مسالك الحياة .

وكان اذ ذاك عزمه يخفق فيه وهو مقيد كما يخفق البخار بالقاطرة المهيأة للسير فما دعاه اخوه المرحوم سليم وكان قد سبقه الى القطر المصري إلا وهو بجانبه لم يبطئ اغضاءة جفن فاصدرا الاهرام معاً وقد حدثني المترجم عن شأنهِ يومئذٍ قال « كنت اطوف على الناس صباحاً أَتعرفهم واعرض عليهم الجريدة وقل من كان يرضى بالاشتراك فيها إلا نفراً من الذين نصبوا انفسهم في منصب المحسنين الينا ثم اقصد احد منتديات القهوة فأول ما اطلبه جريدة اوربية أُطالعها واعرب اهم اخبارها ومقالاتها اذ لم يكن في وسعنا ان نشترك في جرائد غربيـة توفيراً فاذا فرغت من الترجمة أتيتُ الادارة ونظرت في حسابها من دخلٍ وخرج واشتغلت بالتصحيح وكتابة بعض الحوادث ثم جلست أعاون الفعلة على طي الاعداد وتهيئتها للتوزيع وكنت اتناول غدائي في الغالب وانا بين صحيفة اطويها ولقمة ازدردها . على انني كنت اشارف من وراء هذا العناء الجم اقبالاً ونجاحاً »

ومفاد هذه العبارة الاخيرة انه كان يرى في نفسـه من العزم والحزم ما يوصله الى يوم تستبدل فيه تلك المطبعة الهزيل البطيئة باثنتي عشرة مطبعة مختلفة الحجم متناسقة في قاعة رحيبة بقصر شاهق يدار اكثرها بنفس الغاز المحترق وتعمل فيها ادق المطبوعات وأجملها ويكون الصناع فيها نحو الستين من ذوى العيال الذين يرتزقون وتستبدل تلك الصحيفة الاسبوعية الصغيرة بجريدة يومية تكون عدة محرريها ومراسليها ووكلائها وحاسبيها مالا يقل عما

تقدم ويكون صاحب المقالة فيها خطيباً على منبر يسمعه الاكابر والاصاغر في داني البلاد وقاصيها ويجد المستصرخ فيها صدى لصراخه والظالم عقوبة لظلمه بالافشاء والتشهير

انشاؤه اول صحيفة يومية عربية

كان اذا رام غاية وشقت عليه وبعدت على منال سواه سعى اليها وتدبر وجوه ادراكها وسهر واستشار واستخدم كل ذي يد فيها ولم يتنكب الا وقد فاز بها . مثال ذلك انه اراد تحويل الجريدة من اسبوعية الى يومية فظن اصدقاؤه ذلك منه ضرباً من التهور وعده اقرب الناس اليه محالاً وابوا ان يساعدوه فيه فأصر على عزمه ولما جاء الموعد اخرج الاهرام يومية وكانت صغيرة الحجم جامعة من المباحث والاخبار ما نكاد نتبسم استخفافاً له اذا قابلناه بما نعهده اليوم ولكن ترتيب الجريدة كان بجملته اساساً للوضع الحسن الذي انتهت اليه الاهرام بعد ذلك بزمن يسير ثم جرت عليه جميع صحف الشرق بعدها . قال لي رحمه الله يوماً ونحن نتذاكر في هذا المعنى « وزعت الجريدة وتوزعت وراءها في كل مكان اسعى واقتضي وألح فكانت ثمرة ذلك العناء ان زاد عدد مشتركينا خمسة فقط فلما رأى ذلك ابر الناس بنا جزعوا وقالوا هذا اول الافلاس والسقوط غير اني لم احفل بالحاضر وانطلقت انتقل بين مصر والارياف واعرض بضاعتي بين ايدي الناس من كل طبقة وكنت كمن اتاهم ببدعة عجيبة فلم ارجع الا وقد ضمنت للجريدة اليومية البقاء ولم أبال السهر والجوع والعطش والسفر والحر والبرد »

جدّه

اذا اقترن الجِدّ بالجدّ فتلك سعادة الحياة الدنيا وهذا كان شأنه فانه كان لايجد سعادة الا في العمل وكان عمله مقروناً بالتوفيق وقد سمعته مراراً يقول « اني قلما نلت امنية لم اسع اليها سعياً حثيثاً ومع ذلك لم استبشر قط بشيءٍ اصبته بلا عناءٍ » فكأنه كان لايريد ادراك وطر الا جزاء عمل ليتم بهِ سروره ولعله كان مبالغاً في جده الى حد انه هو الذي اودى بهِ في النهاية فانهُ على اعتدالهِ في معيشته اراحة للجسم وتقوية له على تحمل المتاعب كان لا يمل ساعة او دقيقة من التدبير والتفكير والحسبانات حتى في اوقات الرياضة والتنزه وقد كان زمام طبعه بيده إلا في هذا الامر فان طبعه ظل متغلباً عليه الى النهاية ومن اعظم ادلة جده بل من غريب تنبهاته انه عند ماصحا صحوة الاحتضار في نحو الساعة الثانية بعد الظهر كان اول ما قالهُ « أبدأوا بطبع الجريدة » مع انه كان منذ عشرين يوماً ذاهلاً لا يعلم الزمن ولا يفتح عينيه لشيء . ولا جرم انه كان بهذا الجد منفرداً عن سائر الشرقيين ولو اقتدى به جمهور منهم بعض الاقتداء في فنون مختلفة لادركنا غاية النجاح

تدبيره

من اقوالهِ المأثورة « ان سوء التدبير ادعى الى الافلاس وتخريب البيوت العامرة من السرف المتجاوز حده بل هذا السرف انما هو نتيجة سوء التدبير »

وليس في الحقائق اثبت من هذه الكلمة ولكن الشرقي لا يفطر على التدبير ولا يربى عليه فهو فاقده خلقاً واكتساباً ولهذا لا يحسن القيام على المال ولا يجيد ادارة الاعمال إلا افراد شذوا عن القاعدة كالمترجم فانه كان لا تفوته شاردة ولا واردة من امره وامر بيته وامر عمله وكان ينظر في كل دقيق وجليل ويسير وكثير ويكره الخلط وتشويش النظام وتأخير الشيء من يوم الى يوم حتى انني لم اره قط ارجا عملاً عن الوقت الذي هو فيه الا ان يستحيل عليه في ذلك الوقت ولهذا كانت ادارته لا تضارع بنظامها واتقانها وكانت ثروته في نمو مستمر ودخل جريدته ومطبعته يربو على دخل مثلهما بسبب التدقيق في المراقبة وانفاذ كل عمل في حينه

نظمهُ ونثرهُ

قلما نظم ولكنه اجاد سبك القريض حين اراده وكان كلامه فيه حسن الاسلوب ينشف عن مزاولة قديمة ومن امثلة نظمه مرثيته لاخيه فمن راجعها رأى فيها من قوة التصور وشدة التأثير مايراه في ترسله . اما نثره فانه خطف برق وتدفق سيل من حيث السرعة ولكن قد تلتقي فيه الكلمة الجامعة باللفظة العامية وتحل البلاغة العبارة المرسلة على علاتها فتصلحها وتحليها وتحشر الحكمة العالية في اشارة موجزة تكاد احياناً تخفيها . وذلك لا لانه كان ينكر على اللفظ شأنه العظيم في العبارة ويقول كبعضهم ان كل ما ابلغ المراد الى الاذهان في الصحف اليومية فهو مقبول بل لانه كان ذا دالة على قرائه واكثرهم من عارفي قدره واصدقائه فكان يكتفي لديهم بعظم عمله عن عظم قوله ويستغني بجلال معناه عن جمال مبناه ومع ذلك فمن يطالع ماآثرنا

نقله من مقالاته في هذا الكتاب يرى انه كلما تأنق في الكتابة اجادها من كل وجه . على ان الناس لا يزالون يتناقلون الكثير من كلماته المأثورة التي كان يقولها في ختام بعض الحوادث الكبيرة فيلخصها بها تلخيصاً عجيباً .

معارفهُ

كان يعرف من اللغات العربية والفرنسوية مع مشاركة في الانكليزية وقد تعلم هذه اللغة مكتهلا وتوصل في زمنٍ يسير الى ادراك كل مايقرؤه فيها وفهم الحديث وابلاغ مقصده عند الحاجة . وكانت له من العلوم أساسيات مشتركة اهمها حقوق الدول وحقوق الافراد والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والحسابة بفنونها وانما كان تضلعه من هذه العلوم ليستعين بها على خدمته وقد احسن لانه بالتخصيص اتقن

مقدرتهُ الصحافية

شهد العدوُّ قبل الصديق انه كان صحافياً لا يشق له غبار في هذا المضمار ولم يبلغ هذه المرتبة يوم عظم مقامه وفتحت له جميع الابواب واصبح سمير الامير وصاحب الوزير وأليف الساسة الاجانب ولا يوم قابل السلاطين والملوك وعرف اساطين الدول في الغرب ولا يوم كثر مزاحموه ومناظروه ومناضلوه والناقمون عليه لفوزه مع انه اشتراه حلالا باعز ما ينفقه الانسان من عمره ويجود به من نفسه ونفيسه بل قبل ذلك بسنين يوم كان في مبدإ امره وكان سير الحوادث يدعوه الى تعرف الناس واحداً بعد الآخر وتنسم انباء كل واقعة من جماعة يجهلهم فكان يملأُ بما ياتي به اكبر قسم

من الجريدة ويتابعه ويفضله ويسابق به اكبر جرائد اوروبا حتى انني عند ماراجعت مجموعات الاهرام منذ سنيه الاولى لاختار منها المقالات التي في هذا الكتاب دهشت لما رأيت فيها من مقدمات احوال هذه الايام واسرارها ووقائع العاملين فيها فكأنني عشت هذه السنين الخمس والعشرين وأنا مجاور كل كبير في الحكومة او في التجارة من كبار مصر جاعل أذني في موضع سره ونظري في دائرة مسعاه ومطلبه وكنت استقري كل حادثة من بدئها الى نهايتها كأنني أقرأ قصة لذيذة وعندي ان المترجم بما اورده من الانباء المتسلسلة التي لم يقطع موردها عن القراء يوماً واحداً في ربع قرن لا يضارعه اخباري في الغرب فضلاً عن الشرق واذكر انني كنت لا ارى وائحاً او غادياً في مصر من شرقي او غربي وأسأله عنه إلا يوافيني بحديثه من مولده الى يومه الذي هو فيه وربما افاض في الشرح فذكر لي أناساً من أسرته وشيئاً مما امتازوا به في الخير او الشر. أفلم يكن جديراً بسبق كل مجار وهذا مبلغ علمه بالناس وأحوالهم

سياسته الداخلية

كانت سياسته الداخلية مصرية عثمانية وقد اراد في وصيته ان تستمر الجريدة على هذه الخطة وستابث عليها عملاً باشارته الى ماشاء الله . ومعنى هاتين الكلمتين على ما عرفه القراء من جماع كتاباته ان ينادى ابداً بان مصر يجب ان تكون للمصريين تحت سيادة الدولة العثمانية التي تكون لها بمثابة سياج مصر للمصريين — ذلك نداء طالعته في مقالاته ما ينيف على مئات من المرار وكان يجهر به ويعيده بلا ملل ويعيده كلما اشتدت الازمات وتكالبت

الحوادث على اضاعة هذه البلاد ثم يكرره كلما رأى من الامة غفلة او تغافلاً او استماتة وفي كل آن يرجع اليه بارادة اصدق وعقيدة اتم وسريرة اكثر اخلاصاً لانهُ كان لا يتصور كيف يقتل قوم في اعز شيء لديهم واكرمه عليهم ثم يرضون صاغرين صابرين

وغير خاف ما في هذه السياسة من الحكمة وصدق النظر فان مصر لا تقوى بغير الدولة العثمانية على مقاومة المطامع المحدقة بها بالنظر الى مركزها والدولة العلية بلا مصر لا ترجع ابداً الى ما كانت عليه من العزة والمنعة في البحر من حيث هي دولة بحرية متسعة الاطراف ولا تكون في امن على بلادها الشاسعة بأفريقيا من حيث هي دولة اقرب الى ان تكون استعمارية من كل مملكة سواها ولا تستتب لها سلطة الخلافة اذ ان المحتل في مصر مجاور للحرمين وادنى الى امتلاك زمامهما واضاعة امكن قوة بيد الخلافة

ولا ينكر احد ان اعظم عامل لتقريب مصر الى الدولة العلية وتوثيق العرى بينهما وتوطيد احداهما بالاخرى انما كان هو وكان بذلك منفرداً ايام استحكام الجفاء بين الاستانة والقاهرة بسبب العبث الذي عبثه بعض كبار السلطنة بمصر في خلال الفتنة العرابية حيث كانوا آناً مع السلطة الشرعية المحفوفة بالخطر وآناً مع السلطة المعتدية الغاصبة وحيناً يعدون بارسال الجنود لاخماد الفتنة وحيناً يعدلون عنه الى ان تمكن في خلال ذلك الاجنبي من الدخول الى القطر والسريان مع دمه في عروقه . كل ذلك احدث موجدة بين التابع والمتبوع ولكن المترجم مع انه طالب كل المطالبة بانفاذ العساكر العثمانية الى مصر وندد ما ندد في تردد الساسة العثمانيين ابث في موقف الرجاء لعل الحاضر او الآتي يصلح الماضي

وكان ابداً يعود الى ذكر الدولة العليـة ويتقاضى لها حقوقها ويحضها مرة على ارسال جيشٍ الى السودان ومرة على محالفة دولة او دولتين في سبيل استرجاع مصر حتى اذا اعيته الوسائل لم يجد الا الرابطة الاسلامية وسيلة للتقرب وقد ادرك ذلك سمو الامير الحالي فجرى عليه

وغير خافٍ ماتحمله من صنوف الملام في دفاعه عن تركيا من المصريين ومن سواهم فلم يحفل بكل مايمسه بل كان نصب عينيه ان لااصلاح يرجى الا ومصر والدولة العلية على اتحاد ووفاق

ولا يسعني في هذه الاسطر القليلة ان آتي على عشر معشار مافعله وما كتبه في هذا السبيل وان من ذلك في مجموعات الاهرام كلها وخصوصاً من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٨٥ لمجلدات ضخمة اذ ان مدار الكتابة اليومية في اعظم قسم من الجريدة كان على هذا المحور سواء كان المترجم في مصر يسعى ويقابل ويناضل ويكتب او في باريس ولندره وبرلين وفينا والاستانة حتى وفي العواصم الاوروبية الصغرى يسعى ويقابل ويناضل ويكتب

ولقد خصصت آنفاً بالذكر ثلاث سنين ارى ان ملخصها كان في سنة ١٨٨٤ وهي السنة التي عقد فيها مؤتمر لندره فسافر اليها ليحضره ودعا جمهور اعيان مصر وكبارها ونوابها لانتهاز هذه الفرصة وحمل حجتهم على الاحتلال الى ذلك المؤتمر فلم يجبه أحد . ومن طالع اعداد تلك السنة من الاهرام قضى عجباً مما يراه من آثار تلك المساعي الجسام بين ذهاب واياب ومناقشات وخطب وكتب ومقارعات في الجرائد الاوروبية الى آخر ماهنالك مما اوردنا شيئاً قليلاً منه في هذا الكتاب اكتفاء به للدلالة على الباقي

على ان تلك السنة كانت السنة الذهبية للاهرام وهي التي فيها أهديت الى

صاحبيها الساعتان المرصعتان من وجوه الامة ومعتمديها وهي التي حاربت فيها الحكومة المصرية الاهرام محاربة الخصيم للخصيم ثم انجلت الموقعة عن حضور نفس المأمورين الذين اقفلوا المطبعة الى الباب الذي اوصدوه وختموه وفتحهم اياه باليد بعد الاعتذار والترضية الرسمية لقنصلية فرنسا من قبل رئيس الحكومة المصرية بالذات وكان يومئذ نوبار باشا الذي لايخفى دهاؤه وهي التي جلست فيها الاهرام على قاعدتها الثابتة التي لاتزعزعها الايام وأصبحت بعدها عن ثقة لسان الضعيف والمظلوم سواء كان الامة بجذافيرها او اي فرد من افرادها وهي التي بلغت فيها شهرة الفقيد اوجها الذي استقرت فيه بعد ذلك بلا نزاع ولا مناظرة

سياستهُ الخارجية

اوردنا في عرض هذا الكتاب شيئاً يسيراً جداً من اقواله في السياسة العامة وكان لهُ فيها اوسع باع واصدق نظر بدليل ماتراه في بعض منقولات هذا السفر من الامور التي اشار اليها فوقعت والتي شرحها على حقائقها فلم تزد الايام تلك الحقائق الا ثبوتاً ووضوحاً . وانك لتنظر فيما نقلناه من اقواله ما يشير قبل الاوان بزمن طويل الى التحالف الفرنسوي الروسي والى التقرب الفرنسوي الايطالي والى الاتفاق الانكليزي الياباني والى كثير من امثال هذه الحوادث الجسيمة التي دلهُ على ضرورة وقوعها صفاء ذهنه وتوقد ذكائه وتتبعه سير السياسة بعين يقظان وفكر فطن

وكان في سياسته الخارجية يميل خاصة الى فرنسا وذلك لعدة اسباب جوهرية ذاتية وعامة فأما الاسباب الذاتية فهي ان فرنسا حمتهُ من اسمعيل باشا ايام سجنه وكان على وشك ان يأمر بقتله في خبر مشهور وانه كان عارفاً

بلغتها مطالعاً نكتب أدبائها وخطبائها وعلمائها ذا صلة مع اكابرها من الرئيس الى ادنى ذي منصب مرموق بباريس . وأما الاسباب العامة فهي انه وجد الخطة التي جرت عليها فرنسا من قديم الازل وفق مرامه من حيث صداقتها التاريخية للاستانة وانه رآها المناظرة الحلى للدولة الانكليزية في مصر لا بالنظر الى مصالحها فيها فقط بل فيما وراء الترعة وهي مصالح جسيمة لا يهون عليها التخلي عنها

على اننا قد رأينا بالفعل ان فرنسا اهتمت بمصر كل الاهتمام الى ان كان ما كان من مسألة فشوده وفشلها فيها ولكن فشلها لا ينفي انها طالبت بحقنا عنا اكثر مما طالبنا به نحن عن انفسنا وانها بذات جهدها وبثت فينا روح التقاضي لحقنا المهضوم وهو ما سيدرك قيمته ابناؤنا ان لم ندركه اليوم وفي الجملة فانها فعلت ما استطاعت اليه سبيلاً حتى اوشكت الحرب ان تنشب بينها وبين انكلترا فأحجمت وصانت بذلك اساطيلها وقوتها الى ان يأتي يوم يكون فيه الدهر مصافياً لها اكثر مما كان مصافياً في ذلك الوقت فرنسا من اجل هذا جديرة بشكرنا لا بشماتتنا وصداقتنا لها قد لا تخلو من فائدة كبيرة في المستقبل كما لم تخل منها في الماضي وهذا فيما أظن رأي جمهور العقلاء وكان رأي المترجم

نقده

كان مذهبه في النقد مذهب الفريق الذي يجعله مؤلماً غير مؤذٍ ولم يحمل حملة شعواء الا على الذين استفزوه وأحرجوه احراجاً ذاتياً وله على هؤلاء حملات لا ينساها معاصروه ولا مراجعو الاهرام من بعدهم. على انه

كان لايمضي عليه يوم بلا انتقاد عمل غير مستحسن لحاكم او محكوم وكان يوجه اكثر كلامه الى الجماعات فاذا وجهه الى فردٍ فلانه يكون في مقام جمع وربما طيب نقده بملح مستلطفة كما فعل يوماً في رسالة برقية اورد بها خبر ناظر لجأ الى جريدة النيل ليدافع بها عن نفسه من انتقاد الاهرام فقال ان ذلك الناظر لما يئس ان يبرأ لدى الناس من الوصمة التي وصم بها دفعته الحمية فألقى بنفسه في النيل ... واذكر ان الناس ضحكت من ذلك اياماً وليس في الاسلحة امضى من هذا السلاح لاذلال خصم عنيد قدير اذا احسن الكاتب اعماله

أخلاقه

كان بشهادة عارفيه وتزكية آثاره

جريئاً يتقدم ولا يتهجم

فصيحاً اذا اجتمع القوم فهو الذي يتصدر ويتكلم

صريحاً لايخفي رأيه ولو كدر سامعه

حراً يأبى الضيم والذل

حليما يرضى على اثر الغضب ويعفو حين يقتدر

رقيق القلب يستمال ويستبكي ويستفز للاعانة

كريماً ينزل الاحسان في محله ويبذله خفياً حتى عن اهله ولا يضن بسعيه وجهده على قاصد

باراً بقرينته الفاضلة الكاملة وبابنه النجيب الحبيب براً لايجاريه فيه احد ولهذا كان من اسعد الناس في بيته

وكان مع ذلك دمث الطبع حسن العشرة كارهاً للزهو والخيلاء شديد الثقة بمن يصطفيه لطيفاً بعماله محسناً اليهم مضافراً لهم في الشدائد مستقيم المعاملة عدو المماطلة

خطبُ الأُمتين فيهِ

لهذا عظم فيهِ خطبُ الامتين المصرية والسورية وبكتاهُ ووفتاه حقه من التأبين بألسنة فصحائهما وأقلام أدبائهما واشتركتا في مناحته اشتراكاً لم يسبق لهُ مثيل . لانهما كما قال الاخ شوقي قد فقدتا رجلاً والرجال قليلُ

وداعُ الصديق

فيا أيها الحبيب الذي تبدد جسمه عن روحه . كما يتفتق الطيب عن ريحه . وانحلت هيولاه عن فكره كما تحل الظلمة عن النور . والخفاء عن الظهور . اما الآن وقد ذكرت من شأنك على كبره مقدار ما سمح به تقصيري . ووضحت دون وفائه معاذيري . فاني استودعك الله متسلياً بأثرك عن العين . متاسياً برسمك في الفكر عن رسمك في العين . حريصاً ابداً على ودك . أميناً الى آخر النسمات على عهدك

(خليل مطران)



قالت جريدة الاهرام تحت عنوان



وهول المصاب بفقده

ليست الصاعقة تنقض على الرؤوس فتطير منها النفوس شعاعاً ولا السهام تمزق الاكباد وترسلها فضاضاً . ولا الكوارث تفطر القلوب وتذيب المهج. ولا النوائب تفتت الاكباد وتشق الصدور . باعظم فتكاً واشد هولاً واقسى يداً واصلب قلباً من خطب جليل حلَّ بنا فارتعدت لهُ اعصاب البلاد ومصاب عظيم انقض علينا فاربد لهُ وجه الشرق ورزءٍ اليم رزئنا بهِ فبكت لهُ الاقلام وقد اسود يومها وتلهفت الصحافة وقد عظم رزؤها وتجهمت المروءة وقد ثكلت بعميدها وهلع لاجله قلب النشاط والهمة وقد دهمت بوحيدها شيخ الصحافة

علم الوطنية رب الاقدام والعزم وعنوان الفضل والحزم فقيدنا الكريم ورئيسنا العظيم منشيء الاهرام ومديرها وواضع اساس الصحافة في الشرق ومنيرها رافع علم الوطنية بين اهوال الجهاد ومحكم رباط الجامعة الامية بين زعازع الاهواء وشدائد الاضطهاد من نبكيه اليوم بعبرات تقل ولو كانت دم الفؤاد ومن تجف اقلامنا وتجف محابرنا دون ايفائه حقه من التأبين والرثاء الذاهب الى ربه بجبهة ناضرة وعين ناظرة وحسنات كثيرة ومبرات وفيرة . الخالد الاثر والفضل السابق الى كل غاية من المجد والنبل

بشارة تقلا باشا

فاضت روحه الطيبة الى ربها في الساعة الثانية والدقيقة ٣٥ بعد منتصف ليلة الجمعة

فاظلمت البلاد واورثتها مصيبتهُ المجللة اعتلالا

« وباتت مصر يرجف جانباها » لركن العزّ حين هوى فمالا

فان يعلُ البلاد بهِ خشوعٌ فقد كانت تطول بهِ اختيالا

مضى الى ربهِ بعد ٢٤ يوماً من اعتلالهِ ولم تدفع عنهُ القدر المحتوم عناية قرينة فاضلة ما عرف جفنها مع دائهِ الكرى ولا غرارا تسهر عليهِ مع النجوم الساهرات وتعطف وتحنو عليه حنو الجسد على الروح ولا تطيق مفارقة فراشهِ وتحويل نظرها عن مضجعه بل لم تدفع عنه منيته حيل الاطباء وقد حاروا في دائهِ ودوائهِ بل لم ترد عن قلوبنا هذا السهم النافذ ادعية الامة

الطائفة بسريره وامانيها الحائمة فوق جسده وكان فقيدنا العزيز العظيم في دائه كما كان في صحته ثابت الجاش والعزم والقوة والجلد والصبر يغالب الآلام فلا يشكو ألماً ويكافح السقام فلا يظهر مضضاً وكان اذا خفت وطأة الداء عن صدره ينظر الى من يحيط به نظرة الظافر بعدوه فيرسل اليه ابتسامة او كلمة تفرج عن صدورنا المتحرجة ونفوسنا المنقبضة فتزف بشرى راحته الى الامة فتشاطرنا المسرة بها كأن انبساطاً في وجهه وصدره ابتسامة في ثغر هذه الامة الكريمة التي تعرف فضله وصادق خدمته باعتنائها به وبعرفانها قدره وبدعائها له وتمنيها شفاءه من امرائها الى عامتها بل كأن تلك الابتسامة تنصب قطرة على قلوبنا المتحرقة ونفوسنا المتلهبة فتبرد تباريح القلق والاضطراب وكانت الرسائل والسؤال عن صحته وتقلبات مرضه في اطواره والجواب عليها شغل الادارة باجمعها ولم نقدر على القيام بذلك حتى اضطررنا الى الاعتذار الى المحبين وهم الامة كلها . وما عرف اخواننا ارباب الصحافة والاقلام شدة الداء حتى اظهروا كل عناية واهتمام فكانوا وهم في ابان اعمالهم يرسلون السائلين تباعاً وابان الفراغ يأتون عواداً فما كنا نرى وجهة في قلب فقيدنا الكريم إلا وهي وجهة في كل قلب

وقد كان والاوصاب تنحل جسده يشغله عنها شاغلان ولده الوحيد وتربيته والوقوف على اعماله وتقدمه في العلم والادب ثم الاهرام وسيرها وما تخدم به الامة من مبحث مفيد ورأي سديد الى ان استفاق صبيحة الخميس الماضي ورئيس تحرير الاهرام الى جانب فراشه فقال له « كيف الاهرام » فاجابه على ما تشتهي لا هم لها غير شفائك فقال — وهي ما نعهدها الى الابد وصيته للاهرام وارادته في حياتها — « تحروا المباحث المفيدة للامة ولا تخشوا في الخدمة

الصحيحة والحقيقة المفيدة احدًا واجتنبوا المثالب واسكتوا عن المطاعن ولو كانت عليّ » ثم نظر الى ولده وقبله وقال « لماذا انت هنا ولست في المدرسة » فاجابهُ « اني اليوم في عطلة الخميس » فقال « اذهب وادرس والله يحرسك » ثم نظر الى قرينته الفاضلة وعيناها الساكبتان الآن الدمعة الحرى عليه تبرقان مسرة بهِ وقال لها اتعبتك ايتها العزيزة فجزاكِ الله خيرًا عني » وسأل الطبيب عن صحته فقال لهُ « انك تتقدم الى الشفاء باذن الله » فقال « وهل انهض لاعمالي بعد اربعة ايام » ثم نظر الى اخيه وقال « انتَ هنا » والى والدته وسألها عن صحتها وهكذا كان يحدث الاقرباء والانسباء الذين دخلوا حجرته فرقصت قلوبنا فرحاً بشفائهِ وبشرنا الاطباء بالتحسن الكبير والشفاء القريب ولكن الحمى عاودته في المساء وفي صبيحة يوم الجمعة بدت على وجهه الشاحب دلائل التعب ثم اخذت الحمى بالارتفاع والاطباء الخمسة يكافحونها ولا يقوون على مدافعتها بل لا يقوون على دفع المنون المستكنة في طياتها فهلعت قلوبنا ووجفت وظللنا بين مخالب اليأس وبارقة الرجاء الى ان فاضت روحه الطيبة ولم يبقَ لنا من الرجاء الّا ان نقول

ذهب الحبيب فيا حشاشة ذوبي اسفاً عليهِ ويا دموع اجيبي

وقبل ان ينبلج وجه الصباح عن ذاك اليوم المشؤوم الطالع طار نعيه في العاصمة فاصطكت المسامع وشقت الاضالع وسحت المدامع واعتقلت الالسنة وذكت القلوب وذابت الاكباد وتحرقت الضلوع وهلعت النفوس لموت من كان يتقد حمية ويترقرق حياء وتفيض أخلاقه كرماً وأقلامه حكمة وحكماً ويداه مبرات وراحته حسنات لا يعرف الراحة الا في العمل ولا اللذة الا في الخدمة ولا خدمة الا بفائدة الوطن فلم يشغل ساعة من عمره الا في هذا السبيل وفي كل اثر جليل حتى خلد في الاهرام أثرًا يبقى ما بقيت الاهرام ويظل غرة في جبين الايام واذا

سئل عن حسناته عدّ منها ولا تعد واذا سئل عن سيئاته اعيي المجيب الا قوله
حياة فضل ومجد ونفع وفضيلة ومبرات وحسنات وجد

فكأن الثامنة والاربعين وهي عمره كله مئات يجمعها من آثار فضله ما لا تجمعه المئون من مآثر غيره وكأن تاريخ حياته مدرسة لنا — كما قال وقوله الحكمة البحتة « ان حياة السلف مدرسة للخلف » وقوله في اول فصل كتبه في الاهرام بتوقيعه « ان نقطة الدائرة في كل عمل ان يعرف الانسان ماذا يريد وما لديه وما يستطيع » فكان ذلك عنوان حياته حتى مماته .

بل كيف نسطر في قليل من السطور مآثره في ستة وعشرين عاماً ومنها على صفحات الاهرام وحدها كل يوم آثار فلسنا اذاً نفيه حقه اذا طمعنا في عد مناقبه ولكننا نخفف بهذه الكلمات ما وقر على القلب من هول المصاب به اذ بالماعنا الى اعماله الخالدة ومناقبه الشريفة نبرد شيئاً من حرّ الاحزان وان ما نراه في الامة من استعظام المصاب بهِ يعلمنا ان المرء ولو ميتاً يعيش بآثاره وعمله فكل منا يقول لفقيدنا العزيز

وكانت في حيوتك لي عظاتٌ وانت اليوم اوعظ منكَ حياً

فيا ايها الراحل عنا وقد كنت فينا الركن الركين لقد ثلمت بوفاتك حدّ الهمة والنشاط ودككت برحيلك طود المكارم والفضل واخرست ببينك اصوات الحق ويا راحلاً عنا مودعاً بالافئدة والقلوب لقد خلفت لنا مع فضلك الباهر وادبك الزاهر شجناً مدمياً وحزناً مضنياً فلئن غاب بدرك عنا افلاً فما زال سنا نورك بيننا كاملاً شاملاً فانت تغيب عنا كما يغيب والد الصغير فينا وأخ الكبير منا ومغيث ضعيفنا ومسدد خطواتنا وانما نحن نصبر النفس بما نستنير بهِ من سابق ارائك وكريم صفاتك نستعين بذلك على مواصلة العمل وخدمة اهرامك بالحق

والصدق فبمثل هذا نرضيك وانت في جوّ الآخرة ترقبنا عيناك ويرمقنا ناظراك فسامحنا على التقصير عن ايفائك حقك على صدر اهرامك المصدوعة الفؤاد فانما فضلك ظاهر بعد رحيلك ومبسوط بعد وفاتك في جوّ البلاد وعلى صدور العباد

تحرير الاهرام

مشهد الفقيد

ما ازف اصيل السبت ودنت الساعة الرابعة بعد الظهر حتى غصت الدار بعيون القوم وصدور البلاد وخفقت القلوب وانحبست الانفاس وسكتت الالسنة وساد الخشوع بين الجموع ثم أقبل على الفقيد الآل والاقرباء وهم يحترقون حزناً ويذوبون دمعاً واكبوا عليه وقبلوه القبلات الاخيرة وفيها من اللهف والحرارة ما يعيد الحياة ويرد الارواح الى الاجسام الهامدة لو كانت الحياة تعاد والارواح ترد. ثم دخل المحررون والكتاب وعمال الادارة فتودعوا بنظرة من ذاك الرجل الذي كان لهم في المقام رئيساً كبيراً وفي الحقيقة أباً غيوراً . ثم افسحوا لسائر الاصدقاء والاحباء ولما انثنوا عن ذاك الموقف المهيب والمشهد المؤلم علت النغمات الدينية بما فيها من الهيبة والوقار مؤذنة بنقل الفقيد من المرقد الزمني الى المرقد الابدي فرفع النعش وفي النعش الهمة والجد والنشاط والاقدام ووضع على مركبة فاخرة تجرها ستة من الجياد ووضعت عليه الملابس الرسمية لرتبة رومللي بكاربك ثم سارت المركبة بالنعش تحيط به الانظار الخاشعة وتحوم حوله القلوب الجازعة

ويتقدمه بساطان للرحمة بين ايدي ثمانية من علية القوم وهم اصحاب السعادة محمود باشا شكري رئيس القلم التركي الخديوي سابقاً وقليني باشا فهمي مدير الاموال غير المقررة والمسيو جورج عيد قنصل البلجيك والمسيو قصيري كنشلير قنصلية فرنسا في العاصمة والدكتور يعقوب افندي صروف احد اصحاب المقطم والمحاميان الشهيران نقولا بك توما والمسيو بريفا وعزتلو طوبيا بك كامل مراقب الاموال المقررة في نظارة المالية فكان اجتماع هؤلاء الاماثل على اختلاف المهن والاجناس كاشارة الى اشتراك جميع الملل والنحل في الاسف والكآبة على فقيدنا الكريم

ويلي البساطين نياشين الفقيد ثم سيادة المطران اثناسيوس ناصر الذي قدم خصيصاً من الاسكندرية للصلوة على الفقيد واثيف من كهنة جميع الطوائف الكاثوليكية ويتيمات الراهبات اليوسفيات وشرذمة من مشاة البوليس وكوكبة من الفرسان

ثمَّ مشى وراء النعش نجل الفقيد صاحب امتياز هذه الجريدة فكان يجتذب القلوب ويسترقّ العواطف لان المحبين كانوا يؤملون ان يروه ماشياً في الحفلة الاولى الى جانب ابيه في الاعمال العظيمة لا في تشييع جنازته . ومشى ايضاً الى جانبه حضرة شقيق الفقيد عزتلو حبيب بك نقلا وسائر ذويه من الآل والمحررين

وكان في صدر الجموع المشيعة حضرة صاحب العزة علي بك كامل الموفد خصيصاً من قبل اميرنا ومولانا الخديوي المعظم — حفظه الله — فاضاف حضوره الى الموكب هيبة على هيبة بما نقل من عواطف الامير السامية وما حمل من دلائل تعطفه العالي . اما ارباب المراتب العالية وعديد الوجهاء والاعيان الذين شهدوا خروج النعش فكثير ما هم والذاكرة تخوننا في تعدادهم كلهم على اننا نذكر

منهم جناب المسيو لكونت متولي اعمال الوكالة الفرنساوية والمسيو برتران قنصل فرنسا في العاصمة والمسيو جورج عيد قنصل البلجيك والمسيو لويس العضو الفرنسوي في صندوق الدين وغيرهم من القناصل وموظفي القنصليات . وسعادة اسماعيل باشا صبري وكيل نظارة الحقانية وسعادة يعقوب باشا ارتين وكيل نظارة المعارف وكثيرين من الباشوات وارباب المقامات واصحاب جميع الجرائد اليومية والاسبوعية ونخبة من كبار المحامين والاطباء والماليين والتجار من وطنيين واجانب

في ذاك الموكب زايل فقيدنا داره للمرة الاخيرة تاركاً قرينة فاضلة لم يفارقها من قبل الا ليعود اليها بمزيد الجاه ورفيع القدر وبعيد الذكر . ونائياً أبد الدهر عن أم ثكلى لم تكن تصبر على فرقة شهر . ومخلفاً جريدتين لم تبرحا خاطره طرفة عين بل ظلتا موضع عنايته حتى لفظ الانفاس الاخيرة وفارق الدنيا

ومرَّ موكب الجنازة على الترتيب الآنف الذكر في شارع عابدين فميدان الاوبرا فشارع كامل فشارع وجه البركة والنظام تام والجموع الجميعة محتشدة الى اليمين والشمال والكل سكوت لا تنفتح افواههم الا لذكر منقبة من مناقب الفقيد والارض كأنها تلين تحت النعش حتى لا تقلق راحلاً كريماً بذل دماء القلب وسواد العين في خدمة هذه الديار ولما وصل الموكب الى الكنيسة الرضوانية في قنطرة الدكة صلى على الفقيد سيادة المطران أثناسيوس ناصر واقيف الكهنة ثم سير بالنعش الى مدفن الروم الكاثوليك بمصر العتيقة يشيعه عدد عديد في نحو مئة مركبة من بيتية ومأجورة فصليت عليه الصلاة الاخيرة في حضرة الجمع . ثم وقف حضرة يوسف افندي البستاني المحرر في جريدتنا يسكب دمعة الوداع ويقول الكلمة الاخيرة بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن اخوانه المحررين وموظفي الاهرام فقال ما خلاصته

أيها الفقيد الكريم والراحل العزيز . لا أريد الآن ان ابسط تاريخ حياتك الذي ملأته بالمآثر والمفاخر ولا ان اعدد اعمالك الجليلة واياديك الجزيلة وانما اريد ان اقول كلمة وداع بالاصالة عن نفسي والنيابة عن اخواني وزملائي الذين يلتفون حولك الآن وأنت جثة باردة هامدة كما كانوا يلتفون حولك وأنت ممتلئ من الحياة . أريد ان أودع النشاط الذي كان يبعث باشعته الى كل صوب ويستنهض فينا الهمم ويشدد العزائم . أريد أن أودع الهمة التي كانت مصر تضيق عنها . بل أبغي ان أودع هماماً تسري عن يده انوار ادبية منذ بضعة وعشرين عاماً ورجلاً عصامياً ارتقى الى اسمى المراتب وليس له عضد ولا سند سوى جده وكده وركناً أدبياً ربى الصحافة طفلة حتى شبت وترعرعت . لا بل أود ان اودع اباً غيوراً ووطنياً كبيراً

ثم أود ان أقول كلمة حق فوق رأسك وأنت لا تحابي ولا تجامل ولا يمكن التزلف اليك وهي انك لم تطلب الينا ان نكتب كلمة او نخط حرفاً سحابة المدة التي كنا فيها مهبط آرائك ومستودع افكارك الا اذا كنت معتقداً ان قولك حق وصدق — وحسب المرء الاعتقاد السليم — ولقد عرفت الامة مقامك ودلتنا على معرفتها جميلك بما اظهرته من الميل اليك والاهتمام بك ابان مرضك وبما شملها من الاسف عليك بعد ان فجعنا الدهر بفقدك

فتقبل منا وداعاً أخيراً يا من كنت لنا اباً غيوراً فاننا لا نرى بعد اليوم عينيك البراقتين ولا ثغرك البسام ولا وجهك الطلق الصبوح ولن نراك ذاهباً آيباً تحمل الينا من الاخبار كل ما فيه خير للمصلحة العامة التي مت وأنت تجاهد في سبيلها

فانا نودعك الآن باسم الاهرام التي سألتنا عنها وأنت في حالة النزع والاحتضار . نودعك باسم المروءة التي كنت تظهرها لنا . نودعك باسم الحزم والعزم والنشاط والهمة التي تمثلها لنفوسنا عبرة وتبصرة وقدوة

أما أنتم ايها الاخوان فتودعوا بنظرة اخيرة من هذا الطود الذي اندك والركن الذي انهدم والمصباح الذي انطفأ ثم واروا في قيد ذراع الرجل الذي لم تكن البلاد تسع نشاطه . الرجل الذي كنا نلقبه بالحركة الدائمة فاصبح الآن جثة هامدة

ثم تلاه المسيو بول مانس رئيس تحرير البيراميد فودع الفقيد بالاصالة عن نفسه والنيابة عن محرري البيراميد وعماله

ثم تكلم العالم الفاضل نقولا بك توما وكانت علائم الحزن الشديد بادية على وجهه وكان صوته الرنان يتهدج من الجزع والالم فارتجل تأبيناً مسهباً وقع اشد الوقع في النفوس لما تضمنه من الحقائق الباهرة في وصف الفقيد وهذا محصل خطابه

ايها السادة

آل اليَّ ان اقف هذا الموقف بينكم والاسف ملء فؤادي فان الرجل الذي اجتمعنا اليوم لوداعه كان مقدامنا في جلائل الامور ومقدمنا الذي نفاخر بنبله وفضله وكان لي خاصة صديقاً حميماً فانا الآن ابكي منهُ الصفي الكريم واؤبن العميد العظيم

ولد هذا الفقيد سنة ١٨٥٢ في قرية كفرشيما من ابوين كريمين فلما شب وتأدب ورأى مجال الشرق ضيقاً على مطمح نظره حدثته نفسه الكبيرة بالرحيل الى بلد يرحب بعزمه فجاء هو واخوه المرحوم سليم الى القطر المصري

واسسا فيه جريدة الاهرام وعانيا ما عانياه من المشاق في سبيل انجاحها فادركا الغاية ولكن بعد مكافحة تقصر دونها همم الرجال وتعجز عنها عزائم الابطال في ميادين النزال

وكان جديراً بالفقيد ان يختار هذا الاسم لجريدته وقد قلب نظره فلم يجد شيئاً ادل على ارادته الثابتة مع تداول الايام وعزمه الراسخ على تناوب العوادي من هذه الجبال المصنوعة التي تحار العقول في متانتها وجلالها

ولا يسعني المقام ايها السادة ان اذكر لكم ترجمة الفقيد تفصيلاً على انكم تعلمونها جميعاً ولكنني الخص من نتيجة حياته تاريخين يصحان قدوة للمقتدي وعبرة للمعتبر

التاريخ الاول وهو الصغير ان سليم وبشاره تقلا لما افلح عملهما واجتمع لديهما من المال ما يربو على حاجة الجريدة كان اول ما فكرا به ان يبرا بابيهما في شرفه وسمعته وهو احسن ما يظهر به بر الابناء الطاهري الاعراق بالآباء الذين نكبهم الدهر في اموالهم وذلك ان اباهما كان يتجر فربح وخسر كما هو شأن المتجرين ثم تغلبت عوادي الايام على نزاهة مقاصده فخرج من تجارته وقد خسر وبقي عليه مال لم تكن له حيلة في وفائه فرأى ابناه المشار اليهما وهما غير مديونين ولا مكلفين ان يفيا ذلك المال وان يظهرا بالفعل ما كان في ضمير ابيهما بالنية

هذا هو التاريخ الصغير الذي يدل على ما كان الفقيد عليه من خلق الاستقامة

واما التاريخ الكبير فهو تاريخ جده وكفاحه وناهيك بهما من جد وكفاح لم يجاره بهما احد

فقد كان الفقيد حين دخوله في معمان الحيوة وذلك منذ ربع قرن في زمن متأصلة فيهِ التقاليد مشيدة فيه البيوتات ثابت فيهِ اعتقاد الناس بان الغنى والجاه هبة من الله خصت بها اسر تتوارثها وانه لا مطمع لاحد من اهل طبقة دون هذه الطبقة ان يصل اليها

ولكن بشارة تقلا بما فطر عليه من صحة النظر في الامور الاجتماعية ادرك خطأ هذا الرأي وعمل على تقويضه في طلب المعالي فبعد ان كان لا يجلس في مجلس شيخ القرية الا وهو محتشم توصل الى مواجهة اكابر السلاطين والملوك ومحادثة الامراء واتخاذ اصدقاء من الوزراء والسفراء وفتح بتقدمه هذا باب النجاح رحيباً لطالبيه فتبعه جمهور من ذوي الهمم والاراء والعلم وان لم يبلغوا شأوه فقد جروا شوطاً بعيداً في ميدان الارتقاء وكان الفضل في ذلك عائداً اليهِ

هذا هو الركن الاول من ركني عمله الاجتماعي اما الركن الثاني فهو انه أول من أقدم في الشرق على بث فكره . وبقطع النظر عما كان ذلك الفكر فان اذاعة ما في الضمير كان أمراً كبيراً في ذلك الوقت الذي لم يكن اكابر الناس فيهِ يتسامحون بغير التحدث همساً بما يدور في خلدهم ولا سيما في مؤاخذة الحكام والشكوى من المغارم والمظالم

اما الآن فقد أصبح بث الفكر شيئاً مألوفاً وتعددت الصحف وكثر مذيعو الآراء ومقررو المبادىء المختلفة ومنتقدو الاحكام والحكام وطلاب الحقائق آلمت من آلمت والمدافعون عن المهضوم والمطالبون بحق الضعيف ولا يكاد الانسان يتفطن لما كان يحول دون ذلك منذ خمس وعشرين سنة من

المشاق والمخاوف فالفضل في هذه الخطوة الواسعة التي خطوناها الى الامام انما مرجعه الى هذا الفقيد .

وفي اعتقادي ان ذكره سيكون خالداً وستردده الالسنة والقلوب كلما ذكر الجد واربابه وكلما ذكرت حرية الضمير ورافعو لوائها في اطراف الارض

واعظم بهِ جزاء للفقيد وفخراً واعظم بسيرته قدوة لكل مجتهد ماضي الهمة طالب للمعالي بالسعي الحق والاستقامة

وعندما وصل الخطيب الى ختام موضوعه هذا التفت الى نجل الفقيد وشقيقه الاسيفين وعزاهما بارق عبارة والطف اشارة وعزى قرينته ووالدته الثاكلتين بما يلطف الشجن ويخفف الحزن

ثم اتجه نحو النعش وخاطب لآخر مرة صديقه الراحل فودعه وداع الاخاء الصادق والحب الشديد والاحترام الاكيد وكانت لكلمته الاخيرة رنة اسف رددت صداها القلوب بين الضلوع وجرت على اثرها سيول من الدموع

وعلمنا انه كان في نية بعض الافاضل الآخرين ان يؤبنوا الفقيد فحال ضيق الوقت دون مرادهم

ولما انقضت تلك الساعة المشهودة وأودع الفقيد مرقده الاخير آب الجمهور الغفير الى منزله يلهجون بذكر مآثره ومفاخره ويعزون آله الذين يقول كل منهم بلسان الشاعر

تموت ولا اموت عليك حزناً   وحق هواك خنتك في هواكا

ترجمة حياته

هو المرحوم بشاره تقلا { باشا } ابن المرحوم خليل تقلا وندى تقلا ولد في ٢٢ اغسطس سنة ١٨٥٢ في قرية كفرشيما من اعمال جبل لبنان اي بعد ولادة شقيقه المرحوم سليم تقلا { بك } بكر والديه بثلاث سنوات وكانت مخايل النشاط والذكاء والنجابة تلوح عليه وكان وهو طفل صغير يجمع صبيان قريته ويتولى رئاستهم ويذكرون من اخباره في حداثة سنه شيئاً كثيراً يدل على نجابته ونشاطه وهو طفل لم تحل عنه التمائم ولما ترعرع ارسله ابواه الى مدرسة القرية يتلقى الدروس الابتدائية فلما اتمها أُرسل وهو في العاشرة من عمره الى المدرسة الوطنية للمرحوم المعلم بطرس البستاني الشهير فامتاز على اقرانه بحدة الذهن وتوقده وبالنشاط والاقدام على حداثته وبثبات الجأش على صغر سنه ثم ارسله ابواه الى المدرسة البطريركية فأتم علومه وبعد اتمامها وكل اليه امر التدريس مدة لانهم كانوا يرون في ذلك العهد ان كل دارس يصير مدرساً فلم يكن الفقيد — رحمه الله — يميل الى التدريس ولكن ابواب الاعمال كانت مقفلة في وجه شاب لم يدرك العشرين فترك المدرسة البطريركية في بيروت وتولى التدريس في مدرسة عينطوره مدة سنتين كاملتين وهو يرى ان ذاك البناء المحدود اضيق من ان يسع همته العالية ونفسه الكبيرة فترك التدريس وأراد الاتجار فلم يوفق به وكان المرحوم سليم بك تقلا شقيقه قد قدم هذه الديار سنة ١٨٧٤ وتقرب الى رجال الفضل والنبل فاجلوه واكرموه وعرفوا ما في صدره من

مستكن الفضل والعلم فاخذ يسعى لنيل الامتياز بانشاء الاهرام من المرحوم اسمعيل باشا الخديوي فلاقى عقبات كؤودة لم تردّ عزيمته ولم تصدّ همته الى ان فاز بامنيته وظفر ببغيته فكتب الى أخيه بشارة — فقيدنا — يستقدمه للاستعانة بهِ على العمل فجاء الفقيد هذه الديار سنة ١٨٧٥ فاخذ يعاون اخاه ويعضده ويشجعه واذا حدثت ملمة او أمر جلل او مناهضة حمى أخاه بصدره وعرض نفسه لكل اضطهاد وركوب كل مركب خشن حتى ضربت الامثال بشجاعته واقدامه وكان اول عدد اصدراه من جريدة الاهرام في ٥ اغسطس سنة ١٨٧٦ فلقيا ما لقيا من كساد هذه التجارة فلم يحجما · وفي ٢ ستمبر من تلك السنة عزم الفقيد على اصدار جريدة يومية باسم صدى الاهرام وفي ٩ منه صدر صدى الاهرام فكان موضوع اهتمام صاحب الترجمة لانه كان فيه متسع لبث افكاره يوماً فيوماً وفي ٩ يناير اجتمعت عمدة بورصة الاسكندرية وقررت الاشتراك بالاهرام وصدى الاهرام « لانهما باكورة الصحف العربية » وكان الفقيد ينزع في كتاباته الى الحرية وطلب الاصلاح فتتقف الحكومة في وجهه وتمنعه تارة باقفال جريدته وطوراً بتهديده حتى اكرهته اياماً على ان لا ينشر الاما تسمح له بنشره

واشدة ولعه بتقدم الحرفة التي اتخذها صناعة له أخذ منذ ٥ يناير من عام ٧٧ يترجم التلغرافات ويوزعها على المشتركين في الصباح وفي المساء فكانت المطبعة تشتغل ليل نهار وكان المشتركون يتلقون الاخبار ساعة فساعة

ولما نشبت الحرب بين الدولة العلية والروس وضاق نطاق صدى الاهرام اليومية والاهرام الاسبوعية عن وسع التلغرافات اصدر جريدة على شكل مجلة سماها « حقيقة الاخبار » كان يجمع فيها التلغرافات الواردة عن الحرب وخصص نصف دخل تلك المجلة بمساعدة الجنود العثمانية

وفي سنة ٧٩ حدث ما حدث في مسألة المالية المصرية ورأى الفقيد الظلم المحيط بالفلاح المصري فانتفض قلمه في دواته فكتب فصلاً بعنوان « ظلم الفلاح » لا يزال صداه يدوي في البلاد حتى الآن فبعث اسماعيل باشا بعض الجنود للقبض على اخيه سليم فلما درى بذلك صاحب الترجمة ارسل اخاه الى الوكالة الروسية وذهب هو مع الجنود الى سراي عابدين وارضها تنتفض جزعاً من غضب اسمعيل باشا فدخل غير وجلٍ ولا خائف والخطر محدق به فامر الخديوي بسجنه فسجن ثلاثة ايام لم يقابل فيها احداً ولم يسمع من فم كلمة سوى صديق بذل للوقوف على احواله في سجنه كل وسيلة وعند خروجه من السجن وجد الصدى مقفلاً فأصدر جريدة جديدة باسم الوقت وصدرها بمقالة لا يزال الكثيرون يذكرونها حتى اليوم

واول فصل كتبه في الاهرام بتوقيعه كان في ٢٠ نوفمبر سنة ٧٩ تكلم فيهِ عن سياسة المانيا وفي اواسط سنة ٧٨ توفي المرحوم والده وهو في الخامسة والستين فكان جزعه عليه شديداً وكان والده مديناً لبعض الناس في سوريا لانه خسر بالتجارة ولم يكفِ ما يملكه لدفع ما عليه فاتفق مع اصحاب الديون ولكن الفقيد ابى الا ان يفي ما تنازل عنه اصحاب الديون فسافر في سنة ٨٠ الى سوريا واخذ يبحث عن اصحاب الديون فدفع لهم مالهم على ذمة والده مع الفوائد وكان قد مضى على دينهم ٣٠ سنة وكانوا قد اتفقوا مع والده على التصفية وهو امر لم يسمع بمثله حتى ان الدائنين سألوه ان يدفع رأس المال دون الفوائد فأبى الا دفع رأس المال وفوائده

اما اول رحلاته الى الاستانة فاوروبا فانها كانت في ٢١ اغسطس سنة ٨١ اذ برح الاسكندرية ماراً بأثينا فازمير فقابل الوزراء والعظماء لان المسالة

المصرية كانت في إبان اشتدادها فراح يستطلع طالع حالها من المقامات العالية ولما رأى انها انتقلت من الاستانة الى باريز ولندرا امّ تينك المدينتين وله منهما عن المسألة المصرية رسائل لا تزال الحقيقة الثابتة وتعد شيئاً من معرفة المستقبل

وفي سنة ٨٢ عاد الى مصر فاجله سمو الخديوي واعترف بجليل خدمته فانعم عليه بالرتبة الثانية

وبعد حدوث مذبحة الاسكندرية في تلك السنة هاجر الفقيد الى سوريا وما استقر به المقام حتى عاد الى الاسكندرية والدمار مخيم فوقها والثائرون قد أحرقوا مطبعته وداره فاصدر الاهرام وحده في احدى المطابع وكان رحمه الله يحدثنا عن نفسه انه كان يكتب الجريدة ويقابل سمو الخديوي يومياً ويصنع طعامه بيده لان الاسكندرية كانت خالية وليس فيها ساكن وكان العرابيون يناهضون الاهرام لانها كانت مخلصة لسمو الامير ومعادية لهم اذ عرفتهم يهدمون الوطن ويمدون للانكليز هذا الاحتلال الذي نراه فظل يتحمل هذه المشاق وحده شهراً ونصف شهر ثم دخلت الجنود الانكليزية العاصمة وسكنت البلاد وعاد شقيقه من سوريا فابتاعا مطبعة واستأنفا العمل

وفي سنة ٨٤ سافر الى لندرا لحضور المؤتمر الذي عقد فيها لحل المسألة المصرية فجاهد هناك بين الوزراء والسفراء والمندوبين حق الجهاد وكانت تلغرافاته اليومية للاهرام تملأ عموداً من اعمدتها ولما رأى اعيان البلاد خدمته هذه تألف منهم وفد من ذوات الاقاليم المصرية ونوابها في مجلس شورى القوانين والمجالس الوطنية العمومية فزار ادارة الاهرام واهدى الفقيد ساعة

وفي سنة ٧٩ حدث ما حدث في مسألة المالية المصرية ورأى الفقيد الظلم المحيط بالفلاح المصري فانتفض قلمه في دواته فكتب فصلاً بعنوان « ظلم الفلاح » لا يزال صداه يدوي في البلاد حتى الآن فبعث اسماعيل باشا بعض الجنود للقبض على اخيه سليم فلما درى بذلك صاحب الترجمة ارسل اخاه الى الوكالة الروسية وذهب هو مع الجنود الى سراي عابدين وارضها تنتفض جزعاً من غضب اسمعيل باشا فدخل غير وجلٍ ولا خائف والخطر محدق به فامر الخديوي بسجنه فسجن ثلاثة ايام لم يقابل فيها احداً ولم يسمع من فم كلمة سوى صديق بذل للوقوف على احواله في سجنه كل وسيلة وعند خروجه من السجن وجد الصدى مقفلاً فأصدر جريدة جديدة باسم الوقت وصدرها بمقالة لا يزال الكثيرون يذكرونها حتى اليوم

واول فصل كتبه في الاهرام بتوقيعه كان في ٢٠ نوفمبر سنة ٧٩ تكلم فيهِ عن سياسة المانيا وفي اواسط سنة ٧٨ توفي المرحوم والده وهو في الخامسة والستين فكان جزعه عليه شديداً وكان والده مديناً لبعض الناس في سوريا لانه خسر بالتجارة ولم يكفِ ما يمتلكه لدفع ما عليه فاتفق مع اصحاب الديون ولكن الفقيد ابى الا ان يفي ما تنازل عنه اصحاب الديون فسافر في سنة ٨٠ الى سوريا واخذ يبحث عن اصحاب الديون فدفع لهم مالهم على ذمة والده مع الفوائد وكان قد مضى على دينهم ٣٠ سنة وكانوا قد اتفقوا مع والده على التصفية وهو امر لم يسمع بمثله حتى ان الدائنين سألوه ان يدفع رأس المال دون الفوائد فأبى الا دفع رأس المال وفوائده

اما اول رحلاته الى الاستانة فاوروبا فانها كانت في ٢١ اغسطس سنة ٨١ اذ برح الاسكندرية ماراً بأثينا فازمير فقابل الوزراء والعظماء لان المسألة

المصرية كانت في يدن شديدة فرح يستطيع ضع حفظ من مقدمات به ية
ولما رأى انه تخلت من الاستانة في باريز ولندرا هاتين المدينتين ودافع
عن المسألة المصرية رسائل لا تزال حقيقة ثابتة وتعد شيئاً من معرفة
المستقبل

وفي سنة ٨٢ عاد الى مصر فحياه سمو الخديوي واعترف بحسن خدمته
فانعم عليه برتبة ثانية

وبعد حدوث مذبحة الاسكندرية في تلك السنة هاجر الفقيد الى سوريا
وما استقر به المقام حتى عاد الى الاسكندرية والدمار مخيم فوقها والثائرون
قد أحرقوا مطبعته وداره فاصدر الاهرام وحده في احدى المطابع وكان
رحمه الله يحدثنا عن نفسه انه كان يكتب الجريدة ويقابل سمو الخديوي يومياً
ويصنع طعامه بيده لان الاسكندرية كانت خالية وليس فيها ساكن وكان
العرابيون يناهضون الاهرام لانها كانت مخلصة لسمو الامير ومعادية لهم
اذ عرفتهم يهدمون الوطن ويمدون للانكليز هذا الاحتلال الذي نراه
فظل يتحمل هذه المشاق وحده شهراً ونصف شهر ثم دخلت الجنود
الانكليزية العاصمة وسكنت البلاد وعاد شقيقه من سوريا فابتاعا مطبعة
واستأنفا العمل

وفي سنة ٨٤ سافر الى لندرا لحضور المؤتمر الذي عقد فيها لحل المسألة
المصرية فجاهد هناك بين الوزراء والسفراء والمندوبين حق الجهاد وكانت
تلغرافاته اليومية للاهرام تملأ عموداً من اعمدتها ولما رأى اعيان البلاد خدمته
هذه تألف منهم وفد من ذوات الاقاليم المصرية ونوابها في مجلس شورى
القوانين والمجالس الوطنية العمومية فزار ادارة الاهرام واهدى الفقيد ساعة

مكتوباً عليها [اهرام — شعائر وطنية سنة ١٣٠١ — بشاره بك تقلا] وقدم له هذه الرسالة وهي بنصها

جناب الاكرمين الفاضلين صاحبي العزة سليم بك تقلا صاحب ومحرر جريدة الاهرام البهية وبشاره بك تقلا مديرها اطال الله بقاهما

بعد التحية والاكرام . اننا ما برحنا نطالع جريدتكم الوطنية عما يتعلق بالمسألة المصرية وتوابعها وان الخطة التي سلكتماها في سبيل المدافعة عن حقوق مصر والمصريين هي خطة حميدة تدعو كل وطني الى ابداء الثناء الجميل وان جريدتكما اظهرت حقيقة حالة هذه الديار واتت بجميل بيانها على ابداء وسائل الاصلاح بما يبقي لكما الذكر الطيب الذي لا يبرح مقروناً بالاعتبار لسعيكما المشكور ومحافظتكما على عهد الاخلاص والصداقة والوطن الهمنا الله جميعاً الى ما فيه التوفيق وحسن العاقبة والسلام

وتألف وفد آخر من الاسكندريين من ذواتهم ونوابهم في مجلس الشورى وزار ادارة الاهرام وقدم للتقييد ساعة مع الرسالة الآتية

سعادة سليم بك تقلا صاحب امتياز جريدة الاهرام وبشاره بك مديرها المكرمين

« خير الناس من ينفع الناس . وخير الشرف ما تولاه صاحبه عن اخلاص وحرية في سبيل الذود عن الحقوق الوطنية والمصلحة العمومية . ذلك ما تبيناه كل التبين في اسلوب جريدتكم الغراء الاهرام وقد سلكتما فيها مسلك الجد والثبات بدفاعكما عن الوطن وخدمتكما البلاد بالاخلاص والصدق وحسن الرأي مما طبع على افئدتنا حسن ذكره . فكانت بما أثبتته في محاماتها عن الوطن ناطقة بلسان ابناء القطر وذويه الصادقين . واذ لم يكن لهم بد من مقابلتهم اياديكما بالشكر

رأينا ان نرسل اليكما كتابنا هذا شاهداً عدلاً على امتناننا من جريدتكما مشفوعاً بتذكار لا ننظر فيه الى حقارة قيمته بل الى حسن الغاية التي استمدات اليه حيث قد سطر عليه هذه العبارة [اهرام — شعائر وطنية — سنة ١٣٠١] فاقبلا ايها العزيزان ذلك وتأكدا اننا حافظون لكما الذكر الجميل الذي يخلد في بطون التاريخ الجليل وعلى المنتقد ان يراجع ما سطر باهرامكما والله ولي التوفيق »

فاستاءت الحكومة من ذلك شديد الاستياء واوقفت جريدة الاهرام في ٢٠ ستمبر سنة ٨٤ بحجة ان مديرها فقيدنا كتب فصلاً قال فيه ان الحكومة المصرية لا تخدم مصر بل انكلترا الخ

وتفصيل ذلك ان الحكومة تألمت جداً من عمل مجلس شورى ونواب الامة فارادت مناهضة الاهرام لتخينه وتسكته عن الدفاع فاجتمع النظار برئاسة نوبار باشا واصدروا القرار الاتي الذي لا يخلو ذكره من فائدة وعبرة وهو بنصه

« نظراً لان جريدة الاهرام نشرت جملة مواد سياسية من شأنها خدش سلطة واعتبار الحكومة الخديوية

ونظراً لان العدد الصادر من هذه الجريدة بتاريخ ١١ اغسطس سنة ٨٤ نشر فيه مراسلة من لندرا من هذا القبيل أشد طعناً مما سبق نشره فيها الخ

تقرر ان يصير تعطيل الاهرام مدة شهر الخ » . . .

ومن قرأ هذا القرار ظن انّ في رسالة ١١ اغسطس شيئاً كبيراً ولكن في رسالة فقيدنا لا يوجد غير هذه العبارة وهي بنصها

استلفت انظار حضرات القراء الى ملاحظة ما يأتي . ذلك ان المستر هيلي النائب الارلندي قد سأل الحكومة في جلسة امس هذه الاسئلة

« أصحيح ان المستر لويد نشر قانون البوليس بمصر قبل ان يعرضه على مجلس شورى القوانين واذا لم يكن ذلك صحيحاً فلماذا اقام المجلس المذكور الحجة على اجرآءات المستر لويد ونشر نص حجته في الجريدة الرسمية

أصحيح ان المستر لويد كان حجر عثرة للمجالس الاهلية على حين يدعي الانكليز انهم لم يحتلوا مصر الا لتعضيد ابناء الوطن

أصحيح ايضاً ان المستر المذكور اهتم في حالة وصوله الى مصر باقفال ابواب مجلس الشورى »

فالمحتلون ظنوا ان فقيدنا هو المدير لهذه الحركة في مجلس نوابهم وانه هو الذي يكشف القناع عن اعمالهم فأوعزوا الى الحكومة باضطهاده ففعلت مستندة على سبب ليس بالسبب

ولما اتصل الخبر بالفقيد وهو في لندرا قصد باريس وفاوض نظارة الخارجية بالامر وشدد عزيمتها لتعضده وتؤيد مطالب شقيقه لانهما كانا في حماية فرنسا ففعلت ونال الترضية التامة بعد اصرار نوبار باشا على عدم الاعتذار الى قنصل فرنسا

وفي سنة ٨٧ سافر الفقيد الى الاستانة للوقوف على مسألة قبرس وبعض شؤون المسألة المصرية فمر ببلاد اليونان فأجله كبارها واحترمه وزراؤها ثم سافر الى ازمير ومنها الى الاستانة فاطلع على اسرار مسألة قبرس كما بسط ذلك في رسائله يومئذ ثم قابل فخامة الصدر الاعظم والتمس مقابلة الحضرة السلطانية ففاز بامنيته وقبل ان يمثل امام جلالته امر جلالته بان يهدى النشان المجيدي الثاني . ولما مثل بحضرته سأله رأيه في المسائل الافريقية فابداه فقيدنا بكل صراحة فسر جلالة السلطان به سروراً كبيراً وقال له « انني لا أشك

بصداقتكم لدولتي العلية ولي على ذلك اكبر شاهد جريدتكم التي اقرأها كل يوم فثابروا على خطتكم هذه واعلموا اني اكافىء عبيدي المخلصين »

ثم أمره بارسال جريدة الاهرام باسم الحضرة الفخيمة السلطانية فصدع بالامر وهي لا تزال الى اليوم تتشرف باعتاب مولانا السلطان باسم جلالته الخاص

وبرح فقيدنا الاستانة الى اوروبا فزار عواصمها حتى وصل الى عاصمة الروس وكان سفير الدولة العلية هناك دولتلو شاكر باشا فقدمه لمستشار الامبراطورية الذي لبث عنده ساعة ونصف ساعة فحدثه عن مسائل الشرق وعن المسألة المصرية فأعجب المستشار بآرائه وبسعة اطلاعه فأمر بان تفتح له دار التحف والمكاتب القيصرية ليشاهد ما فيها ووعده بان يقدمه للقيصر

ولما احتفل بانزال بعض الدوارع الى البحر دعاه مستشار الامبراطورية الى هذه الحفلة فحضرها مع السفير العثماني فاهدى اليه المستشار رسوم تلك الدوارع تذكاراً له واعجاباً به واستعرض القيصر الجنود فاغتنم مستشار الامبراطورية الفرصة وقدم فقيدنا للقيصر واثنى عليه بحضرة جلالته

ثم غادر بطرسبرج الى مدريد وكان سفير الدولة العلية هناك وقتئذ طرخان بك فقدمه للوزراء والعظماء وفي شهر دسمبر من تلك السنة عاد الى الاستانة وطلب الانعام على شقيقه سليم بك بالنشان المجيدي الثاني اسوة به لانه لا يشاء ان يكون اكبر رتبة من شقيقه فأجيب طلبه وعاد الى الاسكندرية ليكافح ويجاهد في خدمة مصر والمصريين كما تشهد اعداد الوقت والاهرام ولم ينس فقيدنا البلدة التي ولد فيها وهي بلدة كفرشيما بل انه زارها فألف فيها جمعية خيرية وجعل لهذه الجمعية راتباً سنوياً يدفعه لها وانشأ هناك معبداً

اعطاه للرهبنة البلدية وذهب منذ سنوات لافتتاح المعبد فقرر انشاء مدرسة الى جانبه لتعليم الفقراء مجاناً

ومن عوائده انه يوزع الصدقات في بلدته كل سنة مرة اما خدمته لكل محتاج وغيرته على كل انسان يلجأ اليه فانها لاشهر من ان تذكر ولربما ذكر ذلك عند تلاوة هذه السطور الوف في مصر ومما فعله قبل مرضه بايام قليلة انه كان يجالسه محرر هذه السطور فدخل عليه رجل كهل فسأله عن حاجته فقال اني رجل اطلب عملاً لاني بلا عمل واعرف الفرنساوية والانكليزية والعربية وعيلتي بحاجة الى النفقة فاجابه ان محلي ليس بحاجة الى عامل ثم اطرق قليلاً ونهض من على كرسيه فاخذ عصاه وخرج وخرجت معه والشمس تصهر الاجساد فما رأيته في جميع الدوائر والادارات التي دخلها إلا طالباً عملاً لهذا الرجل الذي لا يعرفه فما نال يومه ذلك غير الوعود فلم ترضه وبات لياته كلها منكراً ضجراً اذا حدثناه يكاد لا يصغى الينا واذا تكلم فعن الرجل الذي جاءه يطلب عملاً وعيلته بعوز واحتياج فما جاء ظهر اليوم الثاني حتى كان الرجل في عمله يأخذ راتباً كبيراً ويجل كثيراً ولا نذكر هذا الا دليلاً على ما كان في صدره من الغيرة على قاصديه وطالبي مساعدته

وفي شهر اكتوبر من سنة ٨٨ زار فقيدنا الاستانة فنال حظوة كبيرة في عيون الوزراء وتشرف بمقابلة الحضرة السلطانية وتلقى منها هذا النطق السامي ونصه.

« اني عارف بصدق وطنيتكم واخلاصكم وجريدتكم التي اقرأها في اوقاتها اكبر شاهد على ذلك لاطرادها طريق الاخلاص في الخدمة الوطنية واني ساهر ابداً على حقوق الامة والوطن ومهتم في اصلاح الشؤون والاحوال. فثابروا انتم على خطتكم هذه الوطنية فليس يفوتكم التفاتي لاني اكافئ الصادقين

بما يستحقونه » وبعد هذا النطق الشاهاني امره بالاقامة في الاستانة الى ان يحضر حفلة السلاملك فصدع بالامر وقبل ان يحضر تلك الحفلة انعم عليه جلالة السلطان بالرتبة الاولى من الصنف الاول وبعد حفلة السلاملك زار فقيدنا المابين مودعاً فصدر الامر السلطاني بان يرفق باحد الياوران الكرام ليريه دار الخزانة العثمانية وتحف آل عثمان وعروش السلاطين وما في الكنوز من الجواهر وهي حظوة لم ينلها واحد قبله من الرعايا العثمانيين

وفي سنة ٨٩ برح الفقيد مصر الى اوروبا فلما حلَّ بمرسيليا هداه الحظ الحسن الى عقد خطبته على قرينته الفاضلة دون سابق عزم او عقد نية على الزواج لان الفقيد كان — كما حدثنا عن نفسه — لا يفكر في ان يتزوج ولا عجب فان قواه وافكاره ودقائق حياته كانت كلها منصرفة الى الشغل والكد والجد والاهتمام بالاهرام وخدمة الاوطان فكان من توفيقه عقد تلك الخطبة في يوم هو الان تذكار نعيمه ١٢ سنة كاملة يوماً فيوماً وتذكار اشجاننا ومصابنا به لان خطبته عقدت في ١٥ يونيو سنة ١٨٨٩ وتوفي في ١٥ يونيو سنة ١٩٠١ وبعد عقد الخطبة تزوج وسافر مع عروسه الى جهات ايطاليا وسويسرا وباريس وعند حلوله باريس وصل جلالة ناصر الدين شاه العجم فتعرف الفقيد بوزيره الاكبر ثم قابل الشاه مقابلة دامت طويلاً فحدثه عن سياسة اوروبا والشرق وافكار السياسيين وما عرفه وما وقف عليه فسر الشاه كثيراً واعجب به كل الاعجاب وانعم عليه بنشان شير خورشيد وقال له « اذا كانت اقوالك هذه تردد صداها الاهرام فانا اشترك بخمسين نسخة من جريدتك لانها مرآة السياسة الصحيحة الصادقة »

وفي ١٠ ستمبر من تلك السنة وصل دولة ولي عهد الاريكة المصرية

(سمو الخديوي عباس الحالي) الى باريس ليزور المعرض زيارة رسمية فاحتفت به وباخيه الحكومة الفرنسوية كل احتفاء واعدت اكراماً له مادبة شائقة كان الفقيد في اول المدعوين اليها ولم يحضرها من ارباب الصحف الا هو ومدير جريدة الطان

وفي سنة ١٨٩٢ زار الاستانة وهو يقصد اوروبا للاصطياف فتشرف بمقابلة الحضرة السلطانية مقابلة خصوصية وقبل ان يدخل على ذاتها الكريمة انعمت عليه بالنشان المجيدي الاول فتقلده ودخل القاعة التي يقيم فيها جلالته وكان يتلقى النطق السلطاني بواسطة السيد ابي الهدى فسأل جلالة السلطان ان يتفضل بسماع كلامه دون وسيط فاجاب ملتمسه وعد ذلك امراً فوق العادة تحدثت به الصحف الاوروبية ومكث الفقيد بحضرة الذات الشاهانية نحواً من ساعة فبسط لها كل آرائه في الاصلاح وما يظن ان فيه خير الدولة والوطن وكتب الكلام الذي القاه عن الاصلاح ومن جملته انشاء السكة الحديدية الى الحرمين كما هو مسطور في الاهرام

وقبل خروجه من الحضرة السلطانية انعم جلالته بالرتبة الاولى من الصنف الاول على المرحوم سليم بك تقلا شقيق الفقيد وبنشان الشفقة على قرينة الفقيد وبالرتبة الثانية على عزتلو رشيد بك شميل مكاتب الاهرام في القاهرة وبالمجيدي الرابع على المسيو كرست مكاتبها في باريس

اما النياشين التي نالها من الملوك والسلاطين فهي النيشان المجيدي الاول والثاني والثالث من جلالة السلطان ونشان اوفيسيه دي لا جيون دونور من حكومة فرنسا ونشان الاكاديمي من جمعية العلوم ونشان استنسلاس من دولة روسيا ونشان المخلص من دولة اليونان ونشان ايزابل من دولة اسبانيا ونشان شير خورشيد من دولة العجم ونشان الافتخار من باي تونس الخ الخ

ونال من جلالة مولانا السلطان غير الرتبة الاولى من الصنف الاول رتبة روملي بيكاربكي وكفى بما ذكرناه دليلا على ما كان عليه فقيدنا من رفعة المقام والحظوة عند السلاطين والملوك والامراء والوزراء فلم يباره صحافي في مضماره ولم يصل شرقي الى ما وصل اليه بجده ونشاطه وفضله ولفقيدنا مذكرات عن ربع قرن تعد تاريخ السياسة في الشرق والغرب وبنوع اخص في مصر لا تصل اليها ايدينا الآن فنحن نكتفي بأخذ ما اخذناه من الاهرام فاذا تسنى لنا في المستقبل استخراج ذاك المكنون اتحفنا بعض القراء في مجموعة ستطبع على حدة كما قلنا في عدد امس

ولقد انصفه حضرة اللوذعي العالم المفضال عزتلو نقولا بك توما اذ ابنه فقال

« ان فقيدنا على رفعة قدره وعلو مكانته في ذروة اعاظم الرجال وعلى حلمه ولطفه ورقة طباعه واتضاعه في معاشرة العامة والخاصة لم يداخله الكبر ولا عرفته الخيلاء ولا فارقه الاتضاع ولا رفع نفسه بغير فضله وفضائله وشمائله عن سائر الناس »

اما اخلاقه التي عرفناها ونحن اقرب الناس اليه فهي الاتضاع والمجاملة والرأفة والحنان وسلامة النية وطيب السريرة وحب التضيلة فكان باتضاعه ينكر علينا تلقيبه اذا خاطبناه وبمجاملاته كواحد منا في العمل ومشاطرة كل أمر وبرأفته كواحد من عيلة كل عامل ومشتغل بادارته يهمه أمر كل واحد ويعتني بكل شخص وبحنانه كالام او كالاب فاذا مرض عامل أو أصيب بمصاب جعل تأسيته وتخفيف مصابه شغله الشاغل واهمل كل عمل وامر إلا مساعدته وكان بسلامة نيته وطيب سريرته لا يصدق عن عامل اذا خانه او مستخدم اذا قصر ويدهش لمثل هذا اذا بيناه له باوضح برهان وقد يرى من واحد ضرراً باعماله فيغض

طرفه لئلا يرى ومما نذكر في ايامه الاخيرة ان مستخدماً اخل بالامانة فلم يشأ ان يخرجه من الادارة فلما ارتكب هذا المستخدم جريرته ثانية ولم يبقَ للادارة صبر على ابقائه سلم معنا بطرده على شرط ان يعطى راتب شهر يستعين به على معيشته الى ان يجد عملاً واشترط ايضاً ان يخرج ذاك العامل وهو غائب في الاسكندرية لانه يعز عليه ان يراه خارجاً من عمله

وكان النقيد متقد الذهن فكان اذا وصل البريد الاوروبي يأخذ الجريدة والقلم بيده فيضع علامة على ما يريد نشره وهكذا يقرأ الاعداد الكثيرة من جرائد مختلفة ويدفعها للمترجمين فاذا عرضت عليه الترجمة عرف مواضع الخلل ولو في كلمة الامر الذي كنا ندهش له ويستغربه الكتاب والمترجمون وما رأيناه يوماً خط سطراً او اشار على واحد منا بكلمة الا وهو معتقد تمام الاعتقاد انها الحقيقة وما اراد يوماً خط سطر الا واقلام التحرير متفقة على انه الصواب وكانت الاستشارة عنده ركن كل عمل وكان يأنف كل طعن في الافراد فكنا اذا تولت الحدة اقلامنا الرد على معتدٍ نختلس لذلك فرصة غيابه او غفلة منه فنكتب ما نكتب ونحن نتوقع منه توبيخنا ولما انتظم كاتب هذه السطور في خدمة الاهرام كانت اول وصاياه له « اذا رأيت ان كلمة تقولها يخسر معها شخص قرشاً وتربح الاهرام آلافاً فلا تقلها ولو خسرت الاهرام فوق الربح المنتظر اضعافاً واعلم ان الشرق هو وطننا وفي الشرق محصورة خدمتنا وخدمة الوطن هي ضالتنا ننشدها في كل آن ولا محاباة ولا مراعاة فالاهرام وقف على ذلك من يوم وجدت ولا تتبدل خطتها »

هذا ما نقوله للقراء الكرام بياناً لحق فقيدنا وفقيدهم ودرساً نسطره على صفحات الاهرام بايدينا لانفسنا فيكون نصب عيوننا منهج الاهرام في كل حال

فاللهم ايدنا بروحه بروح من عندك وأعضنا عن فقده الثبات في الخدمة التي وقف عليها نفسه حتى آخر نفس تصاعد من صدره واسكنه فسيح جنانك جزاء حسناته ومبراته فانت الغوث المجيب وعليك وحدك الاتكال

جناز التاسع

أقيمت في الساعة التاسعة من صبيحة اليوم صلاة الجناز عن نفس فقيدنا العزيز فتولى الصلاة سيادة الحبر النبيل اثناسيوس ناصر يعاونه حضرات الآباء الاجلاء وتوافد الى المعبد الاهل والاصدقاء والكبار وبعض الفناصل والاعيان وارباب الصحف والاقلام وكان المعبد مجللاً بالسواد وفي وسطه النعش تحيط به الشموع المسرجة والى جانب النعش نجل فقيدنا وصاحب امتياز الاهرام ترمقه العيون ويعوذه الدعاء ويحيط بهِ التمني والامل ثم شقيق فقيدنا فالآل والموقف مهيب وذكر الخسارة يدمي القلوب ويرسل الدموع عندماً والقلوب والابصار خاشعة والنفوس ضارعة الى الملجإ الوحيد والمبدئ المعيد من تأبى احكامه جلت حكمه إلا التسليم لما يشاء ويريد فدامت الصلاة نحواً من ساعة والضراعة ترفع الى العرش الالهي بان يسكن فقيدنا جنات خلدهِ ويجزل ثوابه عداد حسناته

وبعد ختام الصلاة وقف حضرة خليل افندي المطران صاحب المجلة المصرية بل صديق فقيدنا الشاهد مدة ثماني سنوات صرفها في معاونته في عمله على جليل اثاره فالقى الخطاب الآتي يتقطع صوته شديد

التأثر من هيبة الموقف وهول المصاب ولوعة التفجع وتباريح الحزن فقال

ايها السادة

دفناهُ مبكياً نضير شبابهِ ومبكية آدابهُ وفضائلهْ

كأنا نواريهِ الثرى كل ساعة أسىً وكأنا كلَّ آنٍ نزايلهْ

هوى بين ايدينا وقد ودت المنى لو انَّ لفضلٍ ساعداً فهو ناشلهْ

كما سقطت في البحر درّةُ باخلٍ احاق بهِ يمٌّ من اليأس شاملهْ

فراحَ يعيد الطرفَ لا هو صابرٌ ولا هو يدري أيَّ امرٍ يحاولهْ

يزيد مياه البحر سائل دمعهِ ولا يدرك الشيءَ الذي هو سائلهْ

اللهمَّ لا اعتراض على احكامك ولكننا حيارى جزعون

قد اذهلنا هذا المصاب حتى عيَّ اللسان وعصى القلم وجمد الفكر . افيما بين مساءٍ وصباح عميد وطن يهوي ومنار أُمتين يُطفأ وبيت مجدٍ يتداعى وصحيفة عمرٍ حافل بجليل الاعمال تطوى وتاريخ خمس وعشرين سنة يختم

أفيما بين صباح ومساء يصبح الطفل يتيماً والمرأة أيما والأُم ثكولا ويصبح الرأي الذي كان عملاً والعمل الذي كان رجلاً والرجل الذي كان فرداً في ملاءٍ شيئاً من الهيولى الجامدة في رسم ساكن

نعم ايها السادة والريب كاذب مات بشارة تقلا باشا — مات مؤسس الصحافة في هذا الشرق الاسيف . مات العامل غير التعب . الجواد غير المنان . الصادق غير المداهن . الصديق غير المداجي . مات نصير المظلوم وعدوّ الظالم مات قدوة الابناء والآباء ومثال البعولة الاوفياء

ولولا ان الجزع عليه يقبض صدري ويشدُّ وثاق فكري لحدثتكم طويلاً عما اعلمه من فضائله ولم آتِ على شيءٍ يذكر منها

ان قسماً من حياة هذا الفقيد تاريخ مكتوب يوماً يوماً في الاهرام منذ خمس وعشرين سنة وهو القسم الشامل لعمليه السياسي والاجتماعي وقسماً آخر لم يسجل لهُ في صحيفة ولكنهُ مكتوب فقراً في قلوب جميع الذين عايشوهُ ووادُّوهُ وعرفوه بمرؤته وفضله. وهو القسم الشامل لاعماله الخاصة به وبالافراد الذين كانت لهم بهِ صلة

كان رحمهُ الله واسع العلم والخبرة بالسياسة عارفاً بفنونها واساليبها متضلعاً من تواريخها بصيراً باسرارها وقلما اخطأ له رأي فيها وكان يتفق لي اثناء معاونتي له في تحرير الجريدة ان اقرأ في اكبر صحف اوروبا فصولاً بتواقيع اشهر رجال السياسة فاذا هي عين ما يكتبهُ في المواضيع الحادثة وذلك لصحة حاكمته ولتسلسل الحوادث غير منقطعة في ذهنه ولشدة ذكائه النادر الذي كان يتناول بهِ كليات الامور من جزئياتها وخواتمها من فواتحها وكان مشهوراً بثباته على مبادئه لا يحول عنها وان ندَّ عنها قليلاً لامر تقضي به حكمة فلا يلبث ان يعود اليها . ومعلوم ما عاناه دونها من المشاق وما تعرض له من الاخطار فكانت لا تزيدهُ الا تشبثاً بها وجرأة في الذود عنها

وكان يحب مصر حباً خاصاً ويحاول ان يجعل سفره كل عام الى اوروبا ضرباً من السفارة لخدمتها فيتكلف مقابلة الملوك والزعماء الاعاظم في كل بلد ويباحثهم عن مصر ويصف لهم ما خفي عليهم من احوالها ويستمد معونتهم لها ولا اذكر منذ ثمان سنين اني خلوت به مرة او رأيته مع صديق لهُ ذي شأن ايا كان مكان اجتماعهما الا كان حديثه عن مصر او عن امر ترجع منهُ فائدة اليها ولهذا كان عمله مبنياً على الاعتقاد والاعتقاد اساس الحب والحب اعظم باعث للهمة وافضل مؤثر في البلاغ

وليس في الحوادث اصدق شاهداً على ما اقدمه من الحادثة التي جرت للاهرام اخيراً في مسألة البورصة فان الفقيد بجراءته التي لا مثيل لها خاض منها غمراً وركب بحراً وهو لا ينظر الى ما حوله من الجموع الناقة بل ينظر الى غاية واحدة وهي انقاذ البلاد من موبقات المضاربات وقد افلح بعد الجهد وفاز فوزاً باهراً بما رمي اليه من القصد اذ عرفت محكمة الاستئناف المختلطة اصابة فكره واصالة رأيه فايدته بحكم جاء حاسماً للنزاع قاطعاً لقول كل خطيب وهكذا نجا القطر من مصيبة فادحة وكارثة فاضحة

ومن نتائج سياسته هذه الحيوة الجديدة التي نراها في الامة المصرية فانها كانت قبل صدور الاهرام بعيدة عن هذا العهد بعد مئات من السنين فلما تولى ارشادها وجهر بصوته لايقاظ الهمم النائمة فيها وعودها ان تقرأ حوادث كل يوم وتباليها مبالاة المستبصر المستفيد واشربها حب الحرية وافهمها معناها واوضح لها بعمله وبقلمه طرق استخدامها نهضت نهضتها التي تحسدها عليها الان سائر امم الشرق وكان اول علائم تلك النهضة شعور المتقدمين في الامة من اعضاء شوارها وجمعيتها العمومية بواجب يتعين عليهم مكافأة لخادمي الوطن الامينين سليم وبشاره تقلا واهداؤهم اليهما تينك الساعتين الذهبيتين المكتوب عليهما بحروف من الالماس « شعائر وطنية »

ومن نتائج سياسته ايضاً تعدد الصحف حتى انافت على المئة الان بعد ان مهد لها السبيل وغير خاف ما للصحف من العمل الجليل في انارة الافكار ودفع المظالم وتقرير الحقائق

ومن نتائج سياسته وهو الامر الاجل ادراك الجماعة المحكومة انها ليست بقطيع انعام يملكه الحاكم وان كل من لم يتعد القانون منها ملك في

بيته وفي دائرتي عمله وفكره يستبد في شؤونه كما يشاء وانه فضلاً عن ذلك مسيطر على الحاكم يطالبه بحقه كما يطالبه ذاك بمقتضيات القانون المسنون له

واذا كان هذا شأنه في السياسة وهذه بعض النتائج الكاية التي تولدت منه فان عمله الاجتماعي لم يكن اضيق نطاقاً ولا اضعف ثماراً فان بشاره نقلا كان منذ ربع قرن على ما ذكره صديقي العالم نقولا بك توما اول من نبذ التقاليد ظهرياً وأول من رأى ان الدنيا مجال واسع للمجتهد وأول من حمل الراية بين قومه في طلب المعالي فاخذ البر نهباً والبحر وثباً وسار في طريقه الوعرة حتى ادرك سلم الارتقاء فصعد جاهداً غير وان والراية لا تزال في يده يراها الجميع تعلو وكلما علت ورف ظلها واتسع لمن ينضم تحتها من طلاب المجد وذوي العلم والاقدام والجد . وهكذا سما التقيد فمن بشارة نقلا بلا لقب الى بشاره نقلا باشا بكلربكي ومن الرداء الساذج الى الرداء المحلى باربعة عشر وساماً ومن الاحتشام في مجلس شيخ القرية الى الانطلاق في مجلس اعاظم السلاطين والملوك

ولم يكتفِ بان يكون قدوة للناس اذ ان كبار الرجال تزن هممها وتعرف مقاديرها ولا تقيس بها همم الاخرين فاراد ان يكون للمقتفين اثاره والمحتذين على مثاله عوناً ونصيراً ولا اذكر في خلال المدة الطويلة التي عاملته فيها انه خيب املاً او رد قاصداً عظم مطلبه ما عظم وعز امله ما عز على انه كان مثلاً بالمروءة والاقدام فلا ارى حاجة الى المزيد من البيان

وكانت له في المجتمع آراء لم يتطرف فيها الى ما يجاوز منة الاهلين وصبر الحكومة في مثل هذه البلاد القديمة العهد بالنير والاستبداد ومحصل تلك الآراء ان الفلاح مظلوم في ماله وتربيته وينبغي عليهِ ان يعرف هذا

الداء ويعرف ان له دواءً هو في يده لا في يد قادته فان كان هو صابراً ذليلاً جباناً دون حقه كان المولى عليه مطماعاً طلاباً جريئاً عليه بالمغارم والا كان الامر على العكس ولهذا كان ابداً ينبه الفلاح ويناضل عن الفلاح ولا يدخر وسعاً في اصلاح حال الفلاح ومن أجل الفلاح أوشك السيف ان يدق عنقه باشارة من المغفور له اسمعيل لو لم ينذره بقوله وهو نهاية الشجاعة «ايها الامير ان دون رأسي عرشاً يثله الظلم على نفسه» . وكان يقول ان الفلاح من حيث هو اساس الامة فهو الذي يرجى لترقيتها دون السراة الذين لا يشعرون بوطأة الجور كما يشعر هو بها ولا يعرضون الكثير الذي لديهم بمثل ما يسهل عليه ان يعرض يسير ما لديه في اخداث حدث عام نافع وكان شديد الرغبة في تعميم العلم بين العامة ولكن على الطريقة المثلى وهي التي لا تبعد عن مزاولة الحرف والقيامة على الارض الا النابغين الذين كان اكثرهم في كل زمن من ابناء هذه الطبقة بين الناس . وكان لا يمل من الدعوة الى العناية بالصناعة وتوفير اسبابها وتكثير معاملها وتدريب الكثيرين عليها وهذا كله نقرأه في الاهرام بقلمه منذ البدء كما نقرأه في مكتوباته الى ايامه الاخيرة . وكثيراً ما كان يكرره ويؤيده في احاديثه مع أولياء الامر من اسماهم مقاماً الى ادناهم اقتداراً وقد حصل من امانيه هذه على نتائج عظيمة كانا شاهدها ولا جرم ان له القدح المعلى من الفضل فيها

اما من حيث اخلاقه الذاتية فقد كان رجل جد وكد لا يباري فيهما حتى كأن عمره كان معدوداً عليه باللحظات وكان شجاعاً بلا دعوى كريماً بلا سرف عزيز النفس عزة الامارة وديعاً دعة التاجر صديقاً لا يداهن ولا يلاطف ولكنه لا يتخلف عن اسداء معروف ودفع اذى مناظراً شديد

العارضة صادق النظر جامع الفكر بلا مكابرة عدواً لا يبادىء بشر فاذا بودىء به فهو مكافح جلد اشوس حتى ترتد عنه يد العدوان فهو ناس حليم وكان لا يزدهي ولا يعجب بشيء ملكه او بمجد ادركه ولم أعلم عدة ما عنده من الاوسمة على طول عهدي به الا يوم دفنه

وكان متلطفاً في معاشرة زوجته حتى انها لا تذكر لهُ سيئة لفظ او اشارة وكان حسن الاسلوب في تربية نجله وتأديبه بحيث تحسن ظواهره وسرائره وينمو العلم فيه مع نمو عقله

وكان محباً للقائمين بعمله شكوراً للمحسن منهم صبوراً على المسيء يعتدهم ابناء لبيت ويعاملهم معاملة الاب المتيقظ وشيمة الاب الرأفة الواسعة قبل القسوة النافعة وشاهدي على ذلك غير بعيد وهو ان المتكلم بين يديكم انما هو غراس نعماء الفقيد واثر من اثار فضله

هذه اشارة موجزة الى ما كان عليه فقيدنا الذي نبكيه اليوم ولئن جلَّ مصابنا به حتى لا مصاب بعده فمن لنا بالفاظ مسلية معزية تلطف من نار امرأته الفاضلة الحزينة التي عايشته أثنتي عشرة سنة مرت كيوم العرس بل كساعة الاكليل في الصفاء والهناء

ومن لنا بصيب الندى يبل صدى امه الجليلة التي يتلهب فؤادها حسرة على ولديها العظيمين وشوقاً اليهما

ومن لنا بما يسكن من روع الشقيقين الجزعين ابرهيم وحبيب بك

اللهمَّ اياك نسأل ان تمن بالصبر الجميل على هؤلاء الاعزاء المحزونين جميعاً وان تخفف اشجانهم وان ترعى الحبيب جبريل وتجعله خلفاً صالحاً لابيه وان ترحم كثيراً هذا الفقيد العزيز فقيد العلم والامة والوطن

وقالت تحت عنوان

المصيبة الكبرى

لكاتبنا الاسكندري

ما ذرف الدموع وما شق الضلوع . ما التأبين والرثاء وما التفجع والبكاء . ما الحزن والاسف والتلهف والاسى الا قليل في جنب الخطب الجسيم والرزء الاليم الذي نقله الينا البرق . اجل لقد فقدنا ركناً من الاركان الوطنية ودعامة من الدعائم الادبية ومصباحاً من المصابيح الشرقية .

اذا عدّت رجال العصر يوماً فان « فقيدنا » بمقام الف

مات بشارة باشا تقلاوسبحان الحي الذي لا يموت — فنحن نبكي اليوم صاحب الاهرام والبيراميد وصدى الاهرام فاي المصريين لا يعرف الرجل الذي نبكيه ونرثيه ونستعظم الخطب فيه . واي المصريين لم يعرف خدمه الجليلة الجزيلة . بل ايهم لم يسمع بنشاطه وهمته وعزيمته وفواضله وعوارفه . فلتبكه الاقلام انه كان من اربابها ولتبكه الآداب انه كان من جوهرها ولبابها وليبكه العصاميون انه كان في طليعتهم وليبكه الصحافيون إنه كان في مقدمتهم وليبكه الوطنيون انه كان متفانياً في خدمتهم . وليبكه المجتهدون انه كان مثالهم وقدوتهم . وليبكه السياسيون فقد كان سياسياً ينفذ رأيه حجاب الغيب ولا يخاف في الحقيقة لومة لائم . تلك رسائله من

لندرا وباريس والاستانة وغيرها من العواصم وتلك الاحاديث التي رواها عن اعاظم السياسيين اعظم شاهد واكبر دليل على ارائه الصائبة وعلو منزلته عند كبار الاوروبيين والوطنيين. وذاك تاريخ حياته فان كل حرف منه يدل على همة لم يخامرها كلال ولم ينلها ملال بل كانت تتعالى وتتعاظم كلما كانت المصاعب تتراكم وتتعاظم في سبيلها

واذا اردت ان افصل كل ما اعرفه — وهو قليل من كثير — لم تكفني رسائل عديدة لا رسالة وحيدة . فحسب الفقيد اعماله فهي تشير الى فضله بغير لسان ولا مادح مثل الاعمال فهي ادل الدلائل على فضل الانسان

اما هول المصاب فقد كان عظيماً في ثغر الاسكندرية كما كان في سائر البلاد فان شمس السبت لم تنشر اشعتها على الثغر حتى انتشر منعى الفقيد فشمل الاسف كل من عرفه ـ ومن لا يعرفه ـ فكنت لا تسمع الا السنة لاهجة بتعداد اعماله او بذكر همته العالية واجتهاده العجيب ومشاريعه المفيدة . ولقد رأيت اناساً من الذين لم يكونوا من اصدقائه يوفونه حقه ويذكرونه ذكراً جميلاً وينطقون بما يجب ان ان ينطق به اهل الضمائر الشريفة ومحبو الحق والصدق ويحق للاسكندريين ان يأسفوا على فقيدنا ويستعظموا المصاب به لانهم اول من عرف مآثره واعماله واذا اتبع قول القائل « من علمني حرفاً كنت له عبداً » فان الاسكندريين في مقدمة الذين جنوا من فوائد الاهرام واستفادوا من اخبارها ومباحثها فعرفوا فضلها وكان اسطع الادلة على معرفة الاسكندريين لقدر الفقيد ما ظهر في ثغرنا من الاسف وما انتهى اليكم من الرسائل البرقية والبريدية التي تعد بالمئات

فاقدم واجب العزاء الى الامة والى المروءة والشهامة والى اسرة فقيدنا العظيم واسال الله ان يبقي نجله وشقيقيه الوجيهين وسائر آله الكرام ولا سيما قدوة

الزوجات والكرائم الفاضلات . واسأله جلّ وعلا ان يعزي قلوبهم وقلوبنا عن هذا المصاب الجلل

وقالت تحت عنوان

وداع

من حي فانٍ الى ميت باقٍ
وكلمة
عن فقيدنا العظيم

لا اكاد اصدق ما بلغ المسامع وشق الاضالع واجرى المدامع وأذاب المهج واشعل في القلوب الوهج واسال النفوس واطار الرشد من الرؤوس . الا وهو النبأ العظيم والرزء الاليم والمصيبة الكبرى والكارثة الجلى وفاة رجل الشرق علماً وحكماً وذكاءً وحلماً وشهامة واقداماً وجداً واجتهاداً واخلاصاً وولاءً وصدقاً في القول والعمل وسعياً في تأييد الوطن بهمة لا تعرف الكلال والملل . رئيسنا وعميدنا استاذ الصحافة ومدرس الفضيلة ورب النشاط والهمة المرحوم بشارة باشا تقلا

احقاً قد انتقل هذا الرجل العظيم من عالم الشهادة الى عالم الغيب وهل وسعه القبر بعد ان لم تكن تسعه الدنيا باسرها وضاقت رحباتها عن عزيمته وهمته . بل كيف غلبته المنية وهو ذو العزم الشديد والبأس الاكيد والنفس الابية والقوة

الهرقلية وهو الذي ذلت له الصعاب فكانت مطية ذلولا واندكت امامه العقبات فكانت سلماً مكيناً ونفذت اشعة قلبه في السرائر فكشفتها وفي الضمائر فاستجلتها وفي الخفيات فاستوضحتها وفي الرموز ففسرتها . وكيف يقال ان القبر بيت وحشة وظلام وبين اطباقه مصباح الدجى ومنار الهدى بل في ثناياه من كان يفكر في خير البشر واسعاد البرية والناس حوله نوم والاعين مغضية

لقد كان لنا أمل في السعادة والراحة فانقطع هذا الامل وخاب ذاك الرجاء وأيقنا الآن ان السعادة من موضوعات الشعراء وبنات التخيلات وان ليس لها في الحقيقة وجود . بل ايقنا ان الطبيعة والانسان خصمان متضادان وعدوان لدودان فهي ان رأته يسر بامر ساءته ونغصته وان رأته ساعياً الى مجد قاطعته وثبطته . فان كان ذا عزم قوي وبطش فتيّ عاجلته بشيء خفي لم تدركه عقول البشر للان لتتوقاه وتدفعه

نعم لقد كان لنا أمل في السعادة وهي غاية ما تنتهي اليه مجهودات النفس ومراقي الفكر . ولم يكن ليمنع هذا الامل في القلب عجز الفلاسفة الاقدمين والمتأخرين عن كشف السعادة وهداية البشر اليها لاننا كنا نرى في المرحوم نقلا باشا همة فوق الهمم وعزماً لا يثنيه ملل عن اي عمل وارادة يضعف امامها كل جبار في الارض . فليس من الغريب ان يهتدي الى ما لم يهتدِ اليه احد في العالمين

كنا ونقلا باشا في الوجود نخال الطبيعة احدى توأميه والثاني جده وعزمه والتوأمان صنوان خاضعان لامره اذا اراد شيئاً كان . لذلك نستغرب من الطبيعة ان تمكر بهِ على غرة منه وننكر على العزم والحزم والقوة والشدة ان تغادره وقت الكريهة وفي مقام الطعان . وليت شعري هل انحلت

الزوجات والكرائم الفاضلات . واسأله جلّ وعلا ان يعزي قلوبهم وقلوبنا عن هذا المصاب الجلل

وقالت تحت عنوان

وداع

من حي فانٍ الى ميت باقٍ
وكلمة
عن فقيدنا العظيم

لا اكاد اصدق ما بلغ المسامع وشق الاضالع واجرى المدامع وأذاب المهج واشعل في القلوب الوهج واسال النفوس واطار الرشد من الرؤوس . الا وهو النبأ العظيم والرزء الاليم والمصيبة الكبرى والكارثة الجلى وفاة رجل الشرق علماً وحكماً وذكاءً وحلماً وشهامة واقداماً وجداً واجتهاداً واخلاصاً وولاءً وصدقاً في القول والعمل وسعياً في تأييد الوطن بهمة لا تعرف الكلال والملل . رئيسنا وعميدنا استاذ الصحافة ومدرس الفضيلة ورب النشاط والهمة المرحوم بشارة باشا تقلا

احقاً قد انتقل هذا الرجل العظيم من عالم الشهادة الى عالم الغيب وهل وسعه القبر بعد ان لم تكن تسعه الدنيا باسرها وضاقت رحباتها عن عزيمته وهمته . بل كيف غلبته المنية وهو ذو العزم الشديد والبأس الاكيد والنفس الابية والقوة

الهرقلية وهو الذي ذلت له الصعاب فكانت مطية ذاولا واندكت امامه العقبات فكانت سلماً مكيناً ونفذت اشعة قلبه في السرائر فكشفتها وفي الضمائر فاستجلتها وفي الخفيات فاستوضحتها وفي الرموز ففسرتها . وكيف يقال ان القبر بيت وحشة وظلام وبين اطباقه مصباح الدجى ومنار الهدى بل في ثناياه من كان يفكر في خير البشر واسعاد البرية والناس حوله نوم والاعين مغمضية

لقد كان لنا أمل في السعادة والراحة فانقطع هذا الامل وخاب ذاك الرجاء وأيقنا الان ان السعادة من موضوعات الشعراء وبنات التخيلات وان ليس لها في الحقيقة وجود . بل ايقنا ان الطبيعة والانسان خصمان متضادان وعدوان لدودان فهي ان رأته يسر بامر ساءته ونغصته وان رأته ساعياً الى مجد قاطعته وثبطته . فان كان ذا عزم قوي وبطش فتيّ عاجلته بشيء خفي لم تدركه عقول البشر للان لتتوقاه وتدفعه

نعم لقد كان لنا أمل في السعادة وهي غاية ما تنتهي اليه مجهودات النفس ومرامي الفكر . ولم يكن ليمنع هذا الامل في القلب عجز الفلاسفة الاقدمين والمتأخرين عن كشف السعادة وهداية البشر اليها لاننا كنا نرى في المرحوم نقلا باشا همة فوق الهمم وعزماً لا يثنيه ملل عن اي عمل وارادة يضعف امامها كل جبار في الارض . فليس من الغريب ان يهتدي الى ما لم يهتد اليه احد في العالمين

كنا ونقلا باشا في الوجود نخال الطبيعة احدى توأميه والثاني جده وعزمه والتوأمان صنوان خاضعان لامره اذا اراد شيئاً كان . لذلك نستغرب من الطبيعة ان تمكر به على غرة منه وننكر على العزم والحزم والقوة والشدة ان تغادره وقت الكريهة وفي مقام الطعان . وليت شعري هل انحلت

تلك الصفات العالية وغدت هباءً كما انحل الجسد الشريف الذي كان يعيها ام هي خارجة عن حكم الماديات قد طارت مع روحه الشريفة ولا تبرح مقيمة على عهده حتى يشاء ان يخلفها لنجله الكريم ويملأ بها صدره ليتم في هذا الوجود ما ابتدأ به ابوه

سلام عليك يا روح الفقيد والف سلام . سلام على تلك الهمة العالية والنفس السامية . وعلى المروءة والوفاء وعلى الاجتهاد والنشاط . سلام يهديك اياه فان في الحب وفان في البقاء . سلام يرفعه اليك رجل قدمه في الفناء وقلبه ناظر اليك في سماء علاك وجنة خلودك . سلام يودعك به محب كان أهون عليه ان يودع روحه قبل ان يودعك وان يفتديك بنفسه قبل ان يقضي عليه الشقاء بتشييع جثتك

ان من الخطوب ما لا ينفع معه العزاء ولا يخفف منه الصبر ولا يهون من لوعته مر الزمان بل هو كلما تقادم له عهد ونفدت فيه عبارات السلوان ازداد تعمقاً في القلوب فانسجمت على اثره المهج واشتدت بذكره الاحزان واحترقت من ناره الصدور ويكون للمرء منه ذكرى اسى وحرقة حزن ولوعة مشتاق وأنة اسف في كل خطوة يخطوها في الحياة ومرأى يراه في الوجود فيذكر فقيده بما ينظره من حسن وفضل ومروءة وشهامة وجد ونشاط ويذكره كذلك اذا رأى عكس تلك الصفات فيقول ما كان ابعد فقيدنا عنها

اجل نحن في مقام من الحزن وموضع من الاسى اعظم من ان تطاوله كلمة عزاء . بل ان الكلمة من هذا القبيل تهيج فينا الاشجان وتحرك في قلوبنا الاحزان . وما نحن الا جسوم كانت تشرق علينا روح فتحيينا وتهدينا فانطفأت تلك الروح فما نحن بعدها

نحن اليوم حيارى كما كان بنو اسرائيل في التيه ولكننا نود ان لا يطول علينا الزمن كما طال عليهم في نيل بغيتهم فانهم جبنوا عن ملاقاة الاهوال فعوقبوا اما نحن فلا تزال فينا بقية مما عودنا عليه رئيسنا المرحوم من العزم في جلائل الامور . لذلك نرجو من الله ان لا يطيل علينا زمن الوصول الى بغيتنا وهي اللحاق بعميدنا وبطلنا اذ لو كان في هذا الوجود من خير يرجى وسعادة تؤمل لما مات رجل هو الوحيد الذي كان يمكن ان ينال بيده السماء ويسخر في خدمته الجوزاء فأي طمع بعده لانسان في نيل مجد واكتساب ذكر

ولقد وددت اني ما عرفت هذا الرجل ولا نظرت رشاقته وهمته حتى لا تقع في قلبي من وفاته حسرة تأكل حشاي وتضني جسمي وتفزعني في نومي . فاني ما وليت وجهي الى الشرق او الغرب او الجنوب او الشمال حتى تمثل امامي بجده ونشاطه وابتسامه الجميل بل ما نقلت قدمي الى مكان حتى تذكرت لطف شمائله بل ما اعتورني عناء او ألم حتى تصورته امامي وهو مريض تساوره الحمى ولم يبقَ فيهِ سوى حشاشة نفس يعلو بها الصدر ويهبط فلم يرَ مرة شاكياً او متالماً

فالوداع الوداع يا ثقلا باشا . امدد يدك من اعماق القبر لاقبلها . ولم لا تمدها الآن وقد مددتها الى ما وراء أسوار الملوك والظالمين لتفسد عليهم ما دبروه من كيد وما هيأوه من ظلم . الوداع الوداع ايها القلب الرحيم والنفس الطاهرة الزكية . الوداع الى الملتقى في دار النعيم واعلم ان ارواحنا لم تكن لتقيم في الدنيا بعدك اذا لم يكن لها امل في نجلك الكريم ان يحذو حذوك في صفاتك العالية واخلاقك الفاضلة فاللهمَّ اجعله خلفاً صالحاً لاكرم سلف

توفيق فرغلي

وقالت تحت عنوان

لوعة الاسف

ما اصبحت مصر في شؤم وبؤس ولا مرّ بها يوم نحس مستمر اشد سواداً واسوأ وقعاً من صباح اليوم الخامس عشر من هذا الشهر وهو تاريخ لوعة وأسى شديد شاع فيهِ بين الناس نبأٌ نفرت الآذان من سماعه وتردد الناس في تصديقه وهو نبأ مصاب الامة بفقيدها والادب باخص رجاله والصحافة بزعيمها ومدبرها ومديرها ونخرها فالمصاب عميم والاسى شامل

مات الاب البرُّ بنا والرئيس المشفق علينا وفارق دنيانا مبكيّ الشمائل مأسوفاً على ما اودعه الله فيهِ من خلال كريمة وآداب سامية وذكاءٍ نادر وهمة عالية فبكاه الوطن ورجاله والفضل وذووه والمجد واهلوه . اما الاقلام التي كانت تستمد من نفثات قلمه فهي تبكي الآن على فراقه وتود لو ملأت الارض بمدادها حداداً واما حملتها فقد قضوا بعض ما فرضته عليهم حقوق الفقيد من تأبين ورثاء وتعديد وبكاء وبقيت لهذا العاجز كلمة وداع لهذا الفقيد العظيم الذي كان لي ولعيلتي والداً كريماً في مدة هي ربع قرن لم ارَ منهُ فيها الا تفضلاً ومحبة وعوناً على الضراء ورحمة ونوراً في غياهب المشكلات وشيماً كلها فضل وكرم وشرف مبدإٍ وحنان

فيا ايها الفقيد العظيم لقد قضيت عمرك القصير وكأنهُ اعمار بما اودعت فيهِ من عظائم الاعمال وعزائم الاقدام وانصرفت فيه الى توخي الاعمال الوطنية والمنافع العامة غير ملتفت الى شيءٍ من ملاهي الحياة وغير منثنٍ عن طلب المعالي بما في سبيلها من العقبات . كنت القريب من الضعيف والرفيق الرفيق والجواد

المتفضل المحب لخير البلاد فلنعم سيرتك المستقيمة وسريرتك الطيبة واخلاقك الكريمة وروحك الطاهرة ومآثرك الكثيرة التي لا يقوى الدهر على محو اثر منها كما غدر بك وانت في ذروة المجد والفضل . لست انسى لك ايها المحسن احسانك الشامل ورعايتك الكافلة واراءك السديدة . لست انسى ذلك الزاد الاخير القليل الذي تزودته من نور طلعتك في ساعة رهيبة حمات فيها الاملاك روحك الزكية وسطا فيها الموت على هيكلك اللطيف وهي ذكرى تصدع قلبي ولا تبرح من ذهني ابد الدهر اذكر لك بيتاً شدته والمصاعب محيقة بك وثباتاً عرفت به والمخاطر حولك فما زلت ترقى حتى ظن انك تبغي معارج السماء وما زالت الرتب والوسامات تتوالى عليك حتى كادت تملأ صدرك الرحب . ان الملة التي تمدك ركناً لها تبكيك وتأسف عليك والامة المصرية التي احببتها تذكر اياديك البيضاء ومحبتك المجردة ودفاعك عن حقوقها دفاع الابطال يوم لم يكن يدافع عنها الا المخاطر بروحه المستهدف للنفي والشتات تبكيك سوريا لانها ثكلت ابناً براً بها كاسياً رأسها تاج فخر وعلاء اما لبنان فهو من قمته الى سفحه الى قرية كفرشيما التي هي مسقط رأسك يحسد مصر على ضمها رفاتك واشتمالها على مآثرك . انك لم تمت وكيف يحسب ميتاً من يملأ ذكره مشارق الارض ومغاربها ولكن عندنا لوعة واسفاً على فراقك فلا بد لهذا القلم ان ينطق بها حتى تضيق بها الصحف كما ضاقت عنها الصدور

واما انتِ ايتها القرينة الكريمة فاذا كان اساك يقبل عزاء وان كان فؤادك يحتمل سلوة فانظري الى مشاركة الامة لك في هذا المصاب والى مشاركة الوطن واهله والمشرق والمغرب واستبقي ما بقي لكِ من ذاهب الصبر

وراحل الجلد لاحياء ذكر فقيد البلاد بنجله العزيز الذي نسأل الله لهُ قوةً وعمراً هنيئاً وهو المسؤول ايضاً ان يبرد لوعة تلك الام الحزينة وذينك الاخوين العزيزين ويجمل صبركم جميعاً على فقيدكم العظيم . رحمه الله عداد حسناته وكفى بها رحمةً ان الله غفور رحيم

رشيد سعاده

وقال وكيل الاهرام في الوجه القبلي

المصيبة

اي كبد لا تتوجع واي فؤاد لا يتصدع واي عين لا تدمع واي قلب لا يتقطع من الرزء الجسيم والمصاب العظيم فقد سطا الدهر واقتطف زهرة زاهرة ودوحة ناضرة

الدهر خصمي والحكم فهو المسيء اذا حكم

فقدت البلاد رجلاً كانت ترتجي ان يعيش بين بنيها دهوراً عاملاً في مصلحتهم مهتماً بامرهم قائلاً القول الفصل السديد فقدت المعارف عالماً متضلعاً كانت تفتخر بهِ وتستمد منه فقدت الاقلام يراعاً كان اذا ما خط حرفاً اصاب قلب الحوادث فكشفها للعيان واطلع الجمهور على غوامض الامور فقدت الصحافة بطلاً وقف والصروف في ميدان خصام فحاربته وحاربها وتغلب عليها بعزمه فقام يخدم الصحافة حق الخدمة ربع قرن لم تأخذه في نشر الحق والدفاع عن الوطن لومة لائم . فما بالك يا موت رميتنا بسهام

اصابت الفؤاد وانتشلت من بيننا من تبكيه وتندبه البلاد والمعارف والاقلام والصحافة فما تطاير خبر تلبيته امر ربه حتى كنت ترى دموعاً تتساقط وقلوباً تصعد الزفرات

فافسح لهُ اللهمَّ في جلال خلدك وامطر على ضريحه سحائب رحمتك ورضوانك وانزل على قلوب آله جميل الصبر وعلى الوطن والصحافة احسن العزاء انك اكرم من يسأل

وقال مكاتبها في كوم حماده

صاعقة انقضت على مصر فاختطفت منها عميداً كنا نجتني خيراً من مشوراته في ملماتنا ومصائبنا ونكبة رمانا بها الدهر الخؤون فاقتلعت من بيننا شجرة العلم والفضيلة وخطب جسيم حل بنا فانأى عنا من لو طاب منا ان نفتديه لبذلنا نفوسنا في سبيل فدائه • ابى البين الا ان يكون نصيبه ذاك الشهم الجليل المرحوم { بشاره باشا تقلا } فقيد الفضل والمروءة ووحيد الشهامة والاعمال المبرورة سحبان البلاغة الذي يقصر عن وصف سجاياه أبلغ الكتاب فلتبكه العيون ما شاءت ولترثهِ الاقلام ما استطاعت ولولا اننا نقرأ من وقت الى آخر عن وفاة الكبير والصغير والغني والفقير لحق لنا ان نعفر وجوهنا بالتراب اسفاً على ذاك الهيكل الذي فقدناه ولكن قدر الله فكان وانا لله وانا اليهِ راجعون

وقال مكاتبها السمالوطي

كان خبر مصاب الوطنية والعالم الادبي بوفاة صاحب السعادة الطيب الذكر بشاره باشا تقلا رنة حزن واسف تردد صداها في كل الافئدة والقلوب. وانى لي ان اظهر ما استولى على قلوب افاضل مديرية المنيا واكابرها من الحزن والاسف وانا قاصر ولا بدع ان كان البكاء عليه شاملاً فقد عرفناه رجلاً قام بين ظهرانينا باجل الاعمال وقاوم في وسطنا اعظم المصاعب حتى فاز بامنيته وهي ايجاد صحيفة تدافع عن الصالح العام وتخدم الجمهور خدمة يحسد ابناء المشرق سكان النيل عليها فاقبل القوم على مطالعتها اقبال الظمآن على الماء القراح وظلّ الفقيد مداوماً على خطته مثابراً على تنشيط اهل الوطن باذلاً جهده في بث الافكار الصحيحة والمبادئ الحرة فيهم حتى دعاه ربه اليه فلباه وما شاع نعيه حتى شمل الحزن والاسف العموم فالخطب عظيم والرزء جسيم نسأل الله ان يلهم الجميع على فقده صبراً

وقال مكاتبها في ايتاي البارود

صاعقة انقضت على رجال الادب بل حلت بالشرق كله بوفاة شيخ الصحافة وسراجها الوهاج ومصباحها الوقاد

ولقد كان لوفاة هذا النبيل رنة حزن بارض مصر يسمع لها دوي . مع

اصوات المتأسفين الصاعدة من اعماق القلوب كلما ذكرت مناقبه ومحامده وشيمه وصدق وطنيته .

فرحم الله من تلك صفاته ورحم الله الوطني الغيور الصادق المرحوم بشاره باشا تقلا وامطر على ضريحه سحائب الرحمة والرضوان

وحق علينا وعلى الجمهور ان نرفع هذه التعزية الى الاهرام الغرآء والى اسرة الفقيد الكريم اجمل الله صبرها وأجزل اجرها

وجاء فيها تحت عنوان

المصاب العظيم

والموت نقادٌ على كفه   جواهرٌ يختار منها الجياد

مات الشهم الهمام والبطل المقدام صاحب الآثار العديدة والمآثر المفيدة الحميدة بل مات الرجل الجليل العالم الفاضل النبيل المؤمل الذي تركن اليه البشر في دفع الخطوب وكشف كل ملمة فيا لهُ من مصاب اليم وخطب جسيم . لقد فقدت مصر والمصريون . بل واهل الشرق اجمعين اعظم مرشد لهم ومعين . ذلك البطل الذي كان يغار على مصالحهم والذي وقف نفسه وقلمه لخدمتهم ونفعهم فيحق بل ويجب علينا ان نبكيه وبحداد الحزن والاسف نرثيه . كيف لا وهو الذي قام رحمه الله في اخر ايامه بتلك الخدمة الجليلة بل ذلك الجهاد المحمود الذي عرفهُ الخاص والعام . وذلك انه رحمه الله لما رأى تلاعب الاجانب باموالنا ومصالحنا ورأى انا لا نميز بين النافع والضار

شمر عن ساعد الجد بما فطر عليه من الهمة الشماء وقام يحارب اهل البغي والعادين على اموال المصريين بهمة لا يدانيه بمثلها احد في الانام فاظهر لنا حقيقة عملهم ونصح لنا ان لا يخدعنا غشهم او ان تغرنا اباطيلهم وتلك بعض خدمه الجليلة المشهورة واعماله الممدوحة المبرورة فتمكنت محبته في قلوبنا وعظمت قيمته في نفوسنا . ولكن واآسفاه لقد وافته المنية بهذا الداء الذي لم ينفع فيه طب ولا دواء فايبكه اذاً العلم والعلماء وليبكه الصحافيون والخطباء وليرثه الشعراء . لقد مات عماد الصحافة الشهم العظيم رب السياسة ذو الاصل الكريم . فارحمه اللهمَّ رحمة واسعة واسكنه فسيح جناتك انك السميع المجيب والهمنا اللهمَّ جميل الصبر على فقده وعزّ قلب والدته الحزينة وحضرة قرينته الفاضلة وبارك اللهمَّ نجله واعطه العمر المديد فيكون مثالاً صالحاً وشهماً عاملاً لخدمة وطنه كما كان والده المرحوم انك السميع المجيب وعلى كل شيءٍ قدير

القاهرة نقولا بوتاري

وورد فيها تحت عنوان

وداع وسلام

هذا بريد مصر فعسى ان يكون فيه نبأٌ عن أحد من الذين نحبهم

نعم فيه النبأ الصادع والخبر الفاجع مات صاحب الاهرام فاسعفيني يا دموع العين

ذهب الحبيب فيا حشاشة ذوبي اسفاً عليه ويا دموع أجيبي

مات الذي كان في الصحافة استاذي وفي ظلاله ربيت وقضى الذي قضيت في قربه اثنى عشر عاماً كاملاً فلابكينه ما حييت مات الذي اتكأت على ذراعه اثنتي عشرة سنة بلا انقطاع مات الذي كنت في خدمة الوطن استمد منه حركة الافكار ومن انفاسه يستمد حركته اليراع مات الذي اتخذني اثني عشر عاماً عوناً له في خدمة البلاد واتخذني صديقاً ودعاني له اخاً وسماني ابنه وعاونني على صروف الحدثان مات واحسرتاه وانا بعيد عن مصر لا اسمع انه مريض ولا اسعى الى عيادته ولا آخذ عنه خبراً ولا أسهر الليل عليه جزاء ذلك الاحسان مات وانا بعيد عنه حيث فاضت انفاسه فواحرّ أنفاسي اذ لم ازوّد منه نظرة الوداع ولم الثم له يداً وأذرف على جثته الهامدة دمعة فيا لحرقة فؤاد الخليل

ايها الراحل العزيز والفقيد المبكي هذه أمك قد جدد لها مصابها بك احزان السليم السابق وهذه قرينتك التي احببتها واحبتك لا تصدق لهول المصاب انك قد هجرتها وهذا جبرائيل وحيدك الذي كنت تعبده من بعد الله يبكي وينتحب فنحن لحزنهم نحزن عليك وكبكائهم نبكيك ونحن مثلهم نستعظم المصيبة فيك

أودعك يا سيدي واستاذي وكنت على رجاء أن القاك فخاب الرجاء أودعك والدمع يتساقط من عينيّ وقد صغرت لديّ الحياة وهان البقاء . أودعك وأبكيك وليتني كنت كاتباً بليغاً فاعدد صفاتك وأرثيك لكنك علمتني صوغ المعاني في خدمة الاوطان لا لنظم القوافي في رثاء الخلان والاخوان . فانا أودعك ابسط وداع ذاكراً اياك كيفما كنت باكياً فقدك حافظاً عهدك مستمداً لك الرحمة والرضوان حيثما كنت

وعهدٌ عليَّ اذا ما رجعت وكان الى مصر ذاك الرجوع
أزور الضريح الذي قد حواك واسكب فوق الضريح الدموع

والآن فالسلام ايها الهلال البازغ والشبل الناهض السلام يا جبرائيل الذي رأيته طفلاً على ذراعي أمه وفتى يتلقى العلم الى جانب ابيه . اننا نرى مخايل النجابة تلوح على جبينك ونور الهمة يضيءُ في عينيك فكن كما نتوسم واكبر باراً بامك الكريمة واخلف في الاقدام والنشاط والجد من كان لنا في الجد والنشاط والاقدام مثلاً لنقهر بك الايام وننشد الاقوام

اذا مات منا سيدٌ قام سيدٌ قوول لما قال الكرام فعولُ

باريس في ٢٦ يونيو سنة ١٩٠١ خليل زينيه

قالت جريدة المؤيد

انا لله وانا اليهِ راجعون

أصبحنا اليوم واسلاك التليفون تتساءل من كل جهة ومكان في القاهرة عن فقيد الصحافة العظيم القديم العهد بها ونعني بهِ الطيب الذكر الماسوف عليهِ المبكي من المحابر والاقلام { بشاره باشا تقلا } صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد

أُصيب هذا الفقيد منذ عشرين يوماً بمرض اختلف الاطباء في تشخيصه فمن قائل انه حمى معوية ومن قائل انه احتقان في الدماغ ومن ذاهب انهُ حمى تيفوسية كما اختلفوا في الدواء واستعملوه على ضروب شتى ولكن عين

المنون لم تضل وسهم المنية لم يخطئه فوافاه الاجل المحتوم في الساعة الثانية بعد نصف الليل الماضي عن نحو خمسين سنة من عمره وما هي بالعمر الطويل حتى يقال

كل ابن أنثى وان طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمولُ

ولقد أثر نعيه في نفس كل سامع بمقدار ما كان يحفظ للفقيد من المكانة والاحترام

ذلك لانهُ كان ركناً عظيماً للصحافة في مصر خدمها نحو ٢٦ سنة بجرائده العربية والافرنجية وفي مقدمتها [الاهرام] التي ثبتت بين زلازل الحوادث في ربع قرن ثبات تلك الاهرام الشامخة في اربعين قرناً .

ولسنا الآن في مقام ترجمة حياة الفقيد حتى نوفيه اوصاف المؤرخ ولكننا في مقام النعاة نبكي رصيفاً قديماً عرفناه مكداً مجداً نشيطاً في ترقية صناعته ونشر صحفه بهمة لا تعرف الكلل وعزيمة كان يغبطه عليها كل صحافي في مصر اذ الكل لم يدركوا لهُ شأواً في هذا المجال حتى اشتهر عنهُ انه كان يطوف الدواوين والقنصلاتات وكثيراً من منازل الامراء في ساعة واحدة ليعود بملء الصحيفة من الاخبار وكانت لهُ مهارة في استقراء الحوادث لا يدانيه فيها صحافي هذه قصارى فخاره من مهنته • وقد اضاف الى ذلك جاهاً حازه وثروة طائلة أحرزها ورتباً وألقاباً لم تكن من نصيب غيره بين الرصفاء • أحرز من رتب الدولة العلية الى (روم ايللي بكلربكي) وهي أعلى رتبة ملكية دون رتبة الوزراء ومن نياشينها المجيدي الاول وهي أعلى النياشين من صنفه لا يفوقه غير المرصعات كما انه حاز نيشان اللجيون دونور الفرنساوي من الدرجة الثالثة ونيشان سان استانسلاس الروسي ونيشان المخلص اليوناني من الدرجة الثانية

ونيشان الافتخار التونسي وكثيراً غير هذه من وسامات الدول وكلها من درجات عالية وكلها برهان صادق على ما امتاز به في صناعة الصحافة وما كان له فيها من جد ونشاط في سبيل ترقيتها . صفات ومزايا يجب ان يعترف له بها كل صحافي في مصر اتفق معه في السياسة والوجهة او اختلف كما هو واجب الانصاف وحق كل عامل بعمله

ولكن اضعاف ما رزئت الصحافة اليوم بفقد هذا العظيم رزئت تلك السيدة المحترمة والقرينة التي كانت قرة عين قرينها كمالاً وادباً وتهذيباً ومكارم اخلاق من كل قبيل . بل كانت اصدق امرأة لبعلها كما كان هو اسعد الازواج حظاً بها . بقدر ذلك كان رزؤها عظيماً ومصابها أليماً .فكانت هي وولدها الذي لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره قضاها في زهو جنو أبيه عليه كما تحنو الرضيع على ولدها أحق بالبكاء والعزاء

وبمثل ذلك رزئت والدة الفقيد الاسيفة وحضرات اخوته وبقية آله الكرام الذين نسأل لهم جميعاً الصبر والسلوان .

هذا وستشيع جنازة الفقيد الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم من منزله بباب اللوق الى الكنيسة الرضوانية فيشيعه اليها كل مصاب بفقده او مشارك لآله معزّ لهم . ومن اين للمصابين في مثله عزاء . جعل الله لهم جميل الصبر جميل الجزاء

وقال في عدد آخر يصف المشهد

احتفل في الساعة الخامسة بعد ظهر امس بتشييع جنازة الطيب الذكر فقيد الصحافة المصرية (بشاره باشا تقلا) من منزله بباب اللوق الى كنيسة

الرضوانية بالازبكية وقد مشى في حفلة الجنازة جميع اصحاب الجرائد والعدد الجم من الباشوات وفي مقدمتهم اصحاب السعادة يعقوب ارتين باشا وكيل نظارة المعارف العمومية واسمعيل صبري باشا وكيل الحقانية ومحمود شكري باشا رئيس الديوان التركي الخديوي سابقاً ورجال قنصلاتو فرنسا وكثيرون من كبار الاعيان وطنيين واجانب ومن المحامين وغيرهم وقد سار موكب الجنازة يتقدمه الرؤساء الروحانيون وبجانب سرير الفقيد بساط الرحمة يحمله كبراء الذوات وخلفه المشيعون من كل قبيل وحوله رجال البوليس فرساناً ومشاة

وهكذا سار المحفل في نظام ووقار وعظيم عظة واعتبار الى الكنيسة حيث أديت شعائر الصلاة عليه ثم سار النعش يتلوه عربات المشيعين الى قرافة الروم الكاثوليك في مصر العتيقة . وقبل ان يدفن الفقيد وضع في كنيسة سعادة سكاكيني باشا هناك حيث زود الزاد الاخير من رجال الكهنوت ثم ودع الوداع الاخير من خطيبين حزينين اولهما حضرة الاديب يوسف افندي بستاني بلسان جميع موظفي جريدة الاهرام والثاني حضرة الفاضل نقولا بك توما الذي كان من اصدق اخلاء الفقيد واعرف الناس بتاريخ حياته فذكر الفقيد مثالاً حسناً للمجتهد كيف يكون صغيراً فيصبح كبيراً وللمجتهد كيف يعمل فينجح وللمجتهد كيف يصبح غنياً بعدما كان فقيراً وللمجتهد كيف يقدر ان ينشر فكره وقال ان هذه البلاد مدينة له من حيث كونه قدر ان ينشر فكره يوم لم يكن يستطيع احد ان يقول ويكتب . وبعد ذلك غيب الفقيد في لحده وتبادل المشيعون له العزاء فيه ورجعوا يسألون الله عز وجل ان يلهم قرينته ووالدته الاسيفتين وبقية آله الكرام جميل الصبر والسلوان

وقال المقطم

خاب الرجاء وخابت بشارة الاطباء بعد ما بشرنا القراء بان سعادة رصيفنا المرحوم بشاره باشا تقلا جاوز الخطر وتماثل الى الشفاء

ولكن اذا حل القدر فلا طب يفيد ولا علم بشر

واذا رجوت المستحيل فانما   تبنى الرجاء على شفير هارِ
فالعيش نومٌ والمنية يقظةٌ   والمرء بينهما خيالٌ سارِ

مرض الفقيد اياماً طوالاً وكنا نسمع كل يوم ان الاطباء غيروا رأيهم في تشخيص علته الاولى وشخصوا مرضه بعلة أخرى حتى قيل لنا ان احتقان الدماغ قد زال والقلب قد عاد الى سابق حاله من النبضان وان الفقيد جاوز الخطر وجعل يكلم الاهل والخلان ولكن صدق من قال ان من القلب لدليلاً فقد نقل الينا انه سأل الطبيب عن حالته فقال لهُ انك بخير والحمد لله فاستدعى اليه حضرة زوجته وولده وودعهما وداع من ايقن بدنو منيته واوصى ابنه بتعلم العلم والادب وسلوك سبيل الاجتهاد والكمال ولما فرغ من وداعهم اصابته نوبة شديدة افقدته قوة النطق فجعل يلتفت الى من حوله ويودعهم بحركات عينية والحر الشديد يجهده لعسر التنفس عليه حتى انتصف الليل فابتدأ يحتضر وبعد نصف الليل بساعتين و٣٥ دقيقة فاضت روحه ففارق الديار الفانية ولبى دعوة ربه الى الديار الباقية

عليهِ سلام ربي كل حينٍ   يلاقيهِ الرضى فيما يلاقي
واسقت لحدهُ سحب الغوادي   اذا انهملت همت ذات انطباقِ

وزانت ريثه في كل يوم تحيات الى يوم التلاقي

ولد الفقيد في ٢٢ اغسطس سنة ١٨٥٢ بكفرشيما من قرى لبنان وجاء هذه الديار سنة ١٨٧٦ حيث انشأ جريدة الاهرام مع المرحوم اخيه سليم بك تقلا فكانت له خير ميدان راض فيه ما أوتي من المواهب والمزايا كالاجتهاد والثبات والمثابرة والعناية وانتهاز الفرص وقوة المداخلة فارتقى بين الاقران وبلغ شأوا رفيعاً في الوجاهة وعلو الشان ونال الشيء الكثير من الرتب والنياشين

وله في تاريخ القطر الحديث شان لا ينكر وخلف لنجله بجده .وكده من الجاه والثروة ما يعز على ارباب الاقلام ولا سيما في الشرق وفي هذه الايام

وقد ادرك الفقيد تلك الغايات كلها واتم ما أتم من الاعمال قبل ان يتم الثامنة والاربعين من عمره ولو فسح الله في اجله لرأى الناس منه جداً على جد واقداماً على اقدام

ولما بلغ نعيه سمو الخديوي المعظم بادر اعزه الله فارسل حضرة علي بك كامل التشريفاتي للتعزية وامره ان يسير من قبل سموه في تشييع الجنازة . واستدعي نيافة المطران اثناسيوس ناصر من الاسكندرية لحضور الجناز . وجعل المعزون من العظماء والوجهاء يتقاطرون افواجاً الى منزله ويشاركون ذويه في الحزن عليه والتعازي ترد تباعاً بالتلغراف والبريد وأقفلت ادارة الاهرام اليوم ولا يصدر الاهرام والبيراميد حداداً على الفقيد .وستشيع الجنازة اليوم الساعة الرابعة بعد الظهر من منزله الى كنيسة الرضوانية للروم الكاثوليك

نسأل الله ان يتغمد الفقيد برحمته ورضوانه ونطلب لحضرة والدته الثكلى وحضرة قرينته التي كانت مثال الزوجة الفاضلة في حياتها معه وسهرها عليه مدة مرضه وحضرات نجله وشقيقيه الوجهاء وسائر الانسباء والاقرباء والمحزونين عنده والاصدقاء الصبر الجميل لهم في مصابهم وان يكون حزنهم عليه خاتمة احزانهم

وما نحن الا ركب موت الى البلى　　تسيرنا ايامنا كالرواحلِ
قطعنا الى نحو القبور مراحلاً　　وما بقيت الاّ اقل المراحلِ
وهذا سبيل العالمين جميعهم　　فما الناس الاّ راحل بعد راحلِ

وقال في عدد آخر

احتفل اول امس بتشييع جنازة المرحوم بشاره باشا تقلا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد فأم منزله جمهور غفير من الكبراء والعظماء والاصدقاء يتقدمهم جناب المسيو لهكونت وكيل الوكالة الفرنسوية والمسيو برتران قنصل فرنسا في العاصمة وجناب المسيو لويس العضو الفرنسوي في صندوق الدين وجناب المسيو باروى العضو الفرنسوي في السكة الحديد ٠ وحضر من رجال الحكومة وغيرهم سعادة يعقوب باشا ارتين وكيل المعارف العمومية واسمعيل باشا صبري وكيل الحقانية ومحمود باشا شكري وقاليني باشا فهمي مراقب الاموال غير المقررة وهراري باشا مدير عموم الحسابات وعزتلو طوبيا بك كامل وعزتلو الدكتور علوي بك وجميع ارباب الصحف اليومية العربية وكثيرون من ارباب الصحف الاخرى وكل وجهاء السوريين الذين حسبوا ان المصاب مصابهم ٠ ثم سارت الجنازة في موكب حافل من دار الفقيد الى

الكنيسة الرضوانية تتقدمها رجال البوليس مشاة وفرساناً وقواصة القناصل لخدمة الدين وفي اولهم نيافة السيد اثناسيوس ناصر مطران الروم الكاثوليك في العاصمة ونياشين الفقيد على وسادة من القطيفة فبساطا الرحمة يحملها حضرة محمود باشا شكري وعزتلو طوبيا بك كامل مراقب املاك الميري الحرة والمسيو جورج عيد قنصل البلجيك في العاصمة ونقولا بك توما والمسيو نقولا قصيري ترجمان قنصلية فرنسا والمسيو بريفا واحدنا الدكتور يعقوب صروف فتلامذة الراهبات بالملابس البيضاء فنعش الفقيد تقله مركبة يجرها ستة جياد وعليه بدلة الفقيد الرسمية وكثير من الاكاليل الفاخرة ويتلوه حملة الاكاليل فالمشيعون وراءهم المركبات العديدة وما زالوا سائرين على هذا النظام الى ان بلغوا الكنيسة حيث صلى عليه نيافة المطران وبقية الكهنة المحترمين

ثم ساروا به الى مدفن الروم الكاثوليك في مصر القديمة ووضعوا النعش في كنيسته حيث أبنه حضرات يوسف افندي البستاني بلسان محرري جريدة الاهرام وغيرهم من الاهل والاصدقاء وتلاه المسيو مانس محرر البيراميد فوفاه حقه من الرثاء والتأبين وعقبهما حضرة نقولا بك توما فأبنه ذاكراً فضله واجتهاده وقال انه كان قدوة لمعاصريه في الجد والاقدام لاحراز المعالي فنالها بسعيه فكان لكلامه وقع في النفوس ثم أودعوا الفقيد اللحد وعادوا يستمطرون له سحب الرحمة والرضوان ويسألون لنجله وباقي آله الكرام الصبر والسلوان

وقال اللواء

كل من عليها فانٍ

نعي الينا النعاة صباح اليوم المأسوف عليه بشارة باشا تقلا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد . لحزنا غاية الحزن على فقده واسفنا أزيد الاسف على موته

توفي ليلة البارحة في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين بعد منتصف الليل فبكاه الاهل والاصدقاء وندبته عائلة كان فيها مثال العمل والنشاط والحنان عليها والانعطاف نحو الصغير والكبير فيها

وافته المنون بعد ان مرض اياماً قلائل عاد اليه في اواخرها شيء من الصحة والقوة فامل أهله وأملنا خيراً . الا انها الاجال محددة لا تتأخر لحظة ولا تتقدم أبداً

مات الفقيد في الثامنة والاربعين من عمره وهو في غاية من القوة والصحة والعافية تضرب به الامثال في الجد والنشاط والاقدام وعدم القنوط من غاية يسعى وراءها ومطالب يرمي اليه . فلم يكن يعرف الراحة في عمله . ولم يرَ مرة لاهياً عن شيء يقدم جريدتيه أو يزيد في اقبال الناس عليهما

خدم الصحافة اعواماً طوالاً وذاق حلوها ومرها وساح الممالك وطاف البلدان وارتبط بالكثيرين من كتاب الغرب وساسته. وقد نالت الاهرام في كثير من الاوقات والحوادث شأناً رفيعاً وشهرة عالية بجده وعزمه

أقبلت الدنيا عليه فوفق الله له زوجة صالحة مهذبة كاملة قل ان يوجد

لها مثيل في كمال الاخلاق وسمو الاداب وحدة الذهن ورقة الشعور فشاركته في اطوار حياته واحاطته بعناية فائقة وحنان لا مزيد عليه . ورزقه الله ولداً بالغ في الاعتناء بتربيته ليكون رجلاً كاملاً قادراً على القيام بالعبء الذي تركه له والده

إرتبط بالدولة العلية فالتفت اليه جلالة مولانا السلطان الاعظم التفاتاً عظيماً فانعم عليه باسمى الرتب والنياشين حتى نال رتبة روملي بكاربكي والنيشان المجيدي الاول وتوالت عليه رعايته الملوكانية والتفاته السامي

كان الفقيد ممن يخلصون لفرنسا ويعجبون بكتابها وادبائها فتعارف بالكثيرين منهم وارتبط بالحكومة الفرنسوية فعرفت له اخلاصه وعاملته معاملتها لكرام ابنائها

لم نكن مع الفقيد متفقين في كل رأي وفي كل مبدإ . ولكننا كنا نقدر صفاته وخلاله قدرها . ونعرف له نشاطه وجده وعزمه واهتمامه بشؤون محرري جريدتيه وعماله وعنايته براحتهم وسعادتهم وكل ما يؤدي الى نمو مداركهم وحسن معيشتهم وغير ذلك من الصفات المحمودة والاعمال المشكورة

فموته اليوم في بهجة الحياة ونضارتها يحزننا ويحزن كل اصدقائه وعارفيه ويهدم ركناً من اركان الصحافة المصرية

فنقدم الى قرينته الاسيفة ونجله وشقيقيه وسائر اعضاء عائلته عبارات التعزية الصادقة ونسأل الله ان لا يريهم مكروهاً بعد هذا ويلهمهم جميل الصبر والسلوان

وقال في عدد آخر

نشرنا بالامس خبر وفاة الطيب الذكر الباقي الاثر نقلا باشا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد. ونقول اليوم انه لم يبلغ نعيه المسامع حتى صدع كثيراً من قلوب العارفين بشمائله وأدمى سائر عيون محبيه وهرع الجم الغفير الى منزله يقاسمون اهله وذوي قرباه احزانهم ويشاركونهم في مصابهم ولم تأتِ الساعة الرابعة بعد ظهر الامس حتى خرجت جنازته وسارت الى كنيسة الرضوانية في مشهد حافل بالذوات والاعيان وارباب الصحافة وغيرهم من رجال الاقلام على اختلاف نزعاتها . وكان الكل كأنما على رؤوسهم الطير تأثراً من الحزن وهيبة لجلال المقام . وان تحركت يد فلمسح العيون من مدامعها او تفقد القلوب في مواضعها وان فاه فم فبذكر محاسن الفقيد وما اكثر محاسنه

وصل الجناز على هذا الحال الى كنيسة الرضوانية حيث أقيمت عليه الصلاة والرسوم الدينية ثم سار سريره محفوفاً بهذا الجمع الى مصر القديمة حيث ووري التراب مودعاً باسف القلوب وحسرات الصدور

وقد قام الخطباء على رمسه معددين مناقب الفقيد واعماله في امسه وما قبل امسه ومنهم حضرة يوسف افندي البستاني وجناب المسيو منس وعزتلو نقولا بك توما وقد اطال هذا الخطيب فيما ذكر من شمائله واعماله وهمته التي كانت لا تعرف الكلال فاطاب وأثر أشد تأثير . طيب الله ثرى الفقيد وعزى آله واصدقاءه خير العزاء والهمهم جميل الصبر

وقال البصير

بشاره تقلا

رنت اليوم اسلاك البرق بخبر اشتد وقعه على الصحافة والاداب وعظمت فيه رزيئة المنشئين والكتاب فقد نعي الينا من القاهرة رصيفنا القديم وصديقنا الفاضل الحميم المأسوف عليه بشاره باشا تقلا منشيء الاهرام وزعيم الصحافة العربية بالاطلاق وصاحب الشهرة الذائعة المالئة الافاق الذي انشأ معالم الصحافة في الشرق ورفع منارها واجمل بحسن مساعيه اثارها واخبارها بل الصحافي العظيم الذي لبث في خدمة الصحافة خمساً وعشرين سنة ما كلّ له في خدمتها قلم ولا ونت له في حسن السعي لها يد او قدم حتى نشر مبداها في الشرق كله فلم يخلُ منه بلد وحببها بحسن ذوقه الى نفوس القارئين بعد ان لم يكن يقبل عليها احد فاذا حزنت عليه الصحافة فانما تحزن على واضع اساسها وحامل نبراسها والقيم على حبرها وقرطاسها واذا بكاه كتاب الصحف العربية فانما يبكون شيخهم الافضل واستاذهم الاول اذ اي كاتب من كتاب صحائفنا لم تكن الاهرام له مدرسة وأية جريدة نشأت بعدها ولم تكن على طريقتها مؤسسة ولقد كان من هم الصحائف في هذا الحين ان تقيم اليوبيل الفضي لزميلها الاستاذ القديم فابى القدر الا استبدال حفلتها بحفلة المأتم الاليم فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

ولقد كانت وفاة فقيدنا رحمه الله في القاهرة عن نحو خمسين عاماً اثر علة شديدة لزمته اياماً قليلة فاشتد الجزع والقلق عليه في جميع البلاد حتى

عاوده اول امس شيء من العافية فاستبشرت القلوب بانها مقدمة لتمام شفائه ولكن ابى الله الا اصابتنا بفقده فقضي تنفطر على اثره الاكباد والنفوس ومضى والصحافة تقول لا عطر بعد عروس رحمه الله عداد مبراته وحسناته وعزى والدته وارملته وسائر اسرته الحزينة على فقده واسكنه في دار النعيم من جناته

وقالت جريدة مصر

تقلا باشا

فجعت الصحافة المصرية في الساعة الثانية ونصف من صباح هذا اليوم بفقد المرحوم المأسوف عليه بشاره باشا تقلا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد توفاه الله عقب المرض الذي اشرنا اليه قبل الآن فكان لخبر انتقاله وقع شديد في النفوس لانه كان رحمه الله اكبر اركان الصحافة العربية وجريدته اقدم الجرائد المصرية اليومية وقد نال الرتب العالية وآيات الفخر والاكرام اكثر من اصحاب الجرائد الاخرى . انعمت عليه الدولة العلية برتبة روملي بكاربكي وبالوسامات العثمانية والمجيدية ومنحته دولة فرنسا وسام اللجيون دونور وجاءته الاوسمة من دول أخرى كثيرة حتى انها جاءت بطلب منه لكثير من اقاربه واعوانه لانه نال حظوة عليا في الاستانه وتشرف بمقابلة جلالة السلطان غير مرة وتعرف بالكبراء والامراء والوزراء في هذا القطر وغيره وكان يقابل العظماء من حين الى حين وينقل عنهم الافكار والاخبار الى حد لم يروَ عن غيره من اهل

الشرق . وقد كان الفقيد من اصحاب الهمة العالية والاقدام الكبير والنشاط الغريب جمع ثروة بجده وسعيه ووصل الى حيث لم يصل اصحاب الصحف العربية بعد باقدامه وحسن تدبيره فلا غرو اذا قلنا ان الصحافة المصرية خسرت بفقده اكبر رجالها او اذا عم الاسف على فقده بين المصريين والسوريين والذين عرفوه من الاوروبيين . ألهم الله حضرة قرينته المكرمة ونجله الوحيد وشقيقيه ووالدته الثكلى جميل الصبر على هذا المصاب

وستشيع جثة الفقيد الساعة الرابعة بعد الظهر من منزله بشارع الساحة الى كنيسة الرضوانية للروم الكاثوليك بمشهد حافل يتقدمه قناصل الدول وجمهور كبير من كبراء الموظفين ووجهاء الوطنيين والاجانب

وقد اتانا من ادارة جريدتي الاهرام والبيراميد ان الجريدتين لا تصدران في ايام المأتم الثلاثة حداداً على فقيدهما ورئيس تحريرهما

وقالت في عدد آخر

وفت الصحف المصرية على اختلاف مشاربها وانواعها فقيدها الطيب الذكر نقلا باشا حق التأبين والرثاء يوم مماته واتفق كتابها على مدحه في تفننه واجتهاده في اعلاء شأن الصحافة وكان كذلك طيب الله ثراه يتمنى ان ينظر الاتفاق في خدمة الصحافة وكان رائده طول حياته فلم تبقَ جريدة إلا اعترفت له بالفضل الاكبر في خدمة الصحافة والاداب في هذه الديار وبانه اول من أعلى شأن القلم ومهد للمنشئين طرق الكتابة ونشر الافكار

ولم يكن بين الباكين عليه والذين شيعوا جنازته اول امس اشد تأثراً على فقده من زملائه الذين لم يكونوا واياه على اتفاق في المبادئ والآراء حال

حياته وهذا من اكبر الشواهد على سمو منزلة الفقيد حتى في نفوس الذين
كانوا يخالفونه في المبدإ والرأي ولقد كان الاحتفال بجنازته اول امس العصر
مؤثراً مهيباً فتقدم مشهده كوكبة من البوليس فرساناً ومشاة ثم تلميذات مدرسة
اليتامى حاملات الشموع ثم قواصة القناصل فاحد محرري الاهرام حاملاً
الاوسمة التي نالها الفقيد في حياته من الدول فجمهور الكهنة فبساطا الرحمة
يحملهما ثمانية من الكبراء نذكر منهم صاحبي السعادة محمود باشا شكري وقليني
باشا فهمي والباقون من اصدقاء الفقيد الاوروبيين ثم النعش وعليه عشرات
من الاكاليل التي لم يبقَ في المركبة التي تقله موضع لها فحملت في مركبات
أخري ثم جمهور المشيعين من القناصل وكبراء الموظفين ورجال الصحافة
وكتابها يتقدمهم نجله الصغير الوحيد مطرق الرأس حزناً واكتئاباً . وقد تفضل
سمو الخديوي المعظم فارسل تلغراف تعزية الى عائلته الحزينة وكان حضرة
علي بك كامل ينوب عنه في تشييع الجنازة

وعلى هذا الترتيب سار مشهده من منزله في باب اللوق الى كنيسة
الرضوانية للروم الكاثوليك في قنطرة الدكة والناس من ورائه يبكون ويذكرون
محاسنه آسفين لماته وعظم المصاب على قرينته المكرمة وولده ووالدته الثكلى
واقاربه . ثم صلي عليه الصلاة الاخيرة وحمل الى مدفن مصر العتيقة وهناك
وقف حضرة الكاتب الاديب يوسف افندي البستاني احد محرري الاهرام
فودعه بلسانه ولسان زملائه في جريدة الاهرام ثم تلاه جناب المسيو مانس
محرر البيراميد برثاء فرنساوي العبارة ووقف بعدهما حضرة الاصولي البارع
نقولا بك توما فعدد مناقبه والهمة التي حواها في صدره فصيرته عظيماً والوفاء
الذي كان احدى صفاته الحسناء في معاملة اخوانه واصدقائه الكثيرين بعبارة

أسالت العبرات وضاعفت الحسرات وكان التأثر شديداً في نفس الخطيب ظاهراً على كلماته ثم خنقته العبرات فاقتضب الرثاء وحمل الفقيد الى لحده فوسعته حجرة ضيقة وقد كانت الدنيا تضيق بآماله ومطامع نفسه الكبيرة وتفرق المشيعون وهم يتطلبون ان يجعل الله الجنة مثواه ويحسن عزاء اهله ومحبيه

وهكذا ذهب نقلا باشا الى العالم الثاني ولكن ذكره سيبقى حياً في النفوس والخواطر ما بقيت الصحافة والاقلام

وقال الوطن

المصاب العظيم

يحق اليوم لارباب الصحف ورجال الاقلام ان يحملوا شعار الحداد ويذرفوا العبرات ويصعدوا الزفرات على فقد اقدم زعمائهم واعظم رجالهم وهيهات ان ينفع البكاء او يفيد الرثاء امام هذا المصاب العظيم والخطب الاليم

أجل فقد انتشر صباح اليوم خبر انتقال صاحب السعادة { نقلا باشا } الى رحمة الله بعد داء عياء لم تنجع فيه حيل الاطباء فهال هذا الامر كل اصدقائه وزملائه الذين كانوا ينتظرون له الشفاء ويطمئنون بقرب نقاهته وتعافيه جمهور القراء

قضى نقلا باشا بعد ان خدم الصحافة العربية مع المرحوم شقيقه سليم بك نقلا اجل خدمة وجاهدا في سبيل احيائها واعلاء منارها في بلاد لم

يكن لها فيها ادنى اعتبار او شأن يذكر وقد قدرت الامة بعد ذلك اتعابهما حق قدرهما واعترفت لهما بالفضل والسبق فصادفا من كبار رجالها واعاظم قوادها مزيد التعضيد والتنشيط واحرز في سابق ايامهما من النجاح والفوز والفلاح اوفر نصيب

اما نقلا باشا فقيد اليوم فقد اشتهر بين الملإ بالجد والاجتهاد والمثابرة والنشاط مع حسن الطوية وهي صفات يعترف له بها كل من عاشره او كان له بسعادته سابق معرفة ولذلك شق نعيه على الجميع وحزن لفقده كل ذي احساس وشعور على اختلاف المذاهب والمشارب حتى كأنه المقصود بقول الشاعر

كأنك من كل النفوس مركبٌ فانت الى كل الانام حبيبُ

ومما زاد في طنبور الحزن نغمة ان زعيم الصحافة المرحوم كان لم يزل في سن الكهولة وامارات الصحة وكمال العافية على محياه ولذلك الامة كانت تنتظر ان يعمر اكثر من ذلك ويخدم البلاد بقلمه السيال وافكاره السديدة عدة سنين أخرى ولكن

ما كل ما يتمنى المرء يدركهُ تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وستشيع جنازة الفقيد بعد ظهر اليوم باحتفال يليق باسرته الكريمة تغمده الله برحمته ورضوانه واسكنه فسيح جنانه والهم آله وذويه وجميع زملائه من الصحافيين جميل الصبر وجزيل العزاء

وقال الرائد المصري

فجعت الصحافة العربية عامة والصحافة المصرية خاصة بوفاة اقدم رجالها واكبر زعمائها المرحوم المأسوف عليه بشارة باشا تقلا وقد كان لمنعاه رنة اسف وحزن في القطر المصري والبلاد العربية كلها وجاءت وفاته كارثة شديدة على المحابر والاقلام

أصيب رحمهُ الله بمرض تخبط الاطباء في تشخيصه فلم يهتدوا الى علاجه فكثر بينهم الحجاج واللجاج والمرض لا يعبأ باختلافهم ويعضل من يوم الى يوم الى ان دنا الاجل المحتوم فامهل المريض يومين يودع بهما اهله ويقبل لاخر مرة ولده الاسيف فحسب الاطباء ذلك تحسناً وبشرونا فبشرنا القراء وقبل ان يتم انتعاش النفوس فاجأها نعيه فبكته العيون وشقت عليه المرائر

اخلاق الفقيد — امتاز المأسوف عليه بشارة تقلا عن جميع رجال الصحافة العربية بالجرأة والاقدام والمزاولة والثبات وهذه الفضائل كانت اساس تقدمه ودعامة نجاحه وكان في اخلاقه الشخصية وافر المرؤة لا يتأخر عن السعي لخدمه كل من طلب مساعدته ولم يعد مرة الا وعد صادق منجز ولم يكن يألف بطبعه الرياء والمداهنة فاذا غضب من امر او استاء من احد ظهرت دلائل ذلك على وجهه وفي اعماله وكان غيوراً على عمال ادارته يتمنى لهم الخير ويحثهم على الكسب والاقتصاد واذا بلغه ان واحداً منهم اقتصد شيئاً من ايراده كان يفرح ويحثه على استزادته

الفقيد صحافياً — وقد امتاز من حيث الصحافة بانه كان لا يكل ولا يمل

في خدمة جرائده وكان يقضي معظم وقته في تلقف الاخبار من مصادرها ومبادلة الافكار في كل موضوع مع من تكون لهم علاقة به حتى اذا ملأ وطابه كتب ما يكون قد تحصل عليه من الافكار والاخبار وعلق عليها اراءه الخصوصية ونشرها على صفحات جرائده ولم يكن يهمه في ما يخطر له نشره ان كان يرضي بذلك زيداً او يغضب عمراً وآخر الادلة على ذلك قيامه ضد السماسرة من عهد قريب فانه مع علمه باقتدار تلك الزمرة انتقد اعمال افرادها وتصرفاتهم بلا مبالاة بهم ونوادره من هذا القبيل كثيرة يعد منها ولا تعد

جرأة الفقيد — وكان رحمه الله يقدر نفسه قدرها ولهذا كانت فيه جرأة يندر ان يكون بعضها عند غيره ممن وجدوا في ظروف كظروفه وبهذه الجرأة نهض بنفسه الى مقام الوجهاء الكبار فتشرف مراراً بمقابلة جلالة السلطان وكانت له دالة على الخديوين السابقين ومعاشرة ومباسطة مع كثير من الامراء والوزراء فاذا ضمه مجلس وعظيماً لم يكن يخطر بباله ان بينهما تفاوتاً في المقام

القابه ورتبه — وقد نال الفقيد كثيراً من الرتب والالقاب فتحصل على رتبة روم ايلي بكلربكي وعلى المجيدي الاول من الدولة العلية ونيشان سان استانس الروسي ونيشان لجيون دنور الفرنسوي ونيشان المخلص اليوناني ونيشان الافتخار التونسي ونيشان اليصابات الاسباني وغير ذلك من علامات الشرف والنشانات التي تبلغ الاربعة عشر عداً

ثروة الفقيد — لو سلمت جميع الاموال التي دخلت ادارة الاهرام من عاديات الايام لكان من اكابر الاغنياء في الشرق ولكن معظمها ضاع في

تجارات لم تكن للفقيد يد فيها فكان هو يجمع وغيره يفرق ومع ذلك فقد ترك ثروة لذويه من بعده

مآثر الفقيد — من مآثره رحمة الله عليه انه اول من استمال عقول الفلاحين الى الصحافة وعلمهم ان يرفعوا شكواهم على صفحاتها

امرأة الفقيد وابنه — كان لهذا الرجل سعي مقرون بالتوفيق وقد اتم له الله ذلك التوفيق بالسيدة الفاضلة التي اقترن بها فانها فريدة في عقد النساء جامعة للعلم والعقل والفضيلة والنبل وقد عاشا معاً اثنتي عشرة سنة كانت عهد نعيم لهما ولم يرزقهما الله الا غلاماً هو في الحادية عشرة الان من عمره وعنده من مخائل النجابة والنشاط ما يدل على انه سيكون خير خلف لابيه ان شاءالله تعالى

مشهده — أصبحت العاصمة يوم السبت الماضي كما تصبح المدن الكبيرة عقيب اصابتها بكارثة عامة ولم يكن للناس حديث الا ذكر الفقيد وذكر مآثره والترحم عليه ولما كانت الساعة ٤ بعد الظهر مشى مشهد الجنازة من منزله بشارع الساحة الى كنيسة الرضوانية وتقدم التابوت بساطان للرحمة حملهما اصحاب السعادة محمود باشا شكري ويعقوب باشا ارتين وقاليني باشا ونقولا بك توما وطوبيا بك كامل والافوكاتو بريفا والمسيو قصيري من رجال قنصلاتو فرنسا

وبعد اقامة الصلاة سار الموكب الى مصر القديمة وقبل ان واروه التراب ابنه حضرة يوسف افندي البستاني احد محرري الاهرام والمسيو مانس محرر البيراميد بما يليق بالمقام ثم تلاهما حضرة الخطيب اللسن نقولا بك توما فاستدر الدموع من العيون والذي زاد في التأثير على سامعي كلامه

انه اجتمع في الخطيب حسن الالقاء والشعور الحقيقي لان دموعه لم تكف عن الانهمال مدة وقوفه مؤبناً وقبلها وبعدها وخلاصة ما قاله ان الفقيد وجد في وقت كانت فيه الناس طبقات يمتاز بعضها عن بعض من حيث المال والجاه ولم يكن احد من طبقة معلومة ليطمع في الوصول الى الطبقة التي فوقها ولكن الفقيد كان اول من رأى ان الدنيا مجال واسع للمجتهد وان الفقير باجتهاده يصبح غنياً فسافر وكافح حتى وصل الى اسمى ما تطمح اليه ابصار ذوي الجد وكان بذلك قدوة لكثيرين ممن هدوا هديه وجروا على آثاره وخرج منهم اناس تفاخر بهم الاوطان

ولما انشأ جريدته انتشرت في البلاد مع كثرة ما كان يحول دون ذلك من الموانع وكان اول رجل في الشرق اذاع فكراً وابدى رأياً في مهام الامور والسياسة ولم يكن الجريء قبله يجسر على اكثر من الهمس فيما بين اهله واخصائه بشيءٍ من هذا القبيل وقد عانى دون ذلك ما عانى ثم فاز واقتفى اثره بعض الفضلاء فأنشأوا الصحف المتعددة واصبح ما كان لا يجرأ اعاظم الناس على المذاكرة فيه امراً عادياً يقوله من يشاء ويعيده من يشاء

وفي الختام عزى الخطيب آل الفقيد بارق العبارات ثم نظر الى نعش صديقه والدموع جارية من عينيه فودعه بصوت متهدج تقاطعه الزفرات وداعاً تفطرت له القلوب

ثم حمل النعش الى المدفن وأودع التراب في مشهد متناهٍ في الجلالة نسأل الله ان يتغمد هذا الراحل العزيز برحمته ويفسح له في جناته ويهب الصبر الجميل والعزاء الحسن لارملته الفاضلة ونجله الاسيف ووالدته الجليلة واخوته المحزونين انه ارحم الراحمين

وقال الاخلاص

دمعة محرقة

ما كدنا نفرغ من رثاء كاتب حتى جاءنا نعي عظيم فاتبعنا النعي بالنعي كما تتبع الدمعة الدمعة فبالامس انطفأت اول روح صحفية نفخت في مصر واحترقت اول فكرة طبعت فيها على ورق فالرحمة للروح المنطفئة والرحمة للفكرة المحترقة

توفي بعد منتصف ليل السبت المنصرم المرحوم المأسوف عليه بشارة تقلا باشا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد الافرنسية الرجل الشرقي الفرد الذي فهم الصحافة فقدسها وعرفت الصحافة رجلها فرفعت شأنه . فقد سكتت غرفته بعدما كانت ممتلئة به حركة وعملاً وانقطع صدى صوته من ذلك البناء الفخيم فما عادت تستأنس الطاولة بيده الحديدية بعد ان اعتادت عليها ربع قرن او اكثر كانت تجاهد فوقها جهاد الانبياء . ولا عاد يرجف السلم تحت قدميه الفولاذيتين ولقد كان ينفق النهار نازلاً صاعداً عليه بين مكتبه وادارة العمل كاتباً آمراً ملاحظاً منبهاً منشطاً عاملاً يتعب السلم من دوس قدميه ولا تتعب قدماه من دوس السلم فقد مات الرجل الذي يحق له ان يقول انني عشت ولم انم فقد كانت كل حياتي نهاراً لان كل حياتي كانت عملاً

كان في صدر فقيد الصحافة العربية روح كأنها قطعة من نار تلتهم العمل التهاماً فقد اخبرني عارف به قال ان هذا الرجل آلة للعمل لا تهدأ ساعة

وليس انساناً فليس بعجيب بعد هذا ان يتعب دماغه فيختقن فقد استسلم هذا الدماغ للراحة بعد ان اشتغل ٢٥ عاماً

ما رأت الصحافة العربية منذ كان الشرق عهداً لها ومنذ ولدت اماً فيه ولداً من اولادها العديدين عرف ان يخاطبها بلغتها وتخاطبه بلغته وان يفهم سرها وتفهم سره مثل فقيدنا العزيز فقد حق لنا ان نقول انه ابن الصحافة الوحيد فقد أحب امه واحبته هذه الام فارادت له كل ما تريده ام لولدها. الجاه والثروة والمقام ووهبته كل ما تملكه من هذه النفائس

مرض الفقيد منذ ايام وكان مرضه شديداً عليه مثل شدة دعاء محبيه بشفاءه فلبث يتقلب على فراش الداء اياماً يتراوح الموت بين دماغه وامعاءه فيشتد عليه احياناً ويرفق بهِ حيناً وهو بين هذا وذاك مستسلم للقضاء مسلم للعناية متكل على الله الى ان وافته دعوته فنعاه لنا الناعون بعد ان نعي مراراً من قبل حتى حق له ان يقول

ان كان ما بلغت عني كاذباً فغداً سيصدق ليس حي باقيا

ومما لا يختلف فيهِ اثنان ان الرجل كان كبيراً في فكره كبيراً في علمه كبيراً في ادبه كبيراً في كل مواهبه رأى ان كفرشيما وطنه الاول ومسقط رأسه مرسحاً صغيراً له فغادرها يطالب مرسحاً اكبر ودائرة اكثر اتساعاً فخطر له اذ ذاك ان يجيء مصر فجاءها كاتباً رأس ماله علمه واجتهاده وليس هذان بالرأس مال القليل فكتب مفكراً وعمل نشيطاً حتى لعب دوراً كبيراً في بلاد وادي النيل وكان تاريخه متصلاً بتاريخ حوادثها الاخيرة فكان المنبه الموقظ والمرشد الحكيم والمحذر العاقل يبصر كل ما يمثل داخل الستار ويعرف كل ما يدور في الفكر من المشاريع وكان من وثوق ابن اسماعيل وولي

عهده به انه وضع في صدره اعظم سر عنده وقد كانت الحرب سجالاً والمداولات مشتغلة بين ابيه وقناصل الدول فعمل بما عهد اليه حتى كان من امره ما كان ومن حوادثه ما ليس من غرضنا بيانه الآن

ساح فقيد الصحافة عواصم الغرب فقابل كبراءها وعظماءها وساستها وكان له معهم كلمة تقال وفكرة تسمع ورأي يجل وهو اول من صنع هذا الصنيع من رجال صحافة الشرق وآخر من يستطيع ان يصنع مثله منهم فقابل وخاطب وناقش وحدث وروى فكان الخادم لوطنه سراً وجهراً المخلص لمواطنيه عملاً وفكراً

اشتهر بحسن ادارته حتى انه كان يدير الاهرام وصدى الاهرام في الاسكندرية والبيراميد وهي ثلاث جرائد يومية يعجز عن ادارتها ثلاثة رجال من اعاظم مديري الصحف في الغرب ثم ينظر في المطبعة واطيانه واملاكه ويقابل مريديه ويسعى لسائليه ويجالس محبيه فكان اثني عشر رجلاً في رجل واحد . وعرف بثباته على العمل ونشاطه وكفى على هذين برهاناً انه كان يدور الريف يوم كان لا يقرأ احد صحيفة ولا يطالع امرؤ جريدة فيرجع من دورته كلها بمائة مشترك او اقل ومع كل هذا فلم تضعف قلة قراءه ثباته ونشاطه فهو اعظم رجل تستطيع ان تكرمه الصحف العربية في مصر لانه اعظم رجل سعى في خدمة الصحف العربية في مصر فلولاه لما رأينا هذه الحركة الصحفية الكبرى ولولاه لما قام للصحافة قائمة على ضفتي نهر النيل

ومما زاده نشاطاً وعملاً وسعياً راحته الداخلية فهي اكبر عامل يريح الرجل او يتعبه فقد وهبه الله امرأة مثلت فيها كل مواهب النساء الفاضلات المرأة الفاضلة زوجة الرجل والام الحنون مربية البنين والسيدة الكريمة ربة البيت

فحملت عنه قسماً كبيراً من مشاق الحياة كانت راحته اذا تعب وعزاءه اذا حزن وربحه اذا خسر وكانت كنزه الكبير في بيته فلها قسم كبير من عمله لانها فسحت له الوقت للعمل ولها قسم كبير من حياته لانها كانت كل حياته الكبيرة في حياته الصغيرة

بلغ الثامنة والاربعين من سنيه فقضى في العمر الذي قضى به المرحوم اخوه او اكبر قليلاً فكأنهما اتفقا على ان يعملا سوية وان يموتا في عمر واحد وكأنهما كانا على ميعاد

رحمه الله رحمة واسعة قدر جهاده وعزى قلب ارملته الحزينة وامه الثاكلة وابنه الوحيد الاسيف الذي عرف اليتم قبل ان يكتمل بدره واخويه الكريمين وجميع مأموريه واجمل عزاء اصدقائه ومحبيه فيه انه اكرم مسئول واقرب مجيب

(حفلة الجنازة)

ما ازفت الساعة الرابعة من بعد ظهر اول امس حتى اجتمعت مئات من الخلق امام دار المرحوم المأسوف عليه بشارة تقلا باشا ليشيعوا الراكب عربته الاخيرة والذاهب الى مسكنه الاخير فنزلوا به من مسكنه ضمن نعش من النحاس الابيض الجميل واركبوه العربة تجرها ستة جياد من الخيل وقد امتلأت باكلة الزهر واحاط بها اربعة من الفرسان ومشى امامها يسقجية قناصل الدول وجنود من الفرسان والمشاة ثم بنات الراهبات تتقدمهنّ راية الصليب المقدس يحملن الشموع فحضرة صاحب النيافة المطران اثناسيوس ناصر وقد حضر من الاسكندرية ولفيف الاكليروس الروم الكاثوليكي وباقي الاكليروس الكاثوليكي فحامل وسادة من الحرير الجميل وضعت عليها اوسمة الفقيد التي احرزها

باجتهاده ونشاطه فبساط الرحمة يمسكه اربعة من اكابر الفضلاء ووراء العربة نجله الاسيف وعزة اخيه حبيب بك تقلا والاهل والانسباء وارباب الصحف العربية والاجنبية واكابر الوطنيين والاجانب وفي مقدمة الجميع حضرة عزتلو علي بك كامل احد رجال التشريفات الخديوية نائباً عن سمو عزيز مصر لحضرة صاحب السعادة والاقبال محمود باشا شكري رئيس ديوان تركي خديوي سابق فسعادة قليني باشا مراقب الاموال الغير المقررة لحضرة الكونت سكاكيني باشا فئات من الشعب وكلهم آسف مترحم عليه يذكر من مآثره ما يحمد ومن محامده ما يضوع فساروا حتى بلغوا بهِ الكنيسة حيث صلى عليه نيافة المطران اثناسيوس وعموم الاكليروس الكاثوليكي ثم خرجوا بالفقيد في مثل المشهد الذي جاءوا به ولما وصلوا المدفن في مصر العتيقه أبنه حضرة الكاتب الاديب يوسف افندي البستاني احد محرري الاهرام مودعاً من قبل ادارة الاهرام فالمسيو بول مانس رئيس تحرير جريدة البيراميد الافرنسية لحضرة المحامي البارع والخطيب اللسن نقولا بك توما فأنزل الدموع واستنزف العبرات فواروا منه في اللحد بقية الفضل والمجد وعاد الجميع يسألون للثاوي في رحمة ربه صيب الرحمة والرضوان ولآله وذويه جميل العزاء والسلوان

وقال الصباح

رزء عظيم

يعزّ على قلم هذا الحزين ان يخط نبأ فاجعة ولا كالانباء . ويكتب نعي

رجل يعز في جنبه العزاء . ويجول في تأبين عظيم في مقدمة الكبراء والعظماء .
عماد الصحافة في الشرق وكبيرها . ومقدامها الفرد ونحريرها صاحب الايادي
البيضاء والافكار الثاقبة والسياسي المحنك والمطلع الخبير بشارة باشا تقلا صاحب
جريدتي الاهرام والبيراميد اليوميتين

وصل الينا هذا النعي والجريدة معدة للطابع فنزل على قاب هذا الحزين
نزول الصاعقة فعين تدمع . وفؤاد يتقطع . ومهجة حرى . ومقلة شكرى . وانا
لله وانا اليه راجعون

انتقل الى رحمة ربه في مصر القاهرة اثر داءٍ عياءٍ قصرت عنده حيل
الاطباء . ولم ينجح فيهِ دواءٌ . ولا استجاب الله سبحانه وتعالى فيه دعاءً . فلبى
دعوة ربه تاركاً دار الفناءِ والشقاءِ الى مقر النعيم في دار البقاءِ

اشتد عليهِ المرض رحمه الله في اوائل هذا الشهر فهلعت له القلوب
وانبسطت الايدي بالدعاء لله بسلامته وحفظه وجعلت الاهرام تصدر فتطمئن
خواطر قرائها في كل يوم والناس متطلعون اليها مشفقون عليها والرسائل
التلغرافية تترى في كل ساعة بالاستخبار عنه حتى صدرت الاهرام يوم الجمعة
فتخاطفتها الايدي وفتشتها الانظار لتقف على ما يكون فيهِ الاطمئنان فلم يرَ
الناس فيها خبراً عن صاحبها فقلقت افكارهم وكثرت هواجسهم الى منتصف
ليلة السبت حيث حل القدر ولم ينفع الحذر . ولا اغنى الاشفاق ولا
استجيب دعا

كان الذي خفت أن يكونا　　انا الى الله راجعونا

مات هذا الفاضل العظيم فبكاه الفضل والعلم والعمل والاجتهاد . وقضى
الى رحمة ربه فخسر الوطن اعظم رجل له في الدفاع عنه اعظم جهاد . عرف

رحمه الله ان المرء خلق ليعمل وادرك ان اشرف عمل انما هو القيام بخدمة الوطن فلم يترك دقيقة تمر من حياته دون عمل بين التحرير والتحبير والانشاء فيما يهدي الامة الى الصواب ويدفع عن الوطن شر النوازل فكان العامل المجتهد والوطني الحر ولم تشغله الثروة والغنى ووجاهة ما هو فيه من رفعة القدر وعظيم المنزلة عن واجب الخدمة العامة والجهاد في سبيل وطنه المحبوب خطة اتخذها عن فقيد الوطن والعلم اخيه السليم الذي جددت هذه الفاجعة عليه الاحزان . وحركت الاشجان لولا بقية امل بقيت في النفس ببقاء اخويه الفاضلين الدكتور ابرهيم بك وحبيب بك ونجل الفقيد الكريم جبرائيل فان منهم من يحفظ لهذه الاسرة الكريمة شرف الغاية التي سارت اليها وطريق المجد التي توختها في سلم هذه الحياة الدنيا . اذا مات منا سيدٌ قام سيدٌ

رحم الله فقيدنا الكريم عداد حسناته واسكنه فسيح جناته وامطر ضريحه شآبيب الرحمة والرضوان وغيث التوبة والغفران وبرد فؤاد تلك الوالدة الثاكلة وذر على جرح قلبها بلسم الصبر وعزى قرينته الحزينة واخويه ونجله وسائر آله واصدقائه ووطنه والهمنا جميعاً صبراً على فقده ومصيبتنا العظيمة فيه

وقال الكمال

كل من عليها فانٍ

واذا المنية انشبت اظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفعُ

رزئت الصحافة المصرية فجر امس بفقد اعظم اركانها واول من امتشق

حسام قلمه للذود عن حقوق الامة المصرية في وقت كان من المستحيل فيه على انسان ان يفوه ببنت شفة الا وهو الطيب الذكر المأسوف عليه بشارة تقلا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد

عاجلته المنون بعد مرض عشرين يوماً حار فيها الطب واعترف بان الله وحده الشافي من كل داء فلم ينفعه طب الاطباء ولا نطس الحكماء — مات عن نحو خمسين عاماً قضاها في الجد والكد وسهر الليالي على ترويج بضاعته بعزم اشد صلابة من الحديد وما انتشر نعيه في العاصمة صباح امس حتى علت الكآبة الوجوه وانقض الخبر على نفوسهم انقضاض الصاعقة على الاجسام وخصوصاً على الصحافة لانه كان صاحب المقام الاول بين القائمين بها

مات وخلف من بعده ذكراً حسناً وثروة طائلة اوجدها بما فطر عليه ايام حياته من النشاط والاجتهاد ولكن المقطع للاكباد انه لم يخلف وارثاً يمكنه ان يقوم باعماله حق القيام لان ولده الوحيد لم يبلغ عشراً من عمره ولم يتم دراسته لحد الآن مع شغف المرحوم بتربيته تربية حسنة ايام حياته وعندما سمع الجناب العالي منعاه اصدر امره لاحد رجال التشريفات بان ينوب عن سموه في تشييع جنازته بالنيابة عنه وهي مأثرة من سمو الخديوي يستحقها فقيد مثل المرحوم بشارة باشا خدم البلاد المصرية ربع قرن من الزمن وبالجملة فقد اثر نعي الفقيد في جميع طبقات الامة اذ لم يحن وقت تشييع الجنازة حتى ازدحمت الشوارع بالسائرين

ساروا بها ولكل باكٍ حولها صعقات موسى حين دك الطور

الى الكنيسة فصلى عليه لفيف من الكهنة برئاسة احد المطارنة وعادوا معددين فضائله متأسفين على جده واجتهاده

كل ابن انثى وان طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمولُ

ونحن كما نعزي نجله الصغير ووالدته الثكلى وقرينته الفاضلة واخوته واقرباءه وانسباءه نعزي الصحافة بفقده ونسأل الله لعائلته الصبر وجزيل السلوان وللفقيد الرحمة والغفران

وقال الاتحاد المصري

تقلا باشا

هوى اليوم طود من اطواد الفضل وركن من اركان الصحافة وعلم من اعلام النهى والحصافة بفقد الفاضل المأسوف عليه زعيم الصحافيين المصريين وكبيرهم ورافع رايتهم المرحوم بشاره تقلا باشا صاحب الاهرام والبيراميد وصدى الاهرام والوقت وصدى الوقت من قبلهما فما كدنا نفرغ يوم الخميس من نشر البشائر بخبر تقدمه الى الصحة حتى عاودته الحمى بكل ما اجتمع فيها من قوة الداء فقضى مساء الجمعة الماضي وحملت اسلاك البرق خبر هذا المصاب فما كنت ترى الا رؤوساً مطرقة ونفوساً جازعة وعيوناً دامية وانفاساً تصعد الزفرات ويحق لمصر ان تبكيه وللشام ان ترثيه فقد كان في اولاهما مؤسس الصحافة الوطنية وخادماً اميناً لمصر وابنائها وكان للثانية فخراً ثابتاً تعتز به بين اكفائها

وللفقيد ترجمة حال واسعة تضيق دونها بطون الصحف والاوراق واهم ما يذكر منها انه قضى خمساً وعشرين سنة في خدمة البلاد بالصداقة والاخلاص

ولم يقابل في اوروبا وزيراً او اميراً الا وقد بني القصد من مقابلته على استطلاع رأيه بشأن مصر واحوال مصر ومصير المسألة المصرية . ولا شك ان المصريين واحفادهم سيذكرون ذلك على توالي الاعوام ما ذكرت بينهم اثار مصر والاهرام

رحم الله فقيدنا واجمل عزاء آله وذويه والهم قلب والدته الحزينة بوجه خاص صبراً مقيماً فقد جاء مصابها اليوم بعد فقد السليم مصاباً عظيماً

وقال الرقيب

{ المرحوم بشاره باشا تقلا }

رزء عظيم وخطب جسيم اصيبت به الصحافة العربية الشرقية بوفاة احد اقطابها المأسوف عليه المرحوم سعادتلو افندم حضرتلري تقلا باشا مدير جريدة الاهرام والبيراميد شقيقتها الفرنسوية . وقد اتصل بنا هذا النبأ والجريدة تحت الطبع فوقع علينا وقع الصواعق على الرؤوس ولا سيما واننا كنا نؤمل لسعادته الشفاء القريب بناء على الاخبار السارة التي وردت امس واول امس عن تحسن صحته . اما علة الفقيد رحمه الله فقد كانت حمى شديدة وشللاً بالدماغ وهو داء عياء لا تنجع فيه حيل الاطباء . وقد قامت مصر وقعدت لمصرع فقيدها الذي قضى ربع قرن في خدمتها وحق لها ذلك وحق لجرائدها ان تلبس السواد وتندب فيه اول صحافي رقى شأن الصحافة في الشرق باقدامه وهمته ووسع نطاقها الى الحد الذي وصلت اليه والقلم ليقف

الآن عن ايفاء الفقيد حقه من الرثاء والندب فنكتفي بان نتقدم من صميم الفؤاد لاسرة تقلا الكريمة التي رزئت بوفاته رزءاً ما بعده رزوء عواطف التعزية والمشاركة في أحزانهم سائلين الله تعالى ان يبرد قلوبهم بماء السلوان ويتغمد الفقيد بالرحمة والرضوان

وقالت جريدة ابو الهول

والموت نقادٌ على كفهِ جواهرٌ يختار منها الجياد

لو كانت السعادة خالدة حقيقة في هذه الحياة الفانية لما مات بشاره باشا تقلا صاحب السعادة والوجاهة صاحب الثروة والاريحية صاحب الغيرة والوفاء صاحب المرؤة والولاء صاحب العلوم والسياسة صاحب الآداب والكياسة صاحب الافكار الثاقبة والآراء الصائبة صاحب الصفات الحميدة والسجايا الفريدة صاحب المقالات المشهورة والحركات المشكورة صاحب العزم والاقدام في خدمة الصالح العام صاحب النهضة والاجتهاد في ترقية شؤون البلاد صاحب السهم الفائز في مضمار الصحافة العربية فجعت بوفاته حيث ترك لها جريدتيه الاهرام والبيراميد يتيمتين تظلان تحت الوصاية والرعاية الى ان يبلغ شبله القاصر عن درجتي البلوغ والرشد اشده فيخلفه بآثاره المبرورة وبحسناته المشكورة

سطت عليه يد المنون فاخترمت نفسه الطاهرة الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين بعد نصف ليلة امس في منزله الكائن في شارع الساحة بالعاصمة عن ثمانية واربعين عاماً قضاها في خدمة الانسانية على اثر داء

اصاب دماغه المتوقد بالذكاء منذ ثلاثة اسابيع كابد في خلالها آلام الداء العياء الذي افنى مهارة نطس الاطباء وبينما كنا نعلل النفس ان نفتتح الانباء المحلية ببشرى عمومية لاهل الفضل ولرجال النبل بزوال بعض الخطر الذي كان محدقاً به نزل علينا نبأ المصاب بوفاته والجريدة ماثلة للطبع فشطبنا بشرى الهناء وانزلنا مكانها عبارات العزاء لاسرته الكريمة . عامل الله فقيد الوطن بوافر عفوه ورضوانه واسكنه فسيح جنانه وقيض لآله الصبر الجميل على احتمال هذا الرزء الجليل وسيحتفل بتشييع جنازته في الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم الى كنيسة الرضوانية للروم الكاثوليك وبعد الصلاة عليه يوارون منه بدراً في الثرى ويدفنون في قبره المكارم والمحامد والتقى

وقالت جريدة البوسطة .

وامصيبتاه

لم تبزغ شمس يوم السبت الماضي الا وقد ورد الينا نعي حضرة رصيفنا الفاضل بشارة باشا تقلا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد الاغرين الذي خدم البلاد وأحسن في عشرة العباد مما كان سبباً لتأثر الجميع عليه ولم يداوَ جرح فقيد اخيه سليم بك الا وكان جرح على جرح وهو اصعب ما يتألم منهُ الانسان فتكسرت النصال على النصال وسرى النعي حتى كدر البال وغير صافي الحال بلون الحداد على فقيد خدم البلاد وسعى في زوال الاستبداد كما اقر بهِ الكثير من المصريين الذين يقدرون الاعمال حق قدرها وينزلون

الرجال منازل فضلها وشيعت جنازته من منزله بباب اللوق في الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم الى الكنيسة الرضوانية بجهة قنطرة الدكة حيث مشى امامها من سكان مصر اعاظمها وأواسطها وكل عين من الاعيان تذرف الدموع على فاضل كان مشكور الصنيع محمود السعي حر الافكار مقتدٍ بفضائل شقيق سبقه الى الرضوان فهيأ له مكاناً ثم ناداه فلباه كما هيأ له حياته الدنيا ونعيم عيشه من المال والجاه وبعد الصيت وشرف النفس وعلو الهمة وخدمة الدولة فكان منظوراً من الجميع ومهبط انعامات الدول ومحل الالتفات بالحسنى كانا ولهم المنة على هذه الامة لانهما كانا لا يتحيزان الى باطلٍ ولا يرهبان قوة سيطرة امام الحق فهما الامامان الكاتبان النزيهان النشيطان لم يسمع عنهما اكتساب من غير وجه لائق ولم يرَ احدهما بمجلس سياسة الا وهو الفائق فنأسف عليهما ونعزي انفسنا على مصيبتهما كما نعزي اهل ذاك الحي الكرام ونطلب من الله عزّ وجلّ ان يحفظ الخلف ويطيل في الاجل حتى نراه وفق الامل ولا بدع فان هذا الشبل من ذاك الاسد وعهدنا بهِ في الرأي الاسد .

وحق علينا ان نشكر عواطف سمو ولي النعم لاسدائه على تلك العائلة حال الانعام والكرم حيث ارسل من قبله مندوباً على القدر لتعزيتهم والسعي في جناز فقيدهم فسارت الالسن تدعو الله ان يديم عزيز مصر وملك هذا العصر آمين .

ولنرجع بالحديث الى ذلك المشهد فلما ان وصل الجمع بذلك الفقيد الى قبر تتوارى فيه شمس الفضائل قبيل وقت الاصائل قام فأبنه صاحبه الفاضل نقولا بك توما بما أجرى الدموع وجاب الهلوع فخارت وخارت النفوس وذهب جيش الصبر وانهزم امام جيش الجزع حتى انثلم وعلم الناس مقدار تأثير

الفراق وطلب بكبد مقروحة سحائب الجود على هذا الفاضل بالاطلاق
وانصرفت تلك الجموع والحزن سماء تظللها وكان لا أرض تقلها لشدة التأثير
على هذا الفاضل النحرير

وقالت جريدة المحاكم

فقيد الصحافة

ذبلت ريحانة الادب . في بلاد العرب . وأفل بدر الشهرة من سماء الكتابة . وطوي العلم الاكبر من أعلام الوجاهة في عالم الصحافة . وغمد سيف العزيمة عن المضاء . واحتجب مثال الهمة بالانزواء . وهوى طود الفضل . واندك ركن الكرامة والنبل . مات المأسوف عليه واي اسف . والمحزون عليه بمزيد اللهف . من كان يدوي صدى رأيه في الآفاق . ويهاب امتشاق يراعه العظماء . مات المرحوم — نقلا باشا — وضمه القبر . وكان بالامس لم تسعه مصر . فوقع نعيه وقوع الصاعقة . وحل خطبه حلول الناجعة . وهلع لاجله قلب النشاط والهمة . وصدعت به افئدة الكرام من الامة . جاءه الموت فاخمد له الصوت . في الساعة الثانية والدقيقة ٣٥ بعد منتصف ليلة الجمعة الواقعة في الخامس عشر من هذا الشهر المشؤوم بعد ان مرض عشرين يوماً سمعنا في خلالها روايات اختلاف الاطباء في تشخيص علته وفي نهايتها انه جاوز الخطر وتماثل الى الشفاء ولكن اذا حل القدر . فلا طب ينفع ولا علم بشر .

مضى هذا الفقيد الكريم وعمره ثمانية واربعون ربيعاً قضاه في مغالبة التقاليد واعلاء شأن الصحافة في الشرق حتى بلغ شأواً لم يدركه سواه ولقب بالمكد المجد والحازم العازم والغيور الصبور . وله آثار في ربع قرن عاشه في عالم السياسة والتحرير تضيق عنها الاسفار . فهو اول من ناضل الاستبداد في زمنه جهاراً وجرأ الضعيف على طلب حقه ورفع صوته . وهو اول قدوة للكتاب في مصر من حيث المجاهرة بالفكر وانتقاد اعمال الحكومة والحكام وبث روح الحياة في عناصر الامة في سائر أزمنة الشدة والازمة . هو العصامي الذي جالس الملوك والسلاطين وحادث الامراء والوزراء وحاز ارفع الرتب والنياشين ونال الاسم العظيم في مشارق الارض ولم تبطره النعمة . وهو الفاضل في عمله الاديب في قوله المحتشم عن فلتات اللسان . الصافح عن زلات حساده ونمائم اضداده . وهو الجبل الراسخ في مثابرة الاعمال والرجل الحديدي في الثبات والاقدام والمدافع المهيب عن دولته وابناء جلدته والموصوف بالفضيلة وكرم السليقة وطيب الشمائل بما يعجز عن وصفه القائل . وهو فخر لبنان منبت غرسه ومجد ابناء سوريا في كبر نفسه وهو العظيم المشهور بعظام الاعمال في مصر فيا للاسف عليه ويا للخسارة . واني لا ابكيه بدمع المقل ولا ارثيه برائق الجمل لانه لم يمت فاسمه حي ما دامت الارض ارضاً والسماء سماء . واني لا اذكر شيئاً من حفلات مأتمه ولا كيف ان عظماء القوم احاطوا بنعشه وان امير البلاد اهتز لخطبه فكل ما حصل وامكن ان يحصل قليل ودون القليل في جانب مقام الحي الفقيد

وقالت جريدة المحروسة

بشاره باشا تقلا

فجعنا بل فجعت الصحافة العربية بفقد الرصيف العزيز الفاضل المغفور له بشاره باشا تقلا صاحب جريدتي الاهرام العربية والبيراميد الفرنساوية . فجئنا بخبر وفاته بعد ان كان الامل كبيراً بقرب شفائه من مرض دهمه وهو مملوء صحة وعافية فاودى بحياة عزيزنا الراحل وزعيمنا العظيم فحقّ للآداب ان تبكيه وللمعالي ان ترثيه ولاهل الفضل والكمال ان يعظموا المصيبة فيه . وقد كان هذا الصحافي العربي من اهل الجد والكد وذوي النشاط والاقدام الذين تضرب بذكرهم الامثال . فهو اول صحافي عربي أتقن شؤون الصحافة وأعلى منارها . وهو اول صحافي عربي تدرج في مدارج المعالي حتى نال باية روملي بكاربك والنيشان المجيدي الاول واحد عشر نيشاناً من ملوك الارض . وهو اول صحافي عربي جاب بلاد الشرق والغرب وقابل عظماءها وكبراءها ونشر اراءهم وافكارهم . وهو اول صحافي عربي أوجد له مطبعة من احسن المطابع واغناها . وهو اول صحافي عربي تفنن في اكتساب الثروة بالوسائط المحللة والوسائل الاقتصادية المحمودة . وهو اول صحافي عربي عاركه الزمان ثم عارك هو الزمان وفارقه ظافراً قاهراً منصوراً — فلتبكه الصحافة والصحافيون ولتنح عليه الاداب والمعالي وليرثه الادباء والفضلاء والشعراء ما استطاعوا الى البكاء والنواح والرثاء سبيلاً — اجزل الله عليه الرحمة وبرّد مثواه في التربة وعزى قلوب حضرة قرينته الثاكلة ونجله الحزين وسائر ذويه على فقده

اقوال المجلات العربية

قالت مجلة الهلال

بشاره باشا تقلا

صاحب الاهرامين (الاهرام والبيراميد)

اين الذي الهرمانِ من بنيانه ما قومهُ ما يومه ما المصرعُ
تتخلف الآثار عن اصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبعُ

يجيء المرء الى عالم الوجود من غير اختياره . ويذهب عنه من غير اختياره . ويجتاز طريق الحياة وهو يقتات مما انبته الارض فوق رمم اجداده ويشب على ما يقتضيه تفاعل العناصر مع ما ورثه من ابائه . فيسعد او يشقى تبعاً لما يكون من طبيعة مزاجه . غنياً كان او فقيراً . ولو خير وكان لهُ رأي صائب لاختار العدم على البقاء لانه لا يجد في الحياة غير الشقاء والبلاء . وله عبرة باخبار الاولين من اسلافه وقد توالوا على الارض اجيالاً لا يحصيها عد ولم يبقَ عليها من ابنائهم غير الاثر الضعيف . ولا من اجسادهم الا ما انحل بفعل الميكروب فانبعث بعضه غازاً الى الهواء فتنفسه الحيوان . وتحول بعضه الى هباء وامتزج بعناصر التراب فامتصته جذور النبات . ثم تناوله الحيوان فعاد الى ما كان ولله در ابي العلاء حيث قال

صاح هذي قبورنا تملأُ الرحـ ب فاين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما اظن اديم الـ ارض الاّ من هذه الاجساد
رب لحدٍ قد صار لحدا مرارا ضاحك من من تزاحم الاضداد

ولكن الحياة مع سرعة زوالها فان النفس تتطلب بقاءها وتشتاق الى اطالتها جهد طاقتها

وحياة الانسان لا تقاس بطول ايامها وتوالي اعوامها بل بمقدار اعمالها وما تتركه من آثارها . فقد يعمر بعضهم طويلاً فهو قصير العمر وان طالت ايامه وتعددت اعوامه وقد يعيش الآخر زمناً قصيراً فيعمل فيه كثيراً ويترك اثراً جليلاً فهو طويل العمر وان كان عمره قصيراً . ويقال في حياة الاول انها طويلة ضيقة وفي حياة الثاني انها قصيرة عريضة

كذلك كانت حياة فقيد الصحافة المصرية رصيفنا ومؤسس اقدم صحفنا السياسية صاحب الاهرام بل صاحب الاهرامين . مات وقد عمل في عمره القصير ما لا يستطيعه غيره في عمرين . وكان رحمهُ الله مثال الاقدام والنشاط وقدوة رجال الاجتهاد . مات في اوائل كهولته وقد قضى نصف العمر وخيرته دائباً لا يعرف الكلل ولا يقعده الملل والناس يعجبون من صبره على العمل

جاء وادي النيل في عصر المرحوم اسماعيل ورأس ماله نشاطه واقدامه فأنشأ الاهرام مع شقيقه المأسوف عليه والصحافة المصرية لا تزال جنيناً والصحف يومئذٍ تعد على الانامل والناس لا يعرفون لها قدراً . وهي كما نعلم صناعة رزقها اضيق من شق القلم فجاهد في سبيلها بضعاً وعشرين سنة لاقى في اثنائها عقبات رضخ لها رجال الصحافة من اسلافه ومعاصريه وتغلب هو عليها بسعيه واقدامه وصدق عزيمته . حتى بلغ منها ما اراد فاثرى ونال الرتب والالقاب وجالس السلاطين واسترضى الامراء وصادق العظماء والعلماء وخدم الاقارب والاصدقاء

جئنا الديار المصرية على اثر الحوادث العرابية وعرفنا الفقيد وهو يدير

الاهرام واخوه يحرره ورأيناه يقضي النهار ساعياً والليل مفكراً ويرى اطول الايام قصيراً والناس يتحدثون باعماله ويعجبون بنشاطه . ولم يكن سعيه قاصراً على ما ينتفع به نفسه ولكنه كان ينظر في مصالح اخوانه . ويبذل السعي والمال في سبيل قضائها كأنها ضريبة عليه واجب اداؤها . وهو امر يعترف له به الخاص والعام

لم يمض على فقيدنا بضعة اعوام منذ بكي رفيقه في جهاده شقيقه السليم واخذ امر الجريدة على عاتقه وادار العمل بيده وحده حتى اضاف على الاهرام اهراماً أخرى وهو لا يزداد الا نشاطاً واقداماً ادهش به معارفه وسحر قراءه . ولم يشك الملل ولا قال تعبت من العمل . وكان له جسم لا يتعب ودماغ يتقد حدة وذكاء كأنه شعلة من اقدام — ولكن ذلك الدماغ ما زال يتوقد حتى احتقن ثم التهب وكان ما كان من انقضاء الاجل قبل حلول الاجل والناس لا يصدقون ان تلك الهمة العالية وذلك العزم الثابت يصيران الى الفناء العاجل . ولكنه واأسفاه عليه حمل جسمه ما لا تستطيعه الاجسام من سهر الليل وسعي النهار

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسامُ

قضى في الثامنة والاربعين من عمره على اثر علة عجز الاطباء عن تشخيصها ولكنهم بذلوا الجهد في علاجها فقضوا عشرين يوماً وهم يختلفون اليه جماعات ووحداناً يبدلون الدواء بالدواء . وامرأته الحكيمة الكاملة واقفة بين يديه ترقبه بعينها وتخدمه بيديها وترعاه بقلبها وتشاركه بعواطفها وتنشطه بلطفها وانسها ولو استطاعت الفدية لفدته بنفسها ولكن الله اراد ما لم ترده فاختطفته المنون من بين يديها وغادرتها حائرة تندب بعلها وترثيه . وامه العجوز

تناديه وتبكيه وتكلفه السلام على اخيه . ونجله الوحيد يترامى عليه ويدعوه وما عهده به الا مجيب دعاءه ملب سواله الا اليوم فقد خاب نداؤه وذهب رجاؤه ضياعاً . رحم الله الفقيد رحمة واسعة وعزى ارملته الفاضلة ووالدته الثاكلة واخوته وسائر آله على فقده والهمهم صبراً جميلاً على هذا المصاب الجسيم

وقالت مجلة الضيآء

كل من عليها فانٍ

كان هذا الشهر مشكلةً للعلوم والآداب ومناحةً للادبآء والكتّاب نُعي في صدرهِ احد فتيان الوطن الالبآء وغصنٌ من اغصان دوحة الكتابة والانشآء المرحوم سبع شميل الذي ذكرنا منعاهُ في الجزء السابق وفاجأنا في منتصفهِ نعي شيخ الصحافة وكبيرها بل مقدَّمها واميرها المرحوم بشاره باشا تقلا صاحب جريدة الاهرام واشهر من تولى جريدةً في قطري مصر والشام اخترمتهُ المنية في الخامس عشر من الشهر على عقب دآءٍ عيآء حارت في تشخيصهِ بصائر الاطبآء فكان لهُ يومٌ على القلوب شديد تناقلت انبآءهُ اسلاك البرق ورُسل البريد واندفعت الاقلام تقضيهِ حق التأبين والرثآء وتشيعهُ بذكر ما لهُ من الآثار الجميلة والمآثر البيضآء وفي مسآء ذلك اليوم احتفل بدفنهِ في مشهدٍ قد حفت بهِ مظاهر المهابة والاعظام ومشت فيهِ الالوف من ارباب المقامات وذوي الاقلام حتى

اودعوهُ التراب مذكوراً بما لهُ من الفضائل والاحسان وعادوا من قبرهِ وهم يستمطرون عليهِ سحائب الرحمة والرضوان

وكان الفقيد رحمهُ الله رجلاً كبير الهمة مقداماً جسوراً وُلد في قرية كفرشيما من سفح جبل لبنان سنة ١٨٥٢ وتلقى دروسهُ في المدرسة الوطنية في بيروت وفي سنة ١٨٧٥ قدم الديار المصرية فانشأ بها جريدتهُ الاهرام بمعاونة اخيه المرحوم سليم بك . وهي اول جريدة عربية انشئت في القطر بعد الجريدة الرسمية فسلك بها مسلك الجدّ والثبات ولم يألها سعياً واجتهاداً حتى بلغت اعظم مبلغ من الشهرة في القطر المصري وخارجهِ ولم تبرح مستقى لصحيح الاخبار معروفةً بالصدق في خدمة المصلحة العامة كما يعلم ذلك كلّ من تتبع اعدادها . وكانت الاهرام تصدر اولاً في الاسكندرية واستمرّت على ذلك الى سنة ١٨٩٨ فنقلها الى القاهرة واستخلف مكانها جريدة أخرى سماها صدى الاهرام ثم انشأَ في القاهرة جريدة الاهرام الفرنسوية فكان يتولى سياسة الجرائد الثلاث معاً وهو مما يشهد برحب ذرعه وقوّة جلدهِ ومقدرتهِ على الاعمال . ثم رأى من صدى الاهرام ضعفاً وتأخراً لانها لم تثبت مع الاهرام فالغاها من عهدٍ قريب ولبثت الاهرام العربية وصنوتها الفرنسوية تصدران في القاهرة الى يوم وفاتهِ . وكان خلا ما يلتي الى الجريدتين من الاغراض السياسية وغيرها كثيراً ما يكتب فيهما بقلمهِ المقالات البالغة الناطقة بسعة اطلاعهِ واحاطته بمعرفة سياسات الدول وتواريخ الممالك وما بينها من الصلات والمعاهدات وهو مما يدل على شدة اهتمامهِ بالخطة التي اتخذها شغلاً لحياتهِ فدرسها حق درسها واستقرى جميع دقائقها واطرافها

وقد نالت جرائده الثلاث ولا سيما الاهرام العربية منها اعلى مكانٍ

من الاهمية في المقامات الرسمية وحاز لاجلها المكافآت الجمة من اكثر الدول وكان لها من الفائدة بين قرآء العربية وعلى الخصوص في القطر المصري ما لا يسع احداً انكاره فانها بُدئت وليس في القطر المصري من يقرأ جريدة ولا يعلم شيئاً من امور السياسة والحقوق ولا يهتمّ لسماع حادثٍ من الحوادث الخارجية ولا الداخلية فما لبثت بضع سنين حتى انتشرت الرغبة في المطالعة بين خاصة الناس وعامتهم وازداد عدد القرآء سنةً بعد سنة حتى صاروا يُعدّون بالآلاف وتتابعت بعد ذلك الجرائد في القطر فلم تعدم واحدةٌ منهنّ عدداً كبيراً من القرّآء فكانت منزلة الاهرام ولا جرم منزلة استاذٍ لاهل القطر وممهدٍ لسائر الجرائد وموطئٌ لانتشار العلم والاقبال عليهِ وهو فضلٌ لو لم يكن لصاحب الاهرام سواهُ لكفى . وليس هنا محل ترجمة حياتهِ بالتفصيل وانما ذكرنا ما ذكرنا بياناً لمزية الرجل والماعاً الى ما استحق بهِ المنزلة التي بلغها من الجاه العريض والدنيا الواسعة مما لم يبلغهُ كاتبٌ قبلهُ في الشرق تغمدهُ الله برحمتهِ واجمل جزاءهُ في دار النعيم

وقالت مجلة طبيب العائلة

المرحوم بشاره باشا تقلا

فقدت الصحافة الشرقية في الرابع عشر من هذا الشهر زعيمها ومؤسس اقدم جرائدها المرحوم بشارة باشا تقلا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد أصيب منذ بضعة اسابيع بمرض عضال فذهب مأسوفاً عليه بعد ان قضى خمسة

وعشرين عاماً يخدم الصحافة الشرقية اجل خدمة بقلمه وارائه وقد كان مثال الجد والاجتهاد والنشاط والمثابرة على العمل . وأتيح لنا ان نعالجهُ في آخر مرضهِ فوُفقنا الى تحسين حالته تحسيناً احيي في الجميع امل الشفاء ولكن المرض كان قد تمكن من جسمه وتأصل فيه فقضى مبكياً عليه من الجميع لعلو منزلته وجليل خدمته . ونأسف لعدم استطاعتنا اطالة الكلام عما فعلهُ مؤسس الصحافة في الشرق لان مجلتنا طبية صحية ولكن الجرائد اليومية والمجلات الادبية وفت الموضوع حقهُ بذكر جميع اعمال هذا الرجل العالي الهمة . الهم الله قرينته الفاضلة التي هي مثال الفضل والكمال وولده الوحيد وجميع اهله واصدقائه جميل العزاء والسلوان

وقالت مجلة الجامعة

فقيد الشرق العظيم

{ بشاره باشا تقلا }

صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد

مات تقلا باشا . مات الرجل الذي علم الناس كيف يجب ان تكون الرجال . مات المقدام الذي ولد صغيراً في قرية صغيرة ثم بلغ به اقدامه وذكاؤه الى اقصى ما يمكن للشرقي بلوغه في بلاده : فشهرة طائرة طبقت

الشرق والغرب . وثروة طائلة لم يجمعها احد من الصحافة قبله ولا يجمعها احد بعده . وجاه طويل عريض ساق اليه من كل جانب رتب الدول ووسامتها . ومركز ادبي سامٍ يشرف منه على ملايين الامم في الشرق والغرب ويخاطبهم بقلمه واقلام كتابه . فوق ذلك بنية قوية ثبتت في وجه عواصف الحياة حتى بلغت ذراها . ووجه صبوح باش كما تراه في رسمه يجتذب القلوب اليه ولو كانت متألمة منه . وامرأة فاضلة قلما نبغ في الشرق نساء في منزلتها من الفضل والذكاء ومعرفة واجبات الزوجة والام والسيدة

فماذا كان ينقص رجلاً تمت له هذه الصفات كلها لكي يعيش سعيداً ويكمل العمل العظيم الذي بين يديه حتى اذا بلغ ابنه الوحيد اشده القاه اليه ثم مات باطمئنان وسلام

كان ينقصه ان يكون البشر اقل رداءة وخبثاً مما هم عليه وان يكون هو اقل تأثراً لاعتدائهم وحسدهم . ولكن قدّر ذلك الامر فكان . ومات نقلا باشا في اطراف الكهولة قبل استيفاء ايامه كلها فذات بموته اعظم صحافي في الشرق منذ انشاء الصحافة فيه الى هذه الايام

ولما كان لهذا الفقيد العظيم على الجامعة وعلى منشئها فضل كبير فقد وجب علينا ان نذكر جملةً من سيرته واخلاقه واعماله مرجئين التفصيل الى حين تجتمع لدينا المواد اللازمة لذلك فنقول

{ ترجمته } ولد الفقيد رحمهُ الله في ٢٢ اغسطس من عام ١٨٥٢ في قرية كفرشيما من اعمال لبنان وهي القرية المشهورة بما نبغ منها من رجال الادب والفضل حتى لقد سماها بعضهم « ذات الماء الفضية » ثم قدم الى مصر في عام ١٨٧٦ مع شقيقه المرحوم سليم بك نقلا فانشأ فيها جريدة الاهرام .

وكان عمر النقيد يومئذٍ ٢٤ عاماً . ولا نسهب في ذكر المصاعب التي قامت في سبيلها لاول مرة والهمة التي قاومها بها انما نكتفي بذكر كلمة للنقيد قالها قبل وفاته بخمسة اشهر في ادارة جريدته صدى الاهرام في الثغر . فان بعض اخصائه كتب اليه كتاباً شديد اللهجة يستعجله بشأن مطلب من المطالب فتأثر من ذلك الكتاب ولما اجتمع به قال له ما حرفيته « لا يرتقي الانسان هكذا ولو كنت بحدتك وسرعتك لما قدرت ان اعمل شيئاً بل كنت اليوم حيث كنت امس بلا زيادة ولا نقصان »

فهذا الكلام يجوز ان يُتخذ كتاريخ لكل حياة النقيد من اولها الى آخرها . فانه يدل دلالة صريحة على ان صاحبه كان راسماً لنفسه خطة يجري عليها بالتدقيق دون ان يدع للحدة او الاهمال او حوادث الزمان سبيلاً للتأثر فيها . اي انه منذ صباه رسم نصب عينيه نقطة في قمة جبل العلى ثم اخذ يسير نحو هذه النقطة بجدٍ وعناءٍ دون ان يصرفه عنها شيء من المصاعب والعواطف والتصورات فبلغها وجلس مسروراً يستريح عليها

{ اخلاقه وصفاته } وقد ذكرنا في مقدمة الكلام اننا لا نفصل ترجمة النقيد في هذا الفصل وانما نلم بها الماماً فقط ولذلك ننتقل بعد هذه الملاحظة الى صفات النقيد واخلاقه لما لها من العلاقة بها . ويسوءنا ان نقول ان خصوم الفقيد كانوا غير قليلين في حياته وان كانوا من طيب الجبلة الانسانية قد انقلبوا الى الحزن والاسف عليه في مماته . وسبب ذلك مختلف فيه . فبعضهم يقول انهم لم يكونوا يحبونه من الحسد له وكم تثير المراكز العليا من حسد الناس سواء كانوا قريبين منها او بعيدين عنها . وبعضهم يقول لانه نصر الدولة العثمانية وايدها حتى في ابان الحوادث الارمنية والحرب اليونانية . وبعضهم

يقول انه ما كان يداري احداً بل كان عنده الكبير والصغير على حد سواءٍ

غير ان الحقيقة ليست في شيءٍ من كل ذلك . فقد ذكرنا ان الفقيد تسلق بجده وكده قمة المركز الذي بلغه دون مساعدة احد الا بيتاً كريماً اعانه يوم نكبة الاهرام بحريقة حدثت فيها وقد حفظ الفقيد هذا الجميل الى آخر حياته . وهذا الارتقاء البطيء الطويل المدى يستلزم ان يكون صاحبه قد عاشر الناس واختبر اخلاقهم ورأى معاكستهم ومشاكستهم وما هم فيه من الدناءة حيناً والعدوان وحب الشر احياناً . فترك هذا الاختبار في نفسه اثراً شديداً حتى اذا ارتقى عن الناس واستغنى عنهم جلس يضحك منهم ويلاطفهم متى تقربوا منه وهو يقول في نفسه انهم غير اهل للمجاملة . فهذه الحالة انشأت في نفسه ثلاثة مبادىء (اولها) استغناؤه عن الناس واعتبارهم آلات في يده (وثانيها) عدم الاهتمام بمن كان منهم لا ينفع وعدم مداخلة عواطف القلب في مصلحة عمله (وثالثها) وجوب ان يتعب العامل ويشقى ليستحق اجرته وليس من العدل ان يُعطى فوق تعبه .

ولا نقول ان هذه المبادىء مبادىء يحبها الناس ولكننا نقول انها مبادىء عملية مادية وبها تُبنى المراكز العليا في هذه الحياة . وهي مبنية على قاعدة الضبط والتدقيق في العلائق بين العمل والاجرة ونبذ الضعف والمحاباة من طريق المصلحة ودوس كل صعوبة من اجلها . وكأنَّ الفقيد قد شعر رحمه الله ان عصره يستلزم ذلك وان هذه المبادىء ستكون مبادىء العصر القادم — بدليل « سياسة المصلحة » التي افتتحتها المانيا وانكلترا في السنوات الخمس الاخيرة — فجعلها محوراً لادارته . وبناءً عليه فانه يجوز ان يُعدَّ الفقيد متقدماً في هذا الامر ابناء العصر الاتي

هذا هو رأينا في التعليل الصحيح لميل بعض الناس عن النقيد واذا سموا هذا الامر اثرة واستقلالاً مضراً فالذنب الكبير واقع على الهيئة التي خرج منها والناس الذين خبرهم قبل ارتقائه فجعلوه يتأثر منها تأثيراً سيئاً منهم بمعاكسته ومقاومته بدلاً من مساعدته . وفضلاً عن ذلك فان بسمارك والكونت بيلو مستشار المانيا والامبراطور غليوم والمستر تشمبرلن واللورد ملنر والمستر سسل رودس حتى اللورد سالسبوري كلهم يسمون هذه السياسة « سياسة المصلحة الواجب اتباعها على من يروم النجاح » ويسوءنا ان نقول ان هذه ستجعل المعيشة في القرن العشرين صراعاً هائلاً بين البشر كما تنبأ اللورد روزبري

{ منزلته } اما منزلة النقيد فقد كانت من السمو في الشرق والغرب بحيث يعلم القراء . فانه تشرف بمقابلة جلالة السلطان عبد الحميد خان الثاني غير مرة فاجمل جلالته ملاطفته . وقد اجترأ النقيد في احدى مقابلاته لجلالته فقال له وكانت المسألة المصرية يومئذٍ في اشد حالاتها « مولاي ان افريقيا ستصبح ميداناً واسعاً للاستعمار ولجلالتكم فيها ملايين عديدة من اخواننا المسلمين المطيعين لجلالة خليفتهم فهلا صرفتم شيئاً من عنايتكم الى استمالة افريقيا قبل اقتسام اوروبا لها بدلاً من صرفها كلها في تركيا اوربا » وقد اخذنا هذا الحديث من فم سعادته . وذكره سعادته يوماً ما في احدى مقالاته وزاد عليه انه قاله لجلالة السلطان امام صاحب السماحة ابي الهدى افندي

وكان النقيد عالي المنزلة لدى الجناب الخديوي العالي وقلما يمر عام ولا يتشرف بتناول الطعام على مائدة سموه بضع مرات بدعوة خصوصية

وكانت جريدة الديلي ميل والتمس تستغربان بعد وفاة المرحوم الخديوي

توفيق الاول الاخبار السرية السياسية التي كانت تنشرها جريدة الاهرام دون سواها وتتساءلان هل ان صاحب هذه الجريدة وزير انكلترا ام وزير مصر . ومن الامور العظيمة التي اقدم الفقيد عليها تنديده في الاهرام بالخديوي اسماعيل باشا يوم مدَّ يده الى الخزانة المصرية . فكان ذلك منه منتهى الاقدام وكبر النفس لانه لم يكن احد يجسر في ذلك الزمان ان يقابل اسماعيل باشا ببسمة فضلاً عن طعنة . فاستدعاه اسماعيل باشا واساء اليه وسجنه ولكن هذه الاساءة زادته رفعة في نظر الناس لدفاعه عن حقوقهم . ومنذ ذلك الحين لجأَ الفقيد الى الحماية الفرنسوية تخلصاً من مثل ذلك

وكان فصيح المنطق حلو الحديث واسع الاطلاع طلق اللسان كأَن لسانه مركب فوق لولب فكان اذا جلس في مجلس تصدر فيه وصار منه كالمركز من الدائرة . وله صلات ومعرفة في اكثر بلاد اوربا لا سيما فرنسا التي كان كثيرون من رجال حكومتها واعاظم كتابها ومديري الصحف فيها من معارفه وكان بينه وبين بعضهم مكاتبات . وقد ذكر لنا مرة انه ورده من حضرة العالم المشهور سليم افندي دي نوفل الطرابلسي صاحب المكانة العليا في روسيا ملاحظة على مقالة نُشرت في الاهرام بتوقيع « سلامه » ... وذكر لنا الملاحظة فسألنا سعادته وهل ان المسيو دي نوفل صديقكم فقال انه اخص اصدقائي من ابناء الشرق . وبعض شهر سمعنا من احد اقارب المسيو دي نوفل انه يقول ان نقلا باشا هو اخص اصدقائه لانه الرجل الوحيد الذي عرف كيف يستفيد من الحوادث الشرقية واستخدم فيها مواهبه

{ وساماته } اما وسامات الفقيد ورتبه فقد نال منها من الدولة العلية رتبة روملِّلي بكلربكي وهي اعلى رتبة ملكية وليس فوقها غير رتبة الوزراء . ومن

وساماتها الوسام المجيدي الاول وهو اسمى الوسامات دون المرصعات . ونال ايضاً وسام جوقة الشرف (اللوجيون دونور الفرنسوي) ووسام الافتخار التونسي من عظمة باي تونس ووسام سان ستنسلاس من روسيا . ونال ايضاً وسامات غيرها من دول كثيرة

{ جرائده ومحرروها } وكان للفقيد اربع جرائد تطبع وتوزع وهذا مما لم يسبق له مثيل في الشرق . الاولى جريدة الاهرام وهي يومية . والثانية جريدة صدى الاهرام انشأها في الاسكندرية لما نقل الاهرام الى العاصمة وكانت يومية ايضاً . والثالثة جريدة البيراميد الفرنسوية وهي يومية ايضاً وقد فاقت جرائد القطر الافرنجية كلها في عام واحد . والرابعة مجلة اسبوعية تصويرية ادبية فرنسوية اسمها « العائلة المصرية » توزع مجاناً على المشتركين في البيراميد هذا ما عدا المطبعة الواسعة في القاهرة التي لا تقف آلاتها العديدة عن العمل ليلاً نهاراً . واكبر آلاتها تُدار بالبخار

اما المحررون الذين خدموا الاهرام فهم اكثر كتاب هذه الايام

واما الوكلاء والمخبرون والمراسلون والعمال فانهم جيش كثيف يستغرق عدهم صفحات عديدة

{ وفاته وجنازته } ولكن كل هولاء الاصدقاء وكل تلك المنزلة السامية وكل تلك الثروة الطائلة لم تدفع المحذور . ولم ترد المقدور . ولم تمحُ ما هو مسطور . فقد أصيب الفقيد منذ بضعة اسابيع بمرض اختلف الاطباء فيه فمن قائل انه حمى معوية ومن قائل انه حمى تيفوئيدية ومن قائل انه احتقان في الدماغ . وقد رجح بعضهم هذا الداء الاخير وزادوا عليه الشلل . وفي يوم الجمعة ١٤ يونيو اي بعد انقضاء ٢٠ يوماً على مرضه انتبه من غيبوبته فسأل الطبيب

عن حالته فقال له الطبيب قولاً مسكناً ولكن الفقيد كان كأنه شعر بدنو اجله فاستدعى اهله وولده الوحيد فودعهم واوصى ابنه بطلب العلم والادب وسلوك سبيل الاجتهاد . وما فرغ من ذلك حتى أصيب بنوبة شديدة افقدته النطق فجعل ينظر الى من كان حوله ويودعهم بعينيه الى ان انتصف الليل فدخل في الاحتضار . وفي الساعة الثانية والدقيقة ٣٥ لفظ روحه الكريمة رحمة الله عليه

ولما انتشر نعيه قامت له مصر وقعدت وبعث الجناب الخديوي المعظم رسالة يعزي بها اسرته الكريمة وعهد الى حضرة علي بك كامل التشريفاتي ان يسير في جنازة الفقيد من قبل سموه وتقاطرت رسائل المعزين ومركباتهم من كل فج وصوب على المنزل الجميل الذي شاده الفقيد منذ عامين في العاصمة . وفي مساء ١٥ منه احتفل بتشييع جنازته احتفالاً عظيماً مشى فيه الباشوات ووكلاء الدول والموظفون وكبار الوطنيين والاجانب وجميع الادباء والفضلاء واصحاب الجرائد العربية والافرنجية ومحرروها وقدمت اكاليل الزهر الى نعش الفقيد عشرات عشرات . وبعد الصلاة في كنيسة الروم الكاثوليك على جثته الهامدة — تلك الجثة التي كانت تحمل حركة مستمرة وعزماً يدك الجبال — نقلت الى مدفن مصر العتيقة فأبن الفقيد هنالك حضرة الكاتب المجيد يوسف افندي بستاني احد محرري الاهرام بالنيابة عن زملائه المحررين والمسيو بول منس رئيس تحرير جريدة البيراميد وعزتلو نقولا بك توما المحامي المشهور فكان لكلامهم وقع اليم في النفوس . ثم غيب النعش في ظلمة القبر فغابت معه شمس ونزل معه بحر عجاج كان من قبل متلاطم الامواج

﴿ مصير البيراميد والاهرام ﴾ والان قد انتهى الامر وحدث ذلك الفراغ العظيم في عمل كبير من اعمال الصحافة العربية الشرقية . فهل يدوم هذا

الفراغ او يمنّ الله بسده رفقاً باسرة كريمة نزلت بها مصيبة ما بعدها مصيبة ؟

انه لما توفي المرحوم سليم بك تقلا مؤسس جريدة الاهرام استعظم الناس المصاب ولكنهم عادوا فاستصغروه لان الاهرام سارت بعده بادارة المرحوم بشاره باشا كما كانت قبله . والان سيكون ذلك كذلك ان شاء الله . فانه كما ان تيرس توفي عن زوجة فاضلة كانت قدوة للنساء في حلولها محل رجلها بعد وفاته في تربية اولادها وادارة طبع مؤلفات زوجها فكذلك ستكون تلك السيدة الفاضلة القادرة التي كسر الحزن قلبها على فقيدها . وان عمر وحيدها « جبرايل بك » الذي لا يدور ذكره في الفم حتى يجول الدمع في العين يبلغ الآن ١٢ عاماً فليمدها الله بمعونته لتحفظ له هذا المركز الكبير ولتجعل الناس يرون فيه بعد ثمانية او عشرة اعوام صورة ابيه فيقولون حينئذٍ « ان هذا الشبل من ذاك الاسد » . . . .

وليس يعلم احدٌ كم كان ذلك الاسد يحب هذا الشبل غير الذين شهدوه يقرأ كتاباً منه . ولقد شهدنا ذلك مرة فشهدنا عندها ناراً تتقد في عيني الاب الحنون على ولده . وكان ذلك الكتاب فرنسوي العبارة وهو وارد من باريز حيث بقي « جبرايل » هناك مع حضرة والدته في صيف تلك السنة وعاد الباشا الى ادارته في الاسكندرية . وبعد ان أتم الباشا الكتاب قال خذ واقرأه فتعرف منه نباهة « جبرايل » وماذا يكون في المستقبل واكد انه من انشائه وخطه وانما والدته اصلحت بعض اغلاط فيه ولا يزال موضع الاصلاح ظاهراً . فتناولنا ذلك الكتاب ودهشنا لما قرأنا اسلوبه الرقيق الصحيح الفصيح لان عمر جبرايل كان يومئذ لا يتجاوز السنة التاسعة ورأينا ان قلم الاصلاح لم يجرِ فيه الا في اربعة او خمس مواضع . . . .

هذا هو الصبي الذي سيدير ثروة ابيه وجرائده ويحتل ان شاء الله محله وقد كان كتاب الادارة حين زيارته لهم ينادونه « نوتر ديركتور نوتر ديركتور» اي مديرنا مديرنا . يقصدون بذلك ممازحته . اما الان فقد صار هذا الامر والأسفاه جداً لا مزاحاً

هذا ما اردنا الاقتصار عليه الان وقبل ختام الكلام نسأل الله مبرد القلوب وواهب السلوان ان يعزي حضرة والدة الفقيد وقرينته الكريمتين وشقيقيه الفاضلين عزتلو حبيب بك وابرهيم بك وجميع اقربائه واصدقائه ورصفاءنا محرري جرائده عن هذا المصاب الاليم والرزء العظيم ونرجو ان يخفف من حزنهم ما شاهدوه من اجماع الناس على مشاركتهم فيه واعتباره حزناً عمومياً . وان يتغمد الفقيد بواسع رحمته وغفرانه ويحسن اليه في مماته بقدر ما احسن في حياته انه السميع المجيب

وقالت مجلة المنار

مصاب الصحافة

وفاة بشارة باشا تقلا

في ليلة السبت الماضي (١٥ يونيو — ٢٨ صفر سنة ١٨٩١) تقوض ركن الصحافة الركين ، وفت في عضدها المتين ، حيث حل القضاء المبرم ، ونزل القدر المحتم ، فاختطف بشاره باشا تقلا صاحب جريدة الاهرام العربية والبيراميد الفرنسوية وهو في مستوى طور الكهولة ناهز الخمسين ولم يبلغها . وقد تقدم

هذا القضاء السماوي بعشرين يوماً انذار مرضي حار نطس الاطباء في معرفة حقيقته ، ولم يهتدوا الى طريقة معالجته . والارجح انه كان في ذلك الدماغ الجوال، الذي كان كصاحبه لا يعرف الاعياء والكلال ،

ورد الفقيد وادي النيل من لبنان مع اخيه الكاتب الشهير سليم بك نقلا منشئ جريدة الاهرام واشتغلا بالصحافة وكانت ارضها مواتاً فاحيتها همتهما ، وغرسا واستثمرا بجدهما وعزيمتهما ، وقد كانا سليم وبشارة ، يقتسمان التحرير والادارة ، فلما اغتالت المنون احد الفرقدين ، نهض الآخر بالامرين ، وتقدمت الاهرام به وتقدم بها فاصاب ثروة طائلة وجاهاً عريضاً وما زال يرتقي في رتب الدولة العلية ويتمتع برواتبها ويتحلى بوسامات الشرف منها حتى بلغ رتبة (روم ايلي بكاربكي) التي لا يعلوها في الرتب الملكية الا رتبة الوزارة وتحلى بالوسام المجيدي الاول . وكان محلى بوسامات دول أخرى كوسام ليجيون دنور الفرنساوي من الدرجة الثالثة ووسام سان استانسلاس الروسي ووسام المخلص اليوناني من الدرجة الثانية ووسام الافتخار التونسي وغير ذلك

نجحت الاهرام في اول عهدها بمساعدة الحكومة المصرية لا سيما في ايام وزارة دولتلو رياض باشا الذي لم تنجح جريدة من الجرائد الشهيرة الغنية بمصر الا بسعيه حتى قيل ان الحكومة كانت تلزم الموظفين والوجهاء بالاشتراك وتكلف جباتها بتحصيل قيم الاشتراك منهم ثم لما انقضى هذا الدور وصار الناس مختارين في الاشتراك استمر النجاح بسعي الفقيد الموافق لحالة البلاد الاجتماعية والادبية وقلما ينجح عمل مخالف لاستعداد الناس الا ان يكون بعد تأسيسه بزمن طويل

وقد احتفل في مساء يوم السبت بجنازة الفقيد احتفالاً لائقاً بمقامه مشى

فيه كثيرون من الوجهاء والفضلاء ومنهم اصحاب الجرائد المصرية كلهم وصلى عليه في كنيسة الروم الكاثوليك ودفن في قرافتهم بمصر العتيقة وأبنه على القبر كل من الاديب يوسف افندي البستاني والاصولي الفاضل نقولا بك توما ورجع المشيعون وهم يستمطرون له الرحمة ويدعون لقرينته الفاضلة ولولده النجيب بالعزاء والسلوة

وقالت مجلة انيس الجليس

بشاره تقلا

لقد فجعت الصحافة العربية في الخامس عشر من هذا الشهر بفقد زعيمها النحرير وقائدها الكبير المرحوم بشاره باشا تقلا الطيب الآثار الحميد الخبر والتذكار صاحب جريدة الاهرام الغراء المنتشرة في جميع الاقطار التي اقام على خدمتها خمساً وعشرين سنة اوصلها بها الى أبعد مدى من الامتداد والانتشار وقد تلقاه قضاء ربه في القاهرة اثر علة شديدة عجزت فيها حيل الاطباء وارتدت عنها قوى العلاج والدواء فذهب تبكيه الاداب والمعارف وتندبه الاوراق والصحائف وما عسانا نذكر من مناقبه الحميدة وقد احتوى بها على امد العلاء عزة وشرفاً ولكننا نقول ان فقيدنا بشارة باشا تقلا وكفى سقى الله ضريحه صيب الرحمة والرضوان وانزله من ديار خلده في ارفع مكان واجمل عزاء اسرته الثاكلة على هذا الخطب العظيم والهمهم وافر التأسي والسلوان

وقالت مجلة المرأة في الاسلام

فقيد الصحافة

ليس لمجلتنا في الرثاء ولا في الهناء لانها قصرت صفحاتها على مباحث خصوصية ولكنها اليوم تتعدى خطتها في تأبين فقيد الصحافة المرحوم بشاره باشا تقلا صاحب جريدة الاهرام والبيراميد وصدى الاهرام ذلك الرجل الذي أسس جريدة الاهرام منذ ستة وعشرين عاماً هو وشقيقه المرحوم سليم بك تقلا فكانت لسان حال المصريين ودافعت عنهم دفاع الابطال حينما لم يكن لمصري قلم يجرأ على الكتابة في صالح بني وطنه فرحمه الله رحمة واسعة وألهم آله صبر الكرام وعزى الصحافة العربية على فقده عزاء جميلاً

وقالت مجلة السمير الصغير

﴿ سبحان الحي الذي لا يموت ﴾

﴿ فقيد الصحافة — سعادة بشاره باشا تقلا ﴾

الموت نقادٌ على كفه جواهرٌ يختار منها الحسان

مصابٌ عظيم وخطب جال حيث فارقنا عميد الجرائد المصرية العربية وواضع اساسها وممهد طريقها ومؤيد كلمتها ورافع لوائها قضى نحبه اثر داء عضال

حارت فيه مهرة الاطباء . سطت عليه يد المنون وسلبت منا حراً كريماً شريف النفس عالي الهمة رفيع المنزلة لين العريكة بشوش الوجه صافي السريرة مشهوراً بالوفاء والاخلاص فأثر نعيه على كل من سمع بفضائله وعرف كرم اخلاقه وطيب عنصره وشاركت مصر سورية في البكاء والنحيب كيف لا وقد عاش الفقيد ومات وهو يفكر في سعادتهما خصوصاً والشرق عموماً فكم له من اياد بيضاء في رفع منار عالم الاتحاد والتوفيق بين الشرقيين عموماً والمصريين خصوصاً وكم اهتم في سعادة الوطن وفلاحه وبلوغه ذروة الكمال وكم له من مناظرات سياسية كان لما اشتهر عنه من قوة الحجة وثاقب الافكار يخرج من ميدان المناظرة مكللاً بتاج الظفر مؤيداً بالعز والنصر وكان معروفاً بحب الحقيقة لا يخشى في الحق لومة لائم بصيراً بالعواقب ولا نبالغ اذا قلنا انه كان مصباح الشرق بل هلاله فكم له من اراء وافكار سامية دالة على علو مكانته في عالم السياسة تبقى ما بقيت (الاهرام) وكنا نود ان نشبع الكلام في تعداد مآثره الا اننا ارجأنا ذلك الى عدد يلي حيث نزين الصحيفة برسمه الكريم ونذكر تاريخه وحسن فعاله ونبين فضائله كل ذلك حباً في نشر تاريخ هذا العصامي الذي بجده واجتهاده حاز على اسم كبير ورتب عالية وثروة طائلة ليتخذه القارئ الكريم نموذجاً له في اعماله

والآن يقدم السمير بقلب حزين الى عائلته الكريمة واجب العزاء ويطلب من المولى ان يحرس نجله بعين عنايته ويوفقه الى اتمام ما بدأ به المرحومان عمه ووالده وان يتغمدهما برحمته ويسكنهما فسيح جنته

وقالت المجلة المصرية

بشاره باشا تقلا

يصدر هذا العدد من المجلة المصرية موشحاً بالسواد حداداً على فقيد الوطن العزيز بشاره باشا تقلا صاحب جريدتي الاهرام العربية والفرنسوية مخصوصاً باب الادبيات فيه بتأبينه وترجمته ونقل اقوال اشهر شعرائنا وكتابنا فيه ٠

على ان ذلك قليل في جنب ما لهُ من الفضل على صاحب هذه المجلة شريكه في جهاده مدة سبع سنين واشهر وصديقه الذي لم تزده مفارقته اياه في العمل الا حباً له وعرفاناً لجميله

الاحتضار والوفاة

وقد لطف من جزعي اني لزمته ايام اشتداد العلة عليه فتمليت من رؤيته وكنت في جملة الساهرين في خدمته العاملين على تخفيف الامه ٠ ولشد ما نقمت في تلك الساعات الطويلة على وداد لا يفدي ٠ واخلاص لا يجدي ٠ وماذا أفاده ان اسمع حشرجة صدره في صدري وان يقوى خفوق قلبي بقدر ما يضعف خفقان قلبه

وشهدته قبيل حلول اجله بدقائق معدودات يلحظني بعينين بصيرتين ساطعتين من خلال اغبرار الموت كما يسطع الشرر في اثناء الرماد وكأنه يقول اشترني ٠

وتالله لشريته وشراه من حواليه من الآل والصحب لو ان الروح العزيزة تسام بارواح . ويدرأ بها نزول القدر المتاح

فلما مسته يد القضاء . وآل من الفناء الى البقاء . انبسط على سريره انبساط الراحة بعد العناء . والتقى جفناه لاول مرة كما يلتقي جفنا الخليّ النائم . واستقر ضميره من همامة العازم . وسكن قلبه من التوثب للعظائم

ورأيناه في تلك الرقدة واضح الجبين أغر المحيا عالي الصدر مرجواً مهيباً كما كان في الحياة ورأينا على مبسمه وفي جملة وجهه نوراً قاراً لطيفاً كأنه محصل من طلعة فجر يدفع اليه الحب ويمنع منه الوقار الا وهو نور الخلود الطافي على وجه الفناء

هنالك يقف الشاهد بمقلته الناظرة . ومهجته الحائرة . فيأخذ الاعتبار بمجامع قوى النفس الثائرة . ويعلم من جهل فضل من تعب ورقد . على من كان متسقراً فجمد

وما انس في عمري فلست بناس موقف الوداع وقد أقبلت عليه امرأته الاسيفة فكان اول ما صاحت ان انظروا ما اجمله وما اشد تدفق الحياة فيه ولست بناس ان هول المصاب اذهل عقلها الباهر وضرب بينها وبين العزيز الميت حجاباً اسود كثيفاً فرأته من خلال ذلك الحجاب ضاحكا ناطقاً ولكن مع سكينة ومهابة فخاطبته مغترة برؤياها وقالت ايها الحبيب أأنت راضٍ عني . ألم أفعل في حياتي كل ما يجب ان تفعله المرأة المحبة لرجلها والامة العابدة لسيدها . ثم تمشت نحو سريره لا تخطو على الارض ولكن تندفع بقوة سماوية كدرج الطائر الى مورده فما لثمت جبينه الذي فارقته الحرارة ولمست

يده الشلاء المطاوعة حتى تحولت من امرأة ثكلى الى ملاك ومن جسم غض نتي البشرة الى روح طاهر في طيف نوراني ظاهرة فيه جراح القلب

وكنا في هذا الموقف جمهوراً فما درينا الا ونحن نميد كأن الارض تتحول بنا ومن لم يسرف منا طوال عمره في مدامعه فقد استنزفها في تلك الساعة

ذلك ما أفضى اليه بيت كنت شاهد سعادة اهله زمناً طويلا وشتان بين رؤيتي اياهم على هذه الحال المروعة وبين رؤيتي اياهم في السابق ثالوثاً ممثلاً أبدع تمثيل للابوة والامومة والبنوة . فاما جلوساً على المائدة فهم الحب والعفاف وثمرة الائتلاف . واما منصرفين الى شؤونهم فهم العقل المدبر . والقلب البصير . والامل النائم في السرير .

فيا لله من هذا الخطب الجلل . ولكن بهذا جرى القضاء منذ الازل . فلا حول ولا حيل . لطف الله بآله وبنا . ولطف من حربهم وحربنا . انه خير المعزين وارحم الراحمين

وفي المجلة بعد هذه المقدمة ذكر مشهد الفقيد وترجمة حياته بالتفصيل ومرثية شعرية لصاحب المجلة نشرت مع منظومات الشعراء في الباب المخصوص بها في هذا الكتاب



قالت جريدة البيراميد

المرحوم بشاره باشا تقلا

كانت منذ ساعات كل اسباب السعادة والاقبال متوفرة في هذا البيت وكان الرجل الذي هو عماد الجريدة وروح الحركة فيها ينهض منذ الفجر لاستئناف عمله وادارة عماله جاعلاً نفسه قدوة لهم بالنشاط العجيب والهمة التي لا يعتريها كلال

غير ان الموت قد جآء مباغتاً من حيث لا يظن واصاب ذلك الرجل الذكي المقدام بمنبعث ذكائه ومصدر اقدامه واستمر الاطباء شهراً يحاولون دفع ذلك المفاجئ الخفي فلم يهتدوا اليه سبيلاً واعيتهم فيه الحيل كما أعيت قرينته الفاضلة التي جاوزت حدود الاقتدار الانساني في العناية به وذود الداء عنه ولكن غلب القضاء المحتوم على السهر والعلاج ولم تجد الضراعة ولا الرجاء فتيلاً

وقد ظن قبيل الاحتضار ان المريض تماثل للشفاء الا انه امل لم يلبث ان

خيبته الحقيقة ولم تكن ليلة السبت حتى نام نقلا باشا نوماً ثقيلاً وجمد دمه على مهل في عروقه وعند حلول الاجل فتح عينيه فزود امرأته التي احبها اشد الحب نظرة الوداع وتوفي الى رحمة ربه في سكينة وسلام

بهذه السرعة وقع الخطب المداهم حتى ان الاقربين الى نقلا باشا من اهل وصحب وعمال احبوه واجلوه وعرفوا له جميله لا يكادون يصدقون انهم فجعوا به وكأنهم في كل لحظة يتوقعون روحته وجيئته على ما ألفوه منه

ولقد كنت آخر من تولى معاونته في التحرير ولهذا ادع لاخواني محرري الاهرام العربية ترجمته وتفصيل احواله المتصلة بحوادث الخمس والعشرين السنة الاخيرة من تاريخ مصر. ولست اذكر هنا الا بعض ما سمعته منهُ عن نفسه فانه كان يحب ان يحدث عن ماضيه منذ بدأ بالنزاع وهو رقيق الحال ضعيف الشأن الى ان بلغ مبلغه من المقام والجاه

لا جرم انه جاهد وتعب وذلل من المصاعب التي كانت تحول دون غاياته ما لا يقوى عليه الا اشداء الناس وذوو الجلد والمثابرة منهم ولكنه كان من الجيل اللبناني المتين البنية الذكي الفؤاد الذي خلق لمثل هذا الجهاد وكان يفاخر بانه من هؤلاء القوم

وكان مجموع الجسم ربعة في الرجال عريض الصدر قويّ العضل مكين مغرس الرأس من البدن نافذ الاشارة مستمر الحركة صافي العينين متقدهما يحدق في مخاطبه ولا يحول نظره عنه وسوف يراه الذين عرفوه زمناً طويلاً على هذه الصورة بما ابقاه من راسخ الذكر في قلوبهم

واشهد اني في اسفاري الكثيرة التي لقيت في خلالها جمهوراً من الرصفاء في فرنسا وخارجها لم اعرف منهم رجلاً اشد من نقلا باشا همة في عمله ولا اصدق

محباً لحرفته وكان في وسعه بعد ان جمع ما جمعه من المال المكسوب حلالاً ان يستريح عقيب مشقة ست وعشرين سنة ويعهد الى سواه في القيام بعمله وتلقي شواغله المنصبة عنه غير انه كان يأبى الا مداومة العمل بنفسه ولا يزداد الا رغبة فيه ومثابرة علماً منه بان في مزيد النجاح مزيداً من المسئولية

ومن مزاياه انه كان لا يخطئ في مقياس همته بل يقدرها على الامنية ويختار للشروع في كل مسعى جديد اكثر الاوقات موافقة له ومن هذا القبيل انشاؤه للاهرام الفرنسوية بعد ان طال تفكره فيها ومضى زمن طويل على ترقبه الفرصة السانحة لها حتى انه كان يباحث فيها منذ بضع عشرة سنة صديقه الحميم المرحوم جبريال شارم الذي مات وهو يذكر اسمه وكان السر في هذا الانتظار انه بعد ان تولى الاهرام العربية منفرداً بها على اثر وفاة اخيه رأى ان يصلح اولاً ادارتها ويوطد مركزها الادبي والمالي ففعل ووفق في ذلك توفيقاً عظيماً بما كان مفطوراً عليه من حسن التدبير فلما اتم هذا الاصلاح وجعل ادارته افضل نظائرها في مصر بل وفي كثير من البلاد الاوربية حقق أمنيته القديمة وأسس الاهرام الفرنسوية في شهر اكتوبر من سنة ١٨٩٩ للدفاع عن مصالح مصر في الغرب وعن مصالح فرنسا في الشرق ومعلوم انه كان في حماية هذه الدولة وكان يحبها حب نزاهة واخلاص

وكان بعض اصدقائه الباريسيين ومنهم المسيو برنو الذي كان رئيسي في فرع الاخبار بادارة البتي جورنال والمسيو كزافيه شارم المحرر الشهير في مجلة العالمين قد اوصوه بي فاستدعاني الى مصر فحضرت ووجدت كل شيء معداً لاصدار الجريدة «تو للدخول في الجهاد»

وانما قلت الدخول في الجهاد لان هذه الكلمات تمثل احسن تمثيل رأي نقلا باشا في الصحافة ومقصده من جريدته وذلك لانه كان يأبى ان يؤجر في مصلحة احد او ان يصالح خصومه على غير حق وكان يريد محاربة المظالم واحباط المساعي السيئة ودفع الاراجيف وتأييد معتقده ومبادئه . وعلى هذه الخطة جرى الى آخر نسماته بلا ملل ولا توان

وأشرف اعماله انه كان اول من ناوأ الاستبداد في الشرق وجهر بمقاومته ولهذا اجمع رصفاؤه على ايفائه حقه من حسن الذكر بعد وفاته ولم يتخلف منهم صديق او غير صديق في اعاذة هذا الاخر اليه واسدائه ما هو اهله من الثناء عليه . وسيقرأ ابنه العزيز على جميع اصدقاء ابيه ما كتب عنه من آيات المدح فيفاخر بها ولا شك ان مثل هذه الذكرى تفضل جميع الالقاب والمناصب

هذا وانني لا احاول في هذا المقام ان اعزي حضرات والدة نقلا باشا الجليلة وقرينته الفاضلة وابنه العزيز فان كلمات التأسية اضعف من ان تلطف نيران الحزن في قلوبهم ولكن اذا من الله عليهم ببعض السلوى فنيسرهم سماع ما قيل في فقيدهم من الاقوال الطيبة التي تخلد اسمه . اما نحن فافضل مما نستطيع عمله في سبيل المرحوم نقلا باشا انما هو ان نفرغ وسعنا في تسيير عمله على الخطة التي رسمها لنا رحمه الله

جاك لوريا

وقالت الادجبشن غازت

علمنا آسفين بوفاة رصيفنا المكرم صاحب السعادة بشاره تقلا باشا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد
وكان قد ظهر تحسن في صحته في ايامه الاخيرة ولكن عاودته الحمى امس فاودت به ليلاً
وهنا ذكرت لمعة من ترجمته ثم قالت وانا نقدم لارملة الفقيد وسائر اسرته عبارة التعزية الصادرة عن عواطف التجلة والاحترام

وقالت الريفورم

نعي الينا المرحوم بشاره تقلا باشا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد على اثر احتقان في الدماغ وسيحتفل بتشييع جنازته اليوم
ولقد كان الفقيد صحافياً انشأ جريدتين كان يدير شؤونهما المادية والسياسية الى آخر ايامه
وكان عصامياً ارتقى بمعاونة اخيه المرحوم سليم بك وبهمته ومهارته واحرز نشان اللجيون دونور
فنحن نعزي ارملته الاسيفة من صميم الفؤاد

وقالت البروجريه

نعى الى قرائنا بمزيد الاسف المرحوم بشاره تقلا باشا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد توفي في نحو الخمسين من عمره الليلة البارحة باصابة شلل حدثت له منذ بضعة عشر يوماً وستشيع جنازته بعد ظهر اليوم من منزله بشارع الساحة ولا تصدر جريدتا الاهرام والبيراميد اليوم

وقالت الفار دالكسندري

نعي الينا رصيفنا وصديقنا القديم المرحوم بشاره تقلا باشا . عاجلته المنية على أثر الداء العياء الذي الم به فكان لفقده رنين حزن عام في البلاد وقد خلف رحمه الله أثرين جاليلين احدهما الاهرام العربية وهي الجريدة التي أسسها اخوه المرحوم سليم بك تقلا فاوصلها الى اسمى مقام في عالم الصحافة العربية وجعلها من اكثرها انتشاراً والآخر البيراميد الفرنسوية وهي على حداثة عهدها قد جازت شوطاً بعيداً في الترقي بهمته واقدامه وحدة ذكائه

ولا جرم ان جميع الذين عرفوا هذا الفقيد قدروا اخلاقه ومزاياه قدرها واشتركوا في الاسف عليه

وقالت جريدة البورصة المصرية

علمنا بمزيد الاسف ان قد توفي في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين بعد منتصف الليلة البارحة المرحوم

بشاره باشا تقلا

صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد

في الثامنة والاربعين من العمر فنهدي الى ارملة الفقيد خالص التعزية وصادق الاحترام

وقد شفعت هذه الاسطر بذكر ماخص ترجمته

وقالت جريدة الامبرسيالي

حلّ القضآء المبرم ونعي المرحوم بشارة باشا تقلا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد وهو الرجل العصامي الذي بلغ بجده ونشاطه الى درجة عالية في المجتمع وستشيع جنازته بعد ظهر اليوم بالاحتفال اللائق بمقامه فنرفع الى والدته وقرينته الاسيفتين خالص تعزيتنا على هذا المصاب المؤلم

وقالت جريدة الكوريري اجيسيانو

نعي الينا سعادة بشارة باشا تقلا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد

وقد كان من رجال الجد والعمل وله مكانة رفيعة في عالم الصحافة عاجله القضاء في مبدإ الاكتهال فاثكل والدته وامرأته الحزينتين اللتين نهدي اليهما تعازينا على هذا المصاب الاليم

وقالت جريدة المساجييري اجيسيانو

توفي الى رحمة الله بشاره باشا تقلا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد غالته المنية في مستوى العمر بالداء الذي ألم برأسه ولم يدركه الاطباء وكان مثالاً للنشاط والجد والذكاء وبها نال المرتبة العالية التي لم ينلها صحافي عربي قبله

وسيحتفل بتشييع جنازته عصر اليوم تغمده الله برضوانه وعزى قلب قرينته ووالدته الاسيفتين

هذا وقد قالت جرائد الكايرون والاومونيو والتاخيدروموس وسائر الصحف اليونانية مثل ما تقدم في نعي الفقيد ومما نذكره آسفين ان كثيراً من جرائد اوروبا الكبرى والجرائد العربية التي لم نذكرها نعتهُ وأبنته احسن تأبين ولكن دهشة المصاب شغلتنا عن جمعها ولم يتسنّ لنا العثور عليها بعد ذلك· على ان فيما اوردناه كفاية في الدلالة على عظم قدره وعموم المصاب به رحمهُ الله



العربيــة

(في سائر الامصار)

قالت جريدة الاحوال

{ فقيد الصحافة }

نعينا في عدد السبت على عجل فقيد الصحافة الوطنية رصيفنا وصديقنا العزيز الطيب الذكر المرحوم بشاره باشا تقلا صاحب جريدتي الاهرام العربية والفرنسية فكان لنعيه اسف عميم شمل قومه واصدقاءه وكل محبي الوطن ورجاله

صرعته المنية وهو لم يبلغ الخمسين من عمره اثر حمى دماغية لم تمهله الا بضعة ايام وكان عشرة من مشاهير الاطباء يتناوبون معالجته ويتداولون في افعل الوسائل لمغالبة العلة فغلبتهم جميعاً ولم تغنِ حيلهم فتيلاً

جاءنا بريد مصر اليوم وليس فيه اثر لهذه الفاجعة لكن لا ريب بان المصريين اقاموا مناحة عظيمة وان ارباب الصحافة اجمعت مع اختلاف اغراضها وسياستها على استعظام الخطب وقامت نحو رصيفها الجليل بما هو اهله من

الوصف والتأبين والمشاركة في اجلال مأتمه مما سنأتي على بيانه عند وصول البريد القادم اواخر الاسبوع ان شاء الله

اما ما نعلمه من ترجمة الفقيد فهو انه ولد في كفرشيما (لبنان) من والدين فاضلين احسنا تربيته وبعد ان رحل اخوه المرحوم سليم بك الى الاسكندرية سنة ١٨٧٥ حيث أسس جريدة الاهرام استعان باخيه الفقيد لتدبير شؤونها وولاه ادارتها فقام بها احسن قيام حتى بلغت شأواً بعيداً لم تبلغه جريدة عربية من قبل ودامت مواصلة نهج الترقي حتى عاجلت المنية مؤسسها السليم في ٨ آب سنة ١٨٩٢ فاستأثر بشاره باشا بالجريدة دون سائر اخوته ووسع نطاقها ثم نقلها الى القاهرة واضاف اليها جريدة جديدة انشأها بالفرنسية باسم الاهرام ايضاً (بيراميد) فنمت وازهرت

وقد احرز فقيدنا في اثناء خدمته الوطنية من المكارم الشاهانية رتبة روملي بيكاربك والوسام المجيدي من الطبقة الاولى وفاز من حكومة فرنسا بوسام فرقة الشرف من رتبة كومندور وبجملة وسامات أخرى من دول مختلفة وتجول في عواصم اوروبا عدة مرار كان في اثنائها يواجه ويجالس اكابر السياسيين وعظماء رجال الدول وينقل احاديثهم على صفحات الاهرام

وكان رحمة الله عليه مقداماً وفاز مع علائم المجد والشرف بثروة كبيرة لم يسبقه اليها احد من ارباب الصحافة وكان على جانب عظيم من الدراية والحنكة والفطنة والدهاء متفنناً بضروب السياسة كسائر عظماء الرجال

وقد اثكل بوفاته قرينة اسيفة وولداً وحيداً لا يزال دون المراهقة وباسمه كتب امتياز الجريدتين اللتين ستداومان على الغالب خدمتهما تحت رعاية ارملة

الفقيد الى ان يترعرع الفتى ويقتدر على ان يخلف والده فيكون خير خلف لخير سلف

وفي هذا المقام نكرر لهما ولاخوي الفقيد ولسائر آلهم التعزية وللفقيد الرحمة الواسعة وللجريدتين دوام النمو والازهار

وقالت جريدة المصباح

صاحب الاهرام

ننشر بالاسف نبأً صادعاً كان له رنة حزن الا وهو وفاة من خدم العلم والصحافة وتفانى في حب الدولة العلية المأسوف عليه المرحوم بشاره تقلا باشا صاحب جريدة الاهرام العربية والبيراميد الافرنسية . مات في مصر بعيداً عن الاوطان تاركاً اثاراً تذكر فتشكر تؤيد ذلك مقالاته السياسية الرنانة التي كان ينقشها على صفحات الاهرام ولا غرو اذا ما كان الحزن عليه عظيماً . كيف لا وقد خدم العلم والاداب ما ينيف عن الستة والعشرين عاماً قضاها رحمة الله عليه بين المحابر والمجالس وقد عرف قدره رجال الدول العظام وكبار السياسيين فتوالت عليه الانعامات الشاهانية والاوسمة الاجنبية فحق للوطن ان يأسف عليه اسفاً شديداً فنسأل المولى ان يعزي آله الكرام اجمل العزاء وان يغمد نفس الفقيد بالرحمة والرضوان

وقالت جريدة ثمرات الفنون

نعي الينا البرق من مصر وفاة رصيفنا المأسوف عليه بشاره باشا تقلا صاحب جريدة الاهرام ومدير سياستها • قضى نحبه صباح السبت (اول امس) عقيب حمى لم تمهله غير بضعة ايام فكان لنعيه رنة لدى كل من عرف الفقيد وماله من رسوخ القدم في عالم الصحافة مدة ربع قرن خدمها وخدمته خدمة مشهورة• وقد تولى مديرية الاهرام ايام فقيد الآداب شقيقه المأسوف عليه سليم بك تقلا ثم بعد وفاته انتقل امتياز الجريدة اليه فاشتهر في خلالها بما اشتهر به من طول الباع في التحرير والتحبير واحرز من الحكومة السنية باية روم ايلي بكاربك ووسامات سامية متعددة وبالجملة فان فقده خسارة على المطبوعات فنقدم لعائلته التعزية ونرجو لها صبراً جميلاً

قال لسان الحال

يوم السبت نعى البرق من مصر المرحوم بشاره باشا تقلا صاحب جريدة الاهرام فكان لهذا النبإِ الصادع رنة في قلب الذين عرفوا الفقيد وشهدوا آثار فضله وتفانيه في حب الدولة العلية وتهالكه على خدمة العلم والادب منذ ست وعشرين عاماً تؤيد ذلك عواطفه التي كان يرسمها على صفحات الاهرام بعبارات صريحة تشف عن قلب صادق وحمية وطنية وقد شق علينا ورود

النبأ بانحجابه عن مجالس النباهة والوجاهة والسياسة والادب بقدر ما كان قد سرنا اثبات الاهرام في احدى نشراته الاخيرة ان قد خفت وطأة الحمى عنه وشكره لجميع الذين عادوه في اثناء علته

ولكن أبت الحمى الا الكرة عليه ففجعت قلوب انسبائه واصدقائه ورصفائه فيه وقدكان رحمه الله من المتهالكين على خدمة المعارف والمتفانين في حب الدولة العلية بدليل ما انالته من أدلة انعاطفها نحوه وتقديرها خدمه الصادقة قدرها نسأل المولى عز وجلّ ان يعزي آله الكرام اجمل عزاء وان يتغمد فقيدهم وفقيد الوطن برحمته ورضوانه

وقالت جريدة طرابلس الشام

{ المأسوف عليه بشارة باشا تقلا }

نعت الينا انباء القطر المصري وفاة ركن من اركان الصحافة وهو رصيفنا المكرم بشارة باشا تقلا صاحب جريدة الاهرام توفاه الله صباح يوم السبت الماضي اثر نزلة لم تمهله الا بضعة ايام فاسف لوفاته رجال الصحافة ومن عرف صفات الفقيد وما امتاز به من خدمة المعارف زمناً طويلاً نال بخلاله من الدولة العلية جزاء خدمه رتبة روم ايلي بكلربكي ووسامات مختلفة فنقدم التعزية لآله وذويه ونرجو لهم صبراً على فقده

وقالت جريدة لبنان

رزء وطني

رزئت الوطنية بفقد احد رجالها الافاضل المغفور له بشارة باشا تقلا صاحب جريدة الاهرام الطائرة الشهرة وجريدة البيراميد الافرنسية . فقد انبأ لسان البرق ان المنية عاجلته في مصر صباح يوم السبت الماضي اثر علة لم تمهله سوى بضعة ايام فكان لنعيه رنة حزن في قلوب مواطنيه الذين يقدرون اعماله الخطيرة حق قدرها ويعرفون منزلته السياسية في عالم الصحافة التي قام بخدمتها احسن قيام فلذلك لا غرو ان شكرت بيض اياديه وعددت كريم مآتيه برد الله مثواه بصيب العفو والرضى والهم اسرته الكريمة وجميع انسبائه الافاضل صبرا على فقده

وقال في عدد اخر

نعينا باحدى نشراتنا السابقة فقيد الوطن المغفور له بشاره باشا تقلا صاحب جريدة الاهرام التي احتجبت بضعة ايام عن قرائها الكرام حداداً ثم ظهرت مملوءة من عبارات التلهف والحزن ذاكرة ما كان للفقيد الكريم من الاحتفال الخارق العادة بدفنه واليك خلاصة ما جاء في وصفه ببعض الجرائد المصرية

مساء السبت الاسبق اقبل الامراء والسراة وذوو القربى للاحتفال بدفن المغفور له بشارة باشا تقلا وفخامة الخديوي انفذ حينئذٍ سعادتلو علي بك كامل لتعزية آله الكرام ومن ثم سير بالجنازة يتدمها عدد من البوليس

ثم يسقجية القناصل واكليروس الطوائف الكاثوليكية ثم حامل وسادة الاوسمة التي احرزها الفقيد ثم حاملو بساط الرحمة وهم كل من اصحاب السعادة محمود شكري باشا ويعقوب ارتين باشا وقليني فهمي باشا والمسيو قصيري من اركان قنصلاتو فرنسا وطوبيا بك كامل والمسيو بريفا ونقولا بك توما والدكتور يعقوب افندي صروف وكان من الوراء المسيو لكونت من متولجي اعمال الوكالة الفرنسوية والمسيو برتران والمسيو باروا ناظر السكك الحديدية وسعادتلو اسمعيل باشا صبري وجميع رجال الصحافة وسواهم وبعد الصلاة نقل نعشه الى المدفن في مصر القديمة وابنه حينئذٍ المسيو بول مانس بالنيابة عن جريدة البيراميد ويوسف افندي البستاني بالنيابةً عن الاهرام ثم أبنه حضرة المحامي الشهير نقولا بك توما تأبيناً موجعاً بين فيه ترجمة حياته واعرب عن اياديه البيضاء ثم ارفض الحشد وكلهم آسف يتمنى للفقيد الكريم رحمة وللمرزوئين فيه الكرام صبراً جميلاً

وقالت جريدة الروضة

وفاة جليل

يوم السبت الماضي نعى البرق المرحوم المأسوف عليه بشاره باشا تقلا صاحب جريدة الاهرام الشهيرة وجريدة البيراميد الافرنسية توفاه الله صباح اليوم المذكور اثر حمى لم تمهله الا بضعة ايام فكان لهذا النبإِ المفجع رنة

حزن في قلوب الذين عرفوا الفقيد وحسن صفاته وتفانيه في خدمة العلم والادب فنسأل الله ان يتغمده برحمته ورضوانه وان يلهم آله الكرام الصبر والعزاء

وقالت جريدة بيروت

اول امس ورد على لسان البرق نعي المأسوف عليه بشارة باشا تقلا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد الفرنسوية توفي على اثر حمى وطيس بها ذايه فلم تمهله الا اياماً قليلة وقد اسف عليه اصحابه ومعارفه لانه احرز بجده ونشاطه منزلة حسنة فنعزي اهله واقاربه بمصابهم فيه

وقالت جريدة المحبة

المرحوم بشاره باشا تقلا

اتانا نعي هذا الفقيد الكريم والجريدة تحت الطبع فلم نتمكن من وفائه واجب الرثاء في عددنا الماضي فاكتفينا بنقل نعيه الى القراء ونحن نشعر بثقل الضربة وجسامة المصاب وقد اتانا الاهرام مطوقاً بالسواد مرتدياً أثواب الحداد مصدراً برسم فقيده ومعلي مناره وتلقينا جرائد القطر على اختلاف نزعاتها مشحونة بتعداد مناقب زعيم الصحافة العربية وركن نهضتها في بلاد

الشرق وكلها على اتفاق في قدر الخسارة حق قدرها واستعظام المصيبة في هذا الراحل العزيز

والمرحوم بشاره تقلا ولا نزيد الناس بهِ علماً هو الرجل المرتقي بجده من ابسط درجات النسب والثروة الى أعلى مراتب الشرف والعلاء الناهض من حضيض الخمول الى اوج المجد والشهرة بل الوطني الحرّ المخلص لدولته وبلاده الثابت في خدمة وطنه حتى الموت المجاهد في اعلاء منار الحق حتى السجن والاضطهاد. استنقل الوجود في قرية صغيرة لم تلح في سمائها شمس التقدم ولم ينلها في التاريخ حظ من سعادة البلدان وليس حوله من عوامل النهضة وذرائع النجاح الا كل ما يقعد بالهمم عن الجد ويثبط النفوس الكبيرة عن مصادمة معاكسات الدهر وهذا الرجل مات اليوم عظيماً مجيداً موسراً نائلاً حظوة في اعين الملوك وحائزاً ارفع مقام بين عظماء الناس وقد مشى في جنازته السراة والاعيان والكبراء والوجهاء والكتاب والخطباء فما أحرى بمثاله ان يتخذ قدوة للعمل والاجتهاد وما اجدر باسمه ان يخلد في التاريخ عنواناً للفخر الحقيقي المكتسب بالسعي والاستحقاق لا الموروث عن الاباء والاجداد

ولا نروم في هذا المقام ان نستوفي الكلام عن مآثر الرجل ومفاخره ولكن نقول باختصار ان حياة المرحوم بشاره باشا تقلا ملأت فراغاً عظيماً في الوجود الادبي وهي تبقى احدى الصور المجيدة التي يرسمها التاريخ للذرية ممثلاً فيها اعظم الاعمال واشرفها فنسأل الله ان يرحمه رحمة واسعة كفضله ويكافئه عداد حسناته ويمن بالتعزية على قلبي ارملته ونجله ويحفظ بوحيده

خير خلفٍ يسير على خطته وينهج منهجه في خدمة الحق واعلاء منار الوطن والامة

وقالت مجلة الطبيب

{ بشاره باشا تقلا }

نعت الينا اخبار القاهرة وفاة رصيفنا المرحوم بشاره باشا تقلا مدير وصاحب جريدتي الاهرام والبيراميد . الحائز المجيدي الاول والافيسيه دي لجيون دونور والنيشان الاول من رتبة ستانسلاس الروسي ونيشان المخلص اليوناني ونيشان القديسة اليصابات الاسباني ونيشان الاسد والشمس الفارسي ونيشان المجمع العلمي ونيشان الافتخار من باي تونس . توفي عن ٤٨ عاماً صرف معظمها بالجد والاعمال الخطيرة . وقد لبث مريضاً بالحمى ٢٤ يوماً وكان كما قيل في مرضه كما في صحته ثابت الجاش والعزم والقوة والجلد والصبر يغالب الآلام فلا يشكو المـاً ويكافح الاسقام فلا يظهر مضضاً . وقد كان مأتمه حافلاً غص بالامراء والعظماء والادباء والانسباء من جميع الملل والنحل وقام على رمسه الخطباء يعددون مآثره ويترحمون عليه

ولد الفقيد في ٢٢ اغسطس سنة ١٨٥٢ في قرية كفرشيما من اعمال ساحل لبنان وفي العاشر من عمره دخل المدرسة الوطنية للمرحوم المعلم بطرس البستاني التي كانت في بيروت ثم المدرسة البطريركية وبعد انجاز دروسه انتدب

مدرساً فيها وفي سنة ٧٢ طلبت اليه عمدة المدرسة الكلية الانجيلية ان يعلم فيها مسك الدفاتر فكنا وقتئذٍ من مبتدئي الطلبة عنده ولم نزل بين ايدينا دفتر الاستاذ وعليه التصحيح بخط يده. ثم انتقل من بيروت الى عنطوره فدرَّس في مدرستها الشهيرة سنتين ثم توجه الى القاهرة لمعاونة اخيه المرحوم سليم بك نقلا في انشاء الاهرام بايام المرحوم اسمعيل باشا خديوي مصر سنة ١٨٧٥ وأصدر في تلك الاثناءِ ايضاً جريدة صدى الاهرام وكانت هاتان الصحيفتان باكورة الصحافة في القطر المصري· وفي سنة ١٨٧٨ ايام الحرب العثمانية الروسية اصدر جريدة على هيئة مجلة سماها حقيقة الاخبار خصص نصف دخلها بمساعدة الجنود الشاهانية . ولما حرَّر مقالة ظلم الفلاح طلبه اسماعيل باشا وأوقفه وعطل جريدة الصدى فاصدر بعد خروجه من السجن جريدة باسم الوقت · واول فصل كتبه في الاهرام بتوقيعه كان سنة ١٨٧٩ وموضوعه سياسة المانيا · وفي سنة ٨٠ سافر الى سوريا لتصفية بعض حسابات كانت على المرحوم والده وفي السنة التالية سافر الى الاستانة ثمَّ الى اوروبا يوم كانت المسألة المصرية في اعظم احتدامها وفي سنة ١٨٨٧ عاد الى مصر فاقتبله الخديوي بالترحاب وأنعم عليه بالرتبة الثانية . وبعد حوادث الاسكندرية جاء سوريا وفي غيابه احترقت المطبعة فعاد وجددها واعاد الاهرام . وفي عام ٨٤ سافر الى لندرة وحظي فيها بالالتفات ثم في غيبته تقدم الى ادارة الاهرام وفد من الاعيان والوجوه يشكرون خطته ويظهرون الارتياح الى كتاباته واجراءاته فكدر ذلك التظاهر الحكومة المصرية وعطلت الاهرام . فلما بلغه الخبر عاد من لندن الى مصر ونال الرضى والعفو . ثم سافر سنة ٨٧ الى الاستانة وفيها نال الالتفات العالي والنيشان المجيدي الثاني. ثم توجه من

هنالك الى عاصمة الروس وحظي بشرف المثول لدى جلالة القيصر ثم عاد معرجاً على الاستانة . ثم في سنة ٨٨ عاد الى الاستانة وتشرف بالمقابلة السنية وأذن له برؤية دار الخزانة العثمانية وتحف آل عثمان وعروش السلاطين وما هنالك من الكنوز والجواهر وفي سنة ٧٩ توجه من مصر الى اوربا وعقدت له الزيجة في ١٥ حزيران من تلك السنة وهو نفس يوم وفاته من هذا العام وصرف مع عروسه مدةً في الاسفار بعواصم اوربا قابل في اثنائها جلالة ناصر الدين شاه العجم . وفي عام ١٨٩٢ زار الاستانة ايضاً ونال النيشان المجيدي الاول والرتبة الاولى من الصنف الاول ثم رتبة روملي بيكاربكي . قال محرر جريدته انه مع نواله المقامات العالية مثال التواضع والمجاملة والرأفة وسلامة الطوية وطيب السريرة وحب الفضيلة وكان متقد الذهن كثير المطالعة للجرائد الغربية دقيق النقد لما يترجم منها ومن وصاياه « ان الشرق هو وطننا وفي الشرق محصورة خدمتنا وخدمة الوطن هي ضالتنا ننشدها في كل آنٍ بلا محاباة ولا مراعاة » وقد قال موصياً لجريدة الاهرام « تحروا المباحث المفيدة للامة . ولا تخشوا في الخدمة الصحيحة والحقيقة المفيدة احداً . واجتنبوا المثالب واسكتوا عن المطاعن ولو كانت عليَّ »

هذه خلاصة حياة الفقيد العزيز وشيء من مآثره واعماله الجليلة فالصحافة والسياسة تندبانه والجد والخلوص يأسفان عليه رحمه الله رحمةً واسعة وعزى آله الكرام

وقالت جريدة الخلافة بلندن

وفاة صاحب الاهرام

ألمّ بالصحافة المصرية بل بعالم المطبوعات العربية مصاب عظيم وخطب جسيم بوفاة المرحوم بشارة باشا تقلا صاحب الاهرام وهي بعد الوقائع المصرية أقدم الجرائد العربية في مصر أسست قبل خمس وعشرين سنة حيث كان ذلك القطر محروماً من جريدة تكشف لاهله عن أحوال الدنيا وترشدهم الى معرفة حوادث العالم وقد نجح هو وشقيقه سليم بك رحمهما الله في خدمة البلاد التي اتخذاها موطناً فان الناس أقبلوا على الاهرام إقبال الجائع على الطعام وساعد على ذلك رجال الحكومة المصرية المحبون لنشر المعارف والآداب العمومية وكلما زادت الجريدة حظوة عند الاهلين كان صاحبها يتضاعف همة ونشاطاً بتكثير موادها وتوفير فوائدها الى أن صارت اكبر الجرنالات العربية حجماً وكان بشارة باشا يعتني بجمع الاخبار واستقصاء وقائع الامصار واستطلاع الآراء والافكار بصورة أعجزت غيره عن مجاراته في هذا المضمار وبالجملة فكأن الفقيد خلق لحرفته وما أجدر كتابة الصحف بان تكون من مهنته ولو كان المصريون كسائر الامم مغرمين بقراءة الجرنالات لكان رواج الاهرام بينهم يماثل رواج السواد الاعظم من جرائد اوربا بين الافرنج ومع هذا فقد كان المجد للفقيد ملازماً والسعد له خادماً في مدة قصيرة جمع ثروة وفيرة وأحرز الوجاهة والاعتبار وعاش متمتعاً بانواع العز والفخار وفضلاً عما كان له من المقام بين امراء المصريين ووزرائهم الكرام فان وكلاء الاستانة ورجال السلطنة

الفخام كانوا يستقبلونه بالاحتفاء والاكرام وأحسن اليه السلطان المعظم بالرتب العالية والنياشين السامية وكان لعائلته واخوانه واحبائه وخلانه حصة من المراعاة السلطانية ونصيب من التعطفات الشاهانية حتى أحدث له ارتقاؤه هذا بين رجال يلديز حساداً وأعداء ثم أشير عليه بنقل جريدته الى دار الخلافة العلية ولكنه لما اختبر أحوالها حق الاختبار وطبق حرية الاقطار المصرية على التضييقات الواقعة في تلك الديار رجح البقاء حيث كان وفي خلال ذلك لم يتقاعس عن الذب عن حقوق الحكومة السلطانية الى ان ازدادت ادارة المصالح في الاستانة سوءاً واختلالاً بحيث لم يبق ثمت لمحرر جريدة حرة أساس للدفاع عن حكومتها فعدل سياسته وصار ينتقد مسلك رجال الدولة مع التزام المحافظة على الولاء لجلالة أمير المؤمنين وقد ساح كثيراً في اوربا وتعرف بوزراء فرنسا وكتابها وأظهر للحكومة الجمهورية خدماً جايلة في وقت كانت وكلاؤها في مصر في أشد الافتقار الى من يحامي عن مصالحها فكافأته على خدمته وأحسنت عليه بوسامها علامة على صداقته والحاصل انه كان لتقلا باشا دور مهم في السياسة لم يتأت لاحد من أرباب الجرنالات الشرقية ومع هذا فكان حسن الاخلاق كريم الطباع لطيف المعاشرة محباً لفعل الخير وكم وكم له من مبرات وحسنات نحو كثير من العائلات بنوع يخلد له الذكر الحسن والصيت المستحسن فحق للصحافة العربية ان تفتخر بمثله وتحزن لفقده وتعتبر بفضله وقد شيعت جنازته في موكب حافل ارسل اليه مولانا الخديو المعظم احد رجاله الكرام لينوب عن جنابه العالي وحضره الامراء والنبلاء وقناصل الدول الاجنبية ورجال الحكومة الخديوية واعيان المصريين واكابر السوريين ووجوه الاوروباويين وارباب الصحف العربية والافرنجية وكثير من العلماء والادباء وكبراء التجار وأهل الثروة واليسار وألقيت الخطب الفصيحة بتعداد محامد الفقيد الصحيحة ورثاه الشعراء اجمل رثاء فنسأل الله

تعالى أن يعزي أفراد عائلته الكريمة عن حرمانهم شيخهم ورئيسهم في عمر كانت يمكنه فيه ان يزيد مآثره ويكثر مفاخره ونرجو ان يكون نجله الخلف مقتدياً بالسلف ليخلد اسمه ويؤيد رسمه

وقالت جريدة مرآة الغرب في نيويورك

بشارة تقلا باشا

نعت الينا جرائد مصر المأسوف عليه المرحوم بشاره تقلا باشا صاحب جريدتي الاهرام والبيراميد توفي بعد منتصف ليل الرابع عشر من خزيران الفائت اثر حمى خبيثة اصابته مدة اسبوعين فلم تنفك عنه حتى اسلم انفاسه الاخيرة

مات الفقيد وله من العمر ٤٨ عاماً تضرب به الامثال في الجد والنشاط ويقال عنهُ رحمه الله انه لم يكن يعرف الراحة في عمله . وقد خدم الفقيد سنين طوالاً وعزّز شأن الادب وساح الممالك وطاف معظم البلاد الاوربية وقد احتفل بمأتمه احتفالاً يليق بمقامه ودفن مأسوفاً عليه رحمه الله رحمة واسعة وألهم والدته الفاضلة وقرينته وابنه واشقاءه جميل الصبر والعزاء

وقالت في عدد ثان

{ الاهرام }

جاءتنا الاهرام حزينة على مؤسس مجدها وركن فخرها مجللة بالسواد

وفي عددين منها رسم شيخ الصحافة وفقيد الشرق المأسوف عليه بشارة تقلا باشا البعيد الصيت فلم نتمالك من ذرف الدموع عند رؤية رسم فقيد عزيز ورجل .

هيهات ان يأتي الزمان بمثله ان الزمان بمثله لبخيل

رجل نادرة في زمانه وعصامي قد سودته النفس وعلا به الجد والاقدام الى ذروة الفخار وقمة العلياء وعندنا ان ذلك الراحل الكريم وان مات فان ذكره سيبقى حياً بقاء الاهرام وآثار أقلامه مخلدة على صفحات (الاهرام) ومآثره العديدة تردد ذكره على كرور الايام . رحمه الله رحمة واسعة واسكنه فسيح جنانه

وقد تحوَّلت الجريدة بامتيازها لاسم نجله جبرائيل بك بشارة تقلا الذي لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره جعله الله خير خلف لخير سلف واقرّ به عيون الآل والخلان انه السميع المنان

وقالت جريدة الصدق ببوينس ايرس

وفاة بشارة باشا تقلا
صاحب الاهرامين

نعت الجرائد المصرية فقيد صحافتها ومؤسس أقدم صحفها السياسية صاحب الاهرام بل صاحب الاهرامين المأسوف عليه بشارة باشا تقلا الذي قدم الديار المصرية منذ نيف وعشرين سنة في عصر اسماعيل فجاهد في سبيل

ترقي الصحافة بهمة لا تعرف الكلل والملل فاحي الليالي ساهراً مواظباً على العمل متغلباً على عقبات رضخت لها رجال الصحافة من أسلافه ومعاصريه حتى ارتقى بين الاقران وبلغ شأواً رفيعاً في الوجاهة وعلو الشأن ونال الشيء الكثير من الرتب والنياشين

وكان له جسم لا يتعب ودماغ يتقد حدة وذكاء كانه شعلة من اقدام ولكن وا أسفاه فقد حمل النفس فوق طاقتها فالتهب الدماغ وكان ما كان من انقضاء الاجل قبل الاوان والناس لا يصدقون ان تلك الهمة العالية وذلك العزم الثابت يصيران الى عالم الفناء حتى ولا جال في فكر البشر ان تلك الزهرة النضرة سيعتريها الذبول العاجل

ولد الفقيد في ٢٢ آب سنة ١٨٥٢ بكفر شيما من قرى لبنان وجاء الديار المصرية سنة ١٨٧٦ حيث انشأ جريدة الاهرام مع المرحوم اخيه سليم بك تقلا فكانت له خير ميدان راض فيه ما أُوتي به من المواهب والمزايا وقضى رحمه الله عن ٤٨ سنة ملبياً دعوة ربه الى الديار الباقية مخلفاً لنجله بجده وكده من الجاه والثروة ما يعز على ارباب الاقلام في الشرق وفي هذه الايام ان يحصلوا عليه

وكانت وفاته على أثر احتقان في الدماغ لم يمهله كثيراً وكان قلبه دليلا على ما سيحل به فاستدعى اليه زوجته وولده وودعهما وداع من ايقن بدنو منيته ثم اعترته نوبة شديدة افقدته الصواب وفي الساعة الثانية من صباح يوم الجمعة الواقع ١٥ حزيران اسلم الروح مأسوفاً عليه من معارفه وذويه وبلغ نعيه سمو الخديوي فبعث بمن نابوا عنه بفروض التعزية رحمه الله ومنح المرزوئين به جميل الصبر

وقالت جريدة الايام بنيويورك

موت نقلا باشا

حملت الينا جرائد مصر في هذا الصباح نعي احد اركان الصحافة العربية فيها المأسوف عليه المرحوم بشارة باشا تقلا صاحب جريدة الاهرام المشهورة فقد اصيب بسكتة دماغية ذهبت بحياته وكان لمنعاه تأثير اسف في مصر كلها لما له رحمه الله من الشهرة الواسعة والخدمات المشهورة في سبيل الصحافة العربية وقد جرى بدفنه احتفال عظيم واسف على فقده الكثيرون تغمده الله برحمته والهم آل تقلا الكرام صبراً جميلاً على هذا الرزء الجسيم

وقالت جريدة البرازيل بسان باولو

خطب الاهرام

قضاءٌ قضى لكن على هيكل الجسمِ ... وليس على الذكر المخلد والاسمِ
وكيف يموت الذكر والفضل خالدٌ ... على صخرة المجد المؤثل والعلمِ
لفرضٌ على اهل الصحافة في الورى ... رثاءُ الذي أغنى الصحافة من عدمِ
وفرضٌ على الاداب احياءُ ذكر من ... لقد عمم الآداب في العرب والعجمِ
وفرضٌ على الاقلام ندب الذي سما ... بها في سما العليا الى هامة النجمِ
وفرضٌ على اهل السياسة والنهى ... بكاهُ كذا فرضٌ على الحزم والعزمِ

وتأبينه فرض على كل منبرٍ ودر الرثا من واجب النثر والنظمِ
لقد صدم الاهرام فاندك طوده وقد كان طود الدرف والعلم والسلمِ
دوى خطبه في الشرق حتى اجابهُ صدى من اقاصي الغرب بالحزن والغمِ
تقاسمت الدنيا المصاب فلا ترى سوى آسف يشكو الزمان من الظلمِ

لقد أصيب العلم والادب بمصاب جسيم . ورزئت الصحافة والسياسة بخطب مرٍ أليم . اذ دك طود الاهرام . وانطفأ مصباحه . وبُدلت بالبؤس والغم سعادته وافراحه . وسلبه الدهر حياة حياته . وانشب الموت اظافره في عمود حُماته . الا وهو صاحب الوجاهة والسعادة والفضل . وشيخ الصحافة والسياسة والنبل . سعادتلو افندم حضرتلري

المرحوم بشاره باشا تقلا

صاحب جريدتي الاهرام العربية . والبيراميد الافرنسية . توفاه الله اثر سكتة في الدماغ لم تنجح في شفائها الحيلة . ولا دفعتها عن حياته وسيلة . فراح وعين كل فضيلة عليهِ داميه . واقلام كل ذوي النبل عليه باكية . واياه راثية . وقد بلغنا خبر هذه الفاجعة في اخر وقت من ميعاد صدور البرازيل فاضطررنا الى ايراده مجرداً عن ترجمة حياة الفقيد الجليل مكتفين باستمداد المراحم له من الرحمن . سائلين لأهل العلم والفضل وسعادة اشقائه وآله من بعده نعمة الصبر والسلوان

كتب تعزية

يكاد عدد الكتب التي وردت من كل صوب تعزية في الفقيد لايحصى ولا يحصر ولكننا آثرنا نقل بعض ماوصل الى اليد منها بعد ان بدد اكثرها الذهول الذي ألم بالاهل والاقارب عند حلول المصاب

وأول تلك الكتب ما تفضلت به الاميرة الجليلة البرنسس نازله هانم افندي وكانت يومئذٍ في تونس على حضرة الفاضلة قرينة الفقيد وهذا تعريبه من الفرنسوية

أيتها السيدة الفاضلة

عزَّ عليَّ كثيراً ما انتهى إليَّ من نعي قرينك الفاضل المبرور الذي عرفته منذ ٢١ سنة وأعجبت بما كان عليه من شريف الخلال وصدق الولاء في خدمة مصر والدولة العلية وهي خطة جرى عليها حازماً ولم يتحول عنها في مدة خدمته الطويلة فاستحق اجمل الشكر من الجميع

فأنا مشاركة لك في الاسف العظيم عليه ادعو لك بجميل الصبر والسلوان

وهذا كتابٌ ورد الى جامع الكتاب من احد اكابر الشام ادباً ومقاماً وكانت بينه وبين الفقيد في الايام الاخيرة موجدة لم تتجاوز حد الصداقة

ايها الاخ الخليل

ذهابُ الحبيب بشاره باشا التاثت لهُ نفسي التياث من أصيب بأحب أخ الى قلبه فقد كان الوداد بيننا اكيداً وكان يهتم بي ويريد لي الخير وبيننا من الحقوق والعهود والمكاتبات ما أنت تعرفه فان لم آسف على فقد مثله فعلى من وانما ضاعف حزني عليه وندمي وقرعي السن ارتحال هذا الصديق القديم الى الدار الاخرى على انقطاع من المكاتبة فيما بيننا لا انقطاع المحبة لا والله وهو على ما أقول شهيد ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير ولو استشمرت نفسي فقده لما قطعت مكاتبته ما استطاعت انملي ان تمد حرفاً على قرطاس ولكن واسفاه بل واحرقتاه أنى لي او لغيري ان نعلم الغيب ومع هذا فأنا معترف امام الله بجريرتي هذه استغفرها منه كل ساعة مقرٌّ بأني كنت جانياً في حكم المودة وان كان البغض لهذا الصديق لم يدخل قط فؤادي والله على ما أقول وكيل نعم بقيت أوده وأود خيره وأتمنى لقاءه وأعلم ان انقطاع قلمي عنه سحابة صيف عن قريب تقشع خصوصاً وأن لاسبب لها سوى اشتغالي وغيابي وانصرافي عن الكتابة مما يدل عليه تقصيري معكم وكان غفر الله لهُ حاد المزاج في خدمة الوطن شديداً في العلم فربما بدر منه تعنيف لهذا التقصير كان ينبغي ان لايسؤني لعلمي بالغاية منه وان لايعكر صفو المودة بيننا جدال على قضايا سياسية او غيرها ولكن كما يلزمني ان انصفه يلزم ان انصف نفسي فقد اقسمت مرتين وهذه تعززاً بثالثة ان هذه الفترة لم تكن عندي الا ريثما اعود الى المراسلة وانما كنت

انتظر الفرصة وأتوقع ان اراه في مصر ونعود كما كنا او يراني هنا وغضب المحب اقصر عمراً من ان ينتظر عذراً فجاء من كنانة الغيب مالم اكن اتوقع واعتل بغتة ولم اعلم الا بوفاته رأساً لان الجرائد كانت تتأخر وكان الاطباء في الاول يمنعونني عن القراءة والكتابة فكيف كانت حالي عند سماعي هذا الخبر وكيف كان تعنيفي لنفسي . لاجرم انهُ اقتص من نفسي بنفسي وهو ميت في لحده ولا يكون ميت تأثيره في الاحياء هذا التأثير الا من كان على مثل سجيته من الوفاء والاستمساك بحبال الولاءِ فأنا استغفر الله واستغفره ولو كان جرمي صغيراً فهو عندي الآن حوب كبير ولولا حالتي الآن لكنت رثيته بما يقتضيه الود ولكن افسحوا لي اياماً قلائل حتى انشط من هذا العقال وسأقدم الى حضرة قرينته الفاضلة الكاملة واجب التعزية وارجو من طهارة خلقك ان تنوب عني في بسط عذري لديها في ابطاء رثائي ولئن ابطأ شعري عن رثائه فما ابطأ جفني عن بكائه ولا ابطأ ضميري عن تصوره ولا فؤادي عن التواجد له وكل ذلك مقرون بالندم وتبكيت النفس على حين لا امل ان يشعر بما اصابني من بعده ولعمري ان لم يحزنني مصرع حبيبٍ بهِ افلا يحزنني مصرع ذلك الرجل الندب الرئيس في ابناء حرفته الخادم لوطنه خدمة مخلدة فموت مثله حزن لكل من يهمه شأن الوطن واسال الله ان يوفق ولد فقيدنا الذي اعرفه طفلا حتى نتعزى بهِ عن ابيه وهو المسؤول ان لا يفجعنا بالاحباب

وتكرم حضرة الاستاذ الشيخ سليمان العبد بهذا التاريخ ملحقاً بكتاب قال

بموتك ياتقلا لقد مات فاضل مآثره غرّ خواطر في الذهن
قضى فبكاهُ العلم بالادمع التي تسيل دماً كالقرن يبكي على القرن
وابنته للفاضلين مؤرخاً بكى الصدق تقلا والفضائل من حزن

وبعث إليَّ عزتلو حفني بك ناصف القاضي بهذه الابيات من رسالة

من كان تقلا غالب الاياما وصارع الشهور والاعواما
ومارس السوقة والحكاما ولم يهب عذلاً ولا ملاما
واعمل الدويّ والاقلاما ومنع الجفون ان تناما
واختبر الزمان والاناما كم فوق الدهر له سهاما
فلم يجد الا فتى مقداما لا يرهب الكر ولا الاقداما
حتى بنى لنفسه مقاما وشاد في مصر لهُ اهراما
طبق مصر صيتها والشاما وبهر الملوك والاعلاما
وصار في اهل النهى اماما ونال من زمانه ما راما
حتى اذا ملكه الزماما اذاقه من كاسه الحماما
فالله يسقي رمسه الغماما

وكتب اليَّ حضرة الاستاذ احمد افندي سمير

صديقي خليل

اسأَل الله ان يحفظك من المكاره ويبقيك ملاذاً لاخوانك . ثم اتوسل اليك بشفاعة مابيننا من صلة الادب وحرمة الصداقة ان تنوب عني لدى مثال العفة والفضيلة وصورة الشرف والكمال ارملة المأسوف عليه صديقنا الحميم بشاره تقلا باشا عميد الصحافة المجلي في حلبة الواضعين لها بمصر فلقد انقذه الله من اشراك الهموم الحيوية المنصوبة في فضاء هذا الوجود المملوء بالاكدار واختاره لجواره فترك المروءة تبكيه والهمة تندبه والادب يترحم عليه والجد يشكو بثه وحزنه ورجال الاقلام يصعدون الزفرات جزعاً مما اصاب دولة الكتابة السياسية اذ عدمت رجلا كان من اكبر زعمائها جرأة واعظم دعاتها اقداماً

فهل لك ياخليلي ان تقبل هذه النيابة وتقف بين يدي تلك الارملة التي لا أُسميها تكرمة لمقامها فتبلغها اني وان شاطرتها الحزن لا اقوى على رؤيتها جازعة مستسلمة لعوامل الاكتئاب فذلك احرج المواقف لديَّ بل هو الموقف الذي ما عهدت ولن اعهد نفسي في سواه جباناً . وعذري حياء استحكم ومهابة اقترن بها احترام فكانت النتيجة خجلا قطع علي طريق التعزية بنفسي مباشرة . وعدم رؤيتي لتلك السيدة الفاضلة نحو عشر سنين فيه لمعذرتي اعدل تزكية

ياخليل ؛ انت تعلم ان كل شيءٍ يبدو صغيراً ثم يكبر الا المصيبة فانها تبدو كبيرة ثم تصغر ولكن مصيبتنا جميعاً بفقد بشارتنا لن تزال كبيرة ولا امل لنا في صغرها والتسلي عنها إلا مستقبل « جبريل » سر والده وعنوان والدته فعسى الله ان يجعله لها خير ماورثت ويديمه لنا اعظم تسلية وافضل عزاء

وكتب حضرة جواهير والي افندي حسين نجل مقتش طايا

أف لكِ ايها الدار وبغضاً لضيغمك الذي طالما ساب الارواح ومزق الاشباح وترك القلوب تتقلب على جمر الفراق والعيون تجود بدمعها المهراق فاي انسان لايرجف فؤاده ولا يعبس وجهه من صروف الدهر وعوامل القهر التي تلعب بالغصون اليانعة والنفوس الطاهرة بل اي قلب لايعيش كئيباً اذا توارت شموس الآداب وبدور المعارف واي فكر يسابق في ميدان الصحافة ورياض البلاغة بعد ظلام تلك الميادين وظماء هاتيك الرياض بفقد ساقيها وروح اجسامها ومصدر اصولها ومغذي فروعها الا وهو الماسوف عليه بشاره باشا تقلا صاحب الاهرام التي اقبلت عليها الامة المصرية اقبال الظمآن على الماء الزلال لاعتدال خطتها واستقامة مشربها

حقاً لو ذابت القلوب عليه او امطرت من العيون العبرات وغمرت بسيلها مدفنه لكان هذا من ايسر حقوقه على الامة المصرية لما له عليها من فضل المدافعة عن حقوقها الوطنية

كان رحمه الله تعالى مع ماكان عليه من علو المكانة وعظم الشان وسعة المدركة وحق الدراية بالسياسة والمعرفة بفنونها واساليبها لايتولاه العجب بل كان حليما عند الغضب كريم النفس شريف الطباع حسن الاخلاق لين العريكة طلق الوجه محباً للخير وفعل المبرات ميالا الى المساعدة والاسعاف

الصبر محمود العواقب كله ... إلا عليه فانه مذموم

ولو كنا نستطيع الفداء لفديناه بالاموال النفيسة بل بالارواح الغالية الثمينة ولكن ما الحيلة فنسال الله الكريم ان يطيل عمر خلفه فيبقي لنا آثار الفقيد كما كان يحب ويوصي والله على ما يشاء قدير

وانتهى الى جريدة الاهرام الرثاء الآتي من حضرة الشاب البارع جرجس افندي البستاني

ماوصلنا النعي الاليم بوفاة عماد الصحافة المصرية وركن الادب في القطرين حتى كانت لهُ رنة حزن وأسى تدلنا كيف يكون الرجل بمقام الفٍ وكيف تعشق الاذن قبل العين . أجل لقد شق علينا ذاك النعي فأسال المدامع وأجج نار الاسى بين الاضالع ولا غرو ولا غرابة فاذا كان كل الذين حزنوا على الفقيد لايعرفون شخصه الكريم فانه لايوجد واحد منهم لم يقرأ اقواله التي كانت آيات بينات بل كانت في السياسة نبؤات تدل على ذكاء الفؤاد وبعد النظر وأصالة الرأي كما كانت في الاقتصاد عين الحكمة ولباب الصواب

رجلٌ ضاقت عن همته لبنان وتطلع الى المعالي وهو لايملك من وسيلة سوى الحزم والعزم والثقة بالنفس فهجر لبنان الى مصر حيث كان قد سبقه أخوه الطائر الصيت وأنشاآ الاهرام في حين كان الجهل مخيماً على الابصار والبصائر فلم يخمد عزيمتهما مالقوه من قلة الاستعداد وانصراف الاهالي كلهم او جلهم عن مثل مشروعهما العظيم فأخذ الفقيد مع اخيه يحيي الليل والنهار ويكابد مشاق الاسفار وتحبير الاسفار حتى وضع للاهرام أساساً كأَساس الاهرام فأخذ يجوب ذكرها البلدان حتى لم تبق أُذن في الشرق إلا سمعت بها فكانت كدفة لدررها وغررها ثم الحقها بأختين البيراميد وصدى الاهرام فكانتا مثلها مثالا لصادق الخدمة الوطنية والاقدام على كل خطير

فالفقيد كان قدوة لنا سامية علمنا ان المرء لا يستحيل عليه البلوغ الى شرفة النجاح اذا كان من اهل الهمم والعزائم . علمنا ان النشاط يقوم مقام راس المال وينهض باصحابه الى اعلى الدرجات . علمنا كيف تكون الوطنية

وكتب حضرة جواهير والي افندي حسين نجل مقتش طايا

أُف لكِ ايها الدار وبغضاً لضيغمك الذي طالما ساب الارواح ومزق الاشباح وترك القلوب تتقلب على جمر الفراق والعيون تجود بدمعها المهراق فاي انسان لايرجف فؤاده ولا يعبس وجهه من صروف الدهر وعوامل القهر التي تلعب بالغصون اليانعة والنفوس الطاهرة بل اي قلب لايعيش كئيباً اذا توارت شموس الآداب وبدور المعارف واي فكر يسابق في ميدان الصحافة ورياض البلاغة بعد ظلام تلك الميادين وظماء هاتيك الرياض بفقد ساقيها وروح اجسامها ومصدر اصولها ومغذي فروعها الا وهو الماسوف عليه بشاره باشا تقلا صاحب الاهرام التي اقبلت عليها الامة المصرية اقبال الظمآن على الماء الزلال لاعتدال خطتها واستقامة مشربها

حقاً لو ذابت القلوب عليه او امطرت من العيون العبرات وغمرت بسيلها مدفنه لكان هذا من ايسر حقوقه على الامة المصرية لما له عليها من فضل المدافعة عن حقوقها الوطنية

كان رحمه الله تعالى مع ماكان عليه من علو المكانة وعظم الشان وسعة المدركة وحق الدراية بالسياسة والمعرفة بفنونها واساليبها لايتولاه العجب بل كان حليما عند الغضب كريم النفس شريف الطباع حسن الاخلاق لين العريكة طلق الوجه محباً للخير وفعل المبرات ميالا الى المساعدة والاسعاف

الصبر محمود العواقب كله إلا عليه فانه مذموم

ولو كنا نستطيع الفداء لفديناه بالاموال النفيسة بل بالارواح الغالية الثمينة ولكن ما الحيلة فنسال الله الكريم ان يطيل عمر خلفه فيبقي لنا آثار الفقيد كما كان يحب ويوصي والله على ما يشاء قدير

وانتهى الى جريدة الاهرام الرثاء الآتي من حضرة الشاب البارع جرجس افندي البستاني

ماوصلنا النعي الاليم بوفاة عماد الصحافة المصرية وركن الادب في القطرين حتى كانت لهُ رنة حزن وأسى تدلنا كيف يكون الرجل بمقام الف وكيف تعشق الاذن قبل العين . أجل لقد شق علينا ذاك النعي فأسال المدامع وأجج نار الاسى بين الاضالع ولا غرو ولا غرابة فاذا كان كل الذين حزنوا على الفقيد لايعرفون شخصه الكريم فانه لايوجد واحد منهم لم يقرأ اقواله التي كانت آيات بينات بل كانت في السياسة نبؤات تدل على ذكاء الفؤاد وبعد النظر وأصالة الرأي كما كانت في الاقتصاد عين الحكمة ولباب الصواب

رجلٌ ضاقت عن همته لبنان وتطلع الى المعالي وهو لايملك من وسيلة سوى الحزم والعزم والثقة بالنفس فهجر لبنان الى مصر حيث كان قد سبقه اخوه الطائر الصيت وأنشأآ الاهرام في حين كان الجهل مخيماً على الابصار والبصائر فلم يخمد عزيمتهما مالقوه من قلة الاستعداد وانصراف الاهالي كلهم او جلهم عن مثل مشروعهما العظيم فأخذ الفقيد مع اخيه يحيي الليل والنهار ويكابد مشاق الاسفار وتحبير الاسفار حتى وضع للاهرام أساساً كأساس الاهرام فأخذ يجوب ذكرها البلدان حتى لم تبق أُذن في الشرق إلا سمعت بها فكانت كدفة لدررها وغررها ثم الحقها بأختين البيراميد وصدى الاهرام فكانتا مثلها مثالا لصادق الخدمة الوطنية والاقدام على كل خطير

فالفقيد كان قدوة لنا سامية علمنا ان المرء لا يستحيل عليه البلوغ الى شرفة النجاح اذا كان من اهل الهمم والعزائم . علمنا ان النشاط يقوم مقام راس المال وينهض باصحابه الى اعلى الدرجات . علمنا كيف تكون الوطنية

والتفاني في خدمتها . لا بل نفخ في قراء جرائده وهم ألوف روحاً جديداً لا يرتفع الانسان من الحضيض الا به . ودلنا على حقوق الحاكم والمحكوم والغني والفقير . فيا ايها الفقيد العظيم كم علمتنا من « الحروف » وكم لك من « العبيد » ان صح قولهم من علمني حرفاً كنت له عبداً فيحق لنا ان نبكيك ونستعظم الخطب فيك . يحق للآباء ان يجعلوك قدوة للبنين ويبكوك بدم القلب فضلاً عن دمع العين ويعدوا مصابك رزءاً على القطرين فسر تخبرك ملائكة الرحمن انك لم تمت مادام ذكرك خالداً سحابة الزمان

والله نسأل ان يجعل نجلك جبرئيل خير امين على ما خلفته من الفضائل والفواضل والمعارف والعوارف ويكون خير عزاءٍ لامه الفاضلة وللبلاد الحزينة

لك في القلوب كرامة ومقام ما سطرت بجريدةٍ اقلام
وتذكر التاريخ اصحاب النهى وذوي نشاط زانه الاقدام

وانفذ إليّ حضرة امين افندي بدران من الاقدمين في خدمة الاهرام هذا الرثاء

من لي بطرس من الايام ومدامع من الغمام فأرثي ذلك السيد الهمام الفاضل حق رثائه . وابكي ذلك القلب الطاهر الشريف حق بكائه . فلقد جدد لي الخطب فيه خطبي في والدي اذ كان اعظم وليّ لي بعده . فلا عجب ان يضارع عندي فقده فقده . ويا حبذا لو استطعت فداءه ففديته بالنفس الغالية .

وضمنت للبر والاحسان والفضل والفضيلة بقاء تلك الشيم الشريفة والنفس العالية .

على اني سأندبه مابقيت . وأعدد مآثره وفواضله ماحييت . ولو امدني الفكر العاجز والقلم الجامد لذكرت من محامده غير مايدريه الناس مما لا يعلمه الا الاقربون اليه الذين وردوا عن كثب مناهل آدابه وعوارفه واختبروا ما اختبرته من ألطافه ولطائفه

لذلك يقل عليه جود المحاجر بالدماء وإسالة النفوس من الحسرة والبكاء واني لأسأل الله تعالى الذي ضنّ به على هذا الدار وجعلهُ بين يديه في اكرم قرار ان يتغمده برضوانه ورحماته عداد فضائله وفواضله ومبراته وان يمن على آلهِ الكرام وعلينا بالصبر الجميل لهذا الخطب الفاجع في ذلك الفقيد الجليل

وارسل قيصر افندي مطران من بعلبك الى اخيه جامع هذا الكتاب الكتاب الآتي

اعلم ماكان بينك وبين فقيد الصحافة بل فقيد الفضيلة والعلم بل فقيد الشرق عامة رحمه الله تعالى من الوداد الذي لا يكاد يبلغه الاخاء والصداقة التي هي اجمل تمثيل لصدق الولاء فانا اكتب اليك لأسألك ان تنوب عني برفع واجب التعزية الى قدوة الفاضلات وفريدة الكاملات قرينة الفقيد والى نجله الحبيب والى اخويه الماجدين واعرف انك جدير بالتعزية كما

يحدر به الولد او الاخ وانك مشاطرهم هذه الحسرة المذيبة مشاطرة الصفي البارّ الحميم

على اننا لم نجزع على ذلك الفقيد العظيم اقل من جزعك عليه وتأبى الاخوة ان لانشاركك في بكاء من شاركناك في فضله فنحن آسفون عليه آخر الدهر مايؤسف على حبيب راحل ذاكروه مدى العمر مايذكر مقدام همام.

نسأل الله الذي اختاره الى داره ودعاه الى جواره ان يتغمده برضوانه ويسكنه في جنانه ويحسن اليه بقدر احسانه ثم نسأله ان يجمل عزاء آله الاماثل وان يجعل خلفه العزيز خير خلف لتلك المآثر والاخلاق والفضائل.

مراثي الشعراء

ننشرها بحسب ترتيب ورودها من ناظميها

(قال شقيق الفقيد)

ابرهيم بك تقلا

حزني عليك أجفَّ سائلَ أدمعي وأسالَ ناراً في حشايَ وأضلعي
ولقد تكون على الردى في غبطةٍ واكون رهنَ تألمٍ وتفجعِ
فلئن سبقت فغاية ادركتها قبلي بهمة ذي مضآءٍ أروعِ
اتخاذ اشواط الحياة توثباً كالبرق في جوب الفضاء الاوسعِ
مهلاً نزولك في التراب مغيباً لكن سموت الى المقام الارفعِ
لم تندمل بعد السليم جراحنا حتى جرحنا في المحل الموجعِ
فالرزء فيكَ مضاعفٌ بمصابه متجدداً ورداك لم يتوقعِ
يا ايها النجمان إن تفقدهما لم يلفيا بين النجوم الطلعِ
لكما سمآءٌ في السرائر رحبةٌ واضاءة طيَّ القلوبِ السفعِ
ومآثرٌ تتمثلانِ لنا بها غراً كمطفأةِ النجوم السطعِ
لا تبعدا من ماجدينِ بكتهما رتبُ العلى وبكى الوفآء أسىً معي
شخصاهما في ناظريَّ على النوى وحديث كلٍّ منهما في مسمعي

(وقال شقيق الفقيد)

حبيب باك تقلا

يا دموع العين جودي بدمِ القلبِ الكليمْ
فقد اعتلَّ وجودي وغدا جسمي سقيم

...

غابَ هذا البدرُ عنا فدجا القلب المعنى
لم يعد في العيش معنى بعد ذا الخطب العظيم

...

يا لهُ نعي كمالِ زال من قبل الزوالِ
فمضى صبر الرجالِ فيهِ والحزنُ مقيم

...

قد توارى في الشبابِ غصنُ بانٍ في الترابِ
وهو لم يعطف لما بي من جوى الحزن الاليم

...

ما لقلبي عنه صبرُ قد تولى الصبر قبرُ
وثوى في اللحدِ بحرُ دُرُّه دمعي السجيم

...

ظلمَ الدهر علاكا وهو لم يرحم صباكا
ليتهُ كان فداكا كلُّ ذي خلقٍ كريم

...

يا أبا اللطف البديعِ   وأخا المجدِ الرفيعِ
كل احسانٍ رضيعِ   قد غدا منك فطيم

...

من لشجوي وانتحابي   ولتبريح الاسى بي
جللاً كان مصابي   بكَ من بعد السليم

(وقال حضرة احمد بك شوقي)

شاعر الحضرة الخديوية الفخيمة

حلَّ بالأُمتين خطبٌ جليلُ   رجلٌ مات والرجال قليلُ
زال عن سوريا فتاها المرجّى   وعن النيل جارهُ المأمولُ
وعن الاهل من يبرّ ويحنو   وعن الاصدقاء من لا يحولُ
وعن الأَمر من يغامر فيهِ   وعن الحق سيفهُ المسلولُ
وعن الرأي والسياسة والتحـ   رير مَنْ رأيه السديد الأَصيلُ
يا صديقي وكنتَ بالأَمس حياً   عندكَ اليوم بالحياة طويلُ
قد شجاني من نأي وجهك عني   ان وجه الوداد باقٍ جميلُ
يقطرُ الفضل والمروءة منه   ويميل الوفاء حيث يميلُ
خير ما خلف ابن آدم في الدنـ   يا خلالٌ يبكي عليها خليلُ
ليت شعري ماذا لقيت من المو   ت وأخفى لكَ التراب المهيلُ
يلبث العالمون في الشك إلا   ساعةً عندها الشكوك تزولُ
ترجعُ النفس للحقيقة فيها   وترى ان ما مضى تضليلُ
ويلوذُ العليلُ فيها الى الطـ   بّ وهل ينفع العليل العليلُ

انما الموت ظلمةٌ تملأُ العيـ ـن ووقر على الصدور ثقيلُ
وثوانٍ أخف منها العوالي كل عضو ببعضها مقتولُ
ينتهي العيش عندها حين لا اليا فع سالٍ ولا الكبير ملولُ
هذه الارض والانامُ عليها ملعبٌ ثم ينقضي التمثيلُ
والذي ينشىء الروايات دهر كم لهُ في فصولها تخييلُ
ايها الراحلُ العزيز علينا سر برغم القلوب هذا الرحيلُ
ان فضلاً خلفت فينا ونبلاً لأَمينٌ عليهما جبريلُ

(وقال حضرة محمد ابراهيم بك هلال)

خدع الاطبة طبهم فتعجلوا خاب الدواء وخاب ما قد املوا
قال القضاء ردى وقالوا صحةً كذبوا وقد صدق القضاء المنزلُ
أودى عماد الفضل حتى ما لهُ من بعده حرم يؤمُّ ومعقلُ
وخبا ضياء المشكلات وطالما أدجت فسار على هداهُ الضالُ
واندك طود الحادثات وكم هبت هوجٌ تمر عليه لا يتقلقلُ
ونأى امير المكرمات فربعها خالٍ وارباض المحامد عطلُ
ومضى لمنزله الجديد مبجلاً فلكَ البشارة ايهذا المنزلُ
يا تارك الاقلام يوم رحيلهِ منكوسةٌ تبكي عليهِ وتعولُ
ومغادر القرطاس بعد فراقهِ تمحو حلاه النائبات وتسجلُ
ومخلفاً صحف البيان لفقدهِ يطغى بها غث الكلامُ ويجهلُ

لو أن غير يد المنون تعرضت ... لك بالردى والموت داءٌ معضلُ
لكنتك صولتها بلادٌ حطتها ... بعناية مأثورة لا تجهلُ
كنت المدافع دونها بيراعة ... يعنو لشرعتها الحسام الصيقلُ
ايام زلزلها الملم وانت في ... غمراته كالطود لا تتزلزلُ
ايام قمت عن الحقيقة ذائداً ... والناس عن كنه الحقيقة غفلُ
فاذهب ولا تذهب مآثرك التي ... سيظلُّ يلبسها الزمان الاطولُ
وسقاك فيضٌ لا السحائب هتناً ... تحكي حياه ولا الغمائم هطلُ
ولمجدك الذكر المخلد في الورى ... يرويه منا للاخير الاولُ
ولفضلك الاهرام يثبت شاهداً ... كسميه بالدهر لا يتحولُ
ولكَ القصائد بالرثاء سوائرٌ ... حرَّى تروّيها الدموع الهملُ

(وقال حضرة نقولا افندي رزق الله)

فقيد الصحافة

كذب الدواء فكان منهُ الداء ... وقضى القضاء فضلت الحكماء
وتفرق العواد عنهُ وخطبه ... خطب البلاد ورزؤهُ ارزاء
شهدوا بمصرعه الردى لم يحمهِ ... منهُ طريف المجد والعلياء
خطبٌ الم برب كل يراعةٍ ... وبكت له العلماء والفضلاء
في الشرق منه مأتمٌ ومناحةٌ ... ولمصرَ فيهِ لوعةٌ وبكاء
لله درّ مبجلٍ في موتهِ ... حتى لتغبط موته الاحياء

متعودٍ من جسمه ونشاطه ما عودته الهمة الشماء
فتكت ملازمة الفراش بجسمه فتكاً تعجب من أذاه الداء
ومن العجائب ان تجول بجسمه روحٌ تضيق بمثلها الارجاء
كانت حياةً للصحافة يومَ لم تكُ فكرة تبدو ولا آراء
والعلم يُطوى في الصدور كأنهُ سرٌّ وجهلُ العالمين سواء
والقول همسٌ والقلوب ضعيفةٌ والحرُّ يُقتل والكريمُ يُساء
كم اعينٍ عميت وكم من اعينٍ كانت ترى وكأنها عمياء
حتى اذا عظم البلاء وأوشكت ان تضحك الحساد والاعداء
تخذَ البراعة سيفهُ ثم انبرى والارض من دم اهلها حمراء
فغدا يدافع عن بقية رايةٍ كادت تمزق شملها الاهواء
وطنية شهدت بها اهرامهُ مذ خط رسم بنائها البناء
حقٌّ لاهل الشرق من رصفائه إن كان يفلح عندنا رصفاء
أن ينشئوا لزعيمهم وشقيقه اثراً يعظم قدرهُ الابناء
يا صاحب الاهرام ذكركَ خالدٌ ما دامت الكتاب والقراء
عجباً لمثلك كيف يُدفن في الثرى والارض أرضٌ والسماء سماء

(وقال حضرة احمد افندي محرم بالدلنجات)

رنة الحزن

أودى بشارة والحوادث غولُ والموت يسطو في الورى ويصولُ
أودى فباتت عين كل أخي نهى تهمي غروب دموعها وتسيلُ

ما في صحابك غير باكٍ معول | لو كان يغنيه بكاً وعويلُ
ولرب سمح بالدموع يغيضها | فيض الغمام وكان وهو بخيلُ
عرف المصاب وكان يجهل قدره | والناس فيهم عارفٌ وجهولُ
ماذا دهانا يوم قال نعاته | أودى بشارة وانقضى التعليلُ
هالوا بقولهم نفوساً جمةً | والقول يعظم وقعه فيهولُ
هل غادروا الا قلوباً حشوها | حزنٌ يشك سوادها وغليلُ
لا كان يومك يا بشارة انه | يوم دهى الاقمار فيه أفولُ
لم يبقِ ثكلك في البرية عاقلاً | الا تمنى انه مثكولُ
هل كنت الا هضبة المجد التي | تسمو على هضباته وتطول
زالت وما من شامخ متمنع | الا سيهوي مرةً ويزولُ
قد كنت عدة امة محزونة | ما ينقضي منها عليك أليلُ
تحمي مرافقها وتطاب حقها | وتصول في اعدائها وتجولُ
بمثقفٍ ماضي الشباة كانه | سيفٌ على هاماتهم مسلولُ
كلف بايقاد الحروب شفاؤه | ان يستباح من البغاة قتيلُ
ولربما ودّ السلام لمعشر | فثني الحسام العضب وهو كليلُ
لله رزؤك يا بشارة انه | رزءٌ يهد الراسياتِ جليلُ
أدمى قلوب الصحب منك رحيل | يا ليت شعري هل يحين قفولُ
قد كان ذلك لو يقرب نازحاً | نوحٌ يردده عليه خليلُ
لا طال للخلان فيك مدى الاسى | والحزن أنّ مدى الفراق طويلُ
حمال المعالي الشم ثم مضى بها | يختال كبراً نعشك المحمولُ
طاشت عقول الحامليه وطالما | طاشت لقولك قبل ذاك عقولُ

وكلت بالفيل الاسودَ فلا تخف ... بعد ارتحالك ان يباح الفيلُ
من كل ضرغام حديد ظفره ... يمسي لهُ الضرغام وهو أكيلُ
يسمون سعيك حيث كنت فما لهم ... الا سبيلك في الحياة سبيلُ
ما كان يجمل بالنفوس رجاؤها ... لولا فتاك المرتجى جبريلُ
لا يخلفن ثراك صيبُ رحمة ... واهي العرى سمح الغروب همولُ

(وقال سعادة الامير شكيب بك ارسلان)

ايها الدمع عائذٌ مستجيرُ ... ليس للقلب ما عداك نصيرُ
لا تذر في الجفون سوراً وما تو ... في ولو كان من وراك البحورُ
نزل الفادح الذي ليس فيه ... لطليق الدموع الاّ اسيرُ
وعظيمٌ على البرية ان تمـ ... حق في بهرة الكمال البدورُ
نبأٌ لم يرع به البرق حتى ... كان للعين منه يومٌ مطيرُ
ان يكُ النيل أُرعشت ضفتاه ... فجبالٌ بالشام كادت تمورُ
رجل زال والرجال قليل ... وله الفقدُ والرجال كثيرُ
باذخ الهمّ لم يكن للمعالي ... غايةٌ باعهُ اليها قصيرُ
علم السؤدد الطريف ومنه ... لعصامٍ قبل النشور نشورُ
عالم انه اذا لم تكُ الاخ ... طار في المجد ليس يرجى الخطيرُ
همة تبلغ العنان وصيت ... دون ادناه في البعاد الطيورُ
جاز شأو العلياء وثبة بازٍ ... تتحدّاه في الوثاب الصقورُ

ما له غير قلبه من ظهيرٍ   وتأتّى له العلى والظهورُ
وترون القصور أبعد عمن   لم تظلّهُ في الصباء القصورُ
فاليكم آثارهُ فهي مما   ليس يأتي الا الأثيلُ الاثيرُ
وكفاكم اهرامه مذ بناها   ثابتاتٍ وفي البلاد تسيرُ
مبعث النور والاشعة محيي الـ   علم اذ تلك ظلمةٌ وقبورُ
ولعمري ضمير تلك الليالي   ولهـذه مثل النهار ضميرُ
زلَّ عنها وكان يوماً على الاقـ   لام والصحف شرُّه مستطيرُ
وكثير من الفضائل والنبل   اتاهنَّ منكرٌ ونكيرُ
ومعالٍ كالروض زهواً فامست   دائرات الردى عليها تدورُ
ايها الراحل المشيع مهلاً   حزنك اليوم في النفوس كبيرُ
مذ رماك الردى اصاب واصمى   انما الموت بالرجال بصيرُ
وكأنَّ الحمام ميدان حربٍ   وكأن الكرام جيشٌ منيرُ
وكأنَّ الذي تملى من العيش   له العجز من عثارٍ خفيرُ
خاب طب الأُساة فيك وللعلـ   م سطور وللقضاء سطورُ
واذا غالبَ المنيةَ طبٌّ   هزمَ العلمَ عندها التقديرُ
التفتْ كم وراك يبكي كئيب   ويراعي النجوم فيكَ سميرُ
فجزاك الاله افضل ما يُجـ   زى محبٌّ لذي البلاد غيورُ
هذه غاية الحياة ممات   لا يغرّنك في الحياة الغرورُ
ما براها الاله الاّ مجازاً   وقضاءً على الجميع العبورُ
ليس تصفو لصاحب العمر الاّ   ريثما شاب صفوه التكديرُ
حلوة مرّة وهيهات يُدرى   أأُجاجٌ مذاقها ام نميرُ

لا يدوم الشقاء فيها ولا الاو　　سط منه ولا يدوم السرورُ

سنةٌ واللذات طيف زوالٍ　　مهمهٌ والحبيبُ ظبيٌ نفورُ

عزَّ ادراكها وما ذلك السـ　　ـرُّ بسرٍ تزاح عنهُ الستورُ

واذا المرء لم يكن صادق الايـ　　ـمان ما إن يزال فيها يحورُ

كل هذا الوجود حجب ينادي الـ　　ـفكر أنَ خلقها اللطيفُ الخبيرُ

(وقال حضرة ابرهيم افندي الحوراني)

استاذ البيان في المدرسة الكلية البطريركية

للروم الكاثوليك في بيروت

فاض دمع الشام لما ان نضبْ　　نيل روض العلم في مصر الادبْ

لم يمت فردٌ ولكن امة　　فضلها في العجم وافٍ والعربْ

يا له رزءًا به ناء العلى　　والرواسي الشمّ طرًّا والهضبْ

يا لخطبٍ مفجعٍ اوصافهُ　　تعجز الأقلام عنها والخطبْ

بات ترب المجد في تُرب البلى　　فارتقى ترب البلى أعلى الرتبْ

يا حكيماً مات كهلاً ما القضا　　والجهول الهمّ ناجٍ من عطبْ

ان في الاكوان سرًّا غامضاً　　لو بدا ماكان في الدنيا عجبْ

سبب الاسباب يقضي بالذي　　يبتغي فالغمّ في جهل السببْ

لو درى الانسان ما الغاية من　　عيشهِ والموت لم يدرِ الكربْ

ان كل العيش دَين واجب　　دفعهُ من كلنا عند الطلبْ

يا غنياً ما لهُ كنزٌ سوى　　حفرةٍ في مثلها العافي احتجبْ

كان هذا الرمس لو أحيا نتيً　فاخر الاجداث صرحاً من ذهب
لم تمت يا موصب الشعبين بل　صرت في عيشين جلاّ عن وصب
عيش ذكرٍ نشره في أرضنا　طيب ما ذرّ نجم او غرب
وحياة في ديارٍ نزهت　اهلها عن عيش سكان الخرب
ايها الانسان لا تخشَ الردى　انه شرع طبيعيٌّ وجب
ما بهِ من مرهبٍ غير الذي　شادت الاوهام في ماضي الحقب
او ذنوبٌ ما محتها توبةٌ　اودجى كفرٍ وتعطيلٍ لرب
فاعرف الحق الذي تحيا بهِ　واتقِ الله وذا كلّ الارب

(وقال حضرة ابرهيم افندي عبد العال عزيز من دمياط)

رثاء الشجن

في فقيد الوطن

{ المرحوم بشارة باشا تقلا }

نزل القضاء وليس فيهِ مراء　وسطا الحمام فضلت الحكماء
وتغلب الداء الدويّ على الدوا　ولقلما انجى العليل دواء
فالعيش في الدنيا محط مصارعٍ　ومجال هولٍ دونه الارزاء
والعمر غايته الزوال فلا ترى　في هذه الدنيا يدوم بقاء
دهر تعم الناس منه مصائب　وخطوب حتفٍ كلها سوداء

ومصابنا ابكى البلاد واهلها واثار ما تكوى به الاحشاء
وغدا فوءاد العلم متصل الاسا وتصدعت جزعاً بهِ العلياء
خطب اصاب من الفضائل قلبها فتهدمت اطوادها الشماء
ذاك المفضل في الانام بعلمه وبفكرةٍ من دونها الجوزاء
انشا الصحافة في زمان لم يكن فيهِ رجال مثله فضلاء
وتجشم الاخطار يبغي رفعةً للشرق وهو تسوسهُ الغرباء
فبنى حصوناً للفخار متينةً بفضائل لم يحصها احصاء
هذي جرائده وهذا قولها بها جلت الافكار والآراء
ما كنت احسب قبل ساعة فقده ان البدور تضمها الغبراء
حتى قضى والقبر ضم معارفاً كانت تضاء بنورها البيداء
ومن الغرائب ان طوداً شامخاً تحويه تلك الآلة الحدباء
يبكي عليه الصدق فهو نصيره كم قال حقاً ليس فيهِ خفاء
(اهرامه) تنعى جليل فعاله وفعاله مشكورة حسناء
وصفاته الغراء اعدل شاهدٍ في وصفها قد حارت البلغاء
اعداوءه شهدوا بفضل ثباته (والفضل ما شهدت به الاعداء)
حزني عليهِ مضاعف لا ينقضى يبكي العيون وهل يفيد بكاء
فلمصرنا حق النحيب لفقدهِ وله عليها مدحة ورثاء
ولآله منها ومن ابنائها في كل اوقات الحياة عزاء
والله يرحمه ويعظم اجرهُ في جنة الرضوان فهي جزاء
ما قلت والاشجان ملء ضمائري نزل القضاء وليس فيهِ مراء

(وقال حضرة نخله افندي كبابه بالمنيا)

امسى الفؤاد من الشجون عليلا والجسم من هول المصاب ضئيلا
والعين اذرفت الدموع كعندم فجرت على وجه الحضيض سيولا
والحزم ودع ربه لا يرتجى كفوءًا له بين الورى ومثيلا
اين البشاشة والوداعة والحجى جنت كازهار الرياض ذبولا
اليوم حزناً نكست هاماتها صيد الرجال وذللت تذليلا
اليوم قام الشرق يندب فاضلاً بطلاً كما يهوى الكمال جليلا
اليوم مصر بكت دماً لما غدا مقدامها تحت التراب نزيلا
قد كان قبل الان بدر سمائها يهدي سناه معالماً وطلولا
واليوم عنها قد نأى قسراً ولم تحسب له قبل الاوان أفولا
هذا الذي اتخذ المرؤة خلة هذا الذي اتخذ الوفاء خليلا
تبكي لمصرعهِ كفرشيما التي ستئن من هذا المصاب طويلا
يا دهر ويحك قد غدرت بسيد لم يتخذ غير السلام سبيلا
ابكيت اهل العلم والاداب والا مجد الاثيل ورضعاً وكهولا
يا راحلاً عنا وفي احشائنا لكَ صورة لا تقبل التبديلا
تبكيك ثاكلة عروس ما لها ذنب فتغدو في الشباب ثكولا
ابكيك ما طال المدى بسلامتي ولارثينك بكرةً واصيلا
صبراً بني نقلا فان فقيدكم قد رام عن دار الفناء رحيلا
هـذا قضاء الله جلَّ جلالهُ حتم لدينا ان يجوز قبولا

كأس الردى لا بد من تجريعه لا نستطيع لشربه تأجيلا
يا آل نقلا الاكرمين عزاءكم امسى بشارة في النعيم نزيلا
ولّى وابقى نجله خلفاً لنا عنه يكون من الفقيد بديلا
ولذاك في تاريخه كلٌّ شدا يا ربيَّ احفظ نجله جبريلا
سنة ١٩٠١

(وقال حضرة ايليا الخوري زكا)
وكيل الاهرام في الممالك المحروسة الشاهانية

اقلّ البكا هيهات تجدي المدامعُ وهل لقضاء الله في الناس دافعُ
لقد قضي الامر الذي عم خطبه وكان عظيماً هوله والفواجعُ
ولكنّ حمل الخطب اجدر بالفتى اذا لم يكن رد لما هو واقعُ
هوى شاهق في مصر فاهتز شاهق للبنان من شجو به وهو هالعُ
ولما نعى الناعي بشارتنا نعى لنا الفضل فاصطكت لذاك المسامعُ
وحق علينا ان تشق قلوبنا كما حق ان تحنى عليه الاضالعُ
فواأسفا لو كان يجدي تأسف على بدر فضل غيبته المدامعُ
همام على الاهرام قد شاد فضله فشيدت على الأُس المتين المنافعُ
وهذا صدى الاهرام بالعدل شاهد على فضل من اخنت عليه المصارعُ
همام له في كل مأثرة يد تشير اليها بالثناء الاصابعُ
وفي كل امر كان يعرف ماضياً ولكن له لم يلف قط مضارعُ
فان تبكه الاهرام تبكِ عمادها وان ردد الشجو الصدى فهو جازعُ

وان اغدقت بالدمع سحب عيوننا فما انصفته اذ تسح المدامعُ
عليهِ سلام الله من راحلٍ له بكل القلوب الداميات مواضعُ
مضى وله ذكر حميد مخلد نعم ذكره باقٍ وكالعطر ضائعُ
مضى وله الشبل الذي ببقائهِ عزانا وان اخنى من الخطب صادعُ
وان جف غصن الانس بعد بشارةٍ فغصن امانينا بجبريل يانعُ

(وقال حضرة ميشيل افندي جرجس نخله)

مكاتب الاهرام بالفيوم

فقيد الوطن الطيب الذكر المرحوم بشارة باشا تقلا

ضياء الافق من غشى سناه ومصباح المعالي من طفاهُ
وما للزهرة الغرآء غابت وما للبدر ناءٍ عن سماهُ
وهذا صاحب الاهرام امسى نزيل الترب يهوي عن علاهُ
فبئس اليوم يوم سطا علينا به بينٌ تمادى في اعتداهُ
فقيدٌ كان مقداماً شهيراً اماماً للورى جما نداهُ
لقد فجعتنا يا بين فيه وخليت العلا ينعي اخاهُ
لتندبه الفصاحة والمعاني وتبك له الصحافة في ثراهُ
ترحل نائياً والعين تهمي عليهِ ادمعاً تحكي سخاهُ
محبك سيدي ذاب التهاباً وفرط الحزن قد اضنى حشاهُ
ودمعي بانطلاقٍ واندفاقٍ ونومي بافتراقٍ لا اراهُ

وسلواني جفاني واصطباري　　نأى عني واولاني جفاه
انوح اسىً ولكن لي يقينٌ　　بان الله للمجدِ اصطفاه
ولي املٌ بان الليث أبقى　　لنا شبلاً يعيد لنا اباه
عرا الدنيا قتام الحزن لما　　رأت جبريل أوتم في صباه
تصبر سيدي فالصبر حزمٌ　　وبالعقلاء يحمد مقتناه
فما من حيلة للمرء فيما　　قضى الباري ولا فيما ارتضاه
وامر الموت محتومٌ علينا　　وهذا ما بهِ حكم الآله
فدم واسلم بعزٍ مستديمٍ　　وعمر مستطيل في مداه

(وقال حضرة جورج افندي اسحق يارد بمصر القاهرة)

كلمة محزون

لعمركَ ليس في الدنيا صفاء　　ولا عزٌ يدوم ولا هناء
وما الانسان فيها غير وهمٍ　　يمرُّ بها متى نزل القضاء
وما هي بالحقيقة غير آلٍ　　وما للظمء من آلٍ شفاء
أمن هذي الحياة نروم صفواً　　وبدء وجودها طين وماء
سقتني من حميا الحزن كاساً　　بها ضاع التعلل والرجاء
لقد غدر الزمان برب فضلٍ　　أليف الصدق شيمته الوفاء

كريم ما عرفنا فيه عيباً ولا خلقاً يلابسه رياء
بكته رصانة ونهى وحلم بكاه العلم معها والذكاء
فيا من بينه أدمى فؤادي وجرح القلب ليس له دواء
لئن واروك في رمس قصي فرسمك في الصدور له جلاء
فصبراً آله فالصبر درع به من سطوة الدهر اتقاء
فكم جزع الانام كما جزعتم فما نفع النحيب ولا البكاء
وذاك مآلنا نجري اليه كما الامراء تجري والاماء
فيا من جاور المولى تنعم بدار لا يجاورها شقاء

(وقال حضرة اسماعيل افندي يسري مكاتب الاهرام بالقرشية)

(واجب التعزية)

الى أسرة المرحوم المأسوف عليه سعادتلو الفاضل بشاره باشا تقلا

خطب لصدمته القلوب تذوب لا غرو أن شقت لذاك قلوب
وأسى تسيل له النفوس تحسراً والجفن يسفح دمعه المسكوب
والصبر ينفد هكذا لملمة منها لساكنة القلوب وجيب
أنى لنا الصبر الجميل على الاسى والبدر في جدث الفنا محجوب
قد خانه الدهر الخؤون بفعله غدراً وأفعال الدهور تنوب
وسطا على الليث الرزين بقوة حتى بدا للعالمين عجيب
بدر الصحافة من به الوطن ازدهى أمسى أسير القبر وهو غريب

طودٌ عليه الشرق يبكي نَدَماً   وكذلك الآداب والتهذيبُ
شهمٌ عليه الجود يندب ما همى   قطرٌ وما أفنى القلوب نحيبُ
قمرٌ عليه الاهل في أسفٍ وقد   أودى بهم حزن وضاق رحيبُ
كأس على المخلوق حتما شربهُ   قد حار فيهِ عاقل وطبيبُ
فإليك يا جدث النجيب وصية   من مخلص هالت عليه كروبُ
رفقاً ببدرٍ حلَّ فيك وكن لهُ   نعم الرفيق لانه محبوبُ
رفقاً بطودٍ في ثراك ضممته   وبه كثيبك كالجنان خصيبُ
الله يلهم أهله صبراً على   فقد الذكي ومن اليه حبيبُ
فجعت بنو الآداب فيهِ فدمعهم   يهمي عليه وفي الضلوع لهيبُ
صبراً ذويه فقيه قد أودى بنا   خطب لصدمته القلوب تذوبُ

(وقال حضرة ادوارد افندي جدي)

صاحب مجلة الثريا ومنشئها

ترديد الحسرات

{ على فقيد الصحافة العربية وعميدها }

هو الموت ما عن نهجه متنكبُ   ولا منه مهما أرجأ المرء مهربُ
خلقنا له نسعى ويسعى يريدنا   وندأب نبغيه حثاثاً ويدأبُ
ولكننا في غفلةٍ عن لقائهِ   نظن بقاء العيش والظن يكذبُ

يساور ربَّ التاج طاول عرشه ... ذرى النجم لا يخشى ولا يتهيبُ
فبينا الاتى في القوم يندب إلفه ... اذا بالردى قد غاله فهو يندبُ
له الويل كم عينٍ اسال دموعها ... كما سال مركومُ الحيا يتصببُ
وكم مهجة حرّى تكاد لهوله ... تذوب أسىً من فرط ما تتلهبُ
بشارة ودّعت الحياة فكلنا ... يودّع منها ما يروق ويعجبُ
لقد كانت الدنيا صفاءً لاهلها ... فلم يصفُ منها مذ ترحلت مشربُ
برغم العلى هذا الرحيل وليتها ... درت للتلاقي موعداً منك يضربُ
مضيت الى دار البلى وهي غايةٌ ... اليها بنو غبراء تمضي وتذهبُ
فان تسترح فيها فيا ربّ موطنٍ ... لنا فيه كنا نستريح وتتعبُ
بنيتَ لنا {اهرام} مجد وسؤدد ... يخيف عوادي الحادثات ويرهبُ
رفعتَ به الاوطانَ ثم انلتها ... من الخير والنعماء ما تتطلبُ
وخلفته يبكي لفقدك تارةً ... فيشجي ويروي عنك آناً فيطربُ
فاين اليراع العضب كنت تسله ... فيرتد عنه السيف والسيف أشطبُ
واين المقال الحق كنت تقوله ... فيحلو لذي الذوق السليم ويعذبُ
واين الحفاظ الوعرُ توقد ناره ... اذا هدّد الاوطان يوم عصبصبُ
واين استكنت يا بشارة فطنةٌ ... بها كان يبدو المستكنُّ المغيبُ
سنبكيك حتى ينفد الدمع اننا ... (نغالب فيك الحزن والحزن اغلبُ)
ولكنَّ جبرائيل سلوتنا التي ... نرد بها الاحزان اذ تتألبُ
سيمضي على النهج الذي كنت سالكاً ... فلا مائلٌ عنهُ ولا متنكبُ
ويصبح فينا مثلما كنت ناصحاً ... يبين عن الامر الخفيّ ويعربُ
سقى الله قبراً انتَ فيهِ موسدٌ ... شآبيب رضوان تسحُّ وتسكبُ

(وقال الياس افندي جرجس بهنا)

احد مدرسي مدرسة الكلية البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت

نوح الحمام في بر الشام

علمٌ هوى فاهتزت الأَعلامُ ... ضجَّ الورى فارتجت الآكامُ

قد دكَّ طودٌ في الكنانة باذخٌ ... فتزعزت من هولهِ الاهرامُ

من كان ركناً في المعارف راسخاً ... جزعت له علماؤنا الاعلامُ

وقضى عماد في السياسة صادق ... شهدت بصحة قولهِ الاقوامُ

من كان يصدر في السياسة حكمه ... صدرت عليه من القضا احكامُ

وانضمَّ ذاكَ البدر في جوف الثرى ... وانضمَّ فيهِ المبسمُ البسامُ

من آل نقلا كان خير بشارة ... بين البشائر للفلاح تقامُ

فتبدلت تلك البشارة بالاسى ... لما قضى بديارنا الضرغامُ

اسدٌ بصارم عزمه حسم البلى ... وبرأيهِ للمشكلات حسامُ

ربُّ الوجاهة والنباهة والندى ... من حقهُ الاجلال والاكرامُ

ربُّ الفصاحة والبلاغة من سما ... في نصهِ الاتقان والاحكامُ

سلب العقول بيانه في نثره ... فكأن تاليفاتهِ الهامُ

اهرامه تزري البيان متانةً ... فكأنها برسوخها الاهرامُ

لم يقتنع لنشاطه بجريدةٍ ... عربيةٍ تنفى بها الاوهامُ

حتى غدت اهرامه مشفوعةً ... بجريدةٍ سرّت بها الاعجامُ

ظلَّ الأمين بحق دواته التي | قد عمه من فضلها الانعامُ
لخباه سلطان الورى رتباً بها | من كل ذي تاجٍ عليهِ وسامُ
من بعد ذاك العز خاب رجاؤنا | فسطت عليهِ من الزمان سهامُ
أُودى به الخطب الملمُّ وما له | الاّ بفضل يراعهِ المامُ
وبهِ غدا قلب الضريح مقامه | ولهُ بحبات القلوب مقامُ
لبنانَ أَملَ من بشارتهِ اللقا | ما كل ما ترجو النفوس يرامُ
فاتاهُ منعاهُ بديل بشارةٍ | وبهِ اغار على الضياء ظلامُ
واصطكت الاذان من كلماتهِ | وعرا العيون تقرحٌ وسقامُ
ما نعيهُ الا كلامٌ محزنٌ | في السمع لكن في القلوب كلامُ
خطبٌ على مصر العزيزة فادحٌ | قد شاركتها في النواح الشامُ
لبنان قد لبس السواد واهلهُ | قعدوا من الجزع العظيم وقاموا
سكبوا من الاجفان غيثاً هاطلاً | فكأن عندهم الجفون غمامُ
ما اطفأت عبراتنا نار الاسى | بل انها للنائحين ضرامُ
ناحت عليه اولو المرؤة والوفا | وبكى عليهِ الجد والاقدامُ
ذاك الذي احيا اليراعة نثرهُ | بريت لترثي نثرهُ الاقلامُ
في فقدهِ فقد التصبر والعزا | ذابت لهُ الاحشاء والاجسامُ
هذي مصيبتنا التي اجتمعت بها | كل المصائب والخطوب عظامُ
فلمَ لا نبكي ولا نرثي وذا | بعض الذي فعلت بنا الايامُ
اردت سليم القلب واحد عصرهِ | من قبله واشتدت الآلامُ
اين الملوك واين ارباب النهى | ماتوا وهم ضمن القبور عظامُ
قد زايلوا الدنيا ولكن فقدهم | باقٍ لهُ ضمن الحشا ايلامُ

اثارهم في الارض تحيي ذكرهم ... لا ينمحي ما كرت الاعوامُ

صبراً بني تقلا فان فقيدكم ... اضحى له فوق النجوم مقامُ

إذ عاش في الدنيا جليلاً فاضلاً ... من كل وجه ما عليهِ ملامُ

ولكم بديلٌ بعدهُ من نسله ... نجلٌ كريم العنصرين همامُ

قولوا لدى ابرام قام مؤرخاً ... وعليهِ في حضن الخليل سلامُ

سنة ١٩٠١

من كان مبداهُ التقى أرخ وقل ... عند الاله لهُ السرور ختامُ

سنة ١٩٠١

(وقال حضرة يوسف افندي نجم بدير القمر)

صدق الرثاء

في فقيد الوطن والصحافة

بتنا نساور في ذا الخطب اكدارا ... ونرسل الدمع فوق الخدّ امطارا

ونسألُ الدهر سلواناً بفاجعة ... دهياء منها النهى والعقلُ قد حارا

يا للرزيئة منها الارض قدحزنت ... حزناً يفتتُ اكباداً واحجارا

مصيبةٌ راعت الافاق رنتها ... وطبقت في ضواحي الشرق امصارا

قضى فتى الشرق مفقوداً وخلف ما ... يُبقي له في سجل الدهر تذكارا

قضى البصير باحوال الزمان ومَنْ ... بالحزم فاق السهى شأناً ومقدارا

قضى الذي إن جرت ذكرى مآثره | تجري لها مصر نيل الدمع انهارا
قضى بشارة تقلا فلتسل دمها | عين الفضائل اياماً واعصارا
شهمٌ ترفّعَ عن متن النجوم ولم | يسعْ له المجد آمالاً واوطارا
قدكان في خدمة الاوطان مجتهداً | فكم روى عنه اهل الفضل اخبارا
وكم افادت بلاد الله خدمته | وكم جنى الناسُ منها النفع اثمارا
لما نعيناه للدنيا بكت أسفاً | والحزن أسعر في احشاءها نارا
يا كوكباً قد دهاهُ الخسف فاحتجبت | انواره عن عيون الناس أدهارا
من للجرائد في الآفاق ينشرها | حتى تجوب من المعمور اقطارا
مَن للسياسة يبديها ويبسطها | فوق الصحائف آياتٍ واسرارا
مَن للحقائق يجلوها ويعمل في | اجلاء غامضها ذهناً وافكارا
تلك المآثر قد قامت تؤبنه | بنسق درٍّ أتى في النظم ابكارا
ترثي به سنداً في فضل همتهِ | اجلى وخلد للاهرام آثارا
ترثي به المديَّ عاملاً بطلاً | قد كان في حلية التحرير مغوارا
تبكي وتندبه كل البلاد وقد | قامت تصوغ من التأبين أشعارا
تبكي كمالاً واخلاقاً مهذبةً | تفوق ان نشرت نداً واعطارا
حييتِ يا ارض مصر كل بارقةٍ | من الرخاء تفيض السحب مدرارا
قد حلّ فيك همام لا يزال له | ذكرٌ يظلّ مدى الاعوام معطارا
لا زال يسقي ثراه العفو ما صدحت | حمائم الأيك آصالاً واسحارا
إنا لنبكيه ما ذاعت وما تليت | آثاره الغرّ اعلاناً واسرارا

(وقال حضرة نجيب افندي امين قزاح)

صدى الاسف

هوى البدر من أفق المعالي الى القبرِ فوا أسفي هل في الثرى مدفن البدرِ

تحجب في غيم المنية فاختفى وباءَ بحزنٍ سوف يبقى مدى الدهرِ

عليه يذوب القلب من شدة الاسى ألست ترى دمع العيون دماً يجري

فيا نخبة الاحباب يا صفوة العلا ألا ابكوا على بدر المعارف والبرِ

ويا ربّاً فيه تحات ألا احزني فقد كنت في علياه سامية القدرِ

ويا صحفاً قد كان درُّ يراعه يُنمق منكِ الحلي بالنظم والنثرِ

تردّي وشاح الحزن وانعي وفاته مع الفضل والاداب والمجد والفخرِ

ويا أمماً قد شفّ طول مغيبه عليها الا صبراً على لوعة الهجرِ

أبى البين إلا خسفه في تمامه وعند الردى لا شيء يجدي سوى الصبرِ

فيا راحلاً عنا لجنة ربه عليك سلام الله ما غرد القمري

لقد كنت في فعل المبرات دائباً فنل من لدن مولاك ماشئت من اجرِ

خدمت بلاداً كنت فيها مقدما بسعي وفيّ الود في الجهر والسرِ

تغمدك الرحمان في دار خلده وأبقى لنا ذكرى مآثرك الزهرِ

وامطر رمساً ضمّ جسمك في الثرى شآبيب رضوان الى ساعة الحشرِ

(وقال حضرة الشماس الكسيوس كيال الراهب الحلبي)
عن المدرسة البطريركية في بيروت

صوت الاسى

هامَجِدُ الفضل في الارماس قد رقدا | فناحتِ الارضُ نوحاً ذوبَ الجمدا
والكون قد اظلمت اقمارهُ جزعاً | في كلِّ جوٍّ وماتت اهلهُ كمدا
تبكي بشارة من كانت مكانتهُ | فوقَ الهلالِ وفوق النجمِ مذ ولدا
نأى وخلف ناراً في جوانحنا | لله نارٌ لظاها قطٌّ ما خمدا
لئن تغيب طيَّ اللحدِ آفلهُ | فذكرهُ من ربوعِ الفضل ما فقدا
بالامس كانت رجال الفضل تصحبه | واليومَ اصبحَ مثلَ السيفِ منفردا
معاقلُ المجد قد دكت لفرقته | لانها لم تجد من بعده سندا
ودارهُ نسجت برد الحدادِ جوىً | مُذ غابَ عنها وأبقى بعدهُ الكمدا
لذاك فرضٌ علينا اليوم نندبه | ولا نذوق الكرى من بعدهِ ابدا
ونذرف الدمع من اجفاننا سحباً | ما لاح بدرٌ وما نورُ الصباح بدا
فهو الذي كان ركناً يستجار به | وهو الذي كان يعطي للملا مددا
يغني الفقير بما يوليهِ من نعم | ولا يردُّ عديماً بابهُ قصدا
اذ كان في الدين والاداب معتصماً | لذا الالهُ حباهُ ما به وعدا
واليوم خالقه بالمجد كلله | لانهُ عاش مزداناً بحلي هُدى
يحيا باحضان ابرهيم مبتهجاً | طوبى لمن آثرَ التقوى لهُ عددا

(وقال حضرة نجيب افندي الراسي)

المصاب

تجرعْ أسىً يا قلبُ قد نفدَ الصبرُ وحلت دياجي الخطبِ أذقضي الامرُ

هوى من سماء المجد بدرٌ من العلى وكيف يكون الليل إن خسف البدرُ

مصابٌ أليم الوقع جلَّ على الورى به دكَّ ركن الفضل وانتحب الفخرُ

تنوحُ به مصرٌ على من اعزها وشاد بها ما ليس يهدمه الدهرُ

وتندب سوريا فتاها الذي به تعالى لها شأن وجلَّ لها قدرُ

لقد جلَّ فيك الخطب شرقاً ومغرباً ففي كل نفسٍ حرقةٌ دونها الجمرُ

وكل فؤادٍ ذاب من لوعة الاسى ومن كل عينٍ قد جرت انهر حمرُ

فنندبُ منك اليوم علماً وفطنةً ورأياً سديداً دونه البيض والسمرُ

وتندبك الاقلام إذ قد هجرتها وما عهدها في حسن شيمتك الهجرُ

ومثلك من يبكى عليه وانما بكى قبلنا من بعدك النظم والنثرُ

عليك سلامُ الله يا خير راحلٍ له القلب مثوى ثابتٌ وله الصدرُ

اذا نحن لم نوفي رثاك فانما مآثرك الغراء ليسَ لها حصرُ

وقد عظمت آيات فضلك في الورى وذي الهمة الشماء والشيمُ الغرُ

تركتَ لنا الاهرام مشكاةَ حكمة ونورَ بهاءٍ تستنير بهِ مصرُ

فتحييك بالذكر الجميل مردداً ومثلك من يحييهِ لو فقد الذكرُ

(وقال حضرة محمد افندي اسماعيل خوجه بمدرسة الاتحاد الفرنساوي)
ومكاتب جريدة المؤيد بملوي

مصاب الشرق قد جلا وصبر بانيه قد قلا
فهل يجدي العزا كلا ولا السلوان ميسورُ

...

نُعي يوماً على عجلٍ { بشارة } مطمح الاملِ
فكان لرزئه الجللِ لدى الاهلين تكديرُ

...

وأمست مصرُ آسفةً تسح الدمع باكيةً
وكانت قبل آمنةً بها الايناس والخيرُ

...

دهاها نعي مفضالِ كثير الجود نوالِ
سديدِ الرأي قوالِ بفكرٍ كله نورُ

...

فقيدٍ ذكرهُ باقِ كما اثر له راقِ
وهل شيءٌ لنا واقِ اذا ما حمَّ مقدورُ

...

فللاقلامُ تعديدُ وللاهرامِ ترديدُ
صداهُ والبيراميدُ ومنظومٌ ومنثورُ

...

بمن تقدم الوطن وعاد لجفنه الوسن
اذا الآفات والفتن بمن تهدم السور

...

لدى وقت به الاسد يروع ما به جلد
فقلت وقولك الرشد ولم يرهبك تأثير

...

الى ان صرت في جدث طويل المكث واللبث
مقر الشيخ والحدث وكان لذاك تقدير

...

بكى من فقدك النيل ولكن فيه تأميل
بان يرعاه { جبريل } ورأيك فيه مأثور

(وقال حضرة سليم افندي خليل نهرا بكفرشيما)

دمعة اسف

زودونا بنظرة ووداع من فقيد الآداب والحزيه
أسمعونا من فيه آخر لفظ قبل ان تعقل اللسان المنيه
ودعوه عنا ايا خير صحب حول ذاك الفراش عند العشيه
حينما النفس في الفضاء توارت بسلام الى السماء العليه

ايها الناس اي طودٍ تمادى　　زعزعت حين مال كل البريه
فغدا النيل واجفاً باضطرابٍ　　وتعالت في نوحها سوريه
ليس بدعاً ان فاض مدمع اهل الا　　نيل كالنيل عند هذي البليه
كان للنيل جاره واخاه　　وزعيم الصحافة المصريه
ومثالاً للمجد والجد دوماً　　وصراط الجرائد العربيه
قتل العمر ساعياً بين جدٍ　　خادماً للمليك او للرعيه
وتفانى ما بين جدٍ ومجدٍ　　واجتهادٍ وغيرةٍ وطنيه
يا دموعي روي الضريح انسكاباً　　كل يوم في غدوة وعشيه
انا ابكيك يا بشارة دوماً　　بعد تلك الشمائل الادبيه
انا ابكي عن كفرشيما فتاها　　بحنين وزفرةٍ ناريه
ما مسحنا الدموع بعد سليمٍ　　فتولى وكان خير بقيه
فوقفنا لدى ضريح سليم　　ببكاءٍ ودمعة وطنيه
نسأل الله للجميع اغتفاراً　　عن ذنوبٍ ورحمة سرمديه
قد رأينا السليم قبل مماته　　ولثمناه لثمةً اخويه
انما انت متَّ عنا بعيداً　　وبعاد الاحباب شر بليه
آه ما ضر لو رأيناكَ حيناً　　قبل هذا الرحيل للابديه
هل ذكرت الاحباب قبل ممات　　هل ذكرت المنازل الاهليه
ما ترانا نزيد في القول ان قلـ　　ـنا فقدنا بفقدك الامنيه
يا رفاتاً قد الحدوها بارض　　حرستها الملائك العلويه
كفرشيما ثكلى عليه فردو　　ه لامٍ باتت عليها شجيه
بقي الشبل عندكم فاحفظوه　　ان بالشبل صورة والديه

لا تقولوا هذا صغير فقيـه ❊ عزة الليث شيمة فطريـة
ايه يا امـه الحزينة صبراً ❊ يحمد الصبر عند وقع البليه
يا شقيقي بشارة وسليم ❊ انما الموت آفةٌ للبريـه
ام جبريل جلّ رزؤك هـذا ❊ انما انت بالعزاء حريـه
ايها الراقد العظيم سلامٌ ❊ وعلى القبر الف الف تحيـه

(وقال حضرة محمد إفندي صادق تاجر بسمنود)

فقيد الوطن

يا ايها الاهرام نور النادي ❊ لمَ بدلت منك الحلى بسوادِ
لمَ قـد ظهرت بحلة ليلية ❊ منها التحسر والتأسف بادِ
ما بال وجهك قد عرته كآبةٌ ❊ أمِن ضنىً او من طويل سهادِ
لمَ لا تجيبين النداء وفيةً ❊ أنقضت عهدي ام قطعت ودادي
ما شيمتي نقض العهود وانما ❊ عدت العوادي مسمعي وفؤادي
قدصمت الاذان من صوت النوى ❊ وتفتتت صخرية الاكبادِ
تلك المنية انشبت اظفارها ❊ بالشهم نسل السادة الامجادِ
ما كنت احسب قبل موت بشارة ❊ قبراً يضمُّ شوامخَ الاطوادِ
او ان بدر الافق يستره الثرى ❊ والبحر يسكن ضيقَ الالحادِ
حتى رأيت اليوم نقلا قد ثوى ❊ جدثاً وكان ممنعَ الانجادِ

قد كان طوداً للمعارف جامعاً قاموس فضلٍ راق للورّادِ

احيي الصحافة في البرية فكره حتى سرى فيها بحسن سدادِ

واماط ديجور الخلاف اذا بدا بين الملوك بفكره الوقادِ

ولكم له من باهرات معارفٍ جلت عن الاحصاء والتعدادِ

فلتبكه سحب الدموع وتكتسي فيه المراثي كل ثوب حدادِ

ولآله الصبر الجميل من الذي ختم الوجود بصادق الامدادِ

(وقال حضرة عبدالله افندي فارس بالمنصورة)

صدى الاسى

خطبٌ عميمٌ بافراح الورى ذهبا سهمٌ أصاب فليتَ السهم كان نبا

يا ليت شعري هلِ الافراح عائدةٌ والانس ولّى وماء الصفو قد نضبا

والحزن خيم في ارجائنا فغدت تبكي وفيها غراب البين قد نعبا

ويلاه واأسفي مما ألمَّ بنا دهرٌ خؤونٌ بارواح الورى لعبا

ليت المنية ما كانت ولا خلقت ان مسنا ألمٌ كانت لهُ سببا

كنا نتيه بعيش ناعمٍ وصفاً واليوم نشكو العنا والويل والحربا

هيهات ننسى مصاباً تشتكي المآ منه الجلامدُ وقرا الخطب والوصبا

تعساً لدار بربِ الفضل قد غدرت فافقدتنا أبياً طاهراً وابا

يا قلبُ ذبْ اسفاً يا عبرة انسجمي قد مات من للعلا والمجد قد خطبا

وابكي أيا صحف الدنيا باجمعها حزناً عليه ونوحي واندبي الادبا
على الفقيد الذي اوصافه حمدت وحاز بالهمم الآلاء والرتبا
شهمٌ غيورٌ ابيُّ النفس مشتهرٌ ذو رفعة وضياءٍ يزدري الشهبا
يا راحلاً عن بلاد كنت بهجتها قد فاض حزناً عليك الدمع وانسكبا
يا آل نقلا بشارا اليوم في جذلٍ حباه مولاهُ في الجنات ما طلبا
حيّ ثراه الحيا ما قلت من اسفٍ خطبٌ عميم بأحلام الورى ذهبا

(وقال حضرة يوسف افندي مراد الخوري من عبيه)

حسرات القلوب

سعيت بهذا الدهر يسعفك الجدُّ ومن بعد ذاك الجد قد ضمك اللحدُ
ونفسك مذ نالت بعمرك قصدها صبت للعلى حيث استقام لها القصدُ
هناك ترى الافراح والبشر والهنا ولكن هنا نوحٌ له في الحشى وقدُ
فقدناك فقد الغيث في المحل انما بكينا دموعاً ضاق عن فيضها النجدُ
فقدناك فقد النوم للعين فاغتدت يلذُّ لها من بعد فقد الكرى السهدُ
فقدناك فقد الروح للجسم انما حيينا ولكن ليته لم يكن بعدُ
ولو كنت تفدى بالجسوم رأيتنا نجود بها ما شاءه الود والعهدُ

نعاك لنا برق تلا لمعانه ‏ دموعٌ لها من رنة للاسى رعدُ
نعاك لنا بدراً غدا اللحد برجه ‏ ولم ندرِ بدراً قبل ذا ضمه لحدُ
مصابك بين الناس يمتدُّ مثلما ‏ لك الذكر في عرض البسيطة يمتدُ
لقد سلبتنا النائبات بك العلى ‏ ولا يرتجى من بعد ان سلبت ردُّ
جعلت فدى الاوطان عمرك كله ‏ فسطر في وجه الزمان لك الحمدُ
وعلمتنا الاقدام والجدّ قائلاً ‏ لغير نجاح العصر لم يدعنا الجدُّ
ركبت الى الغايات جدك اجرداً ‏ فكان باشواط العلوم لك المجدُ
وجردت من غمد السداد مهنداً ‏ واسرجت حزماً دونه تقصر الجردُ
فلا عجبٌ ان كنت تبكى على المدى ‏ وحيداً فريداً انك الواحد الفردُ
وتبكيك في هذا الزمان صحافةٌ ‏ توليتها بكراً ولم يثنك الجهدُ
ويبكيك لبنانٌ ومصر وكل من ‏ رأى بك خلقاً ما له عندنا ندُّ
لئن كان فيض النيل يلزم حده ‏ فدمع الذي يبكيك ليس له حدُّ
لقد غدت الاهرام في مصر مدفناً ‏ لقوم بها عاشوا وعاش بها الجدُ
وقد اصبحت اهرامك الان مدفناً ‏ لذكرك فيها في مواطنها الخلدُ
تبعت سليماً في الممات كأنما ‏ له منك من قبل الردى باللقا وعدُ
دعاك اليه الشوق والحب والوفا ‏ فسرت ولم يرجعك ما تقتضي الولدُ
سنبكيكما بدرين في أُفق العلا ‏ واعيننا لا يستقر بها السهدُ
ونهدي بانفاس النسيم تحيةً ‏ لقبركما يحكي تأرجها الندُّ
وان يسقِ دمع العين قبراً حواكما ‏ ففي جنة الافراح عيشكما رغدُ

(وقال حضرة خليل افندي السبتي مكاتب الاهرام في حيفا)

الاسى

الصحف تنحبُ والمحابر تدمعُ   والقلب يرثي والحشى يتقطعُ
لا غروَ في هذا فإنَّ مصابنا   خطبٌ لنا فيه آسى وتوجعُ
عدت المنايا اريحياً اروعا   وطريدهنَّ الاريحي الاروعُ
من آل تقلا ماجدٌ فرد قضى   فتقوض المجدُ الأثيل الاروعُ
شخص المفاخر والمآثر والحجى   السيد العلم الشجاع الاصمعُ
ذو همةٍ وحميةٍ وحصافةٍ   بحليها اثارهُ تترصعُ
تباً لايدي الدهر قد فتكت به   فغدت اسىً كل المحاجر تدمعُ
تباً لدارٍ لا مقام لنا بها   الا كما تأتي الظلال وترجعُ
صدق المقال فكل شيءٍ باطلٌ   وحياتنا حلمٌ ودارٌ بلقعُ
من رام ان يحيا بطيب ذكرهِ   فالحكمة الثوب الذي لا ينزعُ
كفقيدنا الندس الذي اثارهُ   فاحت كنشر دائماً يتضوعُ
هذي جرائده زهت في افقنا   وقلائد العقيان فيها تسطعُ
قد حاز أعلى رتبة من مالك   بسمائه شهب المكارم تطلعُ
وحبته انجمها الملوك تجلة   فكأنها في الصدر زهر تلمعُ
لنزاهةٍ وحصافة وزكانةٍ   ومتانة في الخلق لا تتزعزعُ
ونبالةٍ ونباهةٍ وفطانةٍ   وسلامة كانت به تستجمعُ

أسفي ولكن قد جرى حكم القضا ... فقضى وليس لهُ دواءٌ ينجعُ
اسفي لبدرٍ ساطع عنا نأى ... وخسوفه للشرق خسفٌ يصدعُ
يبكيه اهل الفضل فيه باعينٍ ... بعد النوى مقروحة لا تهجعُ
والعصر ينحبهُ ويرثيهِ الهدى ... ويظل يفقده الندى المتفجعُ
يا مِن مضى عنا وخلف بعده ... ذكراً جميلاً كالكواكب يطلعُ
لله يوم حملت خير مشيع ... وقلوبنا سارت اليك تشيعُ
يبكي عليك وكل قلب واجف ... جزعاً عليك وكل دمعٍ يهمعُ
خلفت بعدك خير فرع للعلى ... والفرع للاصل الزكي سيتبعُ

(وقال حضرة يوسف افندي فاخوري)

احد اساتذة العربية في المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت

سبحان الحي السرمدي

تشطير وتذييل للقصيدة الرثائية المشهورة لابن النبيه في ولد الناصر احمد برثاء فقيد العلم والوطن المأسوف عليه بشاره تقلا باشا صاحب جريدة الاهرام تغمده الله برحمته ورضوانه واسكنه فسيح جنانه والهم آله على فقده صبراً جميلاً

الناسُ للموتِ كخيل الطراد ... سابقها للرمس نحرُ السوادْ
شأو اليه سبقها ان عدت ... فالسابق السابق منها الجوادْ
والله لا يدعو الى دارهِ ... غير الذي افعالهُ لا تباد

وليس يُعطي في العلى منزلاً | الا من استصلح من ذي العباد
والموت نقاد على كفه | اعمار من للناس كانوا عماد
يمينه شلت بها تنتقي | جواهرٌ يختار منها الجياد
والمرء كالظل ولا بدَّ أن | يخفى كمر الطيف اذ لا يعاد
ساعاته محدودة ان مضت | يزول ذاك الظلُّ بعد امتداد
لا تصلح الارواح الا اذا | فارقت الاجسام حتى تعاد
ولا ترى العلام الا متى | سرى الى الاجساد هذا الفساد
ارغمت يا موت انوف القنا | وربّتَ اطفال الملا بالمهاد
والبيض والحدباء حطمتها | ودست اعناق السيوف الحداد
كيف تخرَّمتَ علياً وما | بشارة ابقيته للبلاد
لم ينفع المرء دفاع ولا | انجده كل طويل النجاد
نجل امير المؤمنين الذي | لم ينج من نصل قناه البداد
كذا ابن تقلا سيفه مرقم | من خوفه يرعد قلب الجماد
مصيبة اذكت قلوب الورى | وغادرت نار الاسى باتقاد
فأضرمت اكبادنا لوعةً | كأنما في كل قلبٍ زناد
نازلة جات فمن اجلها | ابناء تقلا حزنهم بازدياد
داهية دهياء في مثلها | سنَّ بنو العباس لبس السواد
مأتمة في الارض لكنها | في حدها مجد ابن تقلا الجواد
منها الأسى في داره انما | عرسٌ على السبع الطباق الشداد
فالحود في المسح لها رنة | من الأسى ابكت عيون المداد
وآل تقلا بالسلاب ارتدوا | والحور تجلى في مروط الحداد

طرقت يا موت كريماً فلم ... يبخل على طارقه بالمراد
وضفت من اجدى فاغنى ولم ... يقنع بغير النفس للضيف زاد
قصفته من سدرة المنتهى ... فرعاً أثيلاً مورقاً ذا سداد
ومن غياض العلم أذويته ... غصناً فشلت يد اهل الفساد
يا ثالث السبطين خانتني ... ارثي ابن تقلا بالقريض المجاد
بشارةٌ لمْ انت غادرتني ... اهيمُ من همي في كل واد
يا نائماً في غمرات الردى ... حرَّمتَ جبريلاً لذيذ الرقاد
يا أَيها المفقود يوم النوى ... كحلت اجفاني بميل السهاد
ويا ضجيع الترب اقلقتني ... فهمتُ في نوحي بغير اقتصاد
ارقتني فيك فلا راحة ... كأَنما فرشي شوك القتاد
دُفنت في التربِ ولو انصفوا ... رمست في الافلاك دون الوهاد
ضموك في لحدٍ ولو فكرّوا ... ما كنت الا في صميم الفؤاد
لو لم تكن اسخنت عيني سقت ... ضريحك الدمع بمزنٍ غواد
ان يرقاء المدمع تسقي دماً ... مثواك عيناي كصوب العهاد
عليكَ وقفاً رحماتٌ همت ... تتابعَ الدَّهرَ مع الغيثِ جاد
واثابجَ الرحمن صدر الأُلى ... بكاؤهم والنوح شوطا طراد
على همام فاضلٍ عالمٍ ... افصح ممن فاه منهم بضاد
عاش كريماً خادماً قومه ... ومات شهماً بعد هذا الجهاد

وقال مؤرخاً الوفاة

حلت على ابناء تقلا نكبةٌ ... جرّت الى الوطن العزيز خساره

تلك الحياة فلا يتم صفاؤها لبني الانامِ ولا تدوم بشاره
انّى البشارة والمؤرخ معلنٌ باللحد غاب سناء وجه بشاره
سنة ١٩٠١

(وقال حضرة رشيد افندي حنا نصوبع)

حاشا لهجركَ ان يكون طويلا ولمثل بينك ان يكون عجولا
ولمثل وجهك ان يكون مغيباً ولصبر قلبي ان يكون جميلا
قف ودع الاهرام منك بنظرةٍ فهيَ الاحق بان تكون ثكولا
ان كان وادي النيل شق جيوبه حزناً عليك فقد خدمت النيلا
او كان لبنان عليك تصوّحت ازهاره فلقد نماك اصولا
أَبكيت فيهِ شؤونه وعيونه وغصونه وحزونه وسهولا
وهواءه الشافي وهذا لو درى لسرى ليشفيَ من صباك عليلا
فلطالما ذكروك عندك مهبهِ فاطبته ذكراً فطاب حمولا
ولطالما اكسبت بر شآمنا شرفاً رفيعاً باسقاً واثيلا
أعميد سوريا ومصر اقول ذا وانا جريءٌ لا اخاف عذولا
انا نشيع ظاعنين قلوبنا وعيوننا ونشارة المثكولا
أجريدة الاهرام لا زالت دعا ئمك التي رسخت بمصر طويلا
بل دمت كالاهرام تشمخ للذرى ونجر فوق الأَرض منك ذيولا
ولربما يبني البناء وربه ال باني يصير عن البناء طلولا

يا وردة بين الازاهر يتمت فلقد فقدت ندى الربى وقبولا

لو لم يخلف من تعهد حسنك الـ باهي لأشفقنا عليك ذبولا

لكنه ما اشتد ساعده فيا ربي امنحنه الساعد المفتولا

هذا الذي يضني الفؤاد ويبعث الـ حسرات تترى بكرة وأصيلا

ترنو اليه جفوننا فيغادر الـ اجفان قرحى والدموع سيولا

أعني بوردتنا جريدتنا كما أعني بشبل فقيدها جبريلا

انا نعلم كل ورق اراكة كيف النواح على الغصون هديلا

من بعد موت بشارة والله نسـ ـألُ ان يكون بلطفه مشمولا

(وقال جبرائيل افندي جرجس صافي اللبناني)

لوعة الفؤاد

جار الزمان الان في نكباته وفؤادنا قد ذاب من حسراته

والنفس تنحب لوعة وتفجعاً والقلب يصعد بالاسى زفراته

أفٍ لدنيا عيشها بترنق ونعيمها حلم بقرب فواته

غرارة تسبي اللبيب بمكرها وتضل ادهى القوم عن غاياته

كفقيدنا المقدام من نال العلا بذكائه ونشاطه وثباته

ووجاهة وعفاف نفس دائم ومحبة للخير من عاداته

وبشاشة وبلاغة وفصاحة وفوائد بانت لنا بعظاته

اسفي على البدر المنير وقد خوى ... وثوى الضريح مفارقاً هالاته
من آل نقلا فاضلٌ عنا نأى ... فجع الانام جميعهم بمماته
العالم الندس الغيور المرتقي ... متن العلى بخلاله وبذاته
اللوذعيُّ الجهبذ الفردُ الذي ... فاق الورى قدراً بحسن صفاته
افعاله الغراء سارت بالملا ... كالشمس ساطعةً عقيب وفاته
هذي جرائده زهت في شرقنا ... روضاً ثمار العلم من ثمراته
خدم البلاد بها باصدق خدمةٍ ... وسعى لها بالنجح في مسعاته
حاز المراتب والوسامات التي ... في صدره تنبيك عن حسناته
فالمجد يندبهُ ويبكيه العلا ... ويسح مفؤود الندى عبراته
يبكي الاماثل والاماجد حسرةً ... وتزيدُ بالاحزان في مأساته
يا من مضى عنا لرحمة ربه ... لينالَ مجداً في ربى جناته
فارقتنا وتركت للقلب الاسى ... ولغصن بان ذاب من حرقاته
ودّعته بنصائح منها النهى ... وبحسرةٍ اكثرتَ من قبلاته
هذا صراطٌ والمنون نموذجٌ ... يحيا الفتى للخوض في لجاته
فالعفو نطلب للفقيد ورحمةً ... تشفي مصيبة آله وبكاته
ومراحماً يسقي المهيمن رمسهُ ... عفواً ورضواناً وخير هباته
وبجنة الفردوس يسكن نفسهُ ... في نزهةٍ ليقرَّ في رحماته

(وقال حضرة محمد افندي التميمي)

رزء الصحافة بالفقيد بشارةٍ ... تبكي المحابر منهُ والاقلامُ

يا آل نقلا ارض مصر تزلزلت   لمصابكم وتصدَّع الاهرامُ
صبراً فان فقيدكم اثاره   كسميها لم تمحها الايامُ
لو دام ذو اثرٍ لدام فقيدكم   ما دامت الافلاك والاجرامُ

(وقال حضرة حميده افندي سالم الدمنهوري)

واجب العزاء

الى آل فقيد الوطن العزيز

أأعزي في رزئهِ كل غالِ   أم باغلى الرثاء فيهِ أغالي
أم أعزي في خطبه كل مجدٍ   أم اعزي فيهِ الندى والمعالي
أم أعزي فيه فضائل غراً   اصبحت بعده كسينة بالِ
أم أعزي له صحائف فضلٍ   قد بدت من فراقه في اعتلالِ
أم أعزي به مآثرَ خيرٍ   باقياتٍ على مدى الاجيالِ
أم أعزي به اماجد قوم   سار عنهم للحده بالجلالِ
أم أعزي بثكله كل قطر   قد حباه بفضله المتوالي
ويقيني أنَّ العزاء عليهِ   غير مجدٍ والصبر ليس بحالِ
يا لخطبٍ عرا بفقد عظيم   ومصاب يفوق وقع النصالِ
فعليهِ البكاءُ يجملُ دوماً   من عيون العلا بدمع مسالِ

ليس بذلُ الدموع كالدم يشفي   من عناء على كريم الخلالِ
ليس شق القلوب بعد جيوبٍ   بعظيم على فتىً مفضالِ
ليس فقد الكبود من طول وجد   بقليل على فقيد الرجالِ
مات من كانت الفصاحة تبدو   من حلى لفظهِ كسحر حلالِ
مات من كانت البلاغة تزهو   منهُ انوار حسنها في المقالِ
مات من كانت السياسة عنهُ   مثلاً سائراً من الامثالِ
مات من كان للصحافة شيخاً   سنداً سائداً على الامثالِ
مات من كان للشهامة قرماً   بطلاً طائلاً على الابطالِ
مات من كان للحوادث ليثاً   لا يبالي بملتقى الاهوالِ
مات رب العلا { بشارة تقلا }   خير { باشا } بفضله والكمالِ
دكَّ طودُ العلوم ليلاً فكادت   لعلاهُ تدك شمُّ الجبالِ
وتوارت زهرُ النجوم حيارى   اذ توارى في الترب بدر المعالي
وبكى { الفرقدان } حزناً عليهِ   بدموع من الاسى في انهمالِ
وبكته { شمس } العلاحين أودى   وهوى من سماء ذاك الكمالِ
وبكاه { جبريل } شبل أبيهِ   بفؤاد مروعٍ غير سالِ
وبكاه { اهرامه } و { اخوه }   بانتشارٍ ما بين صحبٍ وآلِ
وبكت شيخها { الصحافة جمعاً }   ونعته باصدق الاقوالِ
واغتدت تذكر الفضائل عنهُ   مصرُ والشامُ بالصفات الغوالي
وعفاةٌ قد كان يحنو عليهم   بجميل العطاء قبل السؤالِ
لعلاهُ وعلمه ونداهُ   كم حمول شدت وكم من رحالِ
كم افاد العباد نفعاً جليلاً   دلَّ طبعاً على حسان الخصالِ

كم به للهدى أُنيرت عقولٌ اوغلت قبلُ في فيافي الضلالِ

كان فيهِ تلطف واتضاعٌ زادهُ رفعةً على كل عالِ

كان للخائفين من جور دهرٍ مأمناً عالياً عزيز المثالِ

كان للاصدقاء اوفى صديق {لستُ انسى له جميل الفعالِ}

كان يلقى صعب الامور بعزمٍ فتولى بغايـة الاذلالِ

كان أمضى من الحسام ذكاءً يقهر الخصم في اشتباك النصالِ

كم به من صروف دهرٍ توالت فتولت من يأسهِ في الحالِ

فهو لا غرو للفضائل اهلٌ وجديرٌ بهـا بغير جدالِ

كم حوى رتبةً جليلةَ قدرٍ من ملوك الدلاء والاقبالِ

حاز بالجد والنباهة فخراً لا يضاهى وثروةً من حلالِ

ومن الناس حاز اوفى ثناءٍ ومن الله نال حسن المآلِ

ومزايا العزيز لم تحصَ عدّاً من بليغ او شاعرٍ مقوالِ

قل لمن شآء شأوَ علياه قصرا لم ينلهُ تطاول الامالِ

عجباً للمنون تعدو وتسطو عاجلاً بالعظيم ليس تبالي

كيف تبدوالنجوم من بعد مولىً فضلهُ كالنجومِ عدَّ الرمالِ

كيف بالماء مُنتقىً غسلوه وهو أنقى من ماء بحرٍ زلالِ

كيف بالطيب عطروه حنوطاً وهو أذكى من عطر طيب غالِ

آل تقلا مصابكم جلَّ هولاً في جميع الاقطار بالاجمالِ

كم قلوب تصدعت حين وافى وكبود تروعت بالتوالي

وعقولٌ بها أقام ذهولٌ ونفوسٌ حارت بلا امهالِ

لكن الموت لم يزل للبرايا يتوفى اخيارها بانتقالِ

لكم الصبر فهو خير وأولى ولئن كان طعمه غير حالِ
و { بجبريل } كل خير يُرجى بعد سار لربه المتعالي
ليس من مهربٍ من الموت يرجى كلُّ ظلٍّ مآله للزوالِ
والحياة الدنيا متاعٌ قليل وبقاء المتاع عين المحالِ
ليس للمرء غير فعل جميل يصطفيه لحالة الارتحالِ
غير تقوى الاله لم يلقَ زاداً طيباً في بعاده المستطالِ
وفقيد الاوطان كم كان منهُ فعلُ خير لاهلها ذو اتصالِ
وسعى للاصلاح افضل سعي بجميل التقى وبذل النوالِ
فدعاه الاله للقرب منهُ فاجاب الدعا بخير امتثالِ
وبدار النعيم اصبح يزهو في صفاءٍ ورفعةٍ وكمالِ

(وقال حضرة ابرهيم افندي بركات)

تاريخ

وفاة الطيب الذكر المرحوم بشاره باشا تقلا

حكمُ الحمام على الانام تحتَّما فالارضُ ليس لهم بها منهُ حمى
كلٌّ يفارقها صغيراً او كبيـ ـراً مكرهاً إن مثرياً او معدما
فارقها وبها تركتَ عقيلةً وابناً واهلاً دمعهم يجري دما
يبكون مولى كلُّ صبرٍ بعدهُ أمسى عليهم في الزمان محرما
يا آلهُ صبراً ففي تاريخهِ بشرى بانَّ بشارةً شاء السما

سنة ١٩٠١

(وقال حضرة امين افندي زعرب في شفا عمر)

فاجعة الفواجع

رزءٌ جسيم حل في هذي البلاد ... من هوله جفت ينابيع المداد
إذ رافع الاهرام دكت تحته ... أسُّ الحيوة وصرح ذاك العزّ ماد
فبكت لفرقته المحابر حسرة ... وكسى الانام لفقده ثوب الحداد
يا مرشد الكتاب في سبل الهدى ... يا مرجع الاغرار عن طرق الفساد
رب الصحافة والسياسة والخطا ... بة ان تمت فاليتمُ بعدك للنواد
كم خطبة لك لا يزال عبيرها ... متضوعاً كالمسك في كل البلاد
انّى مضيت وانتَ فينا المرتجى ... يوم المكاره ايها الفردُ الجواد
انّى تجرعت الحمام بلا أسى ... وبلا مبالاةٍ بذاك ولا اعتداد
من للسياسة والكياسة بعدهُ ... من للكتابة والاصابة والسداد
انتَ الذي تمضي العصور وذكرهُ ... بين الورى يبقى مثالاً للرشاد
ما باد من احيا العلوم وشاد اه ... رامَ الفضائل وهيَ ذكرٌ لا يباد
ما مات من خدم البلاد واهلها ... زمناً مديداً بين جدّ واجتهاد
ما مات من رقى الصحافة وابتنى ... في قطرها بيتاً سما عالي العماد
سوريةٌ تبكي عليه وان بنى ... اهرامهُ الغراء في مصر وشاد
إنْ حرّمت لبس السواد دفاترٌ ... من بعده فلأنهُ افنى المداد

لحدادها ببياضها وبيانها ... بسوادها وبه تتم ما اراد
كل ابن أنثى مائت يوماً كذا ... كل ابن انثى عائش يوم المعاد
اين الجبابرة الذين تقدموا ... اين القياصر اين فرعون وعاد
فبكاؤه كم عبث على ميت قضى ... بالله والايمان معه خير زاد
فله الخلود مع الملائك سرمداً ... وله الى المولى شفاعة خير فاد
فلئن يكن جثمانه رهن البلى ... فالنفس مطلقة عفت دار الفساد

(وقال حضرة مرسي افندي الليثي بالكفر الغربي)

انا لله وانا اليه راجعون

الا ليست الدنيا بدار اقامة ... وليس لمخلوق بها يعهد الخلد
تزود لدار لا تزول نعيمها ... متين الاواخي دائم الصفو ممتد
وكل عزيز للحمام مذلل ... اليه وحر النفس فهو له عبد
حليف المعالي زال في زين عمره ... وقد كان من اوصافه الحلم والزهد
وكان اماماً في البلاغة ماهراً ... وكان كما تهوى السماحة والحمد
لقد راح من دار الفناء مزوداً ... بصالح اعمال لدار البقا يغدو
وحاز من الرحمان اطيب رحمة ... ومغفرة منه وتم له السعد
فلا زال مغموراً بغفران ربه ... ومنه الرضا طول الدوام له يبدو

(وقال فؤاد افندي طانيوس غصن احد اعضاء اللجنة الخطابية)
في المدرسة البطريركية

رنة الاسى

{ على فقيد الصحافة العربية وعميدها }

ويح المنية ما ادنى تدانيها ... الى العباد وما انأى تنائيها

تفني قلوب الورى حزناً وتوشك ان ... تكسو الثرى ارجواناً من مآقيها

مادت جبال العلى حزناً على رجلٍ ... بذلٍ عيوفٍ ابيّ النفس عاليها

اخنى الزمان على ربّ الحصافة بل ... رب الصحافة بانيها ومعليها

يا خير ثاوٍ ثوى في اللحد قد فقدت ... به ربوع السخا أغلى لآليها

يا خير ناءٍ نأى عنا واورثنا ... مآثراً لا تني الاجيال ترويها

تبكي عليك اليتامى يا بشارة اذ ... قد كنت من مالك الفياض تكفيها

تبكي عليك اسى اهل الصحافة يا ... شهماً الى سبلِ الاصلاح يهديها

تبكي عليك الورى طرّاً لانك قد ... كنت الكريم الشريف المعتلي فيها

حلّ القضاء فذابت عند صدمته ... قلوبنا وسهام الحزن تصميها

لم تقوَ اهرام مصرٍ في الصروف على ... رفع المنيه عمن كان ينشيها

قضى فالبس ارض الشرق قاطبةً ... ثوب الحداد وكان الانس كاسيها

كأسٌ سترشفها كل الانام ولا   ينجو من الموت قاصيها ودانيها
يا آل نقلا تعزَّوا فالفقيد مضى   لكنما ذكرهُ في الارض يحييها
وسارت النفس من دارالفناءِ الى   دار البقاء لتلقى وجه باريها
حيا الحيا تربة فيها ثوى وهمت   سحائب العفوِ والرضوان ترويها

(وقال نجيب افندي خليل الشماس)

احد طلبة المدرسة البطريركية في بيروت

تاريخ

مضى من كان للعرفان ركناً   ومن قد حلَّ في اسمى مقامِ
وغادر في القلوب اسىً وهماً   واحزاناً تزيد على الدوامِ
فيا آل الفقيد الصبر اولى   بكم في فقد ذي الحزم الهمامِ
ملاك الحق ارخه بقولٍ   بشارة بات في دار السلامِ

سنة ١٩٠١

(وقال حضرة يوسف افندي فتحي)
{مدير ومحرر جريدة المقياس والسودان المصري سابقاً}

عجباً لورقاء الحياة فما جنت   في روضها ولها الحمام نصيبُ
تأوي الفناء وذاك عنصر بدئها   قدماً فظاهر كنهها محجوبُ
تتجاذب الذرات تحت خفائها   فيم التماسك والشتات قريبُ
هذي الكيان فما هيولى وضعها   ولها التغيرّ في العصور وجيبُ
انى لتدهشني العوالم منظراً   فكأنني في دارهنّ غريبُ
عدمٌ ووجدانٌ وأدوارٌ بدا   منها التخالف ان ذا لمريبُ

***

يا سائراً تخذ الدجنة مركبا   أين المسير وفي الطريق لغوبُ
ردّ الظعائن ريث توديع النوى   فلقد رأيت الركب ليس يؤوبُ
حملتها يوم الرحيل امانةً   رحلت بها فالعيش ليس يطيبُ

***

يا قصر ويحك قد عهدتك آهلاً   فعلى مَ يبدو في حماك قطوبُ
ناشد دموعي انها لضنينةٌ   فيما أرى وغزيرها مسكوبُ
بسم الصباح وكان احزن باسمٍ   وعلا به في مشرقيه نحيبُ
وتبدلت تلك الليالي فانقضت   وصباحها رزءٌ نما وخطوبُ
اين ابتسامات الثغور ودهرها   اذ كان عنه الصفو ليس يغيبُ
قد كدرتها النائبات بما جرى   نجرى عقيق الدمع وهو خضيبُ

والغيث يبكي والنجوم حواسرٌ والافق من ذاك البهاء سليبُ
تربت يد الحدثان رغماً انهُ اضحى يرينا الخطب كيف يريبُ
يهوى لآلي الدمع في اجفاننا فلذاك يابسها لديه رطيبُ
كلفٌ بتشتيت الجموع كأنهُ بين الاحبة بالفراق رقيبُ

***

سلّ الضنا من جسمه رسم البها حتى تحيّر في الدواء طبيبُ
بذلوا النفوس له الفداء فاخفقوا ان الرجاء لدى الحمام يخيبُ
وانقضّ بلبل سره في خفقة شوقاً يرفرف للرضا فيجيبُ
وقضى الحياة وهكذا حكم القضا فبكت وشقت أعينٌ وجيوبُ
العين عبرى والاضالع ظُلعٌ والنفس سكرى والفؤاد كئيبُ
والحزن يقرع في الصدور بكفه قرعاً يقدّ الصخر وهو صليبُ
تتابع اللوعات في توديعه بالحزن منها للعقيب عقيبُ
وارى الحمائم لا تكفّ عن البكا بالشجو منها نادبٌ وخطيبُ
ذودوا التجلد عن فؤاد ثابت هذا نهار للكرام عصيبُ
ضمن المكارم تحت طيات الثرى بدرٌ عداهُ للحمام غروبُ
أودعته ذخراً لآمال العلا وطويت فيها الآس وهو رطيبُ
يا رقة غلظ الحمام بسلبها لا كان يومكَ انه لعطيبُ
ان يشمت الاعداء فيك على الردى فالدور آت والرحيل قريبُ
غرّتنا لما اغتربت عن الحمى ابداً كلانا في حماهُ غريبُ
لا تجزعنْ فلقد رجعت لعنصرٍ نشأت بهِ الارحام وهي ضروبُ
في ذمة الرحمن انت وديعة ان الكريم الى الكريم حبيبُ

(وقال حضرة ايليا افندي قسطه زريق)

انين الباكي

شجتني من الدهر الخؤون بلابلهْ
فحار بهِ فكري وزادت بلابلهْ

نعلل فيهِ النفس كي ندرك المنى
وانى المنى والعيش شدت رواحله

لنا كل يومٍ نازلٌ منهُ فادحٌ
الى ان تعم الخافقين نوازله

ولم ندرِ ان الصبر ينكث عهدهُ
وتطعن حبات القلوب ذوابله

فيا عجباً كيف البشارة بُدلت
بنعي اسى قد اوقر السمع قائله

أيبكيك طرسٌ قدهززت يراعه
كطود بيوم الحرب هزت عوامله

ام الفضل والاحسان يامن برحتنا
وعجلت سيراً اصعب الامر عاجله

ام الباس يا من قد ملكت زمامه
ام الفخر يا من فيك تمت شمائله

ام العلم حتى صرت للناس قدوةً
ام اللطف فانهالت عليك مناهله

ام الجد في سامي الامور ودونها
يلين جماد الكون ثم جنادله

تفانيت للاوطان حباً وغيرةً
ففاضت من الباري عليك فواضله

نظمت شؤوني فيك بحر مدائحٍ
ولكن هذا البحر ضاقت فواصله

أأبكيك دمعاً ام دماً غير انني
ارى الصبر أولى ان تبدت فواعله

بنيتَ من الآمال صرحاً معززاً
ولكن اخاب الموت ما انت آمله

عليك بتعداد المبرات رحمةً
ويسقي من المولى ضريحك وابله

(وقالت ادارة جريدة لبنان)

رثاء

(رجل الفضل والنبالة وعنوان المجد والكرامة المغفور لهُ)

(صاحب السعادة بشاره باشا تقلا)

صاحب الاهرامين (الاهرام والبيراميد)

تغمده الله برحمته ورضوانه واسكنه فسيح جنانه والهم آله على فقده صبراً جميلاً

مصابٌ افاضَ المدامعَ هطلا | وغادر خود المكارم ثكلى
وناح الكمال واحشاؤهُ | يضرّمها كارث الخطب شعلا
لعمرُ المعالي لقد اوشكت | تُقوّضُ مَغنىً وتنحلُّ شملا
لدن رابها من رزايا الزمان | نعي الهمام بشارة تقلا
هو الباذخ الشأن من ذكرهُ | تردّى علاءً وتُوّجَ فضلا
أصيل النهى كم جلا رأيهُ | فكان احدّ من السيف فِعلا
اذا استبقَ الناسُ للمكرمات | نرى الجمعَ يتلو بشارة جَلّى
وأهرامهُ هرمُ المأثراتِ | بدت شاهداً لمعاليه عَدلا
فويحَ المنون على من عدت | وغالت من القوم ندباً اجلّا
لقد كست الشرق ثوب الحدادِ | على سيدٍ بالكمالِ تحلّى

هو امر آلائـه هُطلٌ   تغادي الاديب وتروي اُلمقلاّ
بكتك السياسـة يا ربها   ومن حاز قدح الفخار المعلى
فقد كان رأيك كالسهم مرمىً   يُحقّ الصحيح وينفي المضـلاّ
فصاب ضريحك غيث الرضى   من الله ما انفكّ يمطر وَبلاَ
واسكن روحك دار النعيم   وقد طاب دار النعيم محلاّ

(وقال عزتلو محمد بك غالب)

الموت يسطو على الاجسام يفنيها   والفضل يسمو على الاموات يحييها
والشهم ان مات تبدو في مآثره   روح تغرد بالذكرى معانيها
يهتز عطفاً لها من قلب ذي شجن   ماضي الاسى وتذيع النفس خافيها
يا راحلاً ثملاً مستبشراً فرحاً   اسكرتنا جزعاً عافاك ساقيها
لاقيت نور الهدى والنار ساكنةٌ   ما بين اضلعنا والبين يصليها
فالموت فرض كفرض الحزن في رجل   عمت فضائله الدنيا وما فيها

(وقال حضرة داود افندي بركات)
رئيس تحرير الاهرام

الدمعة الحرّى

هضبة المجد صدعتها النوائب   فغدت بعدها المعالي نوادب

وقضت مذ قضي بشارة آمـا ... لٌ كبارٌ حثت اليها الرغائب
كان في ثغر ذا الزمان ابتساماً ... فبدا الدهر عابس الوجه غاضب
دهش الناس اذ نعته النواعي ... فكأن المنون احدى العجائب
ما عهدنا الادواء تسطو على الحز ... م الصحيح المزري بجل المصاعب
لا ولا ذلك النشاط يداني ... اذ يطيش الهدى وتعيي المذاهب
انما الموت بالحيوة لصيقٌ ... وهو حتمٌ على البرية واجب
هدّ منا ركناً ركيناً فبتنا ... بين باكٍ يرثي وآخر نادب
وعيون الاقلام تهمي نجيعاً ... كمآقي احبابـهِ والاقارب
وبكته من سوريا كل عينٍ ... وبكته مصرٌ بدمع السحائب
ربها تندب الصحافـة فيهِ ... وجهها ساهم عليـهِ وشاحب
لم يخنه والموت يأتي ويدنو ... ذلك البأس في كفاح المعاطب
كم رأيناه يتبع الصبر صبراً ... ثابت الجأش لا يهاب المصائب
خوفك الضرّ لا يقيك اذاه ... فمن الذل ان تهاب المحارب
يا لحين الوداع أصمى وأدمى ... ولحين الفراق والقلب واجب
موقف حال بين لبي ورشدي ... اذ أرى النبل ذاهباً غير آئب
فسلام على بشارة منا ... كلما خط في الصحيفة كاتب
ورعى الله نجله وحماه ... وحمى فيـهِ فضله والمراتب

(وقال حضرة يوسف افرام افندي البستاني)
المحرر بجريدة الاهرام

زفرة اسف

خطبٌ أذاب محاجراً وقلوبا ... وأصاب من مهج الكرام نصيبا
وجفت قلوب الاُمتين لوقعه ... حتى كأنَّ الخطب كان خطوبا
لله ليلته التي بتنا بها ... والدهر بات مجهماً وقطوبا
والقلب يخفق والنواظر سهَّد ... وجميعنا نخشى القضا المكتوبا
نرجو ونقنط في الدقيقة لا ترى ... الاّ جزوعاً يستشير طبيبا
حتى اذا انقطع الرجاء ويا له ... نباءً اسال من الشؤون صبيبا
ذهب الذي الاهرام من آثاره ... والبيراميد وما يشوق اديبا
حمّال الوية المروءة مقدماً ... دفّاع نائبة الفقير طروبا
رجلُ الصحافة والحصافة والحجى ... ما كان قطُّ من الغشوم هيوبا
كم ظلَّ يقتحم المخاطر للعلى ... كم هبَّ يوماً للضعيف هبوبا
ولكم اعزَّ الصدق غير محاذر ... والظلمُ يلحقُ بالصدوق ضروبا
خدم الحقيقة وهي اشرف خدمة ... فغدا الى القوم الكرام حبيبا
ملأَ البلاد بهمة مشهورة ... كم هوّنت في النائبات عصيبا
يا قبر كيف وسعتها وضممتها ... والقطر ضاقَ بها وكان رحيبا
يا راحلاً ما زال ذكرك حاضراً ... ان كنتَ عنا نائياً محجوبا
ولنا عزاءٌ بالذي خلفته ... اذ ينسلُ الندبُ النجيب نجيبا

(وقال حضرة نقولا افندي رزق الله)

رئيس حسابات ادارة الاهرام

(عدا قصيدته المنشورة في الصفحة ١٦٥ من هذا الكتاب)

مؤرخاً

بشارةُ نقلا فقيدُ العلى وليسَ فقيد العلى يُفقدُ
بكت فيهِ مِصرُ نصوحاً قضى سنين بخدمتها يجهدُ
غنيٌّ عن المدح مَن كانَ ذا مآثرَ من بعدهِ تخلدُ
وعن جيد الشعر يُرثى بهِ يُسيلُ الدموعَ إذا يُنشدُ
وعن شاعرٍ حامدٍ فضلهُ اذا قلَّ في الناس من يحمدُ
فكيف وللشرق والغرب فيه مراثٍ يرقُّ لها الجلمدُ
فقيدٌ أُسطر تاريخهُ وتاريخُ مِصرَ لهُ يشهدُ

سنة ١٩٠١

(وقال حضرة سليم افندي فضول الصباغـه)
بجريدة الاهرام

لوعة حزين

على رجلِ الشرقِ النواح المرددُ قضى فعجبنا للفضائل تلحدُ
على الكوكب الهادي بشارة عصرنا انين صدورٍ نارها ليس تخمدُ
تنوحُ ديار الشام بعد عزيزها وتندبهُ مصر أسى وتعـدّدُ
ويبكي بنو الاوطان في الشرق فقدمن بنى العزّ فيه فهو صرحٌ مشيدُ
عليهِ عيون الصحف تبكي تأسفاً وراحَ فؤاد العلم اسوان يفأدُ
سابكي عليهِ كل ما ناحَ طائرٌ وبات حمامٌ في الأراكِ يغرّدُ
لقد مات مقدام الصحافة والنهى وكان فتاها والمآثر تشهدُ
نعم سارَ مَنْ تصلى القلوب لفقدهِ جماراً حرارًا والحشى يتوقدُ
وكنتُ افديـهِ بروحي لو انهُ يفدى من الخطب المروع سيدُ
ولو كان بالاحسان يخلدُ فاضلٌ لما هدّ هذا الركن بل كان يخلدُ
فقدنا كريماً كان يحمي ذمارنا من الدهرِ ان أخنى عليها ونجدُ
اطابَ غراس الفضل في روضة العلى وما يزرعُ الانسان بالبر يحصدُ
وكان اخا جودٍ يوالي جميلهُ ويعطي لوجه الله ما سمحت يدُ
وقد كان مقداماً الى الخير سعيهُ وكان لراجيه على الدهر يعضدُ
فكم قام بين الناس يصلح شأنهم ويهديهم في المعضلات ويرشدُ

وشادَ أساس العلمِ فوقَ دعائمٍ ... صحاحَ المباني لا تدكُ وتفسدُ
فيا لكَ من نآءٍ فجعت قرينةً ... ثكولا واماً ثكلها متجددُ
وطفلاً نضير العود فارقتهُ على ... أسىً فهو ينمو رهن يتم ويرشدُ
سلامٌ على قبراً حواكَ فانهُ ... بما ضمَّ من مجدٍ لقبرٌ ممجدُ

(وقال جامع هذا الكتاب)

سلمت لو ان السهم سهم مقاتل ... ولكن ما اصماك سهم مخاتلِ
تغافل منك الرأي طرفة مقلة ... نخواستها والدهر ليس بغافل
وقد علم الموت الذي بتّ حربه ... مراسك في دفع الرزايا الجلائل
ولكنها الاعمار ان هي عوجلت ... فلا حول في رد القضاء المعاجل
قضاءٌ بافناء الحياة موكلُ ... الى ان يكون الموت آخر زائلِ
فليس بمنج منهُ قلبُ مناضل ... الى آخر الانفاس أو عزم باسلِ
ولا حرص احنى الوالدات على ابنها ... ولا جهد أوفى برة في العقائل
ومن لم يمت بالداء فالطب لم يزل ... سلاح المنايا في يدي كل جاهل
لهُ الويل من ليلٍ طويلٍ وساعة ... حسبنا المدى في سيرها المتثاقلِ
نرى شُهبهُ والدمع يغشى عيوننا ... تلوح وتخفى كالدموع السوائلِ

ونسمع منه في السكون تنهدًا ... وذاك صدى انفاسنا في المخايل

وقفنا بهِ نقضي وداع حبيبنا ... حيارى كاشباح بواكٍ ثواكلِ

ننادي الهمام المرتجى غير سامع ... وكان مجيباً قبلها كل سائلِ

ننادي ابرَّ الاصدقاء ولم يكن ... يخيب اذ يدعى رجاءً لآملِ

ننادي ابا جبريل باسم وحيده ... وقد كان لا يُعتاق عنه بشاغلِ

فتى المجد ان القوم جالوا وساجلوا ... وأرخى عنان الرأي كل مطاولِ

فاين الذي كان المقدَّمَ فيهمَ ... وكان وديع النفس عف الشمائلِ

واين الذي صمصامهُ دون عزمه ... مضاءً اذا ما استله في المعاضلِ

واين الذي كانت بوادر فكرهِ ... تخطف برق في دياجي المشاكلِ

واين الذي في كل مصر يحلهُ ... لهُ المنزل المرفوع بين المنازلِ

واين الذي ميعاده غير مخلفٍ ... وتسبق منهُ القول غرّ الفعائلِ

الا في سبيل الله اوفى مفارقٍ ... وفي ذمة العلياء اكرم راحلِ

وذاك المحيا الطلق والطلعة التي ... يلوح عليها الانس بادي الدلائلِ

وتلك العيون الناطقات لحاظها ... باجلى بياناً من مقالة قائلِ

وذاك الفؤاد الثابت في كل ازمة ... اذا مرت الاحداث مرّ الزلازل

وذاك الشباب النضر والهمة التي ... تدوس الى غاياتها كل حائلِ

بشارة جلّ الخطب فيك وانهُ ... لرزء عميم ما لهُ من مماثلِ

فان تبكِ مصر فهي تبكي مصابها ... باروع ميمون النقيبة فاضلِ

وان تبكِ سوريا فقد كنت ركنها ... وكنت ابرّ ابن لاجزع ثاكلِ

وان يبكِ ارباب الصحائف ترحة ... فقد يعرف التالون فضل الاوائل

وان ابكِ من حزنٍ عليك فانني ... نداك محيط بي وعرفك شاملي

فانت الذي اعليت بالود منزلي واوردتني منهُ عيون المناهلِ
وكنت اباً لي بالمبرات والندى وكنت اخاً لي في اشتداد النوازلِ
فلو انني ابكيك ما طال بي المدى فلست بوافٍ بعض تلك الفواضلِ
ولو انني اثني بما انت اهلهُ فلست بقاضٍ حق تلك الفضائلِ

فلو أنني أعليت بالجود منزلي ... ووردتني منه عيون المناهل

وكنت أبا [illegible] في الخيرات والندى ... وكنت أخا لي في اشتداد النوازل

فلو أنني [illegible] ما [illegible] بي لدى ... فلست بواف بعض تلك الفواضل

ولو أنني [illegible] هيه ... فلست بقاض حق تلك الفضائل



القسم الثاني

مختارات

من

اقوال الفقيد

سنة ١٨٧٩

اول مقالة نشرت للفقيد بتوقيعه في الاهرام مقالة عنوانها « وذكر ان نفعت الذكرى » وصف فيها سياسة بسمرك وخطتي النمسا والروسية تجاهها وكان ذلك في العدد المئة والثاني والسبعين الصادر في يوم الخميس لعشرين خلون من تشرين الثاني سنة ١٨٧٩ ومن مأثورات اقواله فيها

«.وليس يخفي ان نقطة الدائرة في كل امر هي ان يعرف الانسان ما يريد . وما يستطيع . وما يجب عليهِ . فاذا فقد ذلك اندفع اندفاعاً بين يدي الاتفاق »

وقال في موضع آخر منها واصفاً كنه سياسة بسمرك

« نعم ان بسمرك ذو شراهة في استكتاب غيره ولكنه ضنين بكتابته فلا يندفع ويحتفظ بها الى الغد ويتأنى . على انه ابن الفرصة وعاشق مواثيق المقادير »

وقد ايدت الايام من قبل ومن بعد صحة هذا الحكم قبل ان تفقده

قال في مقالة ثانية له مشيراً بما ينبغي لصيانة استقلال مصر

« من لزم اليقظة امن العطب ومن تأنى في نقل القدم امن العثار »

سنة ١٨٨٠

قال في وصف المال تحت عنوان

(البيوت المالية)

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ مالهُ   ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجدهُ

فهو منتهى العمران وقوام الملك وحياة الرعية والسيد المطلق النافذ الكلمة. مستعبد حر . ذرب اليراعة حادّ اللسان والجنان . شيخ فتيٌّ . لا تحط مقامهُ الليالي ولا تضعف عزيمته السنون . يهون دونهُ كل سيد ويسود بهِ كل مهان. وقصاراهُ فهو القدرة الفعالة والقوة التي لا يدفعها دافع بعد الله . ولم يتعارف من دعاهُ رباً معبوداً او ضارع لذة اقتنائهِ والميل اليهِ ورعاية حفظه بالبنين فقال لذة الدنيا مال وبنون . اينما حلّ ملاك وكيفما توجه سطا . مرعي الجانب. تهتز عند نيلهِ الاريحيات اهتزازاً وتبرز بهِ عرائس الافكار ساحبة من التيه

طرازاً فكم اقام من البلاقع حصوناً ومن الخرائب بلاداً ومن البلاد ملوكاً ومشاهد عظمة ومعاقل منعة وجميع ذلك بعض صفات يصفهُ القوم بها ولا غاية لي بالبحث فيهِ وانما الكلام عن البيوت المالية وامتدادها ومؤثراتها وما هو من ذلك

وهذه فقرة من مقالة بعث بها الى الاهرام من جزيرة قبرص وفيها من النظر السياسي ما لا يقال احسن منهُ اليوم

اما من حيث تنازل الدولة العثمانية لانكاترا عن هذه الجزيرة فكيف قلبت المسألة فهي خسارة في خسارة نجمت عن اتكالها في اعمالها على غيرها لا على نفسها

اما الشرق فوقف وقفة متذعر ثم تربص ليرى اين تسير بهِ الاقدار مترقباً هذا المسير وكفانا ما نقاد عمياً وقد لاق بنا ان نعرف الطريق فنسلكها حتى اذا لم يكن ذلك نحترس على الاقل من الوقوع في شرك المكايد

وعلى الكاتب ان يتخطى الى الصدق ولا يخشى بالحق وتقريره لومة لائم ولا يضيع ذكر الحسنات اذا تعددت امامهُ السيئات وهذا ما اخذتهُ لي مبدأً

وقال في مقدمة نبذة وصف فيها احوال الشرق وعلل تقدم اليابان ومصر ووقوف الدولة العلية في موقفها وتأخر سائر الدول الاسلامية كمراكش وغيرها

(امالي تاريخية)

للمتقدم فضل على المتأخر ساءت اعمال الاول او حسنت فهي في الاول

انذار له وفي الثاني قدوة للسلوك بموجبها وما اجلها خطة اذا روعيت كما يرام

قام في الشرق ممالك شتى ودول عديدة الاجناس مختلفة بين يونان ورومان وعجم واعراب واتراك . وهي الدول التي استتب لها الملك من نحو عشرين جيلاً واستفحل سلطانها واتسع نطاق احكامها وتم لها النفوذ والسطوة حتى لم تترك الواحدة للأخرى مبدأ حسد او سبب غيرة . وقد انتهت احكام تلك الامم الاربع الى الاتراك وكانت لها انذاراً في عاقبة سوء الادارة وحسنها والعدل في الرعية وظلمها

واذا راجعنا التاريخ تبين لنا انها لم تستطرد تالية منهنَّ سابقتها في رعاية الحسن وتدارك السيء بل اطردت كل واحدة منهنَّ مسيراً خاصاً يباين مسير الاخرى كل المباينة فلم يستتب معها نظام مكين ولم يتأيد مع الزمن ترتيب عام وكانت نتيجة ذلك ان سقطت الواحدة وتعقبتها الثانية ولم يستفد التابع من المتبوع فائدة تذكر . والغريب ان هذه الممالك دمرت تدميراً ولم يرنا التاريخ دولة شرقية اعتز ملكها وعظم امرها واتسع نطاقها الاّ رجعت بعد العز والمنعة الى الضعف والخمول وانكمشت الى مواطنها الاصلية فحكمت نفسها فيها او تسلط عليها غريب يذيقها مرارة العيش بعد حلاوته ويسومها الخسف والعذاب

وقال تحت عنوان امالي سياسية

قام العالم بالمعارف ووطد اركانه على دعائم الفلسفة ونشط الى معاقل المدنية المؤسسة على مبادىء النظام فكان ميالاً بالطبع بعد تفحص حالته ومعرفة

ما هو عليه بالنسبة له' وللنظام المقيد به الى الحرية المحيزة ضمن دائرة تحسين الهيئة الاجتماعية

وقد استطرد الى قوله

وعلى ما تقدم فلا بد من الوصول اما الى الدستور او الى الملاشاة ولا يمكن الحصول على الاول الا بقيام رجال راسخي الاقدام ذوي نزعة حرة يدعمون قوام الحرية بدعائم ثابتة لا تقوى على مسها زوابع الاغراض فيشدون ازر البلاد بروابط وقوانين ترفع مكانتها . وهذا لا يتم ايضاً بغير توليد تلك الحركة الخفية واحياء الجراثيم الفطرية في الامة الواحدة ذات المصلحة الواحدة تحت لواء وطنية واحدة . او بان تأخذ تلك الحركة الجرثومية الفطرية بالنمو ويرى منها الحاكم المستبد ما لا يقوى على دفعهِ فيهب من رقدتهِ خوفاً على ذهاب الطارف والتالد فيزحف تدريجاً الى ان يصير بمقربة من الدستور فيشرع بالعمل فيهِ ارضاءً للامة وخوفاً من ضياع الملك الى ان يكلل الظفر اعماله وتحصل البلاد على ما تطلبه فترسخ قدمه' على عرش اكرام المملكة له'

واما الثاني وهو الملاشاة واعني بهِ ملاشاة الحاكم لا المحكوم ـ وقد يتفق ان يذهب بكليهما ـ فهو ما استقرت قدمه' في الممالك ذات الاسباط الضعيفة التي تهب في اجسامها حركة الخواطر ولا تقوى على تعزيزها فتلتمس من غيرها القوة على ظهورها وادعامها مهما كانت الوسائط فتفتح باباً لمداخلة الغريب فيبحث في الزوايا عن خبايا الحكم الاستبدادي وهذا يسقط سقطات يتولد عنها بين الحكومة والشعب تنافر يدفع بهما الى الفعل والانفعال المستمرين باستمرار تلك الدسائس الى ان يتلاشى الحاكم ويصل المحكوم الى نتيجة

عظيمة وهي تجدد حركة الخاطر الاولى او يتلاشى الفريقان اذا قويت نهمة المتداخل وكان عمله لمصلحته فقط وبودنا ان لا يكون للشرقي غير النصيب الافضل

سنة ١٨٨١

كتب في ١٥ ستمبر سنة ١٨٨١ من باريس مشيرًا الى وخامة عاقبة الفتنة التي كانت بادئة في مصر اذ ذاك في مقالة عنوانها حادثة مصر ذكر فيها ورود الخبر بحدوث حركة عسكرية واتهام الجرائد الانكليزية الفرنسويين بدسها والجرائد الفرنسوية الانكليز باحداثها وقال انه مسرور بما جاء من بشرى انحسامها وختمها بهذه الكلمات

اي نعم ان البعض لا يرى في المسألة حالاً الا هجوعاً ثم لا نلبث ان نسمع لايقاظها دوياً اما انا فاقول ان ذلك يتبع منهج سير الوزارة والخديوي فاني لست ارى دواءً شافياً الا الاخلاص المتبادل والنظر في مصلحة الامة والبلاد لانهُ اذا حدث حادث في مصر فلا يقال « زيد » بل يقال مصر او اهل مصر

فيجب اذن ادراك معنى الوطنية وفهم مغزاها كما ينبغي « لان الجرّة في البئر لا تسلم كل مرّة » ومتى انكسرت فالخسارة تقع على الطرفين

وكتب في ٣ اكتوبر من باريس نصحاً للتونسيين اثناء الفتنة التي انتهت بحلول فرنسا بلادهم

اما حوادث تونس الحالية فموضوع بحث العموم وقد ثبت افتتاح مدينة القيروان واحتلال العاصمة وجميع المواقع المهمة ومناظرة

الاتصالات بين هذه البلاد وبين طرابلس الغرب وغيرها من الممالك الشرقية والاقتصاص دون عفو من الثائرين

وان ارسال القوات مؤخراً يؤكد ذلك واذا استمرّ الهياج وضعت بلاد تونس تحت الاحكام العسكرية

وعليهِ فلست ارى من سبيل للتونسيين الذين لا يقتلون عسكرياً فرنسوياً دون ان يقتل منهم عشرة كما تنبئنا الاخبار الاّ السكون والكف عن العصيان ليحفظوا استقلالهم الاداري الى حين ولكي لا يفقدوا جميع الامتيازات لان الحوادث تجرّ أُولي السياسة الى الاقبال على امور كلية رغماً عن ايضاحهم الرسمي قبلاً بعدم اتيانها

وبعبارة أخرى اقول انهُ اذا طالت ثورة تلك القبائل فلا نعجب من استيلاء فرنسا على تونس استيلاءَها على الجزائر وهنالك يخسر الثائرون الخسارة الاخيرة دون عوض

ولما اخذت تشتد الفتنة في مصر كتب من باريس في ٥ اكتوبر

ما الحوادث الاّ انذار ينبه الافكار وما الاعمال الاّ نتيجة ما تهيجه الخواطر وبها تنكشف الغايات والمقاصد وتظهر المصالح والاغراض وعليه فلم يكن من المسألة المصرية الاّ اقامة الحكم على المسألة الشرقية بتمامها

اذا استبر السياسي الحر السياسة الشرقية عرف ان حلها متوقف على اقل الاسباب افريقياً كان او اسيوياً او اوربياً فقد عانى ارباب الشأن ما يحملهم على وجوب الحل ولو اسرعوا

اما رجال الشرق فهم من نحو جيل يعتقدون اعتقاداً واحداً آمنين الغوائل موقنين ان من المستحيل اتفاق الدول غير ناظرين الى ما تسلسلهُ الحوادث والايام مما هو واسطة لايجاد الوفاق والاسراع بابرامهِ

نشرت التمس في احد اعدادها الاخيرة جملة قالت فيها بوجوب احتلال عساكر انكلترا القطر المصري او بالاحرى بوجوب ضمهِ واضافتهِ الى املاك انكلترا وارتأت لمرضاة الدول الباقيات تجزئة الشرق فهاجت الافكار واخذت الجرائد الاجنبية تندد وتعترض لا لاباءتها الحل او كرهها لهُ ولكن لانهُ يوافق انكلترا اكثر من سواها

اما الجرائد فذهبت في هذا الموضوع مذاهبها الى ان اتانا مراسل التمس البرليني بجملة تؤيد الرسالة الاولى وتذكر ان البرنس بسمرك اول من يعضد هذا المبدأ مستشهدة بكلامهِ ايام المؤتمر البرليني على اعتبار انهُ عرض مصر على انكلترا ثم اتصلت الى غير ذلك مما لا اشك بانكم عرفتموه من الجرائد نفسها

وكتب في ٧ اكتوبر فيما يتعلق بارسال اللجنة العثمانية الى مصر يومئذٍ

لقد ثبت ما كتبتهُ اليكم في سالف رسائلي وتحقق ما أبنت فترى جرائد انكلترا على اختلاف مشاربها وتباين مذاهبها ناشرة جملاً متفقة المعنى تضاد تداخل العثمانية في مصر ومن العجب اننا نشاهد تلك الصحف عينها التي كانت تستدعي العثمانية للتداخل وتنهي الى حكومتها بوجوب العمل فيهِ والتوصل اليهِ عدلت عن خطتها وحنقت مما كان

والاغرب من ذلك كلهِ ان هذه النشرات لم تقف عند حد ما ذكرت

لكم فقط بل تطاولت الى انكار ما للباب العالي من حقوق السلطة على القطر المصري مشبهة ذلك بالظل ليس الاّ قائلة ان لا بد من المنع ولو مست الحاجة الى قوة عسكرية وقد اتبعت ذلك بشرح ضافي الذيول . اي نعم ان الجرائد ليست الحكومة ولا كل ما تقوله يعمل به ولكن لا يخفى على القرّاء ان لجرائد اوربا نفوذاً تبيحه لها الامة فتكون والحالة هذه لسان حالها ولا يسع الحكومات هنا الاّ ان تجري ما تروم الامة . واذا تفحصنا ما هنالك علمنا ان انكلترا لم يجرّئها على التقدم الا جرائدها

وقال عن الجرائد العربية على اثر محادثة جرت له عن مصر مع برتلمي سنتيلير وزير خارجية فرنسا اوردها بتفصيلها ما نصه

ثم ودعته وانصرفت وفي قلبي لهفة للوصول الى السلام وتمام الطمانينة لانك اذا طالعت الجرائد باسرها رايتها على اتفاق في منهجها السياسي خصوصاً في ما يتعلق بالاستانة واني لاخاف ان يكون لصوت الجرائد المذكورة صدى فيؤثر في عموم الشرقيين وبالاً اذ لا يميز عند حلول الوقت بين من احسن او اساء فالنار يسترها الرماد وعاصفة الحوادث تستعد للايقاد ولا يخمدها الا ماء السلام احسن الله الختام

وله من مقالة أخرى عن مصر نشرت في ٨ اكتوبر

اي نعم ان الافكار هدأت ولكن المسألة لم تزل في الوجود وهي موضوع السياسة الحاضرة فان الكل يتساءل عما يكون منها او ما ينجم عنها او ما ستجري العثمانية واوربا او فرنسا او انكلترا على حدة او غير ذلك مما يبرهن على ان للامر اهمية عظيمة

اما اوربا عموماً فالواضح انها تاركة اجراء الامور لانكلترا وفرنسا وهاتان الدولتان متحدتا الرأي والفكر على العمل ضد كل تداخل

اما العثمانية فلم يعلم حتى الان ما تنوي وتريد وقد قال تلغراف امس انها مصممة على ارسال قوة فاذا صح ذلك جهلنا مبناهُ وامكان حدوثهِ وهل هو باتفاق مع سمو خديو مصر او لا

وما ندركه ونتذكره ان جرائد انكلترا التي اخذت بادىء بدءٍ عكساً لمبدإ حكومتها تطلب تداخل العثمانية بارسال قوة عسكرية الى مصر عدات هي نفسها عما عرضت ونبذت خطتها ولم تكتفِ بذلك فقط بل سألت وضع مصر تحت سلطة انكلترا ايضاً

وبرهنت هذه الصحف عن الحقوق التي تخولها ذلك ومرجعها كلها الى سكة الهند وقالت « ان هذا لا يسؤ فرنسا فهي تعلم ما لنا »

ولم نلبث بعد ان قرأنا هذه العبارات حتى سمعنا ان اللورد غرانفيل وزير خارجية انكلترا آتٍ الى باريز فارتاب القوم في موجب هذه الرحلة وتقوّلوا فيها واختلفوا في تأويل اسبابها مذاهب واراء حتى دعاني الامر الى الذهاب بعد ظهر امس الى وزارة خارجية فرنسا كيما أقف على الحقيقة

ولما وصلت الى دار الوزارة أُذن لي بالدخول الى قاعة الاستقبال فتشرفت بمقابلة حضرة المسيو بارتلمي سانتيلر وزير خارجية الجمهورية (وكنت مثلت بين يديه مرة قبل هذه كما سبقت فاعلمتكم) وبعد المداولة ببعض الامور السياسية قال لي

— ان حالة مصر تتعلق برجالها فان تمكن سمو الخديوي والوزارة بعضد القنصلين والمراقبين من توقيف كل حركة وايجاد الراحة واتخاذ الوسائط الفعالة

لعدم الودة الى مثل ذلك قاموا بخدمة جليلة لبلادهم واذا سألتني عما يكون من الدولتين الفرنساوية والانكليزية على افتراض استئناف حادث كالماضي اجبتك انهما تتخذان تدابير قاطعة ووسائل كلية لا تجهل نتائجها فان سكوتنا الحاضر يجب ان ينظر اليهِ بصفة انذار او بلاغ لاننا لا نودّ تكرار ما وقع . وانكلترا وفرنسا متحدتان في عدم رغبتهما في تداخل الجيش العثماني او سواه ونحن واثقون من اتفاق انكلترا معنا بهذا المعنى كما تشهد المكاتبات السياسية التي جرت بيننا في المخابرات الاخيرة بعد الحادثة

— مولاي ان حكمة سمو الخديوي ورجال وزارته اجل من ان يرشدوا الى معرفة الحالة ولست اراهم الا عاملين على ازالة كل اضطراب وقد افادت الاخبار عن قرب ابعاد بعض العساكر من العاصمة وما ذلك الا دليل حسن على جودة النية ولكن ارى ان جرائد انكلترا نفسها طلبت ارسال عساكر عثمانية الى مصر

— الجرائد غير الحكومة وهذه تضادّ ما قالت تلك مطلقاً

— يرى الآن ان الجرائد الانكليزية حوّلت منهجها واخذت تشتغل لنفسها فقد نشرت « التمس » في عددها الاخير جملة تطلب بها احتلالاً انكليزياً او بعبارة أخرى افتتاح مصر

— التمس كما تعلم ليست الحكومة وانكلترا تعترف بمصالحنا في القطر المصري كما نعترف نحن بمصالحها فيهِ ولا يمكن لاحدى الدولتين ان تعبث بمصالح الأُخرى فان احترام هذه المصالح متبادل تشهد بهِ الاحوال الاخيرة وبرهان الاتفاق الذي يبدد غياهب الغايات باسرها ان كلاً عرف ما لهُ وما عليهِ

ولذا فاني اكرر ما قلتهُ من ان حدوث اقل حادث سيثبت اتحاد الدولتين واؤمل ان حكمة رجال مصر لا ترينا الا هدوًا واحتراماً للقانون والمصالح العمومية

– شاع ان اللورد غرانفيل اتى باريز للمخابرة مع حضرتكم بمسألة مصر

– لم ارَهُ للان ولم اجد سبباً لقدومهِ فان الاتفاق وطيد والحالة الراهنة لا تستوجب احتياطاً واما اذا ظهر امرٌ جديد فتؤخذ الاحتياطات في شأنهِ اتى اللورد غرانفيل الى باريز ام لم يأتِ

ولما اكتفيت وعرفت ما ظهر وبطن استأذنت من حضرتهِ بالانصراف فخرجت شاكراً لما شهدت من لطفهِ متبصراً فيما طرح عليَّ من افكارهِ

واني اود ان يتروَّي قراء الاهرام وسائر رجال القطر المصري في الحالة وينظروا الى ما فيهِ اعزاز وطنهم واستتباب الراحة العمومية

هذا ولا بد ان يتذكر المصريون حادثة انقلاب الوزارة المصرية يوم كان يرأسها سمو الخديوي الحالي فانهم لما اعتبروا صمت اوربا عموماً والدولتين خصوصاً (يوم كان يجب عليهم اثناءها ان يغتنموا الفرصة لتبديد غياهب الشرّ ويجتهدوا بفصل الخلاف بالتي هي احسن) تصديقاً على ما فعلوا آلت الحال الى ما آلت اليهِ ووقع ما لم نجهل

وما يراهُ الان كل متبصر مستنير بالتجارب هو ان الدولتين اذا تكررت الحوادث تستعملان واسطة فعالة لكبح كل حركة وعضد الجناب الخديوي ولست ازيدكم علماً بان مصر تخسر اذ ذاك من حالتها الراهنة كثيراً اي انها تفقد من وطنيتها وعليهِ فاخاطب العسكرية اولاً والملكية ثانياً وخصوصاً امراء الجندية وفي مقدمتهم حضرة عزتلو احمد بك عرابي

خطاب مصري يودّ نهوض مصر ورفعتها واقول لهم قول نصوح عارف
بما وراءَ الاكمة ان كل مصري في الوقت الحاضر يجب ان يكون عضد الحضرة
الخديوية والوزارة وان يسير الجميع تحت راية الوطنية مسترشدين بنبراس الحكمة
حتى لا يزعزوا دعامة الثقة التي نالها دولتلو شريف باشا بل يكذبوا
باخلاصهم المتبادل تلك الاشاعات التي تنتهي الينا يومياً

اما هذه الاشاعات فالظاهر انها ناشئة عن اغراض وغايات لانها تشير
الى عدم الامل بحفظ السكون وهذا عين الخطإِ والقائد الى سؤ المصير وشرّ
العقبى كما تبين لنا جرائد انكلترا التي تتهددنا رافضة كل تداخل عارضة وجوب
استقلال مصر استقلالاً انكليزياً ولو بمساعدة فرنسا عند اول حركة

سنة ١٨٨٢

قال في ١٩ اغسطس سنة ١٨٨٢ على عقب احراق الاسكندرية وهي نموذج من مقالاته
الكثيرة في هذا المعنى لذاك العهد وكان يومئذٍ في القطر المصري

كلما اخذت القلم لتعداد وتبيان ما ألم بهذا القطر من الاضرار لا
تطاوعني يدي وأقف ذاهلاً متحيراً· تباً لك ايها الخادع المنافق المتظاهر بحب
وطنهِ وانت لهُ العدو الالد كم وكم جلبت عليهِ من النكبات والافات. لقد
افسدت وخربت في ساعة ما بناهُ واصلحهُ غيرك في عشرات من السنين·
قل لي ايها الساعي الى حتفهِ بظلفهِ بماذا تعتذر عند ابناء وطنك وقد حملتهم
حملاً لا طاقة لهم بهِ . وبايّ طيبةٍ تبيض ما ستسوده صفحات التاريخ من
ذكر شنائعك وظلمك وجورك . ابخراب الاسكندرية ونهبها واحراقها . أبجزر

اطفالها وابريائها جزر الغنم . اباخراج سكانها خائفين مذعورين كمن انزل الله عليه صاعقةً من السماء . ابتحويل المياه عن مجاريها واغراق البلاد . ام بتعطيل مئات ألوف من الاهالي عن اشغالهم . هل نفعت الفلاح وقد أتلفت مزروعاته فلم يفِ ديناراً مما عليهِ للحكومة والتاجر فساءَ حالاً وازداد ارتباكاً وديناً . هل خدمت الوطن وقد فرغت صناديقهُ وسقطت قراطيسهُ من الثمانين الى الخمسين ودونها . هل هذبت ومدنت الاهلين وقد جلبت عليهم عاراً لا يمحى فنسب اليهم من الخشونة ما كان ينسب قبل للحبشة والزولوس . أم طردت بعض اجانب مستأمنين ينفعون البلاد وينتفعون منها فداسوها الآن فائزين ظافرين . هل تفتخر بايجاد مجلس الامة وانت اول من ازدرى قوانينه وشرائعه فجعلت اوروبا تحتقر الامة ومجالسها . ام تنسب لنفسك نظام الجيش وقد انهتكت حرمتهُ مما ارتكبتهُ من السيئات والفحشاءِ وشأن الجيش ان يحافظ على النظام ولا يأتي امراً مكروهاً . أأكتفي بما عددتهُ من الاضرار ام ازيدك شرحاً عن الضرر الاكبر وهو مالية البلاد فاقول

كانت مالية البلاد على زمن الخديوي السابق في حالة مرتبكة لا نظام لايراداتها ولا حد لمصروفاتها . كنا نرى الفلاح يتعب ويشقى ويملأ خزائن الحكومة حتى اذا ما استحق الكوبون وجدناها فارغة خاوية فاقترضنا ما يلزم لسد احتياجاتنا الى ان جاءنا اليوم الموعود الذي احاطنا فيهِ الافرنج طالبين اموالهم فطأطأنا رؤوسنا اذلالاً منكسرين وسلمناهم ادارة العمل وفوضنا اليهم نظام ما ابديناهُ من الخلل . فسنوا قوانين وحدوداً واقاموا مراقبين فاصطحلت بذلك احوالنا الى درجة لم تكن تخطر لنا ببال فحسدتنا دول اوربا على حالتنا هذه التي لم تدم تمكنهم من التسلط على اعمالنا الا لوقت محدود فاخذنَ

يترقبن الفرص لاغتنام التداخل الى ان وسوس الشيطان في صدر عرابي ان اخلع طاعة امير المؤمنين ووكيله الجناب الخديوي وازرع في الارض فساداً وشقاقاً . فانى لنا التساط على ماليتنا الان وقد نهبت خزائننا وتلفت محاصيلنا وسلب منا كل ما تمتلكه ايدينا وكيف نتخلص من مراقبة الاغراب وعلينا تسديد كوبونات وتعويض اضرار ودفع مرتبات ومصاريف احتلال اجنبي والخزائن فارغة من كل اصفر . الا يتفطر قلب كل وطني مخلص لوطنه عندما يرى هذه الاخطار محيطة بنا ونحن عنها متغافلون ام قد قسى الله قلوبهم وهم عن غيهم لا يرجعون . الى متى تتبعون الظالم العاصي وتحاربون معه . اختم الله على قلوبكم فانتم لا تعقلون ام لا تدرون بانكم تلقون بانفسكم الى التهلكة وتخاطرون بعيالكم واموالكم وبلادكم فارجعوا هداكم الله واتقوا ربكم واطيعوا اولياء الامر منكم فانهم بامر الله يحكمون وهم ادرى منكم بمصالحكم . لا تزيدوا ضلالاً وغياً فكل يوم من جهلكم وعصيانكم يكلف البلاد ما لو علمتموه لارتدعتم وعدتم الى الله تائبين

وقال في ٢٤ اغسطس من مقالة تحت عنوان العثمانية ومصر ما دل على حذره منذ الساعة الاولى من مطاولة الانكليز خصوصاً عند قوله « من يعرف ما سيتخلل ايام الاحتلال من تقلبات السياسة » ليحمل الدولة العلية على ارسال النجدات الموعودة قبل فوات الفرصة

يصعب والله علينا ان نحلّ رموز سياسة الدولة العلية في مصر خصوصاً بعد ظهور عرابي وقد اجمع كتاب اوربا ان رجال العثمانية لا يبارون في فنون السياسة ولكن عندهم مبدأ التطويل الذي اذا حسن مرة ساء مراراً

ولولا ذلك لكانوا الاولين في معرفة دهائها واساليبها . انظر الى مسألة التداخل العسكري التي لو تمت بوقتها لاراحتنا والبلاد من مصائب العصاة الطغاة الذين دمروا هذا القطر السعيد وعطلوا سبل اعماله . والاغرب من ذلك ماكنا نراه في بعض جرائد الاستانة من الجمل الرنانة مدحاً لعرابي واستحساناً لاعماله ولكن ذلك اكد لنا عدم معرفة اولئك الكتاب حقيقة المسألة فكتبوا ولكن على جهل

لا انكر ان التأني واجب ولكن على شرط الحزم في العمل الامر الذي تقوم به سطوة المملكة ويعتز به شأنها . أليست انكلترا هي التي طلبت الى الحضرة السلطانية ان تتداخل عسكرياً . أليست الدولة البريطانية نفسها هي التي اقنعت فرنسا بذلك . انظر كيف اضر التطويل فان انكلترا بعد ان رأت تردد الحضرة السلطانية نزعت الى العمل بنفسها واخذت تقترح على الدولة العثمانية اقتراحات عنيفة في شأن التداخل ولا تزال المخابرات جارية ولا نعلم متى يتم الاتفاق واذا تم فلا يبعد ان يكون بعد تبديد شمل العصاة وحينئذٍ تقول انكلترا لا حاجة الآن لهذا التداخل وقد سحقنا قوة العصاة واحتللنا جميع نقط البلاد . فماذا نكون استفدنا من هذا التطويل ونحن نرى انه كلما طال الامر انعكست النتيجة

الاسراع الاسراع فهو ضروري جداً . ولنقل ان الجيش الانكليزي ينتصر على العصاة قريباً وان انكلترا لا تقصد منفعة شخصية في قطرنا ولكن انجلي عنهُ الا بعد تأييد سطوة الحضرة الخديوية وانتظام قوة تحفظ الامنية والراحة قل لي ايمكن الحصول على هذه القوة قبل اشهر . وهنالك امر اهم اذمن يعرف ما سيتخلل ايام الاحتلال من تقلبات السياسة واذا كان الامر كذلك افلا

يكون من مصلحة الدولة العلية ان تشترك بهذا الاحتلال ولو ساءتها اقتراحات دوفرين من وضع الجيش العثماني تحت قيادة الجنرال وولسلي الانكليزي

لا يجب ان نكل امرنا الى اوربا فهي في المؤتمر القسطنطيني لم تغير من شروط انكلترا شيئاً وهي نفسها بصمتها صدقت على اعمال هذه الدولة وتداخلها العسكري في مصر وهي بعينها تعضد اقتراحاتها بخصوص الاتفاق الحربي وهذا الامر جار في عاصمتنا على مرأى منا ونحن لا نزال مترددين نخطو الى الامام خطوة ونرجع الى الوراء خطوات

الاسراع الاسراع فان الحكيم من نظر الى غده واستفاد من امسه وانا نؤمل ان نرى من رجال دولتنا حزماً في اعمالهم فيتقدمون بثبات ويشتركون مع الانكليز في اقتلاع هذه الروح الفاسدة التي بثها عرابي واعوانه فان مصلحتنا الحرة تطلب الينا ذلك وانا نهزأ والله من اولئك الذين يرون بالحركة المصرية خدمة للدولة العلية بل كل عثماني تفحص الامر باخلاص تبين له عكس ذلك فانا في زمن يستلزم تأييد الوفاق وعرابي عامل على شق عصا الاتحاد وقد نبه اوربا الى امور كان عدم ظهورها أولى لنا

الاسراع الاسراع فان الوقت ثمين وصرنا نؤمل قرب الاتفاق لما نعهد من سهر الحضرة السلطانية ورجالها العظام على مصلحة الامة والوطن وانا بلسان العثمانيين عموماً والمصريين خصوصاً نطلب الانتقام من عرابي الذي ولد للشرق مسألة جديدة وسبب احتلالاً اجنبياً فضلاً عما رزئت به البلاد من الفتن وبليت به الاهلون من المحن

وقال في ٧ ستمبر

{مصر للمصريين}

كلمة حقة لو ادرك المصريون ما تحتها من مبادئ الحكمة لتوصلوا بها الى درجات الترقي ونالوا بالتأني والتروي فوائد غزيرة تعود على البلاد بخير المعاد . ولكن فريقاً منهم وفي مقدمتهم عرابي العاصي ساقهم الغرور الى اقصى الجهل فتطرفوا وحوّلوا معنى الكلمة الى غير ما أريد منها فتأبطوا شرّاً وشطوا عن الطريق السويّ وظنوا ان بلوغ المنى بطرد الاجانب واغتصاب ما ملكت ايديهم من رزق وغنىً فبثوا في انحاء القطر روح الفساد وبعثوا برسولهم نديم يوعز بالاتحاد ولكن ضد الحكومة الشرعية وبالاتفاق ولكن على العصيان وارتكاب الجرائم

وهكذا لم تلبث هذه العصابة ان ظهرت في عالم الوجود حتى قامت تنادي بما اسرّت من سؤ النية . وتوهمت ان لا طاقة للدول على اكراهها ففعلت ما فعلت وتوغلت بارتكاب المعاصي حتى تأكد لدينا — على ما جاء في جريدة فانفولا الايطالية — انها اتخذت كلمة {مصر للمصريين} بمعنى (فليخرج الاوربيون من القطر المصري)

اما انتم يا نبهاء القوم وعمد البلاد فلا يغرنكم جهل عرابي واعوانه بل تبصروا في عواقب الامور واعلموا ان البلاد محكوم عليها بوفاء الدين آجلاً او عاجلاً وان الحق يعلو ولا يعلى عليه

واذا كنتم تحبون وطنكم محبة حقيقية فبرهنوا على ذلك بالاخلاص لامير طاهر الذيل عادل الاحكام وساعدوه على استئصال الشرّ من ارضكم والقائه

عنكم بعيداً لتكونوا في عداد الشعوب المتمدنة وتتوفر لكم اسباب الفلاح والثروة وتنالوا المجد والسؤدد وتعيشوا العيش الرغد وتملكوا حق التصرف بما لكم اذ تحسن ادارتكم وتروج صناعتكم وتنمو زراعتكم ويتسع نطاق اشغالكم وتحفظون استقلال بلادكم والامتيازات التي اختصتكم بها الفرمانات السلطانية وصدقت عليها الدول الاوربية

وافقهوا ان ما دفع الاجانب الى التداخل باعمالنا — دع عنك ذكر الماضي فقد كانت لهُ اسباب ومسوّغات انتجها سؤ الادارة — لم يكن الا انكار اعمالهم بما ينافي شرائع الانسانية والمدنية والعمل على اضاعة حقوق الغير ومس مصالحهم المقررة . أوَ ليس عرابي واتباعه هم الذين اتوا هذا المأتى وجلبوا على الديار واهليها عاراً لا يمحى الا بانكار اعمالهم والابتعاد عن مجالستهم فما بالكم — أريد البعض منكم — لم تزالوا تتبعون اراءهُ الفاسدة وانتم تعلمون ان مثل هذا العمل يعود على البلاد عوداً غير محمود ويزيد في نفوذ الاجنبي وتمكنه

على ان جميع ذلك لا يكون شيء منهُ ان نبذتم الغرض والميل الاعمى ووثقتم عرى الائتلاف والمودة مع الاجنبي وسواه وتلك هي مبادئ التمدن وهذا هو القائد الامين الى ما ترتجون . وعليكم بالاصلاح فاصلحوا شؤونكم وكفروا عن سيئات لحقت بكم بسبب العاتي المتمرد واخفضوا جناحيه واقبضوا عليه وائتوا به الى حاكمكم الشرعي لتقضي عليه العدالة كما قضى عليه جلالة مولانا الخليفة امير المؤمنين

حديث مع الجنرال ولسلي في ٥ اكتوبر

نقتطف من هذا الحديث ما يأتي

قلتُ — وهل تبقون طويلاً عندنا

قال — قد أمرت بان اتوجه الى لندن باول فرصة وعليه فسابرح القطر عما قليل

قلت — وهل يبقى الجيش كلهُ عندنا

قال — لا ولكن يلبث قسم منهُ فقط

قلت — وهل الى امد بعيد

قال — لا بد من ان يصرف الشتاء القادم ولعلهُ يلبث اكثر من هذه المدة لتعلق ذلك بالظروف

قلت — ولعل ذلك يتعلق بالسياسة ايضاً

قال — ان السياسة تخص اربابها وما غاية دولتنا الا استتباب الامن في قطر هو اهم نقطة لمصالحها وذلك لا يتم الا بتأييد سلطة الحضرة الخديوية الفخيمة

قلت — ان البلاد لم ترَ العدل الا في ايامها والرغد الا باحكامها

قال — وانهُ يحق لسوى هذا القطر ان يحسد مصراً على امير طاهر الذيل شريف الغاية

قلت — وهل تطيل السياسة حل المسألة

قال — ما دامت النية سليمة كانت العاقبة اسلم وكان الوقت قصيراً

قلت — وهل عرفت وزراءنا الكرام

قال — عرفت صاحبي الدولة شريف باشا ورياض باشا وكلاهما نبيهان وطنيان حقيقيان

قلت - وكيف رأيت الاهلين

قال — ودعاء ينبغي ان يسهر الحاكم عليهم وان يرشدهم ويهذبهم ويقودهم الى النقطة المرغوبة

وهذا ما قاله بعد صدور الحكم على عرابي بالقتل واستبداله للحال بالنفي في ٤ دسمبر وكان يومئذ بمصر

بسطت لكم في رسالة امس تفصيل محاكمة عرابي التي تمت في جلستين استغرقت اولاهما خمس دقائق وثانيتهما عشراً وجملة ذلك خمسة عشر دقيقة ولا شك ان حضرات القرّاء قد وقفوا على تفصيل هذه المحاكمة الغريبة وليس لي ان اعرب لكم عن التأثر الذي اصاب اهالي العاصمة فلكم ان تعلموا هذا من تأثر اهالي ثغركم وذهولهم فالحكم في الامر واحد

واني لازيدهم استعداداً للذهول باعلاني لهم ان ستجري يوم الاربعاء القادم محاكمة اربعة آخرين من روساء العصيان وهم رئيس الوزارة العاصية وطلبت عصمت وعبد العال حشيش ومحمود فهمي . واذا قلتم لماذا لم تتم محاكمة هؤلاء الاربعة يوم الاثنين او الثلثاء دون هذا التأجيل . أجبت ان اهمية الموضوع والتدقيق الكلي في المحاكمة الفائتة قضيا بوجوب امتلاك وقت كاف للاستراحة يومين او ثلثة

واظن بل اؤكد ان ستكون نتيجة محاكمة هؤلاء الاربعة كما كانت نتيجة المحاكمة الفائتة . ويوم الخميس او يوم السبت تجري المحاكمة الثالثة على الاربعة الباقين وهم علي فهمي وعلي الروبي ويعقوب سامي واحمد عبد الغفار . واتصل بي ان هؤلاء الثمانية مع رئيسهم عرابي تقرر نفيهم الى جزيرة على

مقربة من كلكوته وهي منفى المجرمين السياسيين وسيذهبون اليها مع عائلاتهم فيؤلفون هنالك مستعمرة مصرية عاصية

واما النفقات اللازمة لهؤلاء فقد اتصل بي انه اذا اخذت الحكومة املاكهم عينت لهم ما يقوم باودهم والا فايراداتهم كافية لهم وهو امر قد تقرر في عالم الغيب وسيظهر الى عالم الفعل عما قليل . اما تفيهم فسيتم في مدى هذا الشهر دون ريب ولكن لم نعلم الى الآن هل يحفظ عرابي رتبته ونياشينه ام لا . وبودنا ايضاح ذلك لكي لا يفوتنا امر يوجب الدهشة والتعجب

واني لا ادخل في هذا المقام بالنسبة الى عدل العمل وحق الحكم بالنظر الى نفي هؤلاء الجماعة او عدمه ولكننا كنا نود الوصول الى ذلك بغير هذه الطريقة رعاية لحرمة الشرع والقانون وشرف الحكومة الانكليزية والمصرية ويقيننا ان جرائد اوربا ستبسط الجمل المسهبة المؤيدة حقيقة ما ابناه والمدربة عن حكم الرأي العام بذلك

سنة ١٨٨٣

الفلاح ودائنوه

من تصفح هذه المقالة رأى كيف كان الفقيد اول من شرح حقيقة مصائب الفلاح ودل على ضرورة انشاء بنك اهلي قال

ضمنت في رسائلي مراراً تلميحات وايضاحات صريحة عن حالة الفلاح الراهنة والدين العظيم الذي يتناول قسماً كبيراً من المزارعين واخصهم ذوو

الحال الرقيقة واستدعيت التفات الحكومة السنية الى مداواة هذا الامر قبل سواهُ لأهميتهِ التي ان لم نشعر بها حالياً فمستقبلاً وحينئذٍ يعزّ الدواء وييأس المريض فتضيع حالتهُ ويتناب الحكومة خسائر باهظة لا تقدر. بيد اني عندما قرات في الاهرام عن مجمل الدعاوى المقدمة على الفلاح انتهزت الفرصة لكتابة الجملة الاتية أمل ان نقع لدى رجال حكومتنا موضع القبول وبودنا ان يقراءوها بتأنٍ ويلتفتوا اليها بامعان فان الغاية هي الاصلاح ليس الاّ

قضت الواجبات على كل حكومة ان ترى في حالة الرعية وتنظر الى نقطة الاقتصادلتكون انموذجاً لافراد الاهلين وكان ذلك في البلاد المفتقرة الى العلم والمال الزم منهُ في البلاد المتمدنة ولهذا ترى الفلاح الفرنسوي مثلاً في اقصى ناحية من بلادهِ يعرف مجرى التجارة ويراقب حركة القراطيس المالية ومتى وفر عندهُ مبلغ اشترى بهِ قراطيس وخزنها في صندوقه

اما في شرقنا فلا نرى لذلك اثراً ليس عند الفلاح فقط بل عند غالبية كبار القوم فانك تشاهد زيداً مؤسراً عظيماً يملك عدّة افدنة ولهُ ايراد متسع ولكن لسوء تدبره لا يقتصد درهماً والابناء يقتفون اثر الاباء فلا يبقون على نفس اصل المال. وترى عمراً اذا تمكن من توفير مبلغ وتقدّم لمشترى اطيان كانت قيمة ما يشتريه اكثر مما تملك يده فيقترض بالربا الفاحش ولا تمضي عليه سنون حتى يضطر الى بيع ما ابتاع في حين يبقى مديناً وهو امر واقعي كثر ما حدث مع ذوي بيوت المجد والكبار الذين لا يجهل حالتهم احد = ولا عجب اذا وقع الفلاح في الحفرة نفسها وهو جاهل أمي لا مرشد لهُ ولا مدبر = وهذا هو سبب فاقتنا وعلة تأخرنا مادياً وادبياً وفي هذا المقام لا طبيب ينجع

دواؤه الا الحكومة اذا التفتت الى بنيها التفات الام الحنون

واذا قيل لمَ هذا الفائض الجسيم وفي اوربا لا اثر له قلت ان البلاد تتعامل بحسب حالتها ففائض فرنسا غير المانيا وفائض هذه غير الروسية وكلها بلاد متمدنة وفضلاً عن ذلك فانه عند حصول كساد في سوق اغنى واثرى بلاد في العالم (فرنسا) نرى معدل الفائض فيها مضاعفاً فكيف لا يكون ذلك في الشرق وحوادثه مستمرة وتقلباته سريعة . نتج من ذلك ان التاجر معذور والفلاح جاهل وان لا مداوي غير الحكومة

ومما يذكر في هذا الصدد ايضاً انا نرى زيداً مديناً لبكر بمبلغ يوازي ثمن ارضه فيغافل دائنه ويرهن ارضه عند آخر ولا ضمير ليبكته على سوء فعله . ونرى عمراً عليه ضعف ما تساوي قيمة ارضه وهيهات ان يقف عند حده . نعم ان مثل ذلك يحدث في بلادٍ اخرى ولكن هيهات ان يذكر لندوره

والذي نعلمه في الحالة الراهنة ان على الاهالي ما يزيد على ١٢ مليون جنيه استمرارها الى سنين يزيد في القيمة ملايين ويسيء امور التاجر دون ان تحسن حالة الفلاح فتتداوها الحكومة بما يخفف ويلاتها

ومتى تم للحكومة هذا الامر اعملت الفكرة في انشاء بنك اهلي ذي رأس مال عظيم يشترك فيه ارباب المال من وطنيين واجانب ويؤسس على مبادىء ثابتة كالبنوك الوطنية الموجودة في الفلاخ والبغدان وسواها من الممالك الصغيرة (وهنا لا اتمثل ببنك فرنسا او انكلترا) وتدعو الفلاح الى الاقتراض وتلقي المسئولية على عمد البلاد ومشايخها اذا اغتالهم المزارعون او هم سابقوا ذلك بالاتفاق مع بعض التجار وبهذه الواسطة تروج المعاملة ويتقاسم

التاجر والفلاح فوائد الاكتساب وترتفع اثمان الاطيان كثيراً وتتأيد الثقة ويكثر الدرهم ولنا في تذكر السنة الثمانين اكبر برهان فقد رأينا الاطيان زادت خمسين بالمئة ولولا الحوادث الاخيرة لتضاعفت قيمتها فهل بعد هذه البراهين الدامغة التي ترضي جميع الفئات اسباب توجب التردد واني استدعي العارفين في هذا الموضوع ان يخوضوا عبابه واكون لهم من الشاكرين اعترضوا او ازدادوا في الايضاحات

السودان

في ٨ جونيو

هي اول مقالة له عن السودان في مبادئ ثورته الشهيرة وفيها دليل عجيب على صحة الرأي واصابة النافذة

وعدتكم في احدى رسائلي السالفة بموافاتكم بالشرح المسهب عن السودان واحوالها فاقول

كل بلاد افتتحت تقضي على المفتتح بواجبات تختلف مبدئياً بحسب اختلاف مواقع البلاد وطباع اهليها واحوالهم فالبلاد المتمدنة مثلاً لا تحتاج الى قوة جرارة تحفظها ولا تستلزم الا زيادة السهر والتيقظ على رفاهية الاهالي ودقة النظر الى حركاتهم وسكناتهم ولا سيما اذا كانوا على غير مذهب الفاتح حسماً لما ينشاء هنالك من المصاعب الوقتية اما البلاد غير المتمدنة فتختلف فيها واجبات الفاتح فهي في المسطحة الاراضي منها واهلها يحبون السكينة والعيشة الهنيئة غيرها في بلاد جبلية تعود اهلها شن الغارات ولم يعرفوا الطاعة الا لاهوائهم ومطلق ارادتهم وهذا حكم بلاد السودان

افتتحت الحكومة المصرية بلاد السودان ونشرت سلطتها في ارجائها ولم تنظر الى ما هنالك من الواجبات وهي على ضربين احدهما وضع قوة جرارة مبدأها الاستبداد والقاء الرعبة في قلوب الرعية والثاني اصلاح الشؤون وتوفير وسائط التعيش واسباب المدنية والحضارة وتوطيد الامن وتمهيد السبل الخ

روعي بادىء بدء القسم الاول وهو الاستبداد المفرط تعضده قوة كافية ولكن ذلك اخذ بالانحطاط والانحلال يوماً عن يوم دون ان ينظر الى القسم الثاني من الواجبات

ولقد زاد الحالة انحطاطاً ان السودان جعلت منفى للمغضوب عليهم والمكرهين فلم يرسل اليها في ذاك الحين حاكم او مدير او قومندان عساكر الا ممن لم ترضَ عنهم الحكومة وهكذا تجمع مالكو الزمام من طغمة واحدة وطبقة متساوية واذا فرضنا ان بينهم من نبي بدون حق وكان ذكياً نبيهاً فمركزه بل تأثره النفساني منعهُ من الالتفات الى المصلحة العمومية

واستمرت الحال على هذا المنوال الى ان عين حضرة غوردون باشا حكمداراً ولكن رفق تعيينهُ صدور دكريتو بالغاء الاتجار بالرقيق فابتدأ حضرة الحكمدار بانفاذ مآل الدكريتو ثم تدرج الى عزل الموظفين اصحاب النفوذ واستبدالهم بآخرين حدثاء لا معرفة لهم بالحالة ولا هم ذوو اهتمام في اصلاحها وفي الحالين حسب المرمى

ولست اقصد بقولي مضادة منع الاتجار بالرقيق ولكن كان من المقتضى ان ينظر في تعويد الاهالي على الاتجار بغيره لان البلاد لا اطيان فيها مستعدة ولا تجارة لاهلها الوطنيين الا بالعبيد والمواشي . ولقد نتج عن ذلك ان زيداً الذي كان ايرادهُ اليومي ٥٠ فرنكاً بات فقيراً لا يملك شروى نقير ومع

كرور الايام وعدم الاشتغال تمكنت الضغينة وقويت في ضمائر غير المرتضين بمعيشتهم ومالت بهم الاهواء الى الهياج والثورة

واذا قال سائل « ولمَ لم تظهر الثورة على عهد حكمدارية حضرة غوردون باشا او قبله » اجبنا ان حفظ البلاد في بادىء الامر من كل ثورة نتج من ان الزمن كان قريباً من عهد الفتوح والرعبة مستولية على اطراف البلاد وفضلاً عن ذلك فان ما يكمن بالضمير لا يظهر على الفور بل تسوفه الايام الى حين ويتأصل

ولما ان فعلت النماقة فعلها واحدثت وتسمية عمال البلاد من رجال مغضوب عليهم تأثيرها ازداد الارتباك وشبت نيران الثورة في احدى النقط ولم يتدارك امرها لملافاتها (وهو خلل تعودناه) فامتدت وتشعبت الى الانحاء القريبة والبعيدة ولما استفحل الخطب وعلت الصعوبات وعظم شأن المتمهدي واستمال اليه القوم العديدين بقوله لهم « ان منع الاتجار بالرقيق مضاد للشريعة والظلم حط قواكم وافقدكم مالكم فاتبعوني انشلكم من وهدة الفقر فالمال وكل ما تكسبه اياديكم حلال لكم » ونمت عصبته ونفذت كلمته انتخب للحكمدارية صاحب السعادة عبد القادر باشا وهو متوقد الذهن صادق الخدمة حر الضمير عارف حقوق الادارة والفنون العسكرية شجاع مدبر عفيف النفس وديع الجانب فذهب على الطائر الميمون بعد ان تلقى من سمو الخديوي التعليمات اللازمة ولكنه لم يبرح سواكن حتى وقعت سنار تحت الحصار وكوردوفان في قبضة المتمهدي وقطعت المواصلات مع دارفور

واذ وصل الى الخرطوم شاهد فيها ثلثمائة عسكري لا غير وهو خبر صحيح عرفناه عن مكاتبنا الحربي الخصوصي الذي رافق سعادته وصرف في تلك الجهات اشهراً وعرف احوالها ووقف على خوافيها وظواهرها وبعث الينا

برسائل بعضها نشرناها وبعضها قضت عليها الحوادث العرابية بان تطوى على ان سعادته لم يمنعه كل ذلك من المبادرة الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة ولكن هذه الاحتياطات لم يساعدها الدهر بل ابقاها دون نتيجة مهمة اعمال تلك الفئة العاصية التي ظهرت في القاهرة وقطعت المواصلات بين السودان وحكومة مصر الشرعية واستمرت هذه الحالة السيئة الى ان انقضت الحوادث وانحلت المشكلة وتوطدت سلطة الجناب الخديوي .

وكان في هذا الحين سلاح حضرة الحكمدار حزمه وتدبيره فانه بهما قهر المتمهدي وقومه وأوقف سيرهم وبنفر قليلين زحف عليهم مخاطراً بنفسه وردهم عن سنار التي لو تأخر عن القدوم اليها لوقعت في قبضة الاشقياء وبدد شملهم وسوَّر البلدة وحماها من كل طارق

واذ ثبتت قدمه ووصلت اليه طلائع النجدات التي طلبها واخذ بالاستعداد للهجوم والتوغل في كوردوفان وتأثر المتمهدي الذي لم يكن يبعد عنه وقتئذ اكثر من ثلاثة ايام وفد عليه الامر بالتوقف وعين خلف له فقفل راجعاً الى مصر

رحلة الاستانة

قال في رسالته الاولى بتاريخ ٢٤ اكتوبر

كانت المسألة المصرية حجر عثرة بين الدولتين العلية والانكليزية اما الان فصارت على وشك الزوال حيث صممت انكاترا على سحب عساكرها من القطر المصري ولذلك صار من المنتظر ان تتوطد الصلات وتحسن السياسة بينهما وتبقى الامنية سائدة في البلاد المصرية

ومن ينكر فوائد انجلاء العساكر الانكليزية الذي يترتب عليه رضا الدول عموماً واهالي القطر المصري خصوصاً بل ان ذلك خير الوسائل التي تحفظ للانكليز اثراً مأثوراً لدى المصريين حيث تفضلت على بلادهم باعادة الامن اليها وكبحت جماح العصيان ثم تخلت عن البلاد كرماً من عند نفسها وهذا افضل دليل لدولتنا العلية على اخلاص الانكليز الذين اذا قرنوا تصريحاتهم بالعمل وكان ما يدعونهُ من حب خير البلاد وبث الامن في ربوعها لاريب فيه فانهم يكتسبون ثقة دولتنا العلية ورعاياها المصريين ومن كان في حوزة الدولة الانكليزية في الهند من المسلمين

ومن المعلوم ان مركز انكلترا في مصر عظيم الاهمية يتولاه رجال عظام مشهورون بعلو الهمم ووفرة الاطلاع نذكر من بينهم الوزير الخطير الماجور بارنج فاننا عرفناه رجلاً حاذقاً نشيطاً صادقاً والجنرال وود باشا والجنرال باكر باشا والمفتش الحالي صاحبُ الذكر الحسن في دوائر الاستانة العلية وكفى به تعريفاً انهُ تلميذ الرجل الاقتصادي الشهير جوشن . اما تضارب اراء الجرائد الانكليزية فهذا مما لا يعول عليه ولا يلتفت اليه فان القول والمشوره لرجال الدولة وزعيم الصولة المستر غلادستون . ونحن على يقين من ان انجلاء العساكر الانكليزية لا يوجب فقدان الامنية كما يدعيه البعض فان رجال الحكومة المصرية من اشد الناس حرصاً على الراحة العمومية ويعضدهم على تعزيز شأنها وجهاء البلاد وذواتها العالمون بان الخلل موجب للخطب الجلل

وهذه مقالته الاخيرة من الاستانة في ١٥ نوفبر

لو اردنا تعداد اللوائح والتقارير والمسائل الموضوعة تحت المداولة في

مجلس الوكلاء الفخام والموجود منها في سراي يلدز للمصادقة لما استطعنا لها حصراً ولا عداً . وكنت اود الاسهاب في هذا الباب وأبين للقراء ماهية بعض المسائل وكيفية المداولة فيها ولكن ازف وقت الترحال واصبحت على اهبة السعر فحال ذلك دون المرام على اني وان برحت دار الخلافة فلا اجد بداً من بسط المعلومات التي وقفت عليها على امل ان تتنبه الخواطر اليها وتصادف نصيباً من الحل والابرام

ولا اتكلم الآن الا على مسألتين مهمتين يتوقف نجاح المسائل الآخر عليهما الاولى مسألة الامن والثانية اصلاح الادارة وكلتاهما ضروريتان جداً ولا تقوم الواحدة بدون الثانية ولا يمكن ادخال الاصلاح قبل وجودهما . وينبغي لنا ان نبين اسباب عراقيل النجاح الواجب ان نتداركها في بداية الامر فنقول

لقد علمنا بالاستقراء ان مادة نجاح الامم ووسيلة تقدم الدول انما هي الاصفر الرنان لانهُ الوسيلة العظمى لانجاح الممالك وتأييدها وبدونه لا تستتب أمورها ولا تتعزز مكانتها . وهل من ينكر علينا قولنا ان الدول الاوربية ما بلغت الدرجة العليا التي نشاهدها فيها الا بمادة الثروة فانها مكنتها من القيام بالاعمال العظيمة المشتركة فوائدها بين كثيرين من ابنائها وبالتعاون والتوازر آل امرها الى النماء والاثراء فحسنت حالها وساءت احوالنا

فاذا علمت ذلك وعلمت ايضاً ان الخزينة العثمانية فارغة فلا شك انك تسلم بعدم امكان ضبط الميزانية الا اذا تحسنت الادارة تحسناً يمكن معهُ احكام جباية الاموال وحفظ الايرادات من عبث الايدي والقيام بالمشروعات العظيمة

التي تسهل سبل الاتجار وتوفر الصنائع في داخلية المملكة الى غير ذلك مما تعود فوائده على الدولة والامة معاً

ولاجل الوصول الى هذه الغاية يلزمنا ان نمعن النظر في المسائل الحالية الموضوعة تحت المخابرة بيننا وبين الدول العظام فانها مهمة في الغاية ويحسن بنا ان نتخذها كمبداء للعمل فاذا فعلنا ذلك خطونا اول خطوة نحو النجاح

نرى الدول جميعهنَّ على اختلاف مصالحهنَّ يتألبنَّ ضد الدولة العلية اذا كان لواحدة منهن ارب في امر متعلق بنا واليك مسألة الطونه وسكة حديد الروملي وغيرهما فقد رأينا الدول ساعية في عرقلة مطالب الباب العالي حباً بتنفيذ قصد واحدة منهنَّ وان كان قصدها غير عادل . ومصلحة البآنته التي مرت عليها الايام والاشهر الطوال وهي ما زالت تحت المخابرة والمداولة وما برحت بعض الدول متعللة رافضة ولا انسى ايضاً ان المعاهدات التجارية لم ينته امرها بعد والله اعلم متى يكون النهاية منها

وكان واجباً على الدول ان تساعد العثمانية وتسهل عليها الطرق والا كيف تصرح باخلاصها لنا ورغبتها في نجاح امورنا ما دامت هذه افعالها. وليتها اكتفت بذلك بل انها تطلب اصلاح الادارة في داخليتنا وتندب سوء حالة اهالي في بعض انحاء المملكة الذين نهكهم الفقر واضر بهم وتوقف الحال

نتج والحالة هذه ان تاخيرنا متسبب عن عراقيل كثيرة داخلية وخارجية لا نقوى على تمهيد عقباتها الا بالحزم والاقدام ليس الا وان الاحوال الشرقية والاصلاحات لا تستلزم رجالاً فلاسفة عقلاء كما يزعم البعض فانها واضحة ودواؤها موجود عندنا وعلينا ان نسير على قدم من تقدمنا من غير ملال ولا ضجر والله مع الصابرين

ولا ريب ان الدول الاوربية عندما تشاهد اقدامنا تحول عن وجهتها المعهودة وتساعدنا على اصلاح شأننا وان لم يكن ذلك منها من قبل حبها لنا فمن قبيل صيانة مصالحها المتعلقة بنا . وهذا ما يضطرني الى استلفات أولي الامر ليكونوا يداً واحدة في تشييد مباني الاصلاح معتصمين بالثبات فيخدموا وطنهم الخدم الجليلة التي ينتظرها منهم بفروغ صبر وينتني من الاذهان ما خامرها من اليأس والقنوط

سنة ١٨٨٤

قال في مسئلة الجلاء من مقالة له نشرت في ٣ يناير وهي المرة الثالثة التي ابدى فيها مثل هذا الرأي مع قرب العهد بالاحتلال

ان ما أشيع منسوباً الى مقاصد الحكومة الانكليزية من عزمها على وضع البلاد تحت حمايتها يعد محض اختلاق وارجاف يعزى امرهما الى اولي الاغراض النفسانية الذين آلوا على انفسهم الا ان يبثوا الاباطيل والاضاليل تشويشاً للافكار — واني اسال القائلين سوءًا بالدولة البريطانية عن غير روّيه ما الذي أوقف هاته الدولة عن اجراء هذا القصد بعد موقعة التل التل الكبير — وكيف ساغ لهم القول بعد ما شاع وذاع من المطالعات الرسمية التي حصلت في الاسكندرية بعد اطلاق المدافع واحتلال الانكليز فيها حيث اتفق الاميرال سيمور مع الحكومة السنية على ان يطلب الى عرابي واعوانه بان يبارحوا القطر مع بقاء رواتبهم ورتبهم عليهم ويحل عقد الجيش وقد حصلت المخابرة البرقية بهذا الشأن فرفضه عرابي بكل وقاحة . فلو قبل

عرابي الطلب في ذلك الحين لما رأينا الجيش الانكليزي محتلاً القطر ومن الخطإ المبين ان نسيء الظن بمقاصد المستر غلادستون وحسن اخلاصه الم يقرر انجلاء الجيش وصدر الامر الى قسم منه بالرجوع ولولا مسألة السودان لحصل فعلاً . فاذا تحققنا ذلك أيجوزلنا ان نلوم وزارة المستر غلادستون لا لعمري . وبناءً عليه لا يلزمنا ان نعلق على اذهاننا ما تذيعهُ جرائد المحافظين الذين لو امكنهم لامتلكوا العالم باسره

ولكن معرفتنا هذه لا تجعلنا نكل امورنا الى القضا والقدر فانهُ اذا كان حزب الاحرار هو السائد الان فلا يمنع من سيادة حزب المحافظين في الغد وما زلنا ممتعين بالوقت الكافي لقضاء الارب فان هذه الفرصة تدوم لنا الى سنة ١٨٨٥ فعلينا ان نشتغل بها بجد واجتهاد لنصلح شؤوننا ونبدل حالتنا هذه باحسن منها ونبرهن على اصابة رأينا واستقلالية افكارنا هذا اذا كان قصدنا منصرفاً لانجاح الوطن والا فلومنا علينا . وانني اكرر ما قلتهُ مراراً من ان الغربي من اية جنسية كان يود التداخل في الاعمال الشرقية وهذا طبيعي فان رجال التمدن الذين يتحملون مشاق الاسفار من بلادهم الى الشرق الاقصى للكسب والسعة يفضلون البلاد الغريبة خصوصاً التي تكون خصيبة ومع ذلك لا نجد حكومة اجنبية تداخلت من تلقا نفسها بل كنا نسهل لها سبل التداخل ونفتح الابواب فتدخل من غير حرج ولنا على ذلك ادلة وبراهين لا ينكرها الا المكابر

وقال في ٨ يناير حين طلبت الوزارة الانكليزية سلخ السودان عن مصر واستقالت وزارة شريف

من لم يعرف الحوادث من مقدماتها لم يعرف كيفية التدبر بعواقبها وغاية مراده منها وهيهات ان يصل امكانه الى ما يعوض خسارته او يرد ما فات ولكن الله على كل شيء قدير

في الليلة البارحة توجه حضرات النظار الى سراي الاسمعيلية يتقدمهم دولة الرئيس شريف باشا ولما وصلوها صعد دولته اولاً وقدم لسموه رقيم الاستعفاء ثم تبعه بقية النظار وقدموا استعفاءهم ايضاً ومكثوا لدى سموه برهة ثم انصرفوا بعد ان قبل الجناب العالي استعفاءهم ولكنه طلب اليهم ان يستمروا محافظين على مراكزهم مواظبين على اشغالهم الى ان تتشكل وزارة ثانية جديدة

اما الاسباب التي حملت حضرات النظار على الاستعفاء فهي ان حكومة مصر ترى انه من الممكن المحافظة على املاكها السودانية بواسطة خمسة عشر الف جندي ليس الا وان الحملة التي ارسلتها اولاً مع ما سيتبعها كافية لادارك الغاية وان التخلي عن السودان مضر بمصلحة مصر سياسياً وتجارياً وفي حال تخلي مصر عن السودان تقفل بيوت عديدة تجارية شهيرة في القطر ولا ترى الحكومة موجباً لترك الخرطوم وسواها من المدن الخاضعة والتي لم يحصل فيها شيء من الهيجان وحاميتها قادرة على حفظها وصونها وان حكومة مصر لا يمكنها ان تقبل مطلقاً بتلغراف اللورد غرانفيل القائل بوجوب (قبول كل نصيحة انكليزية بدون تردد وان كل ناظر لا يكون مشربه انكليزياً لا يصح وجوده في النظارة) فهذا مناقض لنص الدكريتو

الخديوي الصادر في ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨ القائل بان الوزارة مسئولة امام الجناب الخديوي مطلقاً وبناءً عليهِ فلا تستطيع الوزارة الحالية قبول ما ادعته الوزارة الانكليزية · وهذه هي الاسباب التي حملتها على الاستقالة فقدمت استعفاءها الى الجناب الخديوي كما قدمنا اولاً

ولا ريب ان هذا الاعتذار مملوء حكمة صادر عن مبادئ وطنية حقيقية لا يرتاب فيها واني لا اعود في هذا المقام الى ذكر الماضي وما كان ينبغي عملهُ من اشهر مضت وانما اقول انا نجهل الاسباب التي دعت الوزارة للمجاوبة على هذه اللائحة قبل الوقوف على افكار مجلسي شورى القاونين وشورى الحكومة وهي التي رأت ان تعضد هذا الدستور أما كان يجب عليها ان تستشير المجلسين المذكورين ام الاعتماد في الشرق على القانون بان يصدر الامر بهِ بصرف النظر عن خصائصه وتأثيره وهي مسألة لا يمكنني غضّ الطرف عنها ولا اطوي الكلام عليها واني لاعجب والله لسكوت المجلسين عما تقتضيهِ واجباتهما وعدم ابداء ارائهما في مسائل هي اهم المسائل المصرية بل هي عين حياة مصر السياسية

او ليس ينبغي للدائن ان يتخذ افضل الوسائل للحصول على دينهِ عندما يرى مدينهُ محاولاً عدم الدفع والمماطلة . وما اشبه حالة المجلسين بالدائن فلمَ لا يبحثان عن خصائصهما مع تغافل الحكومة عنها منهما او لم يشكلا بامر خديوي وايعاز حكومة انكلترا والا فما فائدة تشكيلهما ولاي سبب كان ذلك فقد اصبحا الان ملومين من الوطن مطالبين لدى الرأي العام وهل في الامر سر سينكشف النقاب عنهُ فنعرف ما لنا وما علينا منه ام نعود قائلين انا لله وانا اليهِ راجعون

ولقد طالما كتبت واشرت بوجوب عقد جمعية عمومية تجمع هذين المجلسين تؤلف من اخص الرجال الذين تقلبوا في الادارات وعرفوا احوالها والتجار الذين كابدوا معاملة السودانيين وطافوا الاقاليم فتأخذ بالمداولة حتى يقر الرأي العام على اختيار احسن طريقة لحسم النازلة وما زلت اقوله بوجوب المشاورة والمكاشفة وعقد العزم على خلاصة ما تبديه غوامض الافكار ولا يعد ذلك احتقاراً لاراء الرجال المعول عليهم الان فقد يمكن ان يكشف لهم عن امور ذات بال لم تكن حاضرة لديهم واني لا ارى في السياسة الحالية اموراً مجهولة من كبير او صغير وهي فرصة اخيرة لنا فعلينا اغتنامها وعدم اهمالها او التهاون بها وليس القصد من ذلك مضادة انكلترا فاننا ما زلنا نعتقد اخلاصها نحو البلاد ورغبتها في صيانة حقوقها وانجاح اعمالها ولي كلام اخر أوجله الى ان تعتلن الحقيقة او يظهر ما ليس في الحسبان

وقال في ٢٣ يناير عند اجتماع مجلس شورى القوانين

غداً يلتئم مجلس شورى القوانين طبقاً للامر العالي الصادر بهذا الشأن للنظر في حقوق البلاد نيابة عن اهلها الذين تخيروهم وكلفوهم النظر في امورهم وغداً ترفع الى هيئة هذا المجلس جميع اللوائح والقوانين التي قررها مجلس شورى الحكومة والتي ما زالت تحت البحث والمداولة . . فاليكم ايها الاعضاء الكرام وجوه البلاد عهد حل الامور وابرامها وبكم وحدكم تعلقت الامال فانتم والحالة هذه مطمح انظار القوم الذين خولوكم ثقتهم دون غيركم وانتم عضد الحكومة التي صدقت على تعيينكم فعلى مبلغ حسن تدبيركم وصوابية

رايكم يكون مبلغ تقدم البلاد ونشاطها من عقال المشاكل الحالية والنوازل السياسية • فتحققوا اذن ان الرأي العام محوقل حول دائرة مجلسكم الموقر يراقب اقوالكم واعمالكم التي سيخلد ذكرها الى ما شاء الله . فبرهنوا على صدق وطنيتكم وعظيم اهليتكم بالمحاماة عن حقوق البلاد وحفظ مستقبلها من غوائل ما هو محدق بها من الخطوب التي لا تنصرف عنها الا بسديد الاعمال والافكار التي تكون محمودة الاواخر والاوائل

وما اتيت بهذه التفكرة جهلاً بصحة وطنيتكم او ارتياباً بصدق طويتكم وسلامة خدمتكم من شوائب الاغراض ونزاهتها عن المقاصد الا قصد انجاح الوطن واسعاد اهلهِ ولكني أتيت بها من قبيل زيادة الحرص على الحقوق السياسية تنبيهاً وتفكيراً فان الحكومة ستعتبر اراءكم وتسير على منوال ما تقرون عليهِ اجماعاً في الرأي وجرائد القطر وغيرها ستثبت نص المداولات وتعلق عليها الملحوظات ان حسنة او سيئة حقق الله امالنا بكم وأنقذ القطر مما حل بهِ بحسن سعيكم ان شاء الله

وقال في ٢٧ يناير وهو من جملة تقديراته الكثيرة التي حققتها الحوادث فيما بعد

وها نحن على بغية الصبر ننتظر افتتاح البرلمان الانكليزي القريب العهد لنعلم ما سيدور في دائرته من الجدال والاقوال على مسألة مصر ويؤكدون ان نحواً من ٢٥٠ سؤالاً ستلقى على الوزارة في شأن اعمالها وان كنا في ثقة من ان السؤالات والجوابات ستكون دقيقة المعنى والمبنى لا تؤذن بكشف الستار عن سر المسألة الا انها تؤخذ دليلاً على مكنونات الصدور · وقد يجوز ان تكون الاعمال من بعد ذلك بخلاف ما يصرح بهِ اليوم

وقال في ميزانية سنة ٨٤ وهي احدى مئات من مقالاته الاقتصادية الادارية نذكرها مثالاً

ميزانية سنة ٨٤ — حالة الحكومة والبلاد المالية

قياماً بالوعد السابق اكتب اليكم بالعنوان المصدر فانهُ مهم في حد ذاتهِ والبحث فيهِ من اخص واجبات الكتاب

ان التوازن او معادلة الداخل بالخارج آية تقدم الحكومات وبدونه لا يعتز لها شأن ولا ترسخ قدمها ولا تنتظم ادارتها ما دامت غير متساوية الايراد والمصروف ويؤول امرها الى الانحطاط والانحلال كلما تعذر عليها التوازن وزادت النفقات على الايرادات . وحكم التوازن لا ينحصر في الحكومات والدول بل يشمل ايضاً البيوت التجارية والمشروعات المالية ذات الايراد والمصروف ويستلزم حسن التدبير او ما يعبر عنهُ بالسياسة فعلى حكم تلك السياسة يكون مبلغ الثروة وبدون احكام السياسة لا تنتظم شؤون المالية ولا يحصل التوازن

ومالية الحكومة تتبع مالية الشعب فان الحكومة في حصر الامر تابعة للرعية فاذا اردت الوقوف على ماهية المالية في اية مملكة فانظر الى تابعيتها التي تستورد منها الجباية فيتضح لك ما في خزائنها من النضار . وقد يعلم المشاهد احوال القطر في ايامنا هذه ان مالية حكومتهِ في عسر وضيق حال قياساً على الأزمة المستحوذة على عموم سكان البلاد من اية فئة كانوا واليك البيان

ان سكان القطر من وطنيين واجانب ينقسمون الى ست فئات مهمة

اولاها واهمها ارباب الاموال الواسعة الذين يبذرون المال توسعاً في العيش وهم الان قابضون على اموالهم ينفقون منها على انفسهم ولا يثقون باخراجها من الصناديق خوفاً عليها من الهضم والضياع فلا يستفيدون منها ولا يفيدون بها احداً. والثانية اصحاب الاملاك والعقار الذين يعتمدون في معايشهم على ريعها وهؤلاء قد ساءت حالتهم بكساد التجارة وهبوط الاسعار ومحل المواسم. والثالثة. مضاربو البورص الذين ضاقت بهم مذاهب اختلاق الاخبار وما اصابهم الا الخسران بين صعود وهبوط وهم لا يدرون ما وراء الغد من المحن والخطوب. والرابعة. فئة المستخدمين الذين تنازعتهم عوامل الاغراض واصبحوا عرضة للرفت والاستقطاع من المرتبات وقد ادركتهم العناية مؤخراً فسلموا من الافة التي كانت تتوعدهم ولكن لم تسكن خواطرهم مما سيجيء في الايام المقبلة من الضربات المؤلمات. والخامسة والسادسة. فئتا المزارعين والمحترفين وهم السواد الاعظم من مواطني البلاد واشد سكانها ضنكاً واولاهم بالالتفات والمرحمة خصوصاً ان مدار الجباية عليهم تؤخذ طوعاً او كرهاً على حسب ميسرة هاتين الفئتين او ضيق ذات اليد ومن اين لذوي الفئتين يسر الحال ومن منذ سنتين لم ينحبس وابل النكبات فامحلت المواسم وسقطت الاسعار وكسدت التجارة واصبحت السلع ذات قيمة واطئة لا يطمع بالكسب من الاحتراف بها

وعلاوة على الفئات الست المذكورة توجد فئة سابعة محسوبة في عداد الفئات المتقدمة الا انها ممتازة بكونها اشد فاقة وعوزاً مما سواها لانها أصيبت برزايا الفتنة ففقدت ما ملكت وعيل صبرها بانتظار البدل حتى ان اغلبهم انفقوا اضعاف اضعافه ديناً قضاء للحاجة وكانوا في مبدا الامر يعتمدون

عليه زاعمين انهم يستخدمونه بالامتهان والاحتراف والتوسع بالعيش مسافة العمر بدلاً من المال المضاع

هذه هي الصعوبات والضيقات الحالية الحالّة بالبلاد وقد انفدت الحكومة حيلها واعيالها التدبير ولمّ الشعث حتى تمكنت موْخراً من موازنة البرنامج للسنة الجارية من دون رفت او استقطاع في مرتبات الخدمة او زيادة في الرسوم والضرائب وقررتها الا ان ميزانية الحربية ما زالت غير مقررة اذ انهُ لا يعلم المقدار اللازم من النقود لملافاة الحوادث السودانية التي عرفنا اوائلها وغاب عنا الالمام بمنتهى امرها وقد فوضنا امرنا بها الى الله ونعم الوكيل

وقد فهنا ان مصاريف جيش الاحتلال غير داخلة في الميزانية ولا نعلم اذا كانت الخزينة المصرية تعفى منها او تلزم بدفعها بعد المخابرات الجارية مع حكومة بريطانيا ويوْمل اولياء الامر ان وزارة المستر غلادستون تتسامح بها كلها او بقسم مهم منها فيبقى على الحكومة مقدار ما يزيد عن المليونين جنيهاً من الحسابات الجارية المرخص لها بها ثم مبالغ التعويض ثم نفقات السودان الفادحة وما اشبهها وهذه تستلزم عقد سلفة لا تحط عن عشرة ملايين جنيهاً

اي نعم ان هذه السلفة تكفي ولكن لسداد مطلوبات السنة الجارية فقط فاذا شئنا ان ننظر في نتائج ما لدينا من الحوادث وجب ان نستدرك امر المالية الى امد بعيد خيفة ان نتطلب غداً ما رددنا اليوم عن اجرائهِ . فالاقدام الى عقد سلفة العشرة الملايين يضطرنا الى تعديل قانون التصفية . ولا ننكر ان توقيف الاستهلاك مع ما يمكن الاستحصال عليه من ابواب

ثانية يكفي لسداد معدل هذه السلفة ولكن اذا قصدنا حفظ المالية الى مستقبل الايام وجب علينا ان لا نكتفي بالتوقيف بل نتجاوزه وهنا عقدة المسألة

ثبت بما تقدم ان السلفة التي تحتاج لها الحكومة لا يمكن نيلها الا بتعديل الصك الموقع عليه من جملة دول كبار لهنَّ مصالح سياسية فضلاً عن المالية واهم الدول مصلحة وشأناً بقانون التصفية الدولة الفرنساوية وهي ذات النفوذ المسلوب بعد الحوادث والفتن فاذا تشبثت بالمسألة السياسية بحجة المالية ادخلت مسألة مصر في دور جديد اشد نكاية واصعب حلاً مما هو مشاهد منها الان ولا نخاف بلوغ هذا الدور الا اذا كان القصد عدم الاكتفاء بتوقيف الاستهلاك اما اذا لم يتجاوز التحوير هذا الحد فلا يتعذر نيل المرغوب وحل عقدة المسألة وحينئذٍ تدفع التعويضات وتروج الاعمال وتستقر الحال على احسن منوال

وقال في ٥ مايو يدعو كبار المصريين الى تشكيل لجنة تسافر الى اوربا للمطالبة بحقوق مصر السياسية أثناء انعقاد المؤتمر الذي دعت انكلترا الدول اليه واشترطت ان يكون مالياً محضاً

اشتغلت افكار الوطنيين وخصوصاً الوجوه والاعيان منهم بمسألة المؤتمر وحقوق مصر فاخذوا بالمداولة والمذاكرة فيما بينهم واعتبروا المسألة اعتبارها من الاهمية فصرت على امل كبير من أجابتهم الطلب وتحقيق ما عرضته عليهم في هذا الشان قبل فوات الزمن الثمين اذ لا يصح الصمت عن امر يختص بالبلاد على حين نرى الدول عموماً مشتغلة بهِ تدافع عن حقوقنا وقد افادنا البرق في هذا اليوم ان فرنسا راغبة في ضمانة حقوق مصر السياسية وهو عين

مطلوب الباب العالي واعلم ايضاً ان غالبية الدول نازعة الى المطلب المذكور مراعاة لحقوق العدالة والانصاف فكيف يليق بنا السكوت او يخامرنا الخجل والوجل والدول اخذة بناصرنا مريدة تعضيدنا

فيا ايها الاعيان وذوات البلاد لا نسألكم ما تحط عنه طاقتكم ولا تكلفكم غير الاقتدا بغيركم من أمم المشرق ألم تروا رجال بلغاريا وسربيا كيف انهم شكلوا اللجان قبل الحرب الاخيرة واوفدوها الى عواصم اوربا . اولا تذكرون فعل اليونان وما اجراه اهل كريد موخراً مما اضطر الباب العالي الى العدول عن ابدال فوتيادس باشا والي الجزيرة . ألم تعلموا انه خلافاً لتصميم الوزارة العثمانية وقرارها بالغاء منح الاساقفة امتيازاتهم عضد الجناب السلطاني مطالب التبعة اليونانية الثانية وارجع لهم المنح . ألا يكفيكم دليلاً او ما تعلمون ان للرأي العام تأثيراً عظيماً وما يعد عملكم هذا خروجاً عن الواجبات الوطنية فلا يداخلكم الظن انه يحسب معاكسة لانكلترا او قلة ركون اليها بل هو محض حق خصوصي بكم فتأثروه وكونوا واثقين من عضد اوربا لكم واستمالتكم على الرأي العام في الشرق والغرب لتحفظوا لانفسكم وبلادكم ذكراً طيباً .

وقال في حديث جرى له بباريس مع سفير الروسية في ١٠ جونيو

تشرفت في منتصف هذا اليوم بمقابلة سفير الروسية في دار السفارة وقد تطارحت واياه بحثاً في المسألة المصرية والسياسة العمومية فلخصت ذلك في الرسالة الاتية كما ترى

سألني حضرة السفير عن حالة مصر سؤال خبير واقف على دخائل المسألة المصرية . فاجبته ٠ان مصر لم ترَ اياماً اشد مرارة وصعوبة من ايامها هذه من حيث السياسة والادارة والمالية وبينت له موجبات الخلل في المسائل الثلاث التي افسدتها سياسة الانكليز في مصر . فقال . ان اوربا تركت لانكلترا حرية العمل مدة السنتين الماضيتين على رجاء ان يتأتى عن عملها تحسين حالة ذلك القطر المضمون الامتيازات من اوربا بموجب معاهدات دولية صريحة يستحيل خرقها اما انكلترا فاتخذت سكوت اوربا وسيلة لاجراء ما تريده فافسدت النظامات الحسنة ما خلا النظامات الدولية كصندوق الدين ومجالس الحقانية وفي اخر الامر استشرفت على اوربا تسألها عضداً لتعديل قانون التصفية تحقيقاً لمنوباتها فصادرتها فرنسا معضدة من اوربا تعضيداً قوياً ثم اقترحت عليها شروطاً مصدقاً عليها من الدول جميعاً ولو لم يكن الحزب الحر هو القابض على زمام الاحكام لما تساهلت اوربا مع انكلترا ولما توقفت عنها حتى الان ولكن للدول ثقة مكينة باخلاص حزب الاحرار وصدق عهودهم واجتنابهم هضم حقوق الشعوب المستضعفة

فقرة من حديث مع جول فري رئيس الوزارة الفرنسوية في ١٢ جونيو

ما زالت المفاوضات جارية بين فرنسا وانكلترا على رجاء الوصول الى وفاق نهائي في المسألة المصرية وقد قابلت رئيس الوزارة الفرنسوية المسيو جول فري وجرى لي معه حديث طويل الخص منه ما يحلو نشره ويسوغ ذكره وهو ما يأتي

جئت الوزير اجابة لامره فاستقبلني بالبشاشة وسألني عن اخبار مصر فبسطتها له تفصيلاً مبتدئاً بعرض المسألة المصرية من ظهور عرابي الى يومنا هذا وكان يقاطعني الحديث مستفسراً عن الدواعي والموجبات لكل حادثة وخصوصاً ما توقع منها بعد الاحتلال الانكليزي فاخذت ابرهن له عن الوقائع وكيف ان الفوضى عمت البلاد مالياً وادارياً وسياسياً وكيف عدمت الثقة المالية واسباب الكسب ثم بينت له حالة العسر المستحوذ على القطر وانتشار اللصوص في جميع انحائه

فقال . وما هي اسباب ذلك جميعه

قلت سؤ الادارة وأيدت ذلك بالادلة وذكرت له اعمال رجال الانكليز في مصر فرداً فرداً واطلت الشرح في اجراءآت كليفورد لويد . وقلت اذا كان قصد الانكليز ان لا يخلوا القطر الا بعد استتباب الراحة فيه فهم لن يبرحوه فانهم ما داموا مقيمين فيه متداخلين باموره فلا يمكن استتباب الراحة واصلاح الاحوال

قال . واين هم رجال مصر ومن هم المعدودون فيه

قلت . انهم كثيرون مشهورون وذكرت له من اعرفهم معرفة تامة وانهم لو سلموا ادارة الاعمال لما انقضى شهر من الزمن حتى يتأيد الامن وتستقر السكينة ولا يبقى للانكليز عذر ينتحلونه للبقاء في ارض المصريين وذلك على شرط ان يكون رجال مصر احراراً في الادارة والا فلا نجاح وليس من عقلاء المصريين من يقبل وظيفة مهمة في الحكومة اذا بقي الانكليز متداخلين في ادارات الاشغال

حديث مع المركيز سلسبوري في ١٩جونيو

انهُ وان تكن وزارة الانكليز من الحزب الحر والمحافظون لا دخل لهم في ادارة الاحكام فاهمية حزبهم ومعارضاتهُ المستمرة للوزارة مما يجدر بالاعتبار ولذلك سعيت جهد امكانى الى مقابلة زعماء الحزب المذكور للوقوف على منوياتهم بالنسبة الينا واخيراً توصلت الى مقابلة المركيز سالسبوري زعيمهم الاكبر فتوجهت اليهِ في هذا النهار بعد الظهر بمنزله الكائن في جوار شارع سان جمس .

وبعد التحية والسلام قال . أتيت حديثاً من مصر . قلت نعم ولكني عجت على ايطاليا وفرنسا في اثناء السفر . قال . اللنزهة حضرت . قلت . لا بل للمحاماة عن حقوق وطني مصر

قال وما هي حال مصر . فاخذت ببسطها وتعداد اغلاط الانكليز منذ دخل دوفرين وباشر اشغال ماموريتهِ وقد قسمت المسألة قسمين اولهما مختص بمصر والثاني بالسودان ثم فرعت عنهما فروعاً ثلاثة الاول يتناول بيان الحالة الى يوم استقالة رياض باشا من الوزارة . والثاني من ذاك الحين الى استعفاء شريف باشا . والثالث منذ ولاية نوبار باشا الى يومنا هذا ففي الفرع الاول ذكرت لهُ توطيد الامن بسهر رياض باشا ورواج التجارة وجميع الاشغال واستمرار الاحوال جارية على ما يرام الى ان اخذ بمحاكمة عرابي التي كانت اشبه بمحاورة هزلية فاتضح للذين من حزب عرابي ان انكلترا استخدمت هذا الرجل لقضاء اغراضها فكرهوها وكرهوهُ واتضح لسواهم ان انكلترا الدولة

المتمدنة قد اتت اموراً لم يرها الشرق ولا سمع بحصول نظيرها في جهات الدنيا

ثم قلت له . ولما استقال رياض باشا الوطني الحازم الحائز لمرضاة الرأي العام والخبير بحالة الامة والبلاد انحرف الشعب المصري بتمامه عن انكلترا واخذ يندد بها ولكن بقيت المسألة متسترة حيث كان شريف باشا الوطني المحبوب رئيساً للوزارة ثم ازداد تداخل رجالكم في الادارات فافسدوا واستبدوا في اجراآتهم السيئة

واخذت اتلو على مسامعه اغلاط رجال الانكليز واخصهم المستركليفورد لويد الذي اذكرنا بايام المماليك وجورهم وبينت له سؤ معاملة بعض الانكليز الموجودين في مصر وقلت له لقد قابلت كثيرين من رجالكم منذ وصولي حتى الان ورأيتهم جميعاً على غير ما عليه بعض رجالكم عندنا فان معظمهم لا يحترمون الناس . قال . اني في غاية العجب من هذا السلوك . قلت انتم الاوربيون تنددون بالشرقيين وتستقبحون طباعهم اما نحن فنرى ان الانكليز هم المستوجبون لما ترموننا به . ثم اتيت على بيان الحالة في وزارة دولتلو نوبار باشا فقال انه يعرفه شخصياً وبعد ذلك دخلنا في مباحث متفرقة لا ارى مناسبة لعرضها الان

وسألني عن حالة السودان فاخبرته ان الفتنة كانت في باديء الامر اهلية محلية ولكن ذهاب هكس الاجنبي عن السودانيين جنسية ودينا حرك العصبية الدينية فيهم فثاروا ثورة واحدة . وعطفت على بيان اغلاط الانكليز بعد ذلك وخصوصاً في مشورتهم بالتخلي عن السودان واخبرته بالكيفية التي جاء بارنغ بها الى شريف باشا فقال اعد عليَّ بيان المسألة فاعدتها تفصيلاً

ثم نددت بارسالية هكس ومأمورية غوردون وحملة جراهم ومأمورية الاميرال الانكليزي وأعربت لهُ عن سوء السياسة في مأموريات المذكورين وغيرهم . فقال . وما رأيك في مستقبل الحركة الحالية . فقلت . اراها ستمتد كثيراً وقريباً تسقط الخرطوم وسنار ودنقلة وحينئذٍ يتعين عليكم تجريد اربعين الفاً من العساكر للافاة النازلة . قال . وما هي حركة الخواطر في مصر . فاخذت بسرد بيانها تفصيلاً وكان مصغياً يستوعب الاخبار بالدقة والامعان ثم قال . واية وسيلة تظنها افضل لحل المسألة . اجبتهُ . اني اخاطب سيدي بحرية فارجوهُ ان يعاملني بالاغضاء كرماً فاقول . اني عالم بكونه زعيماً للحافظين فلا بد لي ان اخاطبهُ بصفة كوني مصرياً لا أريد مطلقاً ان تضع انكلترا يدها على بلادي باية صفة كانت ثم اؤكد لهُ ان افضل وسيلة لحل المسألة هي ارسال تجريدة عثمانية الى السودان

قال وهل لا توافق العساكر الانكليزيه

قلت انها لا تطيق الحر فان العساكر الانكليزية الكائنة الان في اصوان يوجد بينها ٢٥ بالمئة مرضى بسبب الحر فكيف تكون حالتها لو بلغت الخرطوم واواسط السودان هذا اذا تيسر للانكليز قطع المفاوز الموعرة والوصول الى الداخلية . قال يذهبون في الشتاء . قلت وعند حلول الصيف وهم هنالك ماذا يفعلون فسكت . ثم اطرق قليلاً وقال وحكم العساكر العثمانية حكم الانكليزية من هذا القبيل . قلت هذا فيما اذا كانت العساكر تركية او شركسية ولكن عساكر الدولة العثمانية من ابناء سوريا وما بين النهرين وغير جهات لا يضر بهم الحر ولا يستصعبون قطع المفاوز والقفار لانهم متعودون ثم لا بد ان يعلم سيدي ان الحركة دينية وليس لغير الخليفة استطاعة على اخمادها . قال

لا انكر ذلك . قلت وهل من العدل والانسانية ان تسبب انكلترا اهراق الدماء وخراب الديار انفاذاً لمآربها الذاتية القاضية عليها بعدم التصديق على ارسال تجريدة عثمانية . وكيف يسوغ لها ذلك في عصر النور الا تخاف قضاء التاريخ باستقباح مسلكها وسؤ تدبيرها في جيل التمدن — واردفت ذلك بقولي لا ارى حلاً للمسألة غير هذا ومن الضروري جعل مصر على الحيادة التامة بحيث لا يمكن لاية دولة ان تطمع بها او تعتدي عليها

وهنا سألته ان يسمح لي بالاستفهام منهُ عما يأتي فاذن — قلت أيسقط المستر غلاستون . قال لا اظن ذلك لان الشروط غير مجحفة بمصلحة انكلترا وعطف فقال أخبرتني عن رجال انكلترا كلهم ولم تخبرني شيئاً عن المستر اجرتون الذي أعرفهُ شخصياً . قلت هو رجل محبوب من الجميع وكذلك الجنرال استفانسون

ثم قلت . انا لا نود ابداً سقوط المستر غلادستون حيث ان اعتقادنا به حسن ونتوسم بكم سؤ المقاصد

قال ثق بفوز غلادستون فانهُ سيتغلب على المحافظين ويستمر في منصبه واردف قائلاً ولماذا تظن السوء بالمحافظين

قلت لانهم يودون تملك العالم ويتوقون لهضم حقوقنا وهذا اعتقادي بكم مع اني مسيحي فما ظنك بالمسلمين الذين هم اشد مني نفوراً منكم وهذا الاعتقاد السيء بانكلترا ليس محصوراً في مصر فقط بل وفي الشرق عموماً واذا لا سمح الله وضعت انكلترا حمايتها على مصر فلا شك انها لا تجد راحة وتكون قلقة قلقاً مستمراً فضلاً عن كونها تسبب ميل العثمانية الى الروسية . قال لقد وجهت اللوم العنيف الى المحافظين مع انهم غير متحكمين

ونحن نعترف باغلاط الاحرار وسيئاتهم في بلادكم كما اننا نرى املاكنا الهندية امست في خطر من سوء سياستهم • قلت وليعلم سيدي ان بين مسلمي الهند والشرق صلات مستمرة وقد علم الهنديون بسوء سياستكم عندنا فاتفقوا معنا وصارت قلوب الجميع نافرة منكم

ثم سألته واذا حكمتم هل تضمون مصر اليكم

قال لا اظن مطلقاً ولا يمكنني الحكم بذلك الان اذ انه من الممكن وجود أمور خفية في الوزارة تعدل مبادئنا اذا علونا منصة الاحكام ولكن لا اخال اننا نحكم فان غلادستون متغلب علينا

قلت ارى كثرة الزعماء في حزب المحافظين اضعفته وشتتت كلمته وفي الامثال السائرة ان كثرة الرؤساء تذهب فائدة العمل

قال ذلك شأن حزبنا

ثم قلت له اراكم مهتمين كثيراً بشأن المالية وقد ذهلتم عن السودان فما الداعي لذلك . قال وكيف تحسبنا غافلين عن السودان « يعني غوردون » المنكود الحظ وقد احدقت به الاخطار من كل جانب

قلت أعجب والله لجواب اللورد المفهوم منه اشفاقه على نفس غوردون من دون سائر الناس في السودان حالة كونه ذا جنة وقد سمعنا بمثل هذا الجواب مراراً في خطبكم وتلوناه في جرائد لندن فهل حسبتم اهل السودان من بني الانسان حتى لا تاخذكم شفقة بهم ولا يهمكم الا انقاذ رجلكم الذي جلب الويل على الوف موءلفة من الرجال والنساء والاطفال وما كان غوردون الا منفذاً لسياستكم الاثيمة التي قادت هوءلاء المساكين الى الذبح فكيف ساغ لكم الان ان تهملوهم وشأنهم الا تخافون غضب الله وسنة

الانسانية وشرع المدنية وقضاء التاريخ عليكم بما تحمر له الوجوه ويخدش محيا النفس

ثم أوقفت اللورد على الاوامر التي اصدرها رجالهم في مصر والزامهم البوليس بما يتعلق بعدم لبس الطربوش وما اختص منها بالجوامع وغيرها مما يمس حاسات الاهلين ولم اخف عنه شيئاً من مساويهم . وبعد ذلك قلت وكيف تلومون رجال مصر الذين لم يعدلوا عن سبل الاخلاص ولم يخالوا لكم عهداً وجميع ما حلّ بالقطر من الملمات دليل مسهب على سوء تدبيركم وانتم وحدكم المسئولون عنه

فاطرق عند ذلك ثم قال لي لسنا نحن المتحكمين في الحال . ثم سألني أتمكث طويلاً هنا . فقلت له نعم . قال ارجو ان تحضر اليّ من وقت الى آخر وفي اية لغة تطبع جريدتك . قلت باللغة العربية وكثيراً ما ترجمت خطبك ايام كنت وزير الخارجية . ثم اطلعته على اختلاقات مكاتبي جرائد لندن بمصر فاصغى الى ما قلت

وبعد ان لبثت بحضرته ساعة ونصف ساعة ودعته وانصرفت ممتناً مما اظهره لي من الدعة

محادثة مع موزوروس باشا سفير الدولة العلية ومع المسيو وادنكتون سفير فرنسا في ٢٢ يونيو

زرت امس سفير العثمانية فاخبرني بوصول لائحة الاتفاق اليه وقال لي انها بالاجمال كما اخبرتك قبلاً « وقد افدتكم ذلك في حينه الا انه يتفرع عن مسائلها المهمة مسائل اخرى فرعية وسابعثها تفصيلاً اليكم »

وقد سألني السفير عن اخبار مصر الاخيرة فسردتها لهُ ثم سألته عن رأيه في المستر غلادستون والاحزاب قال لا شك ان المستر غلادستون سيتغلب على الاحزاب وينال الارجحية في الآراء . قلت . أرى الدول مهتمة جداً بالنقض والابرام في المسائل الحالية ومع ذلك لا نرى للباب العالي شأناً كبيراً في المخابرات المتبادلة بين الدول في أمور مختصة بالعثمانية اكثر من سواها . او ما حان لرجال الدولة ان ينهضوا من رقدتهم ويبذلوا وسعهم في سبيل حفظ المملكة وتوابعها . قال لقد اخطأت ظناً فان مولانا الخليفة الاعظم مهتم بمسائل مصر بذاته الكريمة ورجالهُ غير غافلين ايضاً وستتحقق صدق قولي . ولو لم تكن مصر جزءًا من المملكة السنية لما حفظت حتى الان من مطامع انكلترا او من مطامع سواها قبلها

وبعد ان تكلمنا في بعض مواضيع سياسية ودعته وقصدت حضرة سفير فرنسا المسيو وادنكتون فدار الحديث بيننا على لائحة الاتفاق ثم انتقلنا الى البحث في اللائحة المالية التي كان استلمها حضرته في هذا النهار فقلت لهُ . اظن ان المسألة المالية اشد اشكالاً من السياسية . قال ولا عجب فان الثانية تهم رجال السياسة فقط واما الاولى فتهم الجميع ولا يخفى ما لرجال المالية من القوة وهم لا يسألون الا على عزة الدرهم وزيادة الارباح دون الاكتراث بالنتائج السياسية .

سالتهُ وهل يقرر المؤتمر التعديل . اجاب اني درست المالية المصرية كثيراً ومع ذلك ساستدعي المسيو دي بلينيار او المسيو ليرون ديرول او كليهما لاستشيرهما ويلوح لي ان هنالك ابواباً للاقتصاد فلا سبيل الى التعديل الا بعد النظر في الاولى

قلت له اذا تحملت انكلترا نفقات جيش الاحتلال وعدلت اسهم بوغاز السويس وخففت رواتب كثير من موظفيها في مصر أمكن اقتصاد نحو سبعمائة الف جنيه ومع هذا فلا بد من تعديل الضرائب وتخفيف اثقال المزارعين ويحسن او يوجب ان تضمن فرنسا وانكلترا دين مصر بعد تعديله وفي ذلك أجلّ واسطة واضمن وسيلة لمستقبل مصر ومصلحة الدولتين

قال ان المسألة المالية دقيقة جداً بل اراها كثيرة العقبات ولكن على المؤتمر ان يحلها . وبعد هذا تحدثنا في حقيقة مركز المستر غلادستون فقال لي انه سيفوز ومهما يكن فالمحافظون لا يسعهم ولو تغلبوا ان ينهجوا غير هذا المنهج فقد تغيرت المسألة المصرية عما كان قبلاً فلا سبيل لتضحية مصلحة اوربا عموماً وفرنسا خصوصاً

خطبة له في لندن في ٢٧ جونيو

{ محفل خطابة }

دعيت البارحة الى محفل خطابة في ناحية كولفيل جاردنس عند سيدة من خواتين الانكليز المشهورات بسعة المعارف والاداب العصرية تدعى الخاتون كارتر . فان هذه الخاتون تفتح ابواب منزلها مرة واحدة في كل شهر من شهور الشتاء لعلماء قومها وادبائه فيجتمعون هنالك للخطابة ومطارحة الافكار في اي موضوع كان . وكانت ليلة امس خاتمة ليالي الاجتماع في هذا العام فاسعدني الحظ بحضور الحفلة ولما كمل عدد الحضور واستقروا في مجالسهم وكانوا نحو ١٥٠ شخصاً وقف رئيس الحفلة وقدم للحضور رجلاً فاضلاً ساح

حديثاً في فلسطين واكتشف على اثار جديدة ثم سأله ان يلقي على الحضور
مقالاً بهذا الخصوص فاجاب وتكلم طويلاً مبيناً فضل الآثار التي أحيت
للمتأخرين تاريخ السالفين ودلت على تقدمهم في بعض العلوم والصنائع الى غير
ذلك فضج له الحضور استحساناً ثم تلاه المستر رسام « وهو عربي الجنس »
فالقى خطاباً أيد فيه قول الخطيب الاول ثم ذكر الآثار التي اكتشف بنفسه
عليها في نينوى يوم كان مصاحباً للمستر ليارد سفير انكلترا في الاستانه سابقاً
ثم وقفت احدى الخواتين فقالت انها أقامت في القدس الشريف سنين متوالية
مع زوجها الذي كان قنصلاً لانكلترا هنالك وبعده القت خطاباً وجيزاً فيما
شاهدته من جليل الآثار ثم تعاقبت الخطباء بتلاوة ما عنّ لهم ذكره الى
ان وقف الدكتور هارينمان الذي خاض في موضوع سياسي جاء في خلاله
بالعبارة الآتية

قال « ان المرء اذا شرب جرعة ماءٍ من النيل شغف بمصر واذا غاب
عنها فلا بد له من العود اليها وذلك دليل على ان مياه النيل سائغة لذيذة »
فلما طرق اذني هذا الحديث وقفت واستأذنت بالكلام باللغة الفرنسوية فاجابني
الحضور بالاصغاء وكانت غالبيتهم تحسن الفرنسوية فرفعت صوتي بالكلام
شاكراً اولاً ربة المنزل التي تكرمت بجعل منزلها محفلاً للاداب ثم عطفت
على بيان المنافع العظيمة التي يمكن للنساء ان يقمنَ بها نحو الانسانية اذا كنَّ
مهذبات معلمات وانهنَّ قادرات على اصلاح النوع الانساني وافساده اذ انهنَّ
الواضعات للمبادئ الاولية في عقول الاطفال فعلى مبلغ تقدم النساء في أية
مملكة كانت يتوقف تقدم الشعب . وانتقلت من هذا البحث الى القول بفضل
الشعب الانكليزي الذي مع قلة عدده وبعد بلاده قد تمكن بفرط الاجتهاد

وملازمة الحزم والثبات واحكام السياسة من السيادة على ملايين عديدة من الناس في انحاء شتى من المسكونة • ضجيج استحسان • ولا بد لي من مخاطبة سادتي الحضور بشيء عن حال مصر فان كثيرين منكم يتوقون الى هذا الحديث فاني ما حللت بلادكم الا لاشغال تقتضيها خدمة هذا القطر العزيز. تصفيق استحسان . لا يخفى انهُ عندما ظهر عرابي بمظهره الاول ورأينا الانكليز متداخلين في كبح جماحهِ كنا متشكرين لهم جدًّا ونطنا كل امالنا بهم ثم بعد واقعة التل الكبير ودخولهم مصر لا بصفة فاتحين بل باسم الجناب العالي الخديوي تقبلناهم بالشكر واحللناهم محالّ رفيعة . تصفيق

ولما انتهت الخصومات والقلاقل • قالوا انا سنحتل بلادكم وقتيـاً لتأييد الامن وتعزيز شأن الحكومة فسررنا بذلك وشكرناهم شكراً جزيلاً ولكن ما طال الزمن حتى ذهبت الاماني ادراج الرياح اذ عرفنا ان المواعيد عرقوبية وبينما كنا نطالع خطب زعماء الاحرار والمحافظين المشيرة الى عدم رغبتهم في تملك البلاد او حمايتها كنا نرى عمالهم بيننا يستبدون في امورنا ولا استبداد المماليك نخربوا البلاد وجرحوا قلوب العباد والحاصل ان حالة مصر لم تبقَ خافية اجمالاً على احد من الناس • تصفيق مستطيل . وها هم الآن رؤساء الاحزاب يطلبون هضم حقوقنا وضميمة بلادنا وقد داسوا قولهم الاول { مصر للمصريين } وتمسكوا باهداب المطامع خلافاً للوعد ونقضاً للعهد وما كفاهم ذلك حتى تطاولوا الى التنديد بالمستر غلادستون وقد سلقوه بالسنة حداد لانهُ يريد احترام الرأي العام وتنفيذ العهود والمواثيق جرياً على الاصول المرعية وصوناً لشرف امتهِ المتولي زمامها . ثم اخذت ببيان المعاهدات الدولية وافسدت دعوى القائلين بحق الانكليز في مصر لانها طريق الهند واختتمت

الخطاب قائلاً انا نثق وثوقاً تاماً بعدالة رئيس الوزارة الانكليزية واملنا شديد بالفوز بالاماني بعضد الرأي العام الانكليزي . تصفيق

فنهض احد الحضور وبعد ان شكر لي ما اظهرته من المبادئ اخذ يعارضني فيما قلته مختصاً بمصر والانكليز . فقال ان مصلحة انكلترا تضطرها الى البقاء في مصر نظراً الى وفرة مشاغلها في الهند الى غير ذلك مما تمزقت اذاننا من استماعه

فعند ذلك وقفت وعارضته بجهر الصوت وقلت ان لانكلترا قوتين مهمتين سادت بهما سيادة عظيمة وبلغت شأواً عزيزاً وهاتان القوتان هما عمارتها البحرية وعدالتها في المدافعة عن حقوق السوى . وبالقوة الثانية كانت ناجحة في غالب الاحيان فانها بها فازت في حرب القرم وبها ايضاً لا بسفنها ارجعت الروس عن ابواب الاستانة . فاذا اخذت مصر الان فاية حجة واي اعتراض لكم على الروسية اذا تقدمت على الاستانة وبم تدفعون النمسا عن سالونيك وبم توقفون مطامع الدول عن تخوم مستعمراتكم بل عن نفس المستعمرات. واذا دققتم البحث تجدون ان العدو الحقيقي الذي تلزمكم مناظرته انما هو الروسية الواقفة لكم على ابواب افغانستان والهند ففي تلك الجهة ينبغي ان تضعوا عنايتكم وتصوبوا الى ذلك الجانب سياستكم وليس الى مصر التي كانت في جميع ظروفها واحوالها مخلصة لانكلترا المعززة النفوذ فيها وما زالت مصر تعترف بفضل انكلترا ووجوب ترجيح نفوذها على ما سواها من الدول ولكن لا تود ابداً ان تكون في ملكية الانكليز او في كنف حمايتهم وقد تحملنا اثقال الاغلاط الفظيعة التي ارتكبها عرابي ولكن لا نرى من العدل ان نتحمل ايضاً اغلاط الانكليز وسؤ تصرفهم في مصر فان المحافظين وبعض حزب الاحرار

يريدون اثقالنا بجميع ما حلّ بمصر من المساوئ والضربات لكي يتوصلوا الى غاياتهم المنكرة • اهـ . تصفيق عمومي

وبعد الفراغ من الخطابة احاط بي كثيرون من الحضور وطلبوا الوقوف على اسمي وكان في المحفل فريق من « كلوب الليبرال » فدعاني الى مجتمعهِ في اليوم الثاني للمحادثة في المسألة المصرية فاجبت

وكان الفقيد قد نشر مقالة في البال مال غازت وصف بها سوء ادارة المستر كليفورد لويد ففند هذا اقواله في التمس فرد عليه الفقيد بمقالة نشرتها الديبا في ٩ لوليو وهذا نصها

الى حضرة مدير جريدة الديبا

حضرة المدير — وضع المستر كليفورد لويد في جريدة التمس (بعددها الصادر في ٣٠ جونيو سنة ٨٤) مقالة تحامل فيها عليّ بالطعن الشديد وضمنها الثناء على ادارتهِ • ونشرت بال مال غازيت في الوقت نفسهِ مقالة (للمستر هورنبي) وتذييلاً لها موعبين من القذف في حقي ومفعمين من التعرضات السيئة المقاصد . وقد نظمت بما استطعت رداً عليهما (التمس وبال مال) رقيق الحشو لطيف التوجيه فأَبت كل منهما عليّ ادراجهُ في صفحاتها بحجة اني ممن يكرهون الانكليز كثيراً وقد لاح لي من خلال اعتذارهما ان ذلك ما عليهِ القوم في انكلترا من حسن المعاملة والعدالة في سياق المناقشات

على انني اؤمل ان لا يكون الامر كذلك في فرنسا فتفسحوا لي في اعمدة جريدتكم محلاً لا لادافع عن نفسي — فتلك احاديث قل ان تهم — بل لابرهن على صحة الافكار التي بثثتها في الاخبار عن نتائج الادارة

الانكليزية في مصر وأريد بها تلك الأفكار التي اقامت قيامة الغضب عليَّ حتى صرت لا اعتبر لدى الصحف الانكليزية الا بمثابة شخص يخاف ضرُّهُ ويخشى اذاه وما أحراه بان يختم على فيهِ ولو آل الامر الى بذل ما في الوسع بذلهُ

أجلْ انهُ ليسهل ان يقيد لساني ويختم على فمي ولكنَّ نور الحقيقة لا يخفيهِ السكوت . ابى عليَّ المستر كلينمورد لويد حق التكلم بصفة مصري لاني ولدت في سوريا واكتنفت بالحماية الفرنسوية ولكني وان ولدت في سوريا او بالحري من اجل اني ولدت فيها فانا عثماني ومصر قسم من بلاد السلطنة العثمانية واقامتي فيها لم تحوّل جنسيتي لان الجنسية واحدة . واني اعدُّني فيها (مصر) مقيماً في بلادي كمثل الوزراء الاتراك او الارمن الحاكمين فيها بل والعائلة المحمدية العلوية (المالكة) نفسها التي لم تكن مصر مسقط رأسها .

اما الحماية الفرنسوية فلا اذكر الاحوال التي أتيح لي بها نيلها بل اقتصر على القول باني نلتها يوم كانت فرنسا وانكلترا متحدتين على المناضلة عن حرية القطر المصري . وقد أقفلت جريدتي لمغالاتها في الوطنية المصرية وألقيت في السجن واوشكت ان أنفى الى النيل الابيض (فيزوغلي) لو لم ينقذني تداخل قنصلي انكلترا وفرنسا بالاتحاد معاً . ولقد أعلن لي وقتئذ المستر لاسيل قنصل انكلترا أسفهُ الشديد من ان نظامات فرنسا اباحت للمسيو غودو قنصلها في ذلك الحين ان يختصني بحماية اوربية . وكل الذين يعرفون الشرق — والمستر كلينمورد لويد ليس ممن يعرفونهُ — يدركون ان الحماية الاوربية لا تعدم الشرقي جنسيته . ومثلي في مصر كثير من الباشوات وليس ما يمنع من ان

يعتبروا مصريين حقيقيين ويخولوا الخطط السامية والمناصب العليا في دوائر الحكومة

اما المستر كليفورد لويد فيجهل كل الجهل نظام الجنسية واحوال السياسة في البلاد المشرقية ولا يعرف باسم مصري الا اولئك الموظفين الانكليز الذين انما اكتسبوا الوطنية بما ربط لهم في ميزانية البلاد من المعاشات الفادحة وهؤلاء وان ولدوا في ايرلانده فقد تبلدوا في ضفاف النيل وحيث ينالون اوفر كسب فهنالك وطنهم والمستر كليفورد لويد تحصل في مصر على كسب جزيل المقدار وانا لا معاش لي ولا راتب هنالك . والمستر الموما اليهِ أرسل الى مصر ولهُ راتب قيمتهُ الف جنيه في السنة واذ نبت فيه روح الاصلاح ونما فرض لنفسهِ اكثر مما ذكرنا حتى بلغ المفروض نحواً من ثلاثة آلاف جنيه في السنة وظل محافظاً على هذا الكرم والجود والحنو والشفقة الى ان برح القطر . ومع كونهِ لم يجهل انهُ فصل من خدمة الحكومة المصرية لم يتأخر عن ان يقبض في حين ارتحاله راتب شهرين او ثلاثة اشهر تنتهي في غاية اغسطس تقريباً واضطرت الخزينة على ما هي عليهِ من النفاد والفراغ ان قطرت لهُ المبلغ تقطيراً

هذا هو الوجه الذي لاجله اقرُّ بعجزي عن مقاومة المستر كليفورد لويد فهو مأجور لكي يتكلم باسم مصر وانا لا أنطق الا بما يحضني عليه ضميري وتحرضني عليهِ ذمتي ومحبتي لبلادي هي — مهما قالوا في شأنها — بلادي .

أقول — ولعلكم لا تجهلون داعية توجه المستر كليفورد لويد الى مصر فان اللورد دوفرين كان وضع لهذا القطر نظاماً شورياً ليؤلف على مقتضاهُ مجلس نواب تنتخبهم الامة ويكون لقرارتهِ (المجلس) حكم قاطع نافذ الاجراء

في كل حال فانتدب المستر المذكور - كما تأكد لدينا — ليتم مشروع اللورد دوفرين ويلاحظ انفاذهُ ولكنهُ لم يفعل بل كانت باكورة اعماله عندنا الاعلان بجعل قرارات مجلس الشورى غير مقطوع بها بل محفوظاً فيها حق الخيار للحكومة بين ان تقبلها او ترفضها واذ كان هو الحاكم بامرهِ وزمام الاعمال في قبضة يدهِ فقد قصد بذلك ان يشيد صروح سطوتهِ فوق خرائب سطوة الامة . وليس هذا كل ما اجراه فانه لم يتجرأ ان ينقض بدفعة واحدة كل ما انشاه ونظمهُ اللورد دوفرين

ومما يروى عنهُ ان الدكريتو الصادر بتنظيم مجلس النواب هو الذي وضعهُ وحرّرهُ وقد ورد في جملة نصوصه ان لا ينفذ قانون دون ان يقرّ عليهِ رأي المجلس فلم يمرّ من ذلك العهد اسبوع الا سنّ المستر كلفورد لويد قانوناً للبوليس مجحفاً نشأ عنهُ انتشار اللصوصية والسرقات في كل ناحية وصوب ووضعهُ في عالم الاجراء دون ان يفكر بعرضه على ذلك المجلس فاقام المجلس الحجة ونشرت الجريدتان الرسميتان حجته ولكنها لم تجده الا تظاهر المستر كليفورد لويد بكونهِ العدو الالد المستدر لهُ في حين وضع المستر غلادستون واللورد دوفرين معظم الرجاء والامل فيهِ (المجلس) ولم يفتر يوماً واحداً عن ان يحقرهُ ويدوس حقوقهُ

ولقد علم القريب والبعيد بالكيفية التي عاملهُ بها ليكرههُ على تقرير قانون بلدية الاسكندرية اذ اوسعهُ اهانة وسباباً وخرج في اثناء الجدال قبل اختتام الجلسة حانقاً كما لو كان سيداً هاجهُ الغيظ فاراد الانتقام من عبيدهِ فرفع المجلس الحجة ايضاً ونشرتها الجريدتان الرسميتان ولكنها لم تأتِ باكثر مما اتت بهِ الحجة الاولى

ذلك هو المنهج الذي انتهجهُ المستر لويد نحو المصريين الذين يزعم الان انهُ يتكلم باسمهم — يؤكد انهُ كان معضداً في ادارته بفتيان من المصريين فليأذن لي بان ارتاب في صحة قولهِ فاني لا أعرف من أولئك الفتيان الا واحداً اراد ان يعضدهُ ولو فآء الى الحق لقال انه لم يكن محاطاً الا بموظفين من الانكليز اما لكونه اختلق لهم مصالح رواتبها وافية او لكونهِ رفت الموظفين الوطنيين واستبدلهم بهم وليس من يجهل مقدار ما ثقل على الخزينة المصرية ذاك التجديد والبديل وكفى بهِ انهُ احد الاسباب الداعية بنا الى المصاعب الحاضرة

والادارة الوطنية الوحيدة — خلا مجلس النواب — في مصر هي المحاكم الاهلية المؤلفة من بعض القضاة الاوربيين وعدد عظيم من الفتيان المصريين الاذكياء المهذبين وهذه الادارة قد اثار عليها المستر لويد حرباً عواناً فانه عرقل مناهجها وتهددها بالحل والمطالعات الرسمية بالمرصاد شاهدة على صحة ما أقول والمستر ماكسويل النائب العمومي عن الحضرة الخديوية لدى المحاكم الاهلية الحسن السلوك المحبوب كثيراً من المصريين قد اضطر ان شكا من اعمالهِ مراراً تارة للحكومة الانكليزية وطوراً للحكومة الخديوية وكثيراً ما تداخل المستر بارنج ليهدي المستر لويد الى الرشد والصواب ويمنع وقوع ما يشوش الافكار

هذا هو النمط العجيب الغريب الذي عضد بهِ المستر لويد المصريين وامانيهم وهو يزعم انهُ لسانهم

اما الاصلاحات التي يدعي انهُ اجراها فاليكم الشرح عما توازي قيمتها لدى من يقدر الامور قدرها

اكد هذا المستر ان اللورد دوفرين هو الذي أبطل الضرب في مصر

فتلك غلطة (ولا اطلق عليها الا لفظة غلطة لانها اختيارية) من اغلاط عديدة لان الضرب أبطله الوزير المؤتلفة اليه قلوب المصريين رياض باشا على عهد المراقبة الانكليزية الفرنسوية . ولا أقول انه أبطل مطلقاً فقد بقي له اثر في بعض الزوايا والاطراف من المديريات البعيدة على انه لم يعمل به قط في القاهرة وانما المستر كليفورد لويد اعاد العمل به اليها فقد كثر ما استخدمه تحت سطوته صديقاه المستر شانك كروك مدير سجون القاهرة ومدير سجون الاسكندرية ولما اراد المستر ماكسويل ان يجري التحقيق على هذا المنكر عارضه المستر لويد وأفضى الامر بينهما الى تداخل المستر بارنج لفصل الخطاب ووضع حد للخلاف .

هذا ولا بد ان تكون عواطف قراء التمس تحركت لدى مطالعتهم ذاك الشرح المستوجب الحنان والرحمة - الذي وضعه المستر كروك شانك واستخرجه المستر كليفورد لويد — بيد انه غير مستكمل وينقصه امر واحد هو تمثيل المستر كروك شانك يضرب بيده السجناء والمستر لويد يصدق على عمله رغماً عن ممانعة المستر ماكسويل المنفعل من عامل الظلم

ولا أقف عند هذا الحد دون ان أدون خبر إفراج المستر لويد عن السجناء بهيئة استبدادية جرّأت الغير على ارتكاب الجرائم وهونت عليهم اقتراف المحارم . زعم انه أبطل الاستبداد بوضعه قانون البوليس فساء ما زعم وهو في الحقيقة لم يبطل الا سطوة الحكومة لانه باعدامه سلطة المديرين وملاشاته نفوذهم خوّل مطلق السلطة الى رجال من البوليس جهال غشومين هدموا اركان النظام وقوّضوا أسس الامن فصارت الحالة الى ما لم يسبق له مثيل من قبل ولم يمر على مصر زمن جرى فيه القتل

والنهب واللصوصية بمثل ما جرى في هذا الحين ولا عجب في ذلك فانه امر طبيعي مدرك حدوثه بعد اذ أطلق المستر لويد لا أقل من الف سجين بدعوى انهم مظلومون وجلهم محكوم عليهم قانونياً وآخرون لم يحاكموا بعد

ولكن على من يرجع الخطأ — اذا كانت المحاكم غير متقنة النظام فان عمالها قليلون وان كانت موصوفة بالمماطلة غير المحمودة عواقبها فالتبعة على المستر كليفورد لويد لكونهِ بذل جهده ليمنعها من العمل واحتج بانهُ لم يجد دراهم ليخصصها لها في حين وجدها غزيرة ليجريها على اصدقائهِ واخصائهِ الذين جدّد لهم المصالح من حيث لم يكن لها اثر

كل هذه الاجراءآت التي أتيت على ذكرها اصبحت الان كنار على علم وهي تكفي لتبرهن على حبوط مساعي الانكليز ونشرهم الفوضى في مصر. وقد قال المستر هورنبي احد اصدقاء لويد (بمقالة اذاعها في البال مال غازيت محامياً بها عن صديقه وموجهاً التنديد اليَّ) ان هذه الفوضى — وهو يعترف بوجودها قطعاً — ناشئة عن كون الانكليز لم يوجدوا وحدهم في مصر فهو قول خطأ محض لان الانكليز من يوم دخل اللورد دوفرين مصر الى يومنا هذا قابضون على ازمة الاعمال المالية والادارية والعسكرية والسياسية وليس لهم سبب ينتحلونهُ للشكوى من معارضة اجنبي او وطني لهم وقد امست ارادتهم في البلاد شريعة مطلقة يجرى على حكمها. وسطوتهم تحاكي سطوة المماليك او سطوة المغفور لهُ محمد علي باشا وانما نتيجة ذلك كلهِ كانت الخلل في كل عمل

ولا أدري ماذا يريد المستر هورنبي في قولهِ « ان الانكليز ينبغي ان

يوجدوا وحدهم » فاذا عنى به انهُ يجب طرد كل الاجانب من مصر ليخلو الجو للمعتمدين الانكليز ولا يبقى ازاءهم الا اولئك المزارعون المساكين (الذين مرَّ بهم ٤٠ جيلاً وهم تحت ربقة العبودية) ولا محامي عنهم منهم فاستدرك عليه ان مصر ليست الهند. واذا اراد به انهُ يجب رفت الوطنيين وادلاء الوظائف كلها الى الانكليز فلا اظن حينئذٍ انه يمكن اجراء اقل اصلاح بل اؤكد ان عدم الرضى يزداد وينمو ويجهر به اكثر مما في كل اوان واذا قصد به ما يخشاهُ المصريون من التسبب بخراب مصر لانحال وسيلة لدى اوربا للاستيلاء عليها فهنالك لا اقدر ان أصف سياسة قلة الاخلاص التي تفقد انكلترا ميل جميع الشعوب اليها بل تجعل جميع الشرقيين حانقين ضدها الى الابد

قضى المستر هورنبي بان ليس بين المصريين شخص واحد ذو ادارة. فهو حكم شديد القسوة ولو كلف هذا المستر نفسهُ بمطالعة الكتب الزرقاء لعرف منها ان المعتمدين الانكليز كثيراً ما امتدحوا اهلية كثيرين من رجال حكومتنا المصرية ان في السياسة او في الادارة وعندي ان الادنى من رجال مصر الاداريين أعلى من صديقهِ المستر كليفورد لويد ولديَّ ما يثبت ذلك بالبراهين

يوبّخ باشواتنا لتوظيفهم في دوائر الحكومة انسباءهم واصدقاءهم فلو فرضنا ان ذلك حقيقي وقابلنا بين عدد ورواتب هؤلاء الذين وظفهم الباشوات من عهد المرحوم محمد علي باشا الى حين وصول اللورد دوفرين الى مصر وبين عدد ورواتب الذين نالوا بدون عناء وظائف بواسطة تعطفات المستر لويد وغيره من كبار المصلحين الانكليز بمدة سنتين لرأينا ان هؤلاء يفوقون اولئك عدداً ورواتباً.

ولقد اوضح ان الدين الاسلامي غير مضاد لنشر المدنيـة (وهذه هي النقطة الوحيدة التي اوافقه عليها) ثم أكد ان مسلمي مصر يكرهون الاتراك وانهم لو خيروا بان يحكمهم جلالة السلطان او امبراطورة الهند لاختار كلهم الاخيرة . فليختبر الانكليز الامر ولكن الاستمساك بمثل هـذه المستحيلات سخرية بالعالم الانساني فلا خفاء ان الدين في الشرق هو كل شيء ومن اجل ذلك لا أشير على الانكليز بان يختبروا مسلمي الهنـد فيما يقترح المستر هرنبي ان يختبر بهِ مسلمو مصر واني لفي يقين من انهم اذا فعلوا رأوا رعاياهم الهنديين يفضلون الحضرة السلطانية خليفة المؤمنين على امبراطورة الهند . وانه ليصعب جدًّا على المرء ان يشاهد رجال الانكليز يدعون بوقاحة انهم محبوبون في مصر وهم لم يجلبوا عليها الا الخراب والدمار دون ان ترتعش فرائصهم وخصوصاً اذ يراهم لا يثبتون هذه الدعوى في جرائدهم الا متخذين الاحتياطات اللازمة لمنع نشر الرد عليها وتخجيلهم ازاء جسارتهم التي لا يطاق احتمالها

والمصريون معدن الوداعـة وعندهم الشعائر النبيلة والاحساسات الرفيعة نحو القليلين من الانكليز الذين يحسنون التصرف معهم او الذين لا يسيئون اليهم كالمستر ماكسويل النائب العمومي عن الحضرة الخديوية لدى المحاكم الاهلية والمستر فنسان المستشار المالي

اما غالبية رجال الادارة من الانكليز فقد عاملوهم بالعسف والتحقير والفظاظة فنفرت عن انكلترا قلوب المصريين ولا خفاء

ان القلوب اذا تنافر ودّها مثل الزجاجة كسرها لا يجبرُ .

وهيهات ان يطفأ لهيب غضب استكنّ في الافئدة وسعيره يتلظى ويمتد ولسانهُ يندلع

وفي يوم ٤ اغسطس اهدى اعيان مصر ونوابها الى سليم بك وبشاره بك نقلا الساعتين الذهبيتين المكتوب عليهما شعائر وطنيه والكتابين الوارد نصهما بترجمة الفقيد في صدر هذا الكتاب وذلك على اثر الجهاد العجيب الذي جاهده الفقيد في اوربا يومئذٍ تاييدا لحقوق مصر وفي يوم الاربعاء ٢ اغسطس صدر امر من نوبار باشا مبنى على قرار من مجلس النظار بتعطيل الاهرام شهراً واقفال مطبعته انتقاما من هذه الخطة وبعد مداولة استمرت ٣٢ يوماً اعتذر رئيس النظار ومحافظ الاسكندرية بزيارة رسمية وكتاب رسمى الي قنصلية فرنسا عن ذلك العمل الاستبدادي وفتحت ادارة الاهرام بحضور مندوبين من قبل الحكومة وكان ذلك لهـا فوزاً جديداً عظيماً

سنة ١٨٨٥

قال في ٣١ اغسطس مشيراً الى طريقة حل المسألة السودانية

بحثنا امس في المسألة السودانية وقلنا انا سنبحث اليوم في الطريقة الفضلى التي يحسن اتباعها لحلها فعملا بالوعد نقول

اشارت الحكومة الخديوية بتجريد حملة مصرية على دنقلة يعقد لواؤها لرجل مصري فجاء ذلك منطبقاً على الرأي الذي بثثناه من منذ سنـة ولا

غرو فان تجريد هذه الحملة يقرّب مصر من الخرطوم نقطة الفتنة المركزية ويمهد السبيل الى حسم النازلة

الا انهُ اذا تقرر امر ارسال الحملة اليوم فيقتضى لانفاذهِ نحو ثلاثة شهور فيجب والحالة هذه التعجل في تقريرهِ قبل فوات الفرصة

اما القوة المطلوبة فيمكن جمعها فوراً اذ لمصر في الحدود نحو اربعة آلاف جندي ولديها عدد من حامية دنقلة (التي قدم منها قسم الى مصر وسيقدم القسم الآخر قريباً) فيمكنها ان تنتقي منها نحو الفي جندي وهكذا يسهل جمع عشرة آلاف جندي

واما الدرهم فلا يعز علينا وجودهُ فان لنا من القرض الجديد مليون جنيه على ان التجريدة العثمانية تكلف اكثر من التجريدة المصرية وان قرّ القرار على إرسالها فستكون نفقاتها على الخزينة المصرية

فيستنتج اذن ان القوة والدرهم غير بعيدين عنا متى صفت منا النية وحسنت الادارة

وغير خافٍ ان في المسألة السودانية عاملين يحركان الفتنة أولهما المبداء الديني وثانيهما الميل الى شن الغارة وحب الاستقلال فاذا تحقق موت المهدي ايقنا بزوال العامل الثاني واضمحلالهِ اذ ان غالبية قبائل السودان مصافية لزعماء الثورة وليس ثمت ما يدعو الى شن الغارة

وحيث ان تسيير الجيش مستحيل في الحال. فيحسن بنا ان نغتنم الفرصة لمقاومة المبادئ المذهبية بالاصول الدينية مضافة الى السياسة والقوة وذلك بان ترسل الحكومة منشوراً الى جميع زعماء القبائل (وخصوصاً القبائل المتذبذبة او التي مالت الى المهدويين كرهاً وهي في الباطن ميالة الى الخضوع للجناب

الخديوي المعظم) مبنياً على النصوص الدينية باستخارة حضرة العلماء والاشراف وارباب الاشاير موقعاً عليه من رجل عرف السودان وترك فيها الآثار المحمودة باسم سمو الجناب الخديوي المعظم نائب جلالة الخليفة امير المؤمنين الاعظم متضمناً المقابلة بين حالتي السودان قبل ظهور المهدي وبعده وتعداد المصائب والرزايا التي نجمت عن الثورة مبيناً فيه كيف ان المهدي دمر المنازل واراق الدماء وسبى الاعراض وخرب البلاد وشتت سكانها الامناء ايدي سبأ مختتماً بما مفاده « ان المسلمين عموماً والعلماء والاشراف منهم خصوصاً قد اجمع رأيهم على حسم النازلة السودانية ونوط هذه المهمة بفلان الذاهب اليهم بامر الجناب الخديوي نائب امير المؤمنين الاعظم »

هذه هي القوة الدينية التي تفند مزاعم الثائرين وتدحض مدعياتهم الدينية

اما القوة السياسية فتنحصر في اهلية الرجل المنتخب للقيام بهذه المهمة اذ بحكمته ودربته ودرايته يمكنه ان يحقق الاماني

واما القوة الحسية فهي تعزيز المأمور المصري بعدد من الجنود المصريين لا يقل عن عشرة الآف كما تقدم والاسراع بجمعها لتكون مصاحبة له وفي ذلك خدمة لمصر والدين الاسلامي ورفعة شأن المسلمين

وكتب في ١٠ ستمبر عن الغاء السخره

من قلب صحف التاريخ مراجعاً وثق بان الغربي لم يتخذ في مراقبته الشرقي سبباً يتوكأ عليه للتداخل في شؤونه الا احتجاجه بكون الفئة

الفقيرة الشرقية تسام الخسف من الفئة الغنية بمساعدة الحكام . ولم تشب لظى حرب شرقية مع غربي الا كانت مبنية على دعوى الاجنبي المحاماة عن الفئة الفقيرة وبهذا السبب عينه قام التداخل الاوربي بمصر ولم تبرح بريطانيا متمسكة بهِ وحسبنا ماكان منها في مسألة الكرباج والحبوس حتى امسى اللص شديد الميل الى ملازمة المحابس اذ يرى فيها ما لايراهُ في بيتهِ من جودة المأكل ونظافة المقام

اجلْ ان هذا السبب كان الباعث على التداخل الاوربي في كل مسألة شرقية واخصها مسألة مصر مع انكلترا ولم يفتنا ان مصر لما سألت اوربا تخفيض معدل الديون ابت عليها ذلك مستندة باباءتها على ان الذين يدفعون الحكومة الى هذا السؤال انما هم ارباب الفئة الغنية اصحاب الاطيان . نتج من ذلك ان كل مسألة تتعلق بالعامة لا بد من انفاذها وقد حفظت اوربا هذا المبدأ مع المشرق فمن العبث المعارضة فيهِ

ولعل القارئ لا ينسى ما اتاهُ الجناب العالي يوم تولى الاريكة الخديوية من الاعمال الشريفة اذ اصدر امرهُ الكريم بالغاءِ عوائد عديدة كانت ثقيلة الحمل على كواهل الفئة الفقيرة وما كان لذلك من الوقع الحسن لدى الجميع واني لم افتتح هذا البسط الا تمهيداً للقول بالغاءِ المونة فهو خير اصلاح تاتيهِ مصر في ظل سمو اميرها كيف لا وهو خدمة انسانية يتطلبها العدل ويقضي بالنظر في الذرائع الموصلة الى القيام بها وذلك ما اردنا شرحه في هذه العجالة

والذي ارى ان السخرة نكبة على الانسانية فالغاؤها واجب ولا عبرة بما يقوله بعضهم من ان مصر لا تقوى على الغائها اذ لو تذكروا ان السخرة كانت

جارية في اوربا بكثرة ثم ألغيت تماماً وان عدد الذين كانوا يستخدمون للسخرة في مصر قبلاً يبلغ اربعة اضعاف عددهم الحالي ومع هـذا وذاك لم تتوقف الاشغال في الجهتين حين قالوا بان لا غنا لمصر عن السخرة . واما اعتراضهم على فساد العمل فان حسن الادارة يكفل الضبط والربط مهما كانت الموانع

وان لنا بالغاء السخرة تخفيفاً مهماً عن الفقراء تلقاء ما يتحملونه من التعب وانفاق الدرهم لمرضاة هذا الكاتب وذاك المهندس وذلك الشيخ فضلاً عن استخدام المشائخ اياهم بالسخرة في اراضيهم . ولا خفاء ان التمسك بعدم الغاء العونة يدفع الاوربيين الى سوء الظن بنا فيقولون ان ذوات مصر ونواب البلاد لم يأنفوا من الغائها الا رعاية لمصلحتهم الخاصة لانهم اصحاب اطيان واسعة

وبناء على ما ذكر نرى ان الحكومة مصيبة في ما ارتأت اللهمّ اذا تمكنت من نيل تصديق الدول على لائحتها ولكن اذا عارضتها اوربا في ذلك ولم تشاء الا استخدام المبلغ المذكور لتخفيف الضرائب ولكن عن الاطيان القايلة الانتاج التي اصحابها فقراء

واذ قد تقرر بالبرهان ان الغاء السخرة واجب وان ليس في ميزانية الحكومة مبلغ يخصص لذلك بعد صرف المبلغ المخصص لتخفيف الضرائب اقتضي ان تضرب على الاطيان اموال يكفي مجموعها لالغاء العونة . واذا اعترض بعضهم على ذلك بكون اموال الاطيان ثقيلة فلا تتحمل زيادة وارتأى بان تكون الضريبة على الاشخاص أجبنا ان الاشخاص لا يتمتعون انتفاع ارباب الاطيان فان الري لخدمتهم ولذا لا يحسن عدلاً ان نقضي عليهم بعمل

تصيب فائدته سواهم بل يحسن ان تلقى الضريبة على الاطيان بالانصاف وسافيض في هذا الموضوع برسالة أخرى

وقال في ٣٠ اكتوبر حين وصول السير دروموند وولف الى مصر مرسلاً لحل المسألة المصرية بالاتفاق مع دولة الغازي مختار باشا

وصل السير وولف الى مصر يحمل صورة الوفاق العثماني الانكليزي المقصود به تحقيق الاصلاحات المنوية الممهدة سبل الجلاء عن مصر بناء على ما يرجوه العثمانيون وتوصلاً الى تحقيق ما يقوله الانكليز في منابر الخطابة وصحف الاخبار

ومن البين ان انكلترا لم تقصر الى الان في تفحص المسائل المصرية ولكن المتفحصين قصروا في واجباتهم اذ احتقروا الغير وعملوا على انفاذ مآربهم فتعذر عليهم نيل ما سألوا وكان من وراء ذلك ان نفرت مصر واوربا منهم وطلبت الثانية وجوب احترام حقوقها والمحافظة على المواثيق الدولية فلم يسعهم الا القبول بطلبها وكان لنا من الوفاق المالي برهان صريح على ذلك

أجل ان رسل انكلترا لم يختم عملهم بالنجاح لانهم اشتغلوا لمصلحة بلادهم فقط فلم تظهر نتيجة تذكر لاعمال اللوردين دوفرين ونرثبروك . اما الان وقد اتانا السير وولف فاعين الجمهور تحدق به فاذا وجه وجه عنايته الى خدمة مصلحة بلاده فقط تحت ستر التظاهر باصلاح شؤون مصر واحترام السيادة العثمانية فسدت النتيجة حالاً والعكس بالعكس فنجاحه إذن متوقف على اخلاص نيته ونية حكومته لان اصلاح شؤون مصر سهل على شريطة ان لا يستخدم

لغايات أخرى . ولا مراء ان الشعب المصري بدأ مذ الان بمراقبة اعمال المندوب الانكليزي وكذا الرأي العام الاجنبي وهو ينظر الى الافعال لا الى الاقوال

وقال في ١٦ نوفمبر في نص الوفاق الذي عرضه السير وولف

وقفت على شذرات من الوفاق الانكليزي العثماني فبعثت بها اليكم واسترسلت منها الى الكلام في جوهره وملخصه فجاء طبقاً لما نشرتموه عن التمس ونقلتموه عن مكاتيبها في عواصم اوربا . ثم قد ساعدني الحظ اليوم فاستحصلت على بنوده باسرها فتلوتها واحدة واحدة فرأيتها منطبقة على ما لخصتموه منها في عدد يوم السبت . ولا يخفى على القارئ ان اهمية الوفاق المذكور محصورة في ثلاثة أمور اولها ان الجناب الخديوي والمندوب العثماني يريان في حسم النازلة السودانية ولكن يجب تصديق المندوب الانكليزي على ما يقرارنه . وثانيها ان ينظر المندوبان بالاتفاق مع الجناب العالي او المندوب المصري في تنظيم احوال الادارات وترتيب شؤونها . وثالثها ان يرفع المندوبان العثماني والانكليزي تقريراً وافياً الى حكومتيهما بعد ان تحصل تخوم مصر على الامان والسلام وتأييد حكومتها تأييداً حقيقياً وعندئذٍ ترى الدولتان في ابرام وفاق يحتوي على شروط الانجلاء وكيفيته

فاذا تأملنا في جوهر هذا الوفاق وجدناهُ دالاً على مهارة السير وولف لكونه مفيداً لدولته اكثر من افادته لنا لعلة ان ما يمكن تنظيمه لا يعتبر ما لم يصدق هو عليه . ولقد ساءنا من ذلك ان أسقطوا من نص هذا الوفاق ما كنا علمنا به قبلاً عما يتعلق بتنظيم الجيش بان يؤتى بالفي جندي عثماني مع

ضباط من ضباط السلطنة ليندمجوا في سلك الجيش المصري . فهذا الشرط مع كونه اضمن جميع الشروط لمصلحة السلطنة قد حوروهُ لاسباب واهنة قيل ان في جملتها الخوف من اولئك الجنود العثمانيين الذين يدخلون في سلك الجندية المصرية يبثون في التركية روحاً ثورية لانهم يستوفون من مصر رواتبهم تامة في اوقاتها خلافاً لما كانوا يعاملون به في الجندية التركية . وعندنا ان كل ذلك لا يعول عليه وان تحوير هذا البند كان مضراً جداً

واهم ما في الوفاق المذكور اعتراف دولتنا باحتلال انكلترا مصر حتى تنظم احوالها . فهذا الشرط دقيق ولهُ توجيهات عدة لا تخفى على المدقق ولكننا مع اقرارنا بارجحية فائدة هذا الوفاق لانكلترا اكثر منها لنا لا نيأس من ادراك المرام ومرجونا ان يحقق دولتلو المختار امالنا فيذهب بنا من بحر الخوف الى ساحل الرجاء ويرينا للوفاق المذكور فائدة تذكر فتشكر وليس ذلك على همة دولته بعزيز

وكتب في ٧ دسمبر حين احتلت ايطاليا مصوع وفيه اشارة غريبة الى ما وقع بعد ذلك من الحرب بين الحبشة وايطاليا

اهم اخبار اليوم ما اتتهُ ايطاليا من إنزالها الراية المصرية في مصوع وإجبار حاميتها على الجلاء واحتلالها المدينة مدنياً بعد اذ كانت احتلتها عسكرياً فعجبنا لاندفاع هذه الدولة على نقض المعاهدات ونبذ الحقوق والمواثيق على علمها بان مصوع جزء من مصر وبالتالي عضو من المملكة العثمانية فباي حق ساغ لها ذلك وبأي دستور تجرأت عليه الا بقولها ان القوة قبل الحق

وهو قول تعتز به كل دولة حاضرة بعد فقد الموازنة الاوربية ثم لم نعجب لعلمنا بان ايطاليا لم تذهب الى مصوع الا لهذا او لمثله فقامت تتربص لنفسها نهزة العمل حتى رأت اوربا والدولة العلية في شاغل في البلقان وانكلترا في اعتكاف على الانتخابات فاغتنمتها غنيمة باردة ولكن على غير خبرة او سياسة وهو شأن كل ضعيف طموع اذا ربح ما يوازي ذرة استكبر وعتا ولعله لا تنال من هذا الربح القليل الا خسائر باهظة

ولقد احفظ حكومتنا الخديوية هذا النبأ المرسل اليها من محافظ مصوع بطريق سواكن فاجتمع حضرات النظار عند الجناب العالي وتفاوضوا في شأن هذا الامر فقرروا إقامة الحجة ثم إبلاغ الجناب السلطاني بالواقع وعلمت ان قد كتب الجناب العالي للذات الشاهانية بمفصل الخبر ومجمله

اما الباب العالي فلا نراه مستعداً لمناوأة ايطاليا في الحال ولا نعلم ما سيكون منه دون اقامة الحجة واما اوربا فامامها شغل شاغل اهم من نقطة مصوع فلم يبقَ علينا الا ان نرى ما ستجريه ايطاليا فنقول

غرّ هذه الدولة الغرور والطمع فامت مصوع لاقامة مستعمرة فسيحة الجوانب مخصبة الارض وخيل لها ان مجرد احتلالها مصوع يتيحها هذا المرغوب ولم نزل نذكر من لغط جرائدها وخطب وزرائها ما يكون برهاناً على كلامنا مما عارضناه في حينه بحجة ان مغبة الامر سيئة من كل وجه ثم لم يمضِ بضعة اشهر حتى رأينا ارواح العساكر تتطاير الى ربها زرافات لرداءة الهواء والحامية تقاوم فيما بين ذلك الاهوية ونفور القبائل القريبة حتى هاج الرأي العام الايطالي فطلب اذ ذاك عزل السنيور مانشيني وزير الخارجية

فعزل وكان هذا اول نتائج البعثة الافريقية والله اعلم بما ستكون نتيجة العمل الاخير ولعلها ستأتي اسوأ من الاولى واليك البرهان

قلنا ان ايطاليا قصدت بذلك غنيمة باردة فوقعت منها على بلية عظيمة ولقد تسترت قليلاً بالسلطة المصرية فكفت بذلك أيدي الحبشة والعربان المجاورة حتى برح الخفاء فاضحوا امامها لا يمنعهم عن الانتقام مانع ولا سيما ملك الحبشة وقد مزق سواه تلك العهدة المشهورة فلسنا نراهُ يرضى بوجود دولة عظيمة تقبض على مفاتيح بلاده وتحمي فرضتها الوحيدة بل لا نستغرب اتحاده بالعربان لمقاومة ايطاليا ومن ثم تقوم في وجهها الصعوبات وتتشعب العقبات فلا تكون هنالك اقل ارتباكاً من انكلترا في السودان وفرنسا في التونكين على علمنا بانهما اقدر منها على تحمل المشاق والنفقات لالفتهما اياها دون ايطاليا

سنة ١٨٨٦

قال في ٧ دسمبر عن سياسة انكلترا في ارلاندة وهو احكم ما يقال في هذا المعنى ولا تزال الحوادث الى الان تؤيد صحة رأيه فيها

أخذت مسألة ايرلاندا الاهمية الاولى في سياسة انكلترا وانبرى الحزبان الى العمل فيها واخذت الحكومة في استعمال الحزم وقد تضطر الى استخدام القانون الاكراهي ولا بدع ان يكون نواب ايرلاندا عاملين على تحقيق ذلك لتأكدهم ان الاكراه يستلزم فتح ابواب المسأله الايرلندية فيقع الخلاف حتى

في حزب المحافظين ويرجع المنشقون من الاحرار الى ظل غلادستون وتتساوى قوة الاحزاب فيستحيل سير اية حكومة كانت حتى لا تبقى ندحة عندئذ عن حل البرلمان وقد لا تكون نتيجة الانتخابات باحسن من النتيجة الحالية وهي مسألة دقيقة لا ينال منها احد الحزبين اقل فائدة

ولا نرى لانكلترا غنى عن حسم النازلة الايرلندية ونظن ان حسمها يجعل بريطانيا في مركز سياسي أقوى من مركزها هذا ولا سيما في سياستها الخارجية فان تغير الحكومات او ضعف احدادا وعلى الخصوص في بلاد كانكلترا وفرنسا يجري فيهما الدستور النيابي مما يفقد تلك الحكومة كثيراً من شوكتها ونفوذها في الاعمال الخارجية وهو ما بيناهُ كثيراً في رسائلنا وبودنا ان تسعى الدولتان في حسم مشاكلهما وتتعاقدا على تأييد السلام فانهُ مما يجلب لشرقنا خير الفوائد

وقال في ١٠ فبراير عن المسألة البلقانية ابان اشتدادها على اثر حرب البلغار والصرب

لا تزال اخبار المسألة البلقانية شغلاً شاغلاً لافكارنا وخوفا مستمراً لقلوبنا من تحقيق الطور الذي تكلمنا عنهُ من قبل فان سياسة الدول في مسائل الشرق لم توجه قط لمصالح شعوبه بل لمصالحهنَّ الخاصة وهو امر متتابع لم يعرف رجال الشرق ان يستفيدوا منهُ بل نرى انفسنا يؤدي بنا الضعف الى الاستمساك باسباب واهنة نتوهم بها العوض عما فات ثم تأتي النتيجة على عكس امالنا تماماً كما رأينا في مسألة الروملي الاخيرة

ولقد ظن رجال السلطنة ان فض المشكلة مع الامير اسكندر تبعاً لما تقول انكلترا يكون فيهِ خدمة صادقة للدولة العلية لوضعه حاجزاً حصيناً دون اطماع الروسية ولكن فاتهم ان هذه الدولة تدرك ما ادركناهُ فلا ترضى بما نقول وهي أقدر من سواها على الانتقام ويؤكد كثير من المدققين ان الروسية قد نزعت في سياستها اخيراً منزعاً جديداً لم يكن الا لنكاية انكلترا وان ما من حيلة لتدارك الاضطراب وملافاة الخطب الا اذا عني الشيخ الفاضل غلادستون بذلك لما بينهُ وبين رجال الروسية من حسن الصلات فان لم يفعل فلا ينحصر خوفنا في فتح ابواب المسألة الشرقية فقط بل من فتح مسألة افغانستان ايضاً

وان اباءة الروسية إرسال سفنها الى حيث سفن الدول برهان متين يؤيد ما قلناهُ وانا لا نزال نقول انهُ متى مالت الروسية عن سيرتها المخلصة في سياستها الشرقية كالتي كانت في بدء مسألة الروملي فهناك نخشى من الحرب الدامية او من زيادة الارتباكات الى حد تعجز معهُ الوسائط السلمية والتظاهرات الدوليـة

وكتب في ١٥ فبراير عما آلت اليه بعثة السير درومند وولف

كلما اجلنا النظر في مطالعات بعثة السير وولف الرسمية تبينا فيها أموراً جديدة تنقبض لها القلوب وتيأس منها النفس كيف لا وقد اعلن السير وولف لمندوبي الدولة العلية ان احب شيء لانكلترا الجلاء عن مصر على شرط ان يستعاض عن جيشها بجيش عثماني ثم لكي يسهل الامر قال انـهُ

كلما اتت فرقة عثمانية تنجلي لها فرقة انكليزيـة وهكذا حتى يستبدل جميع الجيش غير ان العثمانية أبت ذلك بحجج اشبه بحجج يوم الثورة العرابية التي كان من عاقبتها ان دخلت الجنود الانكليزية الى مصر والله اعلم بما سيكون من نتائج هذه الحجج الاخيرة

وقد ادعى لذلك مرخص العثمانية ان ارسال جيش الان من المستصعبات لاضطرار الدولة بعده الى جمع غيره وهو مستحيل في الحال غير انهُ قد يمكن التحصل على جيش متطوع ولكننا لا نجزم بذلك لما يحول دون جمعه من الصعوبات . تلك هي الاسباب الظاهرة التي اعلنها المندوبون العثمانيون والله اعلم بالسرائر على انها كيف كانت فلا تخرج عن دائرة اللوم

واعجب من ذلك اننا نرى اليوم الدولة العلية تتحمل اثقال المصاريف مع فراغ خزينتها لمنع فقدان قيد باع من ارض هي من اشد اراضيها جدباً فكيف تسنى لها جمع جيش كثيف لحفظ تلك الارض وتعذر عليها تعيين قسم منهُ لمسألة مصر التي هي اهم المسائل وكفى ان مصر هي قلب مملكتها وباي لسان تلوم الانكليز وهي المسببة لهم اطالة مدة احتلالهم فضلاً عن العلل السابقة واللاحقة . انا لله وانا اليهِ راجعون

او لسنا نعلم ان قوة الانكليز في قطرنا قائمة بالسيف فقط وهو ما خولهم مركزاً عظيماً تجاه اوربا القادرة وحقوقها الثابتة ألم يكن ذلك اولى بالدولة العلية ام لا يدري رجال السلطنة ان هذه السياسة مما يضعف قلوب العثمانيين في كل انحاء المملكة اذ يرون ان ما كان سبباً لهبوط نفوذ المملكة العثمانية في مصر ممكن في غيرها من الجهات وهي حالة لم يكن في ودنا ان نعلمها ولكن ابت تقاليد الانكليز الا ان تكشف المخبآت وانا لا ننكر فضل

الدستور الانكليزي فبمطالعته الرسمية من جهة وخطب وزرائه من جهة اخرى يقف العموم على ما هنالك من السياسة وان يكن يخفى بعضها وبعض العلم خير من الجهل

وكتب في ١٦ ابريل عن الدول البلقانية ما لا يزال ينطبق على حالها الى اليوم لصحة الحكم فيه

اذا تفحصنا حالة الشعوب البلقانية وراجعنا حوادث كل مملكة وامارة منها قبل الحرب العثمانية الروسية الاخيرة وبعدها بان لنا بجلاء انها كلها انما سعت وتسعى الى غاية واحدة هي الاستقلال وما وسائطها الا الاعتضاد بهذه الدولة او تلك المملكة بحسب اختلاف الظروف

ففي بادئ الرأي كانت رومانيا آلة صماء في يد الروسية واليونانية قبلها وسربيا بعدهما ولم يكن للدول ما خلا الروسية نفوذ في شبه جزيرة البلقان ولبثت الحالة على هذا النمط حتى استقلت رومانيا وسربيا واليونانية فاخذت كل منها تتزلف الى دولة أخرى لا عن ميل قويم بل للتخلص من الروسية وللحصول على الاستقلال الفعلي وعلى هذا الطريق سلكت بلغاريا اخيراً فجاء ذلك مصداقاً لما اثبته الكتاب العظام من ان العنصر الحي لا تقوى الحوادث على اماتته بل على اضعافه ولكن متى سنحت له الفرصة نشط الى العمل فنال ما يرغب فيه

وبناء على ما بسطناه يعلم ان لا بد لهذه الشعوب من ان تتفق على مبادئ واحدة لتؤيد استقلالها وتمنع اي تداخل اجنبي على وجه لا يوجب تعرض

الواحدة للاخرى . ومن هذا القبيل ما جرى في الايام الاخيرة فان اوستريا كانت تود ابتلاع سربيا لو لم ترَ الروسية بالمرصاد لها وهذه كانت تود ذلك لولا خوفها من النزوع الى اعلان حرب ضد اوستريا بل ضد السياسة العامة التي تميل الى تأييد السلام وخصوصاً سياسة الدول الشمالية فاضطرت اوستريا والحالة هذه ان تسهل لشعوب البلقان تأييد استقلالهم لتحول بذلك دون اطماع الروسية

اما الروسية فانها وان تكن مصلحتها تضطرها الى اطراد سياستها الحالية في البلقان توصلاً الى ما تنويه في المسألة الشرقية فالحالة الاخيرة تقضي عليها بقبول ما ترسمه الحوادث حتى تتأيد مبادىء البلقان الاستقلالية وتدخل المسألة الشرقية في طورٍ جديدٍ . ولاجل ذلك حولت وجهها الى اعمال آسيا اذ ليس لها ثم مزاحم بخلاف البلقان . وبعد ان كنا نخشى الروسية وسواها من الدول العظمى في الجبال البلقانية أمنا منها نوعاً وأمست النوبة فيها لشعوب البلقان انفسهم

ولقد ظن بعض الكتاب ان في الامكان توحيد الامارات البلقانية وجعلها تحت حماية الروسية او المانيا او الدولة العلية ولكن ظهر للمدققين ان ذلك كان ممكناً قبل الحرب الاخيرة اما الان فتتعذر مطلقاً وان لا بد من توحيد هذه الامارات ولكن دون خضوعها لحماية دولة ما كما ظن هؤلاء الكتاب بل ستكون هذه الوحدة ضد اطماع اية دولة اوربية رامت شراً في شعوب البلقان ومن يعش يرَ .

وقال في ١٩ جونيو عن الحرب السلمية ما ثبتت حقائقه على كرور الايام واصبح محور الدول الراقية في سياستها .

لو نظرنا في احوالنا العمومية نظرة متمعن لحكمنا على الفور باننا في حرب دائمة ثم لو بحثنا في اسباب هذه الحرب لوجدناها محصورة في الطمع بالكسب وهي على نوعين حرب سلاح وحرب سلام فتختص الاولى بطلب الانتقام وافتتاح البلاد حيث تسيل النفوس على ظبي السيوف وشبا الاسنة فتقف حركة الاعمال اي وقوف وتبور سوق التجارة اي بوار الا ان ذلك لا يتمادى امره طويلاً حتى تعود الاعمال الى مجراها فيعتاض الخاسرون ما خسروه وهلمَّ جرًّا الى اصلاح كل ما فسد كما لا يخفى

اما حرب السلام فاشد نكاية واعظم ضرراً لطولها المتناهي بحيث يطرد مثيرها امرها طويلاً فان نجح اضر بكثيرين وسبب دماراً للعمال ولمن يحاربونهُ فيهِ وعلى ذلك فهي مع تراخي المدة وطول العهد اشد ضرراً من الاولى من حيث المادة وان يكن وجه الشبه بينهما قريباً اذ لا يفوز صاحب حرب السلام ما لم يكن لهُ من النفوذ ما يسهل لهُ اسباب الفوز ومن دون الوصول الى ذلك النفوذ حرب عوان تثير فيها الخيل غباراً ياخذ باطراف العنان وسيوف حداد تحاك لها اغماد من دماء الفرسان وصرف اموال طائلة كان العمران أحق بها من اسباب قتل الانسان

فلو اخذنا سياسة الروسية وحروبها وجدناها كلها لا تعدو سفك الدماء ثم اذا نظرنا الى مركزها بعد ذلك لم نجد فيهِ ما يوازي الدم الذي صرف في سبيل نيلهِ ولا المال الذي انفق في طريق الوصول اليه ولا سيما بعد عرفاننا النتيجة

ولقد وضعت حرب السبعين المانيا في مكانة فوق الحسبان وعرف بسمارك فضل ذلك فاستخدمه لغاياته فكان هو صاحب حرب السلام فتابع سيرته فيه حتى نجح نجاحاً بيناً في اكثر من جهة كما هو معلوم ثم انصرفت انظار المانيا اليوم الى تدبير حرب السلام في جهات المشرق كما ترى

وقد علم بسمرك ان الحرب مضرة بمبادئه كيف كان مبدأها فعمل في منعها بدعوى انه يوطد السلام فنجح غير مرة ، ثم حوّل انظاره الى جهات المشرق ورمى ببصره الى ما يمنع حدوث الحرب ففاز بالرغم عن الحوادث وما غايته في كل ذلك الا توطيد سلطته الادبية في ممالك البلقان والمملكة العثمانية واوستريا نصيرة له في كل تلك المطامح حتى اذا تأيد له ذلك عمد الى تسهيل الرواج لمصنوعات بلاده في تلك الانحاء وعمل على انتشار مبادئه الاقتصادية الى ما يروّج بضاعته الالمانية ويعود عليها بالارباح الكثيرة ويحصر ذلك في مصلحة مملكته فضلاً عما يكتسبه من هذا الامر من اضعاف نفوذ كل دولة غير دولته وتأييد سلطته الاولى في العالم السياسي ومنع ما يحدث من مهددات السلام وفضلاً عن الارباح التي تنالها مصنوعات المانيا . تلك هي سياسة بسمرك في المشرق فهو فيها كغيره من رجال السياسة لا يصنع امراً ما لم يكن فيه على ثقة من الفائدة لوحدة مملكته ومصلحة امته

ومعلوم ان اوستريا على اتفاق معه في ذلك وله من ايطاليا بعض العضد ومثله من انكلترا كما يرى اصحاب السياسة ثم اذا صرفنا البحث الى اسباب الغنى والثروة في انكلترا وجدناها نتيجة هذه السياسة ايضاً فانها قد عملت على تأييد السلام الاوربي واستخدمته بما لها من النفوذ في تأييد مبادئها الاقتصادية

حتى انحصرت التجارة في أيدي ابنائها وليست مقاصد بسمرك هذه بخافية عن رجال الانكليز ولا أظن مصلحتهم تخولهم اسعافه الا مراعاة للاحوال الحاضرة حتى اذا سنحت لهم فرصة لمعارضته قاموا اليها فاغتنموها وهو ليس بالامر الحديث في سياسة انكلترا

ذلك ما رأينا ان نبينه للقراء من دواعي سياسة بسمرك ولسنا نظن الاسباب التي تمنع انكلترا اليوم عن معاكستها ستدوم بل نحن على يقين من انها ستتحول مع الزمن الزمن الى مصلحتها الخاصة . اما اوستريا فهي وان يكن لها من سياسة المانيا بعض الربح فلا بد لها من الجري على هذه الخطة يوماً واما ايطاليا فهي وان لاح لها انها لم تستفد من الزلفى الى المانيا شيئاً فلا تقدر على معارضتها بل تلتزم الصبر على مجامرها لعلها تصدق معامرة واما فرنسا فهي دولة لا نفوذ لبضاعتها في جانب تجارة المانيا لشدة البخس في اثمانها وعلى ذلك فقد كان السلام احب اليها فلزمت جانب المراقبة والترصد فلا تغفل عن الفرصة عند حلولها

ولكن الروسية لا تقبل بذلك فلا بد من ان تعمل على تعديل هذه السياسة اذ يسوءها جدًّا بعد حروبها الجمة ان تحصر الارباح في المانيا ويأخذ مركزها هي دولة غيرها فهي وان رضيت بالحوادث الاخيرة على علمها ان نتائجها مضرة بمصلحتها فليس ذلك منها الا محبة للسلام الذي تقتضيه مصلحة اوربا جميعاً

فاذا عرفنا كل ذلك قلنا هل بوسع بسمرك اجتناب اسباب القلاقل ومداركة كل حادث يسد في وجه الروسية كل باب ام ليس بوسعه . وعلى ما نرى انه لا يقدر على ذلك لا لضعفه بل لان رضى الدول به عن قسر كما بيناه فضلاً عن ان لكل دولة من الحوادث الداخلية ما يلجئها الى حوادث

تساعد بها الامور العمومية على سيرها والمستقبل صاحب القول الفصل في كل ذلك والله تعالى أعلم بالصواب

سنة ١٨٨٧

كتب من بطرسبرج في ١٣ اغسطس عن السياسة الروسية ما حققت اكثره الايام ولا سيما التحالف مع فرنسا

لقد أبقيت رسائلي في سياسة الروسية الى ان وقفت على الاحوال وقابلت كثيرين من الساسة بين روسيين وغيرهم وموظفين وغير موظفين فجمعت ما وقفت عليهِ منهم في رسائل عدة ابدأُ بها مذ الان لان سياسة الروسية تهم الشرق اكثر من سواها من الدول

ان للروسية تقاليد مقدسة يرى كل قيصر وسياسي روسي ان لا بدمن احترامها والسير بموجبها عند حلول الفرصة ولهذا ندد العارفون بغورتشاكوف وهو في برلين بسبب المعاهدةالتي عقدت فيها لان شيخوختهُ قد مكنت أولي الغايات من نيل مآربهم اذ سهل لبسمرك تحقيق امانيه في المبدإ مما جعل الروسية في حيرة من تلك الساعة فتقلبت في اطوارها السياسية املاً بتدارك ما خشيت منهُ ولا تزال سائرة على هذه الوتيرة مؤملة النجاح

وقد استخدم بسمرك الروسية وفرنسا سنة ٦٦ ففاز بسياسته على اوستريا ثم استخدم اوستريا والروسيه ضد فرنسافنال رغائبه سنة ٧٠ واصبحت المانيا صاحبة الشوكة والصولة الا انهُ آنس من مركزهِ الضعف في جانب دولة قوية كالروسية فقال اصلي

نيران القتال واسهل مطامعها في تركيا فتنفر اوربا منها فاغتنم ذلك فرصة لتحقيق الاماني

اما آماله فهي كف التيار السلافي وقسمته الى شطرين فاذا أوقفه بحرب تدخل فيها أقوام أخرى استحال عليه نيل ما يأمل فضلاً عما يكابده من الخسارة الادبية اذ لا توافق الحرب وحدته الالمانية وبذلك رأى ان يستخدم السلاف انفسهم لمحاربة بعضهم بعضاً ورأى ان اوستريا في قبضته وهي ضعيفة واهية والسلاف فيها كثيرون جداً وعندها بقية من الالمان فقال أدخلها في اطماع الشرق كخليفة للروسية فتغتر الروسية بها ثم لا يمضى قليل حتى تخاصما فتنقسم القوتان ولا سيما اذا ساعدتني الظروف

تلك كانت خطة بسمارك فشد عزم الروسية لمحاربة العثمانية ثم ما لبث ان استخدم ضعف الروسية ولو ظافرة من جهة ونفوذ الدول من جهة أخرى فكان من نتيجة ذلك عقد عهدة برلين وادخال اوستريا في اطماع الشرق باخذها البوسنه والهرسك ووجودها امام الروسية في جميع المسائل الشرقية مما شدد المجر في مبادئهم لما بينهم وبين الروسية من التنافر بسبب عضدها للاسرة المالكة في اوستريا ضدهم ولولا ذلك لنالت هنغاريا الاستقلال السياسي وفازت على اوستريا

ثم لم تنته اوربا من عهدة برلين حتى رأينا عامة الروسيين في هياج عظيم فعاد غورتشاكوف كئيباً يضمر الشر والانتقام وفاز بيقنسفيلد واندراسي بالبوسنه والهرسك ونالت الشعوب الاخرى استقلالاً كاملاً ونال بعضها نصف استقلال او ما يقارب الاستقلال الكامل وابتهج بسمرك ولكن ابتهاجاً يمازجه الكدر لانتظاره ما سيكون من الروسية وان يكن في ثقة

من انها لا يسعها اعلان حرب بعد الحرب الاخيرة فاخذ بدهائه يستميلها اليه بكل الوسائل وكان له من القيصر السابق عضد قوي لأنه كان ميالاً للاتحاد مع المانيا ولا سيما لما بينه وبين امبراطورها من المودة والقربى

فلما قتل الاسكندر الثاني تنبه بسمرك لامره لما يعرفه في اسكندر الثالث من حب الاستقلال السياسي فعمل على استمالة العثمانية اليه فظفر بذلك سياسياً اذ ادخل رجالاً المانيين في خدمة العسكرية مؤملاً بذلك استخدام قوة الدولة العلية لاغراضه وكفى بذلك امراً ينبه افكار الروسية

اما اسكندر الثالث فظهر سياسياً حكيماً واراد ان يخطيء بسمارك فمال الى المانيا اكثر من ميل والده وعاهدها وحالفها مرة رسمياً ومراراً شبه رسمي وكان آخر محالفاته المعاهدة الثلاثية التي تمزق شملها في اوائل هذه السنة ولقد احكم الاسكندر في سياسته فانتقم من انكلترا في آسيا ونال بسنين قلائل بما لم تنله الروسية في اعوام كثيرة واستوقف اعمال البلقان على حالها الحاضرة منتظراً انتهاز الفرص فسر لذلك بسمرك الا ان الروسية بعد تفحصها كل هذه الاحوال رأت من الواجب ان تسن سياسة جديدة غير الاولى تكون للروسية لا لغيرها اي لا تكون آلة في يد بسمرك فتم لها كل ذلك واصبح بسمرك لدى تحالف فرنسا والروسية من جهة وقلق سياسته السلافية من جهة أخرى اذ رأى ان الروسية ادركت الامر وسعت في تداركه ولا بد من نجاحها

تلك غايات بسمرك في الاحوال العمومية والاحوال السياسية الحاضرة واذا نظرنا فيها نظرة الممعن جمعناها في ثلاثة اقسام الاولى سياسة روسة محضة أميل الى فرنسا مما كانت قبلاً بغير عهدة او تحالف وهي سياسة الامبراطور

والثانية سياسة روسية لا تظاهر في العلن دولة اكثر من أخرى وهي سياسة جيرس والثالثة تحالف مع فرنسا ضد المانيا وهي سياسة كاتكوف زعيم السلافيين ونحن شارحون هنا الاحوال الثلاثة

ان القيصر جل همهِ البحرية والجيش وهو يسعى الى اتمام عمارة البحر الاسود مخصصاً لها معظم الميزانية ولذلك لا تمضي بضع سنين حتى يكون أسطول البحر الاسود من أمنع اساطيل الدول وهي حكمة من القيصر اذ ان الحاكم العاقل من نظر الى تقوية الضعيف لديه ليأمن شر كل غائلة وليست تخاف الروسية على املاكها من مهاجم الا من البحر الاسود ولهذا تسعى في الاتحاد مع العثمانية ثم لما كانت تعلم ان للسياسة تقلبات شتى وليس من الحكمة ان يكل الانسان امرهُ الى غيرهِ سعت في تعزيز هذا الاسطول وما هو في الحقيقة الا لتتقي نفسها من انكلترا التي كلما استحكم النفور معها هددتها في تلك البقاع وقد علمت عن ثقة ان الهمة المبذولة في هذا السبيل ستنيل القيصر امنيتهُ فيصبح مستريحاً من هذا النحو واما الجيش فهو يستعرض منهُ كل اسبوع قسماً حتى كأني بهِ ابداً في ساحة القتال

وقد قصد بذلك ان يصرف سني السلام في هذه الغاية على ميلهِ اليهِ وقلة ودهِ للحرب الا عن ضرورة اذا تجرأَت دولة كبيرة على مس شرف الروسية ولكنهُ لا يهتم لاسكندر باتنبرج ولا لكوبورغ الا انهُ لا يتأخر عن الحرب عندما يرى من اوستريا سياسة تمس الروسية . وقد عرف هذا القيصر قوة الروسية وكيف استخدمها بسمرك الذي اضر بها اكثر جداً من اضرار سنة ٥٦ بجعله اوستريا خصماً عنيداً لها في سبيل سياستها الشرقية ورأى حالة فرنسا العسكرية على استمرار في التقدم فقال بالغاء التحالف الثلاثي وبين

لبسمرك كيف انهُ لم يخدم الا اوستريا في كل ما فعلهُ الى الان وكانت مسألة بلغاريا أقوى برهان فقوي حزب كاتكوف الذي كان مقرباً جدًّا الى القيصر وهاج الرأى العام في الروسية ونادى ان عدو الروسية هو الالماني وان وجهة الروسية ومرمى سهمها برلين لا الاستانة ولا ويانه

اما القيصر فمع ميله الى فرنسا لم يشأ ان يحالف جمهوريتها محالفة هجوم ودفاع ولكنهُ رأى ان مصالح الدولتين واحدة فتعاضد رجالهما في السياسة ولو كان في فرنسا ملك لتم التحالف بلا تردد بل كيف لا يكون التقرب طبيعياً وفرنسا نافرة من انكلترا والمانيا وهما لا تميل اليهما الروسية فضلاً عن ان مصلحة الدولتين واحدة في اكثر المسائل

وخلاصة الامر ان سياسة الامبراطور روسية أميل الى فرنسا منها الى غيرها من الدول فضلاً عن انها سلمية الا اذا مست مصلحتها او شرفها ثم هو فوق ذلك دائب في تحسين البحرية والعسكرية ولا يدع لاحد عليه نفوذاً في سياسته بين خارجية وداخلية لان من طبعه الاستقلال في الرأي فكيف يقبل ببسمرك ولياً لامره وهو خارجي

اما سياسة جيرس فاشبه بسياسة القيصر وبالتالي كلتاهما واحدة . ولكنه لاستحالة عقد تحالف مع فرنسا لما يعلم من عدم حب القيصر ان يحالف جمهورية ولو كان يميل اليها اكثر من سائر الدول اراد ان يتحاشى النفرة مع المانيا حتى لا تكون ثم اسباب موجبة للخلاف فهو بذلك لا يميل الى التحالف مع المانيا كما يزعم البعض وهو غير مطلق الارادة وما حالتهُ مع القيصر الا كحالة الصدر الاعظم مع جلالة السلطان

ثم ان جيرس عامل على تسهيل كل العقبات ولا يرغب في الحرب فهو

في الروسية معروف برجل السلام كما ان اغناتيف معروف برجل الحرب وهو ايضاً ذو مكانة عليا في الروسية ولا بد من يوم يكون لاغناتيف فيهِ شأن مهم في سياسة الروسية ولا سيما اذا التقت السيوف في ميدان القتال اما جيرس فبروتستاني المذهب وهو دليل على ان الروسية لا تلتفت الى المذاهب وقد كان سلف غورتشاكوف بروتستانياً ايضاً وكان مع ذلك اعظم ساسة الروسيين واحبهم الى الشعب ومن مبادئ جيرس حسم المشاكل بالحكمة فهو لا يندفع في امر مخافة عواقبهِ بحيث كان سلمياً محضاً

اما السياسة الثالثة وهي سياسة كاتكوف فروسية اولاً من حيث وجوب التحالف مع فرنسا واعلان الحرب على المانيا ثم هي قد نجحت كثيراً في هذا الشأن الا انها توقفت في القسم الثاني اي التحالف والحرب وتأيد نجاحها في الميل الى فرنسا وحسبان المانيا خصماً للروسية ألد . اما موت كاتكوف فلا يغير من مبادئ سياستهِ بدليل ان جريدته كانت تصدر على وتيرتها السابقة وهو في حال المرض من اشهر وقد تولى اعمالها مكانهُ تلميذهُ وسياستهُ هذه هي سياسة حزب السلاف عامة وهو الغالب في الروسية ولذلك نرى ان لا بد من استمرارها لما يترتب عليها من الفائدة لهذا الحزب ولا سيما وقد أيدت الحوادث مبادئهُ وبرهنت على ان سياسة الاحزاب الماضية كانت عثرة في سبيل نجاح الروسية وآلة استخدمها اخصامها للايقاع والاضرار بها

تلك تفاصيل السياسات الثلاث وتوجد سياسة رابعة وهي الميالة الى التحالف مع المانيا واصحابها قليلون جلهم من اصل الماني لا يزال يدور في عروقهم بعض الدم الجرماني بالرغم عن انهم روسيون ومثل هؤلاء لا تكاد

تخلو منهم مملكة اذ اني اذكر وانا ذاهب الى باريز اني مررت في املاك الالزاس والى جانبي فتى لا يتجاوز العشرين وهو فرنسوي التبعة فقلت هذه الالزاس التي لفرنسا فاجابني بل التي كانت لفرنسا وهي اليوم لالمانيا وكان جوابهُ بحدة لا اخال ان المانيا ياتيها مع ان كلامي كان مجرداً من كل غاية فقلت لهُ هل انت الماني قال انا فرنسوي وابي الماني الاصل

اما حزب هذه السياسة الرابعة فقد انحط حتى لا يقوى على التمسك بمبادئهِ حيث لا يرى حزباً من الثلاثة يوافقهُ وهذه خلاصة السياسة الروسية الخارجية عامة والله تعالى اعلم

وكتب في ٣٠ لوايو من برلين

لو بحثنا في احوال الشعوب في اوربا وزيادة عددها بالتوالد لرأينا الروسية أنمى كثيراً من غيرها وقد حسب العارفون ان الروسية اذا استمرت في سلام اصبح عدد شعبها مائتي مليون نفس وهو ما دعا كثيرين من كبار رجالها الى التمسك بالسلام والاعتضاد بهِ على امل ان لا يمضي زمن حتى تصبح قوة الروسية في منتهى العظمة

قابلت في عودتي الى برلين بعض كبار الساسة فاستفهمت منهم عن اهم الاخبار واحوال السياسة فعلمت ان المانيا لا تعارض الروسية في مسألة بلغاريا على الاطلاق وليس من رغبة بسمرك ان يشتد الخلاف بين دولتهِ والروسية لما يراهُ من هياج العامة في الامتين ولا سيما عند عامة الروسيين التي استاءت جدًّا من خطة الجرائد في المانيا بشأن المالية الروسية مما الجأ حكومة بطرسبرج الى اتخاذ تحوطات جمة لم تكن من رأيها في باديء الامر

الا ان بسمرك تدارك الامر فاشار الى الجرائد بالاعتدال على ما يؤكدون بحيث صار لا بد منهُ ما دام هو الآمر بهِ لانهُ رب القول في المانيا ولكن مهما اعتدلت السياسة وتنوعت اسبابها فلا بد للروسية من نيل امانيها فاذا أقدم البرنس كوبورغ خسر مستقبل امره وليس في امكان اوستريا ان تعارض الروسية وحدها ولا سيما وان بريطانيا لا بد من ان تعتدل في سياستها لاعتدال الروسية في مسألة افغانستان

ويرى الجميع هنا ان الروسية احكمت في سياستها اذ زادت في قوتها مادياً وادبياً وانفذت كلمتها بالرغم عن معارضات التحالف من اكثر الدول وقد قال لي احد السياسيين اني وان اكن في ثقة من ان بسمرك اعظم رجل سياسي فاني ارى ان مجموع الروسية يزعزع كل قوة وعلى الخصوص اذ ان بسمرك مع شيخ جليل لا يود حرباً وولي عهدهِ في خطر المرض لا يدري ما يأتي بهِ المستقبل في حين هو يود ان لا تكون الحالة كما هي الان ولكن أبت حوادث الدهر الا ان تعارضهُ ولو كانت ظواهرها على غير ذلك

ثم قال ونحن نقدر قوة الروسية حق قدرها وان نكن في ثقة من ان نظام جيشنا لا نظام بعدهُ ولا قوة تعادلهُ ولكن نحن بين قوتين عظيمتين فرنسا والروسية وليس تحالفنا مع الدول الاخرى ليفيدنا شيئاً فاستخدمنا اياها من باب التستر بها ليس الا ولهذا يبذل رجالنا جهدهم في منع الحرب لانها ليست من مصلحتنا ما دامت الروسية غير راضية عنا ونرى انها لن ترضى ابداً بعد ان رأت منا اشد الميل الى اوستريا واقرّ ان هذه هفوة عظيمة هفاها رجالنا اذ حسبوا ان الاسكندر الثاني لا يموت وفاتهم قوة العدميين الذين فتكوا بهِ فاتانا اسكندر الثالث الذي يود بطبعهِ ان لا يكون آلة بيد الناس

بل همه في خدمة الروسية وحدها وان قدر الناس بسمرك قدره بازاء غليوم فالامر في الروسية ليس للوزير بل للقيصر وحده وفوزه في سياسة الشرق اكبر برهان

ثم قال وان فوز سياسة الروسية وفرنسا في مسألة الوفاق عظيم جداً ولا صحة لما قيل من ان سفير المانيا عضد انكلترا فان الكتاب الازرق الانكليزي لم يقل عن ذلك شيئاً قلت لم تعد انكلترا بعد تنديد بسمرك في غرنفيل ترتكب هفوة نشر الامور السياسية الدقيقة فتبسم وقال أعلم ان المانيا لم تتداخل اذ لا يوافقها الميل الى دولة أخرى بل بقاء المشكلة افيد لها

ولا يعتبر الالمانيون ان حسم مسألة افغانستان قد كان نهائياً فان الروسية لا تدع هذه المسألة ابداً اذ بها تنتقم من انكلترا في سياستها باوربا وسواها

وكتب في ١١ اغسطس من لندن عما دخل من التعديل على سياسة انكلترا بعد حرب السبعين وهو عين الحقيقة المشاهدة الى الان

لقد ادخلت على سياسة انكلترا الخارجية تعديلات مهمة بعد حرب السبعين اذ ان فقدان الموازنة السياسية قد اضرّ بها ضرراً بيناً وفات رجالها مداركة الامور بالحسنى فكان بفقد الموازنة عزلة لانكلترا عن سائر الدول فصدق بها قول تيرس ان سقطة فرنسا عزلة لانكلترا وهو ما تحقق في اكثر المسائل فانه بعد ان كانت بريطانيا صاحبة القول الفصل في السياسة العامة والخاصة

اصبحت على عكس ذلك تابعة لما يقوله رجال الشمال ورجل المانيا وهذه السياسة قد اضرت كثيراً بالسياسة الغربية ولحق ضررها ببريطانيا اكثر منهُ بفرنسا لان الثانية كانت قبل سنة السبعين تخدم انكلترا في سياستها اكثر من خدمتها لنفسها فكانت الدولة الانكليزية بذلك جامعة الفوائد التي انصرفت الان الى جهة الشمال وبالتالي الى بسمرك وحدهُ

وبعد ان كانت بريطانيا ركن حرمة المعاهدات اخذت باخترامها والعبث بها ولنا في مسألة قبرص ومصر اكبر شاهد فضلاً عن تغيير سياستها العامة الذي اضاع كثيراً من تقاليدها المقدسة لدى اعظم رجالها وقد سلكت هذه الدولة بعد احتلالها مصر سياسة ادت الى النفور بينها وبين فرنسا وباعدتها في صلاتها مع العثمانية فاضطرت الى ان تراعي بسمرك وتجري مع رأيه في اعمالها وأدت اليه ثمن ذلك تسهيل مطامعه الاستعمارية فنجح بسمرك نجاحاً حسناً اذ استخدم النفور بين فرنسا وانكلترا سبيلاً لسياسته ا ستعمارية ضد مصلحة الدولتين وحصر الفائدة في المانيا وحدها ولم يكن داعي نجاحه هذا الا مسألة مصر

ولما كانت مملكة بريطانيا دولة بحرية ولا جيش لها لحماية اراضيها من التهجمات وكان امامها في جهة اسيا دولة سائرة على قدم النجاح تزاحمها وتتهدد هندها كان من مصلحة انكلترا ان تزيد في مشاكل أوربا لتأمن شر تلك الحرب وعلى هذا السبيل رأيناها في الحرب الروسية العثمانية فانها عملت على نشوبها لتضعف بها الروسية ولو كانت ظافرة وكثيراً ما سعت مؤخراً في مسألة بلغاريا لتدفع القيصر الى الاحتلال العسكري فتضطر اوستريا الى معارضتها فينتشب القتال ولا يخفى ما في ذلك من الفائدة لها وهي لو علمت ان في الامكان ان توفق بين مصالحها ومصالح الروسية في آسيا لبذلت في سبيل ذلك مصالح

البلغاريين وغيرهم غير آسفة على حماية مثل هذه الشعوب الضعيفة في جانب فوزها بمصالحة الروسية ولنا فيما قالهُ سالسبري في خطابهِ اكبر برهان حيث قال « ان آسيا واسعة تكفي لان ترضي الدولتين » وليس لذلك معنى سوى تقسيم املاك آسيا بين الدولتين وهو كلام لا ينطبق على وعد بريطانيا بحماية الافغان وشعوبها . ومن هنا يتبين الناظر في رسالتنا هذه كم جرّ فقدان الموازنة السياسية من التعديلات في سياسة انكلترا العمومية ولم تكن نتيجة هذا التعديل لخدمة مصلحة بريطانيا بل للدول الشمالية ولا سيما المانيا

ثم ان كل دولة لا تكون لها سياسة خاصة لا يكون لها نجاح بل تعرض نفسها للاخطار والمشاكل فان انكلترا لما كانت حسنة الصلات مع فرنسا لم يكن لها خصم غير الروسية ولكن لما وقع النفور بينها وبين فرنسا زادت الروسية حنقاً عليها وأمست فرنسا خصماً لها وضعفت علائقها مع الدولة العلية واضحت تنيل بسمرك ما يطلبهُ مخافة ان يفشل

ولقد كان الاجدر بها ان تراعي حرمة تقاليدها اذ بذلك تكون قد وفت حقوق وظائفها وضمنت مصالحها اجل ضمانة ولا سيما والسياسة تختلف فتخسر في الغد ما تكسبه في اليوم اذ لا موازنة اوربية في السياسة

وكتب من مدريد في ٢٤ اغسطس عن رحلة له الى طليطله

قصدت مدينة التوليدة وهي محرفة عن طليطلة في العربية وهي تبعد عن مدريد ٧٣ كيلو متراً فسرنا الى المحطة وبينها وبين البلد عشرون دقيقة فركبنا القطار في الساعة الثامنة فبلغنا طليطلة عند الساعة الحادية عشرة لبطء القطار في

سيره فهو اشبه بقطارات البضاعة في مصر او ابطأ منها ومررنا على عدة محطات كان يقف القطار في كل منها

ثم خرجنا نتفقد اثار البلدة وهي على اكمة يحيط بها سور غاية في المتانة التي تدل على اثاره الى الان ويستحيل على العدو الدنو من البلدة من غير ان تراهُ حاميتها وقد استولى عرب الغرب على هذه المدينة يوم كانت عاصمة اسبانيا وكانت مدريد قرية صغيرة وحكموا فيها اربعة قرون وامتدوا منها الى شمال اسبانيا الا انهم عادوا الى طليطلة واكتفوا بها لفقر الارض ومحلها وحصنوها تحصيناً متيناً

وقد ذكرتني تلك المدينة بمجد العرب الذين لم يلبثوا ان خرجوا من اليمن حتى افتتحوا معظم القارات الثلاث ولم يكتفوا بالحكم بل أسسوا العدل وبثوا مبادئ يجهلها ملوك اوربا والشرق يومئذ وكان حكمهم في اسبانيا ثمانية قرون تقريباً وكان سقوط غرناطه التي فيها الدار الحمراء المشهورة سنة ٨٩٧ هجرية الموافقة ١٤٩٢ مسيحية وكنت اود ان اجمع في رسائلي من هذه الديار خلاصة فتوحات العرب واسترجاع الاسبانيول اياها لولا ان ضيق الوقت يحول دون ذلك الا انا نرى ان الاسباب التي قامت بها رفعة العرب استخدمها الاسبانيول لاسترجاع بلادهم في حين تمسك امراء العرب بالاسباب التي خسر بها الاسبانيول بلادهم وقد كنت اود ان ازور سائر المدن الاسبانية في الجنوب التي زها بها مقام العرب وعلا شأنهم في التمدن والعمران لولا ان منعني من ذلك شدة الحر وبعد الشقة

وقد رأيت في تاريخ حرب غرناطه ان العرب كانوا يستعملون القلعة التي تنسب لنابليون الاول فاني رأيت في تاريخ حروبهم من اقلام غيرهم انهم كانوا

عند الضيق يقفون على شكل حلقة كالبناء المرصوص فضلاً عما كان لهم من الشجاعة والاقدام مما يسر لهُ قلب العربي الان لولا انه ينغصه ما يراهُ في هذه الاحوال الحاضرة ولكن لا بدع فهي الايام دول تدول وحال لا بد ان تحول

وكتب في ٢٨ نوفمبر من الاستانة العلية في شأن اصلاح المالية العثمانية

اصلاح المال اصلاح الاحوال . تلك قاعدة كل حكومة منظمة اهتمت باصلاح شؤونها واخذت باسباب رفعتها ولقد قيل ان المال ركن الحرب ولكنني اقول انه ركن السلام ايضاً فلا يكون اصلاح سياسي او اداري الا باصلاح المال ومن لا مال لهُ لا قوة لهُ ولا شأن ولله من قال في مثل هذا الشأن

فلا مجد في الدنيا لمن قل مالهُ ولا مال في الدنيا لمن قل مجدهُ

فاذ قد ثبت ذلك وجب ان نرى هل يمكن باصلاح المالية اصلاح الادارة وبالعكس ام لا

وهنا افاض في اثبات جواب هذا السؤال ايجاباً الى ان قال

ان الوصول الى الاصلاح الاداري محتمل بعد الاصلاح المالي والاخير ان لم يكن مستحيلاً فهو شديد الصعوبة بعد الاصلاح الاداري وبرهان ذلك ان الفئة الادارية ولو اهتمت بلم شعثها وتحسين سيرها لا تقوى على التوفيق بين جميع المصالح ما لم يكن لها من المالية عصاً تقرع لها فتنبهها الى واجباتها في الدخل والنفقة ولا ريب ان نظارة الداخلية او غيرها لولا ان الميزانية المقررة لها

لا تسمح لها بزيادة لزادت في موظفيها كثيرين ولا سيما من الصنائع وعلى ذلك فاحتمال اصلاح الشؤون المالية بعد الاصلاح الاداري صعب جداً

اما اصلاح الشؤون الادارية بالاصلاح المالي فممكن سهل ولا سيما اذا دخلناه من بابه وهو في اوربا اسهل منه في الشرق لان الفئة المالية في الشرق ممتزجة كل الامتزاج بالفئة الادارية حتى يمكن ان يقال انهما واحدة فضلاً عن ان مبادئ الاقتصاد نادرة والعفة اندر وجوداً ولهذا كان الاصلاح في الشرق عسراً جداً ولكنه غير مستحيل ووجود الرشوة فيه لا يكون دليلاً على استحالة استئصالها بل ارى ان ارشاد الموظفين المرتشين في سبيل العفة والنزاهة اسهل في الشرق منهُ في الموظف الاوربي المرتشي في بلاده لان المرتشي الشرقي قابل للتثميف بخلاف الاجنبي الذي تكون فيهِ الرشوة ملكة الى الممات

قابلت احد رؤساء مصلحة الدين العثماني وهو العضو الفرنسوي فتحادثنا في مسألة الاقلام الستة فرأيت ان انقل اقوالهُ فهي شهادة من اجنبي واقف على حقائق الامور وتحت يدهِ اهم ادارات المملكة العثمانية وذلك تأييداً لما سبق لي قولهُ بشان الموظفين واصلاح شأنهم وشؤون الادارة تمهيداً للوصول الى الاصلاحات المالية والادارية قال

« اعلم ان ادارة الاقلام الستة واسعة جداً تضطرنا الى مراقبة دخلها في جميع انحاء المملكة من عريش مصر الى حدود العجم واوستريا والممالك البلقانية وقد اضطررنا يوم اتفق اصحاب الديون مع وزارة العثمانية الى ان نأخذ الموظفين الذين كانوا في خدمة هذه الاقلام وبذلك اجتمع عندنا اجناس جمة من المملكة العثمانية وان يكن الجنس التركي اكثر جداً من غيره فهالنا ذلك في بادىء الامر وخفنا الرشوة وثبت لنا استحالة توظيف غير العثمانيين اذا عزلنا من تظهر لنا

رشوتهم فاخذنا نراقب المستخدمين بعد ان سلمناهم الوظائف برواتب تكفل معايشهم واشركنا معنا في تلك المراقبة رؤساء ذوي عفة ونزاهة فوجدنا اصلاحاً بيناً ولا انكر انا وجدنا عدم الاستقامة ولكن في نفر قليل وهو امر طبيعي في كل بلاد ولكن الذين ثبت ارتشاؤهم كانوا قليلين جداً في جانب عدد الموظفين وثبت لنا انا نجد في المائة من غير الاتراك خمسة مرتشين ومن الاتراك لا نجد في المائة احداً مع ان رواتبهم أقل من غيرهم وهم اقدر على الاعمال واشد غيرة على المصلحة من سواهم كأنها لهم . ومن ذلك يتبين لك ان الشرقي قابل الاصلاح جداً والموظف متى أمن على وظيفته ووثق بجزاء امانته لا يعود يرتشي بل يمنع الرشوة ليكون قدوة لغيره ولذلك كنا مسرورين جداً من سير ادارتنا ونؤمل زيادة تحسنها كل سنة »

ثم تكلم في جوهر الادارة فقال « لا ارى ضرورة لاصلاح سير الادارة على نسق اوربي في حساباتها واعمالها بل ارى البساطة اوفق فانا لما اخذنا الاقلام الستة كان دخلها بحسب تقرير وزارة المالية مليوني ورقة وهي عبارة عن مائة قرش ولكنها لم تكن تساوي ثلث قيمتها تلك ذهباً بحيث لم يكن الدخل الحقيقي اكثر من خمسماية الف جنيه اما الان فهو مليونا جنيه وعلى زيادة مستمرة كل سنة من ٦٠ الى ٨٠ الف جنيه . وانا لو قابلنا قيمة البقايا السنوية من مطلوباتنا لوجدناها من ٣٠ الى ٤٠ الف جنيه لم تتجاوز هذا المقدار في سنة من السنين في حين يكون ايراد مليوني جنيه سن واردات أخرى للسلطنة لا تنقص متأخراته عن ثلث او ربع مليون جنيه فضلاً عن ان القوة الاجرائية في يد الحكومة لا في يدنا وما ننكر مع ذلك انها تساعدنا ولكن مساعدتها لنفسها اقوى من مساعدتها لنا بالطبع . كل ذلك يؤيد لك

ان الاصلاح ليس ممكناً فقط بل سهلٌ جداً وانه غير مقصور على الشؤون المالية والادارية بل يتناول الموظفين وهي شهادة عدل اذكرها بالمنة والشكر »

ذلك حديث اجنبي خبير انقله على علاته بعد ان ثبت لي صدقه بما عرفته من الاحوال مدة وجودي هنا سواء موظفي هذه الادارة او موظفي ادارة السلطنة واذ عرفنا سهولة هذا الاصلاح نقول ان الواسطة له الان ان تعوّل الحكومة على الاصلاح الجدّي رويداً رويداً وذلك كأن تترك ادارة الجمارك الى ادارة الاقلام الستة على اتفاق معها على ان ما يزيد عن الدخل الحالي يكون منه للادارة المذكورة ٢٥ في المئة او نحوه بحسب الاتفاق حتى اذا تم ذلك امكن رجال الحكومة ان يراقبوا سائر الفروع فان وجدوا أملاً باصلاحها عالجوه . وبهذه الوسيلة ايضاً نكون قد تمكنا من مراقبة قدرة انفسنا على الاصلاح او عجزها عنه وحسن سير الادارة معنا وعدمه هذا وان ادارة الاقلام الستة لا تستلزم نفقات مهمة اذ يمكنها بنفر قليل من موظفيها ان تقوم بادارة الجمارك وعند هذا الاصلاح تثبت عفة كثيرين ومطامع غيرهم مما يضطر سائر الموظفين في باقي الادارات الى اصلاح انفسهم خوف الافتضاح عند المقابلة . ولكن لا يجب ان نرهن الايرادات على قرض فانا ننفق القرض ونعدم الدخل وبذلك تسوء الحالة حتى تقف الاعمال

وانه لما كانت الخزينة فارغة والنفقات زائدة فضلاً عن تهدد الحوادث للسلام كنا نخاف ان تضطرنا الاحوال الى رهن اكثر من دخل لاقتراض مبلغ فتكون خسارتنا مزدوجة اذ نفقد الشروط الحسنة الممكن نيلها بغير اضطرار وهي الخسارة الاولى ثم نلجأ الى انفاق القرض حتى اذا انتهت

الحرب او انقضى التهديد بتنا لا نملك شيئاً وهي الخسارة الثانية

وعلى ذلك فاني ارى من الواجب ان ينظر في هذه المسألة اذ لا أمل بالاصلاح والادارة والمالية على حالهما الحاضرة وسأبين في رسالتي الآتية استحالة الاصلاح المالي بغير عزم ثابت وادارة نزيهة وابحث في ايرادات الدولة وموظفيها بحثاً دقيقاً على قدر ما يبلغ اليه النظر الكايل

وكتب من مصر عن التداخل الاجنبي في الشرق ما تتكرر افادته على الاعادة .

قد بسطت افكاري مراراً في التداخل الاجنبي في اعمال الشرق عامة وفي كل بلاد على حدتها وبينت الدواعي التي استخدمها الطارئ حتي تمكن منا فاصبح بعد ان كان يلتمس منا جزءا وهو قابض على الكل ونحن لا نملك الا الجزء ولست ادخل هنا في كيفية التداخل أو كيفية تعميمه بل في الوسائط الواجبة على كل شرقي ليكفّ بها تيار ذلك التداخل حتى اذا تم له الامر سهل عليه استرجاع ما خسرهُ اذا عرف ان يسير بحكمة وحزم يمازجهما اللين واللطف وبذلك نضمن له استرجاع ما فاته وصيانة مستقبله صيانة فعلية

فاذا كان الاجنبي قد نال منا ما حصل عليه بكياسته وضروبه السياسية شيئاً فشيئاً على رضى منا وهو مع كل ذلك أشد قوة منا وبأساً افيمكننا ونحن أقل منه في كلا امريه ان نسترد ما لنا قبله دفعة واحدة ذلك أمر بعيد بل متى تكشفنا له عن هذه المبادئ عمل على معارضتنا ومعاكستنا فخسرنا منه كل ثقة وبذلك يتمكن ليس فقط من المحافظة على ما في يديه بل من اغتنام الفرص لاختلاس مافاته حتى يكون له الكل

ومثل التداخل الاجنبي في الشرق مثل دخول السل في الجسم فانه ينبغي للمصاب به ان يتداركه وهو في الدرجة الاولى أو قبل تمكن الدرجة الثانية مع تعاطي الادوية الناجعة ومثل ذلك يقال في التداخل الاجنبي عند الشرقي ودواؤه ان تكون الادارات الوطنية المحضة دستوراً في استقامة اعمالها وحسن سيرتها من رئيسها الى آخر عامل فيها فينبذ مستخدمها الاجنبي الذي لافائدة منه لتقدمنا ولكن بالرفق واللين لا بالمقت والغلظة ثم يتقرب من الاجنبي الذي برهن على أهليته فيستفيد منه ما يستخدمه في سبيل مصلحة بلاده وتأييد حقوقه حتى يصل مع تراخي المدة الى الغاية المطلوبة

سنة ١٨٨٩

كتب في ١٩ مارس عن مراكش وتنازع الدول فيها ما لا يزال منطبقاً على الواقع الى الآن

قد اصبحت بلاد مراكش اليوم مطمح انظار اكثر الدول الاوروبية ان لم نقل كلها وقد ساعد على ذلك ما يراه الاجانب من حسن الوفادة فيها من جهة واسباب التداخل من جهة أخرى وقد زاد في تسهيل الامر ارسال حضرة سلطان مراكش الوفود الى الدول ولكن قيض لتلك البلاد ان تكون في جوار الجزائر ملك فرنسا الدولة العظيمة فحالت بسياستها دون اطماع الدول

حاولت اسبانيا ولا تزال تحاول زيادة سطوتها في مراكش واحتلال بعض نقط من ارضها فعارضتها فرنسا وأبانت لها استحالة ما تنويه فانصاعت لها وأخذت في استخدام الطرق السياسية فعقدت لجنة دولية في مدريد عاصمتها فلم تنجح ثم سألها التحالف الثلاثي الاشتراك معه وهو يساعدها على تحقيق أمانيها في مراكش فمال حزب من احزابها الى ذلك الا ان الاغلبية رفضت تلك المقدمات لاعتقادها ان لاضمانة لحياتها السياسية ان لم تكن فرنسا راضية عنها وقد امتدح الصادقون سياسة اسبانيا هذه

وقد تحركت ايطاليا ايضاً وأرادت ان يكون لها حظ في مراكش فرأت في فرنسا خصماً عنيداً ونال كريسبي من الفشل في سياسته الخارجية والداخلية ما اضطره الى الاعتدال ثم رأينا المانيا أخيراً تريد اخذ نقطة في مراكش ولولا تداخل فرنسا لنالت ما تريد ولقد احسن سلطان تلك البلاد برفضه ما طلبته المانيا لانه لو فعل ذلك لاضطر لاعطاء سائر الدول فكان كالساعي بنفسه لتفريق بلاده وتمليكها

وقد فاجأنا امس خبر ارسال عمارة انكليزية الى مياه مراكش فأثر فينا ذلك الخبر ولا نظن غاية بريطانيا من هذا التظاهر البحري الا المعارضة لسياسة المانيا ومعلوم ان انكلترا في يدها جبل طارق فلا يوافق مصلحتها تأيد نفوذ دولة اوربية اخرى في تلك الاصقاع اما ما اضطرتها الحوادث اليه من الانصياع لما يرسمه بسمرك فعن اضطرار وكره ولكنها عاملة بدهائها على معارضة السياسة الالمانية بأية الوسائل لتأمن شر بسمرك في السياسة الاستعمارية التي اجبرتها على تحمل النفقات الطائلة وقد عرفنا من خطاب وزير البحرية الانكليزية عند ما طلب الاعتماد المالي الاخير ان من الواجب

ان توازي قوة انكلترا البحرية قوة دولتين بحريتين ومن ثمَّ تجب زيادة المعدات فدلنا ذالك على ان القوة الحالية لاتوازي قوة دولتين وهو يؤيد ماذكرناه في حينه

ولقد بسطنا افكارنا في مسألة مراكش وشكرنا سياسة فرنسا التي حالت دون اطماع الدول في تلك البلاد الا اننا نرى انفسنا الان لدى امرين لاخلاف فيهما اولهما انه لايجب ان نعتب على هذه الدولة او تلك الحكومة اذا احبت التداخل في بقعة او بلاد لانه اذا كان ابناؤها يهاجرون الى اقاصي الارض في طلب المعاش وترويج سوق التجارة فكيف لايهتمون في استنزاف ثروة بلاد هي على مقربة منهم والثاني وهو الاهم مانراه من قصور الحكام في تلك البلاد واهمالهم في حين هي مطمح الانظار والاطماع فانهم متقاعدون عن اخذ التحوطات اللازمة لمداركة حقوقهم من الضياع ولهم من الحوادث الجارية في غير بلادهم اكثر من دليل كان يجب ان يعتبروا به في اصلاح حالتهم

ونحن في هذا العصر قائمون لدى القوة فلم تعد حقوق أمة او بلاد لتوقف اطماع احدى الدول لان الحق قد اصبح اليوم للقوة. وحدها وما حفظ بعض الاماكن من اغتيال الاجانب الى الآن الا تباين مصالح الدول الطامعة وهو أمر يجب ان نستخدمه واسطة نهتم معها باصلاح شؤوننا اصلاحاً مرضياً

ولقد اصبح التيار الاوروبي لاتوقفه العواصف ومن العبث ان نقول عن شيء انهُ لايوافق عادات البلاد وطباع أهاليها في حين نرى القائلين انفسهم متمسكين هم وأبناؤهم بعوائد اوروبا وطباع سكانها وكثيرون منهم لايعرفون

من الدنيا غير بلادهم ومن بلادهم غير المدينة التي هم قاطنون فيها بل من المدينة غير بيوتهم ونحن نراهم مع ذلك في ملبسهم ومطعمهم وسائر احوالهم اكثر تفرنجاً من الافرنج

تلك هي حالتنا ويسؤنا ان نكون عليها اذ ليس لها من سبب الا فساد مبادئ التهذيب عندنا وهو امرٌ لو اردنا ان نبحث فيه لضاق بنا المجال الا اننا نكتفي من الكلام عنه بقولنا ان عدم اعطاء النساء حقوقهنَّ وعدم قيامهنَّ بمواجبهنَّ من اعظم الاسباب وأهمها وبذلك كنا نحن الشرقيين على قصور مزدوج اذ لسنا مكلفين باختراع امر او ايجاد شيءٍ لاوجود له بل ان مواجبنا اسهل من مواجب الاوربي الذي علم فعمل وسابقته المرأة في مركزها فأبدت النجاح المشترك ثم ليس علينا الا ان نقتدي بسوانا والاقتداء سهل المنال اذا عرف اصحابه ان يتدبروه

وكتب في ١٣ مايو في مسئلة اجازة الضرب من جهة وتعميم المحاكم الاهلية في الوجه القبلي من جهة اخرى ما يصح جعله مثالاً لاسلوبه في محاجة الخصم وتأييد الرأي الصائب

لم نكن نتوقع من حضرات مفتشي الضبط والربط ان يسألوا في تقاريرهم معاقبة المذنب بالضرب ولو في مسائل محدودة وانا قد وقفنا على هذه التقارير منذ اكثر من ثلاثة اشهر وذكرنا مع مكاتبنا المصري خلاصتها وقضينا على مبادئها الا انا أمسكنا عن امر الضرب ولم نكن نقصد بالامساك الا القضاء المبرم على مثل هذه الواسطة لثقتنا باستحالة قبولها لدى الهيئة الحاكمة والفئة المحكومة

ولقد قال اصحاب التقارير بالضرب قصاصاً وقال غيرهم به توصلاً لحمل المجرم على الاقرار وكلا الامرين وان يكن اولهما اخف ظلماً من الثاني ضد كل عدالة ولا سيما وان المصريين جميعهم يعلمون ان الجناب الخديوي ايده الله امر بمنع الضرب من يوم تولى الاريكة الخديوية بل ان ذلك كان باكورة اوامره الشريفة وكلنا يذكر حسنات الوزارة الرياضية الاولى واهتمام دولة رئيسها بانفاذ هذا الامر الكريم فكيف يطلب اصحاب التقارير بعد ذلك امراً قضى عليهِ التمدن والانسانية وبأي وجه يقابلون سخط الرأي العام عليهم في اوربا عامة وانكلترا خاصة لو أجيبت طلباتهم في حين نرى ان الانكليز يفتخرون في بارلمانهم وجرائدهم بأنهم منعوا الضرب بتداخلهم مع انه كان ممنوعاً قبل احتلالهم كما يشهد بذلك كتابهم الازرق

ولقد سرنا انهم عرفوا استحالة ذلك في المداولات الاخيرة وان الاعضاء اجمعوا على رفض ما سألوهُ فضلاً عن ان لنا في سمو الخديوي ودولة وزيرهِ رياض باشا اكبر ضمانة تحول دون هذا الطلب الذي لا يشف عن ذرة عدل بوجه من الوجوه

واذ قد قضي على امر الضرب ولم نأت الا بصدى ما يردده الرأي العام فلنبحث الآن في المسألة الثانية وهي هل الصعيد قابل للمحاكم الاهلية الجديدة ام لا فنقول

لو أردنا ان نبحث في المسألة بحثاً فلسفياً لسهل علينا كل السهولة تفنيد اقوال المعارضين لتعميم المحاكم الاهلية بحجة ان اهالي تلك المديريات لا قابلية لهم لمثل هذه القوانين ولو فحصنا احوال كل بلاد ومدينة وأردنا ان نعرف اصل المؤلفين والعلماء والاغنياء فيها لوجدنا اكثرهم من خارج تلك المدينة

وبالتالي من الارياف وداخلية البلاد ولسنا نبخس العاصمة حقها ولكن لامشاحة في ان جل الاعيان من خارجها واكثر علمائها ومؤلفيها من اريافها ولا سيما جهات الصعيد وعليه فاهالي الوجه القبلي ان لم يكونوا اقرب تناولاً وادنى قابلية الى فهم القانون فليسوا اقل قابلية من اهالي العاصمة والوجه البحري وجميع ثغور القطر ومن ذلك يتبين ان ادعاء اصحاب التقارير في غير محله

ثم نحن مع اعترافنا بوجوب تعميم المحاكم وقابلية اهالي الصعيد لذلك لانزال نسأل ادخال التعديلات اللازمة على بعض البنود التي قضت التجربة بوجوب تنقيحها وتعديلها غير ان ذلك لايستلزم السنين الطوال ومهما تكن التعديلات فانه يمكن للجنة اتمامها الى اواخر السنة الجارية او قبل ذلك وعندها يجري التعميم فيكون اكمل واتم

الا اننا مع ذلك لانرى مانعاً في خلال هذه المدة يحول دون اقامة المحاكم الجزئية في الوجه البحري ولا سيما وان المجلس قد وافق عليها باجماع الآراء وأرى ان من اهم الامور الواجب اجراؤها ان لاتمسك الحكومة عن النفقات على هذا الدستور بل ان تهتم في اصلاح شؤونه ومراقبة احواله توصلاً الى المرغوب

وكتب في ٣ لوليو من كوش بتونس ما تخذه نموذجاً لرسائله التي من هذا النوع وهي كثيرة جداً

ليس من غرضي هنا أن أتعرض الى تاريخ تونس وجغرافيتها وان تكن لغتنا العربية لم تجمع لها جغرافية مستوفية لولا ان أوقفنا علماء الفرنسيس على كثير من خفي أحوالها ولكني لا ارى باساً من سرد بعض الشيء عن

ذلك تفكهة للقراء وزيادة في الفائدة اجعلها مقدمة لكلامي عن هذه البلاد فاقول

ان بلاد تونس أو افريقيا الرومانية محدودة من الشمال والشرق بالبحر المتوسط ومن الغرب ببلاد الجزائر ومن الجنوب بالصحراء المشهورة ومساحتها ١٠٥٠٠٠ كيلو متر مربع وهي منقسمة كالجزائر الى اربعة اقسام الساحل والتل وما بينهما والصحراء او الجريد والساحل وما اخصبه تربة وفيه الزيتون والحبوب. وهو اكثر محصولاً من غيره ولا يمضي قليل حتى تعم زراعة الكرم هذه البلاد فان لهذا الصنف ايراداً يفوق سائر الايرادات وقد زُرع منه الى الان شيء كثير واصحاب المال يتسابقون الى زراعته ولا سيما وان الآفة التي اصابته في فرنسا والجزائر لم تصبه في تونس فضلا عن ان زارعيه استخدموا تجارب الجزائر فاستفادوا منها كل الفائدة

واني الاحظ هنا كثيرا على فتور همة الاهالي ولا سيما أصحاب الاملاك منهم واتباعهم عوائدهم السالفة حتى في زراعة الكرم مع انه كان الاجدر بهم ان يستفيدوا من الحالة الجديدة ويسابقوا الغريب باستخدام خبرته ومعارفه في سبيل زراعتهم لانهُ اذا كان الفرنسوي يهاجر من بلاده ويستأجر ارض التونسي ويشتريها ويتحمل الحر الشديد والاتعاب الكثيرة ثم يكون له من ارباحه اكبر تعزية فلم لا يشترك التونسي بذلك اذا قلنا انه يستحيل عليه حصر الفائدة في نفسه مع انه ابن البلاد وصاحب الاض واني سمعت ان كثيرين من ابناء هذه البلاد قد حسروا عن ساعد العزم واهتموا في هذه الزراعة وبودنا ان يقتدي بهم غيرهم الى ان يقوم التونسي بزراعة أرضه خير قيام بما يكسبه من الاجنبي من العلم والتفنن

والقسم الثاني وهو التل اكثر جبالا ووديانا وحياة زراعته الامطار وبالتالي حياة زراعة البلاد كلها لانه في السنة الماضية اذ لم يكن المطر غزيراً حصل فيها بعض الجدب ولولا مساعدة حكومة فرنسا المالية وتوزيعها الكميات الوافرة من الحبوب لطعام الاهالي وبذارهم لحصلت مجاعة بينهم ولذلك رأيتهم يقابلون عناية الحكومة بهم بالشكر والامتنان اما القسم الثالث وهو الواقع مابين الساحل والتل فارض جدباء لاينتفع منها الا الماشية برعيها . وأما القسم الرابع وهو الصحراء او بلاد الجريد فاخص محصولاته النخيل وثمره في غاية الجودة يفضل كل نخل افريقيا

وفي هذه البلاد جبال كثيرة منقطعة اعظمها سلسلة تبتدئ من شاطئ بحر الاتلانتيك فتجوز مراكش والجزائر الى رأس مدينة عنابه الشهيرة واعظم انهرها مايأتيها من الجزائر واكبر بحيراتها بحيرة تونس اما درجة الحرارة هنا فتختلف كثيراً فهي في الساحل في ايام الصيف معتدلة وفي مدينة تونس وسائر البلاد اشبه بها في مصر القاهرة الا انه لايساعدها العثير الذي يعمي الابصار ولا الرطوبة المضرة كرطوبة الاسكندرية ثم انه يزرع في هذه البلاد اكثر اصناف الاشجار وثمارها لاتخلو من لذة وقد لا يمضي زمن طويل حتى نرى اكثر الاصناف التي تزرع في سواحل فرنسا مزروعة في قسم التل من تونس . اما معادنها فكثيرة ولكن الحكومة لم تبدأ بعد باستخراجها وحيواناتها ايضاً كثيرة بين وحش وطير

اما عدد شعبها فمليون ونصف مليون تقريباً وجلهم من المسلمين وعدد الاجانب من الفرنساويين ستة آلاف ومن الايطاليين عشرة آلاف ومن الانكليز تسعة آلاف ومن سائر العناصر نحو الالفين وعدد الاسرائيليين بين

رعايا وحمايا نحو الخمسة والاربعين الف نسمة

واما نوع الحكومة فيها فمطلق فيما عدا تأييد الامن وادارة المالية وسمو الباي صاحب الامر النافذ في اعمالها والملك فيها للراشد من الاسرة المالكة

ولحضرة الباي وزارة مؤلفة من وزير اعظم ووزراء للقلم والاوقاف والمالية وسائر الفروع وفي تونس جوامع كثيرة وزوايا ومدارس شرعية كبرى وكنائس لجميع الطوائف وحرية الاديان معروفة فيها من القديم وذلك برهان على ان الحكومة الاسلامية كانت واحدة في هذا المعنى مما يدل على عدل حكامها وحرية مبادئهم . واشهر مدارسها القديمة مدرسة جامع الزيتونة الشهيرة وفيها نحو ٤٥٠ طالباً يتعلمون اللغة العربية والشرع الشريف وقد خرج منها افاضل ومؤلفون مشهود لهم بالبراعة والمهارة فضلاً عن انه يوجد في تونس نخبة من العلماء المتمكنين الراسخين

ثم المدرسة الصادقية اقامها ابهتلو خير الدين باشا ايام كان وزيراً لتونس وهي في مقدمة المدارس اتقاناً وقد نبغ فيها تلامذة كثيرون في اللغة العربية فضلاً عن اتقانهم اللغة الفرنساوية والعلم فيها مجاناً وينفق عليها من اوقافها الواسعة وعدد تلاميذها ١٥٠ تلميذاً. وقد تجددت في هذه البلاد من يوم دخلها الفرنساويون مدارس كثيرة لاتقل عن العشرة فيها نحو ألفي تلميذ بين فتيان وفتيات ولا تزال الهمة منصرفة الى تعميم المدارس وتوسيع نطاق العلوم بعناية حضرة الباي العالم الفاضل الذي يعضد هذه المشروعات لعلمه ان حياة الانسان بعلمه ثم هو اول امير في اسرته علم ابناءه اللغات الاجنبية وفنونها

ولقد اقامت نظارة الاشغال العمومية اصلاحات كثيرة من السكك والشوارع الجديدة التي تعد كاحسن شوارع اوربا وايصال سكة حديد الجزاز

بحاضرة تونس والاهتمام الآن بمد خط الى مدينة القيروان وخطوط اخرى الى اكثر مدن البلاد واقامة المرافىء المتعددة وتنظيم طرق الداخلية الوعرة وهي باذلة جهدها في اتمام ذلك قريباً بالرغم عن الصعوبات المتعددة بين قلة الدراهم ووعورة الجبال الحائلة دون هذه النظامات

وهذه البلاد كثيرة الصنائع والحرف واخصها صناعة نسج الحرير وعمل الصابون الا انهُ غير متقنٍ ولا ريب في انهُ لو اهتم اهلها باتقان صناعتهم لاستفادوا منها فوائد جمة فوق ما يستفيدون اذ يكون ذلك مسهلاً لرواج تجارتهم في الخارج ولا سيما في هذه الايام لما بين تونس وفرنسا من التسهيلات فانهُ بعد ان كان لايبلغ عدد السفن الداخلة الى تونس الالف في السنة قد تجاوز الآن الاربعة آلاف وبعد ان كان دخل وارداتها وصادراتها لا يذكر امسى الآن للاولى نحو الثلاثين مليون فرنك وللثانية نحو الخمسة وعشرين مليوناً وهذه الزيادة على استمرار كل سنة .

اما الاهالي في اخلاقهم فودعاء لطفاء وهم حسنو الصورة والبيض في المدن اكثر من السمر وهم اذكياء القلوب محبون للنظافة حتى اني لم ارَ في كل رحلاتي في اوربا وغيرها شعباً انظف منهم فان الغريب يشعر بذلك من اول وهلة في نظره الى الثياب سواء كانت جديدة او قديمة . ثم ان نساء المسلمين لايخرجنَ من بيوتهنَّ الا في النادر وهنَّ مشهورات بالادب والتعفف والجمال ولا سيما من كانت منهنَّ من سلالة اندلسية فانهُ لايزال في مدينة تونس الى الآن حيٌّ يسمى حارة الاندلس اختطها مهاجرو تلك البلاد بعد تغلب الاسبان عليهم

سنة ١٨٩٠

كتب في ٣ يناير عن اشتراك مصلحتي فرنسا والروسية وضرورة اتحادها ما حقق التحالف بعد ذلك صدق نظره فيه

اول من افتتح السياسة الخارجية بطرس الاكبر بانفاذه مشورة البرنس كوربسكي الى ايفان الرابع الملقب بالهائل حيث قال له « حالف من هو بعد الجار ولا تحالف الجار » فاخذ بطرس الاكبر تلك النصيحة قاعدة لسياسته الخارجية اما ملك فرنسا حينئذ فلم يوافق على هذه المبادىء ولكن ما لم ينجح فيه بطرس الاكبر نجحت فيه اليصابات كريمته فعقدت مع فرنسا تحالفاً تغلبت به على فريدريك الاكبر ملك بروسيا فأضرت بعسكرية بروسيا قرناً كاملاً ثم عقدت كاترين الثانية تحالفاً مع لويس السادس عشر الا ان الثورة الفرنسوية حالت دون انفاذه ولو لم يقتل القيصر بولس لنجح في مخابراته مع فرنسا ثم ان عمارتي فرنسا والروسية قد خدمتا سياسة واحدة في اكثر من مكان ويستفاد من ملخص هذا التاريخ ان لا حاجة للتحالف بين الدولتين كتابة فان مصلحتهما قاضية عليهما بذلك ولهذا رأينا القيصر اسكندر الثاني بالرغم عن حسن علاقاته مع غليوم الاول قاوم المانيا اشد المقاومة في عام ٧٥ وأنذرها بأنه يحاربها اذا حاربت فرنسا

وكتب في جملة مباحثه المستفيضة عن الدخان والغاء زراعته

لا خلاف في اهتمام رجال الانكليز ولا سيما الذين في المالية بزيادة الايرادات وقد وفقوا جميعاً في هذا الشأن والفضل فيه عائد على جناب

السير فنسنت لانه اعلن غايته السياسية وهي منع التحقيق الدولي اي او الجو للسياسة الانكليزية ولم يبالِ إلا بتحقيق هذه الغاية كيف كانت الواسطة فنجح في زيادة الايرادات كما نجح ابناء جلدته في زيادة المصاريف اما المصريون فتحملوا ضربات الضرائب ولم ينتفعوا من زيادة المصاريف شيئاً والالوف من المرفوتين منهم شهود عدول ووعد المراقبين بتخفيف الضرائب لا يزال في دائرة الوعود التي تعودها المصري وصار لا يصدقها لتكرارها على غير جدوى

ولقد كان اهم الموارد التي اهتم بها رجال المالية مسألة الدخان والفضل في ذلك ليس إلا لنفر من تجار هذا الصنف فهم الذين سعوا في هذا المشروع لموافقته مصلحتهم وعضدهم رجال المالية لاشتراك الخزينة في الفائدة

ومعلوم ما كانت عليه زراعة الدخان البلدي بين تبغ وتنباك وما كان يدفعه المزارعون ضريبة عنها ثم لم يقصد من تساهل الحكومة هذا في السابق حتى عهد الاحتلال إلا اطراد الاهلين التمتع بزراعة وطنية اهلية ورغماً عن المكوس الفادحة التي عرفناها في السابق لم تبطل هذه الزراعة في حين ان عدد المدخنين اليوم ليس اكثر منه في الماضي فضلاً عن وقوف الحال الآن ورواجها في السابق

وقد اهتم السير فنسنت كثيراً في الغاء الزراعة كما لا يخفى على الواقفين على دخائل الامور فلم يفلح مطلقاً وغاية ما امكنه نيله ان زاد الضريبة الى ٣٠ جنيهاً على الفدان بعد ان تحقق ان حاصل الفدان ينيف على ٦٠٠ كيلو اما رجال هذا المشروع فلم تضعف عزيمتهم بل زادوا نشاطاً وثباتاً لقاء نجاحهم في زيادة الضريبة ولعلمهم ان صاحب الحزم فائز بالطبع ثابروا على اطراد

خطتهم فسألوا تحديد مساحة زراعة الدخان بالف وخمسمائة فدان وليس ذلك منهم إلا مقدمة للوصول الى الغاء زراعة هذا الصنف حتى لا يكون للمزارعين باب للتنديد والافدنة المنزرعة دخاناً لا تذكر امام مساحة الارض المنزرعة كما استشهد بذلك تقرير المالية الاخير ونعم البرهان ...

فيتضح والحالة هذه ان الهمة التي صرفت الى زيادة الايراد بواسطة الدخان كانت نتيجتها الغاء زراعته من القطر السعيد بحيث حرمنا بذلك اصحاب الارض ارباحاً راهنة وحرمنا ايضاً الذين يزرعون الصنف المذكور ارباحاً واقعية وأما ما جاء في هذا التقرير من ان التجار هم الذين انتفعوا من الارض المزروعة فنجيب عليه بهذا السؤال وهو هل ينتفع غير التجار من الغاء الزراعة اما هذا فواقعي وأما ذاك فمشكوك فيه فان كثيرين من المصريين زرعوا الدخان ايضاً ثم ذهب الى ان عدد الطرفين محدود فالاضرار والحالة هذه محدودة كما جاء في التقرير وانا نلاحظ للقراء انهُ بسبب إلغاء زراعة الدخان وزيادة رسومه الخارجية زادت احتياجات المدخنين من المصريين وهؤلاء فئة كبيرة العدد للغاية فنكون اذ ذاك قد عملنا على زيادة مصاريف الفلاح مع ان ايراداته في نقصان او على حالها والضرائب في ازدياد كالضريبة المثلثة وعوائد الطرق وزيادة تعريفة سكة الحديد للركاب والبضائع وغيرها فهل والحالة هذه نعدّ ما تقرر من الاقتصاد الممدوح المنظور فيه الى مصلحة الاهلين لا الى الخزينة فقط

واذا بحثنا في براهين التقرير المومإ اليه رأينا بينها امراً واحداً يستحق الاعتبار وهو الوعد بتخفيف الضرائب وذلك عند تحقيق زيادة الايرادات ومعرفة ما يجب تخفيفهُ من تلك الضرائب ونحن وان كنا لا نشك بهذا

الوعد نخاف ان تتخلل المدة حوادث تقضي بالعكس فنكون قد حرمنا الاهالي فوائد راهنة تحت الامل بنيل فوائد مشكوك فيها

وللمالية حجة مهمة ايضاً وهي ان قسماً عظيماً من الدخان يصدر الى الخارج فتكون زيادة التعريفة لاحقة بالخارجيين اي غير المصريين على ان الكمية المتصدرة قليلة جداً فهي الان لاتتجاوز الربع مليون كيلو غرام سنوياً ولو فرضنا صحة ذلك وفرضنا كساد هذه التجارة من حيث وقوف الحال وتمكن تجار الدخان في العثمانية واليونانية من مناظرة تجار هذا الصنف هنا والغلبة عليهم فهل يضمن اصحاب المشروع حالتئذ امكان زيادة ذلك المال الذي يؤملونهُ الان ثم هب وقع ذلك افلا يكون المصريون انفسهم هم الذين قاموا بدفع تلك الزيادة حتى لو انجزت الحكومة وعدها بتخفيف الضرائب وعندئذ ليس من فضل لها لان المزارع المدخن هو الذي دفع من يده اليمنى ما تناولهُ بيدهِ اليسرى وهذا ليس من الاقتصاد المشكور بشيءٍ

ثم كما ان جعل التعريفة الجمركية عشرين قرشاً في سنة السبعين لم يفض الى إلغاء زراعة الدخان البلدي فكذلك تعريفة فرنسا او ايطاليا لا تضطر مصر الى التمثل بها فان أوستريا مثلاً جعلت تعريفتها اقل جداً من تعريفة ايطاليا ثم ان الفرق بين احتياجات المصري والاوروبي وبين ايرادات الطرفين يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار ايضاً وإلا كيف نستشهد بما يوافقنا اجراؤهُ ونصم آذاننا عن المسائل التي لانود اجراءها

ولقد كان يمكن الحكومة ان تزيد في ضريبة الافدنة المزروعة دخاناً الى حد تضمن معهُ حقوق المزارعين ومصلحتها وهذه الطريقة ولو كانت اقل فائدة الا انها اكثر ارضاءً للمزارعين واكثر اقتصاداً وتلك هي السياسة

الممدوحة فان اوربا بما تحمله من الضرائب لها عذر شرعي وهي زيادة العسكرية لحماية البلاد وصيانة حقوق الوطن كما نقرأ في محاضر بارلماناتها وخطب رجالها فضلاً عن تنعم الاهلين بامتيازات وطنية ولكن اين لمصر امثال ذلك وهي لو قال احد رجالها بضم السودان الى مصر قام له من المراقبين من دحض قوله ومنعه من تنفيذه واننا نرى شارع الاسماعيلية مناراً مرشوشاً ونظيفاً وشوارع الداخلية مظلمة قذرة لا نظافة ولا نور وفضلاً عن ذلك فان الضرائب التي تحملها اوربا مع انه مقصود بها زيادة الجيش للدفاع عن الوطن كان لها من النتائج الوخيمة ماجعل حكومات الدول في قلق دائم وما رأيناه من العدميين في الروسية والاشتراكيين في المانيا وأزمة الفعلة في فرنسا وانكلترا انما هو ناشيء عن الفقر وهذا عن زيادة الضرائب اما في الشرق فيتولد اليأس وهذا يفتح للمراقبين باب المداخلة وهنالك الطامة الكبرى فتكون البلاد بعد فقرها خسرت حقوقها السياسية والادارية والمالية

ونحن نعلم ان الحكومة عند زيادة الضريبة الى ثلاثين جنيهاً اضطرت الى استشارة مجلس شورى القوانين فهل لم يكن واجباً عليها ايضاً استشارة المجلس في المسألة الاخيرة ولو ان الضريبة متسترة تحت رحمة الدخان الاجنبي. تلك مسألة حقوقية نترك امرها لاربابها ولكنا نرى انه لو سئل المجلس عن آرائه لكانت المالية قد جرت خطة محمودة فان اعضاء الشورى اعرف الجميع بحالة الاهلين وكانوا يساعدون الحكومة بمشوراتهم وربما كانت المداولة معهم توجد طريقة اضمن وأفيد للجميع

وقد اجتمعت مع عارف باحوال الدخان وهو من الذين سعوا في الغاء الدخان البلدي ومن ذوي المصلحة في تجارة هذا الصنف فقال ان الوارد

سنوياً كان نحو ثلاثة ملايين وأما حاصلات دخان البلاد فكان متوسطها ستة ملايين كيلو وان البلاد تقطع على الاقل ثمانية ملايين وعند ما قلت زراعة البلدي تضاعف الصادر الى الصعيد من الدخان الاجنبي وهذا برهان على انهُ بالالغاء المطلق يطلب الاجنبي فيزداد الايراد ثم قال والموجود الان من البلدي مليونان ونصف بما فيهِ المزروع الان والموجود من الاجنبي نحو ٢/١ ٧ مليون والجميع عشرة ملايين وهو يكاد لا يكفي لاكثر من سنة واربعة اشهر وهو يرى انهُ في اوائل السنة القادمة يبتدئ ورود الدخان على التعريفة الجديدة

ثم قال ويكاد المتصدر الى الخارج لايزيد عن ٢٠٠ الف كيلو وقد يزيد ايضاً فيصل الى نصف مليون بعد سنوات على ان هذه المقطوعية لاتذكر لدى مقطوعية البلاد فسألته وكم تظن يقطع الوطنيون من الكمية كلها فقال يقطع الاجانب هنا مليون كيلو بما فيهِ المتصدر الى الخارج والباقي وهو سبعة او ستة او خمسة ملايين يقطعهُ الوطنيون قلت وما فائدة ابناء البلاد قال اني اتكلم عن الفائدة للخزينة ثم للتجار أما الاولى فناشئة عن زيادة الايرادات واما الثانية فعن زيادة الوارد تلقاء كثرة المقطوعية منهُ بسبب إلغاء البلدي واما الاهلون فمنفعتهم قائمة باستخدام الزيادة في تخفيف الضرائب

ذلك ما قالهُ لي هذا الصاحب العزيز ثم اجتمعت على مصري من العارفين باحوال هذا الصنف هنا وفي الارياف فقال

ن الخزينة لاتلام لاهتمامها في زيادة الايرادات ولكن على شرط ان ينال ابن البلاد قسماً هذه الفائدة اما مسألة الدخان فالفائدة فيها محصورة في الخزينة وفي تجار هذا الصنف وقد سارت الحكومة بالغاء الدخان البلدي على

عكس ماهو جار في اوربا فان رجال كل شعب يعملون على زيادة الضرائب على المحصولات الخارجية والتساهل في حاصلات بلادهم فلمَ لم نقتدِ بهم ولم نختر الا مسألة الدخان لذلك قلت اولست ترى واسطة لزيادة ايراد الخزينة بدون الالغاء قال نعم ان تكون ضريبة الفدان اربعة آلاف قرش مثلاً او اكثر او اقل ووضع عشرين قرشاً او ثلاثين على الوارد الخارجي فان مشتري هذا الصنف لايدخنون البلدي ونكون قد ظلمنا عدداً محدوداً على حين نحن بالالغاء نضطر الوطنيين الى تدخين الدخان الاجنبي بثمن اغلى وهم لم يتعودوا عليه

تلك هي افكار كل من الوطني والاجنبي نشرتها على علاتها خدمة للقراء

اما انا فأقول اننا مهما بحثنا في المسألة رأينا ان الاحسان فيها اقل مما يتصور ولا امل بدفع الاضرار الا اذا خففت الضرائب وأنجزت الوعود والا اضفنا شر هذه المسألة الى غيرها فهي ليست بالاولى وبودنا ان تكون الاخيرة والله مع الصابرين

وقال في ١٥ دسمبر تحت عنوان الزراعة

ثبت ان غنى مصر وثروتها الزراعة وان أبواب رزق اهاليها في محصولات البلاد ولا انكر ان هنالك ابواباً أخرى للتعيش ولا سيما الخدمة في الحكومة ولكنها ضاقت وستضيق ونخاف ان تسد في المستقبل ونحن نخص مجالتنا هذه بالزراعة ومنها نعرف حالتنا معرفتنا مواجب المنتفعين منها سواء

كان من الحاكم او المحكوم والله المستعان

من مواجب الحكومة والشعب زيادة اسباب الثروة وتتضاعف واجبات الاول في مثل بلاد مصر لانحصار ثروتها في الزراعة ولان شأن الحكومة غير شأن الشعب للتباين بين الفريقين مما لا يحتاج امرهُ الى دليل ولما كانت الزراعة حياة القطر وجب ان ننظر في تحسين حالها اي ان يقوم المزارع بالعلم والتجربة ويتفنن في احوال التجارة ويتوسع في شؤونها مما يفيدهُ العلم وينيلهُ الاجتهاد والثبات ولسوء الحظ نقول ان هذه الفئة لا تزال على ما كانت عليهِ من سنين فلم تتقدم خطوة ولا عبرة في افراد تفننوا في الزراعة لان عددهم محصور ولم تنبث روح مبادئهم في العامة فانحصرت الفائدة فيهم وصدق من قال ان اجتهاد البعض ضاع في تهاون الكل

ولا احصر المسئولية في المزارع فانه معذور لجهله حقوق الزراعة وتجارب العلم الجديد وقد نهكته السنون واثقلت كاهله الحوادث فوقع تحت وطأة اثقال الضرائب كأني به لا يزرع الا ليفي مال طينه وهو يكتفي من الحياة بما دون الطفيف ثم لم يقم من الحكومة دليل على تشجيع المزارعين ليتناظروا ويتسابقوا في حلبة الزراعة فأين المعارض الزراعية وأين علامات الامتياز لجودة هذا المحصول وحسن جنس هذا القطن وتلك الحبوب فكل عناية او رعاية يصير توجيهها الى مثل هذه الامور يترتب عليها تجديد الحياة الزراعية لان الارض تزداد تعباً سنة عن سنة ولهذا وجب ان يستعيض اربابها عن تعبها بتفنن الزراعة وهذا لا يتم اذا لم تقم الحكومة بواجبها اولاً والمزارعون ثانياً

وهنالك ملحوظات اخرى لا تقل اهمية عما ذكرناه. منها تخفيف ضرائب

الاطيان ليتقاسم المزارع والخزينة اثمان محاصيله فيجتهد لانهُ يكتسب . ويسرنا ان الحكومة مهتمة بتحقيق هذه الامنية . ومنها مساعدة سباخ الارض والحكومة بالغاء عوائد الاغنام والماعز وقد عرفت هذه الغاية فشكرناها وسألنا تعميم امثالها ومنها تسهيل وسائط النقل وهي من اكثر المسائل اهمية ولكننا لسوءِ الحظ لم نرَ من ارباب الامر فيها اهتماماً كافياً

فلقد زدنا الاجرة على المحاصيل فلم تضر التجارة بالزراعة والاخيرة حياة المصريين وقوتهم وسعينا في زيادة عوائد الجسور لتحفظ زيادة ايراد سكة الحديد فلم نقصد الا خدمة الخزينة نعم لا ننكر ان مصلحة سكة الحديد خففت الاثقال ولكن كان ذلك حيث الملاحة لها رقيبة والا لما كانت التعريفة من الفيوم اشبه بتعريفة اسيوط والاجرة من الزقازيق اضعاف مثلها من كفر الزيات وسعد الاخير انهُ على النيل ونحس الاول ان لا نيل عنده

واذا قيل كيف تخفف اثقال احمال الزراعة قلنا بتخفيف الضرائب مع تخفيف ضريبات الدخولية وأجر النقل وعضد كل مشروع من شأنهِ استخدام حاصلات البلاد في المصنوعات الاهلية وفي الاخير خدمة مزدوجة للزراعة والصناعة فان ثروة البلاد لا تضمن ثروة الاهلين والايراد لغيرهم بل كلما كان الاهلون اغنياء كلما كانت البلاد غنية لان مالهم فيها بعكس الاول

ونرى من اقدس مواجب أولي الامر ان ينظروا في هذه المسألة ويسالوا مصلحة سكة الحديد درسها درساً مدققاً ليكون التعديل عادلا عاماً ننظر فيهِ الى خدمة الزراعة كما تقتضيهِ مصلحة البلاد ونأتي الاقتصاد من ابوابهِ الحقة ولا نخترع أمراً جديداً بل نتخذ اوربا دستوراً في هذه المبادئ ونجاحها يضمن نجاحنا وتشكيل لجنة لمثل هذه المسالة أهم وأولى من اللجان

المشكلة التي اذا اتت بفائدة كانت محصورة محدودة بعكس مسالة سكة الحديد فبها اجل خدمة للخزينة والاهلين لان الزراعة حياة الجميع

سنة ١٨٩١

كتب في ١٩ يناير رداً على تقرير للاستشار القضائي ننقله لما ترتب عليه من موافقة ذوي الامر لآرائه على ما يشاهد اليوم في الدوائر القضائية

رسالتي هذه انجز فيها الوعد ببيان الملاحظات على ماجاء في تقرير حضرة المستر سكوت الذي ضمنت خلاصته في رسالة سابقة فاقول

ان النتائج التي استنتجها المستر سكوت في مقدمة تقريره لحقائق لا ينكرها احد ويوم تستوفي المحاكم حقوقها يعرف الجاهلون من الشعب معرفة العقلاء فضل القانون المذكور وحرية مبادئه وعدالة غايته

وإننا نوافقه بتنقيص عدد قضاة الجلسة ولكنا لانرى عدلاً ان تكون من عضوين فقط بل يجب ان يكون عدد الاعضاء ثلثة سواء في الابتدائي او في الاستئناف

ومن اعدل مطالب المستر سكوت تخفيف الرسوم وهو امرٌ امسى البحث فيه تحصيل حاصل وكلما اسرعت الحكومة في تخفيف الرسوم كلما ايدت الدستور وبرهنت على صيانة الحقوق بتعميم العدالة ومن العبث التردد في تخفيف امثال هذه المطالب الآن ولو اجاب اولو الامر الى مارسمه الرأي العام في هذه المسألة لما احتيج الى حضور المستر سكوت اولاً وطلب تخفيف

الرسوم ثانياً ولكم من مرة كتبنا في تخفيف الرسوم وشدة وطأتها ولكن انحصرت الاعمال في المكاتبات الرسمية بين النظارة والنيابة او عهدت الى تشكيل اللجان ولكن بدون نتيجة وهي خطة من اكبر دواعي انحطاط الشرق وتأخره

أما تنديده في الامور الجنائية فلا يخلو من الصحة وكان يجب عليه ان يتوسع بها إلا انه أراد ان يندد ويرضي في وقت واحد وهذا محال اذا كان لابد من اعلان الحقيقة ولا ريب في انه لو اتفق رجال النيابة والضبط مع رجال الادارة لكانت الحالة احسن جداً ولم يكن مجال لتنديده في حين لم يقل امراً جديداً بل ردد صدى الرأي العام

ولاحاجة هنا لسرد تاريخ التداخل الاداري في الاعمال الحقوقية وهو التداخل الذي كان من جملة دواعي تأييد تداخل المراقبين كما قلنا ذلك في حينه وما ننكر انهُ لو قصد بالتداخل اصلاح الشؤون لقلنا نعم الامر ولكن ارادت كل سلطة ان تخدم نفسها فاضرت بمجموع السلطات وخدمت مراقب الجميع والنتيجة برهان عدل

ونحن نرى بتعيين قضاة صالح في القرى خدمة جليلة للاهلين اللهمَّ اذا روقبوا بعد حسن الانتقاء وهذا غير عسير لان المراقبة اكبر مدرسة للجاهل والكسول والمستبد والمرتشي وكلما كانت المراقبة شديدة كلما كانت النتيجة حسنة وكلما نظرنا في الانتقاء الى الاهلية كلما خدمنا الدستور وأنفسنا وإلا عمَّ التداخل وفقدنا كل امر

ثم نقول قولهُ على البوليس وذلك ماطالما سألناه خدمة للمصلحة المذكورة ولا يعدم اربابها الرجال اذا اهتدوا وأحسنوا الانتقاء وأما ماعرضه بخصوص

المتشردين وإعطاء الامتياز للعمد ومراقبة المديرين لهم نهي دعائم الامن ولصيانة الحقوق المتبادلة

ولا ريب ان ماعرضه بخصوص احداث قومسيون لمراقبة القضاة في محله ولكن نحن نرى من الواجب تعديل لتشكيل المذكور { وعرفنا من ثمة ان لا بد من ذلك } وكلما احسنا انتخاب اعضاء هذا القومسيون كلما ابعدنا الاغراض الشخصية والمصالح الخصوصية واتفق الجميع على عضد القضاة الذين جمعوا الى معرفة الحقوق فوائد التجربة مع رضى الرأي العام عن حرية مبادئهم واستقلال ضميرهم

ولكننا لانوافقه على تعيين مفتش انكليزي ولا سيما وخصائصه كما ذكرناها فاننا نعتبر ذلك سلطة في السلطة فتضر الواحدة بالثانية وتكون النتيجة زعزعة الدستور وتقويضه نعم لانأنف من المراقبة ولكن لماذا لايكون المستشار وحده مراقباً في وقت واحد تحت شروط لا تمس بالدستور بل تؤيده وتعضده وهذا سهل فان المستشار حالياً هو بصفة مفتش وفي تقريره ومأموريته ما يؤيد ذلك ويمكنه في هذه الحالة مع خدمة العدالة وأرباب الحقوق تأييد الدستور كما تقتضيه المصلحة العامة

ولا نعجب اذا وافقه الجميع على ما اشترطه بخصوص تعيين القضاة في الابتدائي ولكنه أبهم في كلامه على الاستئناف نعم انهُ قال بوجوب صرف مدة ثلاث سنوات الخ. ولكن يجب ان يكون التعيين في الاستئناف تابعاً لقدمية اعضاء الابتدائي واما شروط النقل والرفت فمتبادلة

اما مسألة من تعيين اثنين من الانكليز في الاستئناف الاهلي فهو ما طالما خفنا حصولهُ واستلفتنا ارباب الحكومة الى ملافاته قبل الوقوع فيه فكانت

النتيجة ماسألهُ سكوت وانا لا انكر على الانكليزي والاوربي عموماً المعرفة والحرية واستقلال الفكر ولكن انى لهُ معرفة اللغة العربية معرفة كافية يتمكن بها من فهم المرافعة ودرس الاوراق ولهذا فاذا كان لابد من العنصر الاجنبي في المحاكم وجب ان يرخص بالمرافعة بلغة اجنبية ايضاً يفهمها القضاة سواء كانوا شرقيين او غربيين

ونحن نرتإي اقامة محكمة تمييز ترجع جميع الامور اليها وتكلف بمراقبة اعمال المحاكم اجمع ابتدائية واستئنافية وتؤلف من خمسة هم اربعة اعضاء ورئيس فان مثل هذه المحكمة ضرورية وما نكر ان فريقاً يعارض تشكيلها لانها تزيد في النفقات على المتقاضين ولا سيما وان افتقارنا الى اصحاب الاهلية لاخلاف فيه فاذا نقلنا خمسة الى التمييز نكون قد عملنا على تحقيق ضمانة الاستئناف مع ان الحالة المالية واشغال المحاكم لاتساعد على ذلك ولكنا نرى من التبذير امساك الدرهم عن المحاكم كما نرى ظلماً عدم تخفيف الرسوم واذا رفضنا التمييز اليوم اضطرتنا الحوادث اليه غداً والمستقبل للرأي العام واحوال اوربا شاهد عدل

أما الرجال فلا يستحيل وجودهم اذا اردنا تفضيل الدستور على الجنسية ولكن اذا فضلنا الاخيرة اضعنا الدستور والجنسية واذا فضلنا الدستور حفظناهما جميعاً وان مارأيناه ونراهُ يومياً من الاعمال والمسائل يؤيد هذه الاقوال ويبرهن على عدالة مبادئنا

واذ قد تقرر ان يعين القضاة من تلامذة الحقوق وجب ان تعهد رئاسة المدرسة الحقوقية الى رجل جمع الى المعرفة الحقوقية فوائد التجربة وليكن ابن القانون وأصيلاً بهِ لادخيلاً عليهِ وإلا نحول دون نجاح المدرسة

المذكورة ونضر بالحاكم اذ يتعذر نيل الموظفين اللازمين لها فيكون الضرر مزدوجاً

ولقد سألنا كثيراً من القاضي ولم نسأل له صيانة مركزه وضمانته نعم ان بلجنة التأديب بعض الضمانة ولكن نرى من الواجب ان يقرر ان القاضي الذي يقضي مدة ثلاث سنوات مثلاً في الابتدائي وتثبت اهليته ومهارته لا يعزل ويكون حكمه حكم اعضاء الاستئناف وهذا مما يشجع العمال على السهر ومراقبة الامور كما يقتضيه القانون والمصلحة العامة

وكتب في ٢ دسمبر من دمشق

لا نعجب اذا قلنا ان من اوجب الاصلاحات وألزمها تعديل الضرائب في الولاية السورية وبالتالي في جميع ولايات الدولة العلية لان هذا المطلب عام في جميع اوربا حتى في اعدلها ضريبة . والضرائب في هذا القطر السوري قد تكون مجحفة في بعض الجهات الا ان اجحافها اليوم هو من حيث توزيعها على الاراضي ولو قابلنا ضرائب سورية بضرائب مصر لرأينا الثانية اشد وطأة من الاولى واما التوزيع فحالته واحدة وهي لا تخفى على الناقد البصير

ثم انك ترى صاحب هذه الارض يدفع ضعفي ما يدفعه الجارُ على ارضهِ وايراد الثانية اعظم لتوفر المياه فيها وهو اجحاف ظاهر وقد فاتحت حضرة ملجإِ الولاية الذي رأيتهُ مهتماً كل الاهتمام باصلاح هذه المسألة مع حفظ مال الخزينة فعرفت من دولته ان المرحوم صبحي باشا كان باشر

اصلاح ذلك وان دولته فاوض الاستانة وأمله وطيد في تحقيق هذه الامنية لانه بذلك ينفذ اوامر الجناب السلطاني ولا سيما بخدمة الفقير المزارع الذي ليس له ما للغني من المعدات توصلاً لتعديل ضرائبه او تخفيفها ولم ارَ في الوالي المذكور انتباهاً الى هذا الاصلاح وحده بل الى سواه ايضاً من حاجات العامة ليتوفر للفقير والمسكين من معدات الراحة والثروة ما انحصر امره الى الآن في بضعة اشخاص

والمامول من دار السعادة اجابة مطالب دولته وهو ما لا نشك بحصوله لعدالته ولا سيما وان بتحقيقه صيانة اموال الحكومة وعدم ضياعها لان تعديل الضرائب لاينقص من مجموعها وفي عدالة التعديل خدمة اعظم من نقص مجموعها لان بالاول اشتراكاً للجميع بالفائدة بينا نخاف ان تنحصر فائدة الثاني في الفئة الغنية المعدودة التي احتكرت الفوائد منذ سنين

قلنا ان وزارة المالية لا ترفض طلب الولاية ولكن العقدة في انتقاء الاشخاص المعهودة اليهم مساحة تلك الاطيان وتعديل ضرائبها فقد يحتمل ان لا تمكن العدالة في اجراء الامر الثاني بدون مسح الاطيان فان اوامر الحضرة السلطانية جميعها عادلة وغايتها شريفة وهي تنظر في رعاية الرعية اكثر من النظر في مصلحة الخزينة ولكن الاجحاف الذي نراه في توزيع الضرائب وغيره من آثار الماضي انما ادخله أولئك الموظفون المرتشون الذين لاوطنية لهم وقد باعوا حقوق الخزينة والاهلين لغايات ساقطة فكان ماكان من الاجحاف

وكثيراً ماساعد الاهلون أولئك الموظفين على الرشوة رغبة منهم في تخفيف احمالهم بظلم اخوانهم او لغايات اخرى لاتقل عنها خسة سواء لمشترى وظيفة او للحصول على منصب فان الراشي والمرتشي مجرمان والذنب واحد ونحن

قد اصبحت واجباتنا الان اقدس مما كانت قبلاً فان لنا مع مقاصة القانون المجرمين قانوناً اجل تجب علينا رعايته وهو الوطن العزيز فان المراقبين كثيرون وان وجود الراشي والمرتشي لا يمنع وجود كثيرين من أُولي الاستقامة الذين يخافون دينهم ويحبون وطنهم فيقومون بهذه المهمة خير قيام ولا يستحيل على استقامة عاصم باشا ان ينتقي رجالاً من ذوي الاهلية يراقبهم بنفسه فيسأل مكافأة المستحق منهم وقصاص المقصر

واری ان ضرب مال معلوم على الاطيان اولى من مال الشور فيتم الاصلاح من جميع وجوهه وتخلص الاطيان من ظلم زارعها الذي ينهكها ليزيد في الايراد ويسدد الضرائب ويتخلص المالكون من استبداد المعشرين والملتزمين وتعطى لهم القسائم فيعرفون ما عليهم وما دفعوه وفي تحقيق ذلك اكبر خدمة للخزينة والاهلين اما الاولى فتستوفى اموالها ولا يكون من ثم بواق تجمع من سنة لسنة واما الاهلون فلا يدفعون المال الا مرة واحدة للخزينة ونعم النتيجة

سنة ١٨٩٢

كتب عن سمو الخديوي عباس باشا الثاني على اثر ارتقائه الى الاريكة الخديوية

اعلن الجناب الخديوي ايده الله في خطابه لنواب القطر رعايته لدستور تلك الهيئة وآماله بمعاضدة الامة لها خدمة لمصر والاهلين وهي اقوال تدلنا صريحاً على شرف مبادئ سموه ونبل غايته فهو في الاول قدر الدستور

قدره مما يؤملنا وتلك مبادئ سموه ان يسعى في توسيع نطاق ذلك المشروع الجليل وان يشترك نواب الامة مع الحكومة ليس فقط ادبياً بابداء آرائهم بل فعلياً بالمداولة في المشروعات ومبادلة الآراء في اللوائح فيساعدون الهيئة الاجرائية بما يعرفونه من احوال البلاد واحتياجاتها

وأما في الثاني اي قول سموه بمعاضدة الامة فقد ايد جنابه العالي فضل الدستور وهيئة الشورى واذا قال غيره احكم بحكومتي فقد قال هو وبأمتي ونعم المقال مما يبرهن لنا على ان ارادة سموه تعززت بالمعرفة المطلوبة بين المدارس والاسفار فعرف مواجب الحاكم معرفته حقوق الامة ومواجبها ولا نعجب اذا وثقت اعمال سموه مع ارادته الحازمة ومعرفته الوافية

ولو اتبع رجال شرقنا هذه المبادئ لما فعلت عوامل التداخل الاجنبي فعلها الحاضر ولكن اولئك الرجال كانوا ينبذون نصيحة الوطني استخفافاً ويحترمون اقوال الاجنبي مع ان الاول لم يقصد الا خدمة سيده وبلاده والثاني لم يقصد الا خدمة امته بالنصح لولاة امرها وشتان بين الامرين

ولو بحثنا عن اسباب تلك المعاملة لعرفنا انها ناتجة عن استبداد وجهل اما الاول فيصور الخيلاء والكبر وأما الثاني فالاستخفاف والاحتقار وكلاهما يذهبان بصاحبهما الى الضياع ولهذا قابلنا خطاب اميرنا الحازم بغاية الامتنان لانه أيد لنا ما نؤمله في سموه من احترام آراء الامة والسعي في خدمة مصالحها والمعاضدة لرجالها ولا سيما نوابها المحترمين توصلا الى تحقيق تلك الاماني الوطنية التي لايخرج مغزاها عن ان تكون مصر للمصريين

وكتب في ٣ مايو عن المستر تشامبرلن الذي ملأ ذكره الخافقين اليوم ما نذكره اشارة الى بعض احوال الرجل

اهم الاخبار الاخيرة خطاب زعيم المتعارفين المستر شامبرلن الانكليزي الذي قام بنصرة الشعب وأخذ اليوم بمعارضة حقوقه ومضادة العناصر الضعيفة منه وهو بالقول الاخير يقصد مصر لانه بعد ان حارب الاحتلال وندد في عماله زار مصر وشرب من نيلها فوفى الضيافة حقها ورجع الى انكلترا يخطب في محافلها ويكتب في جرائدها باستمرار الاحتلال عكساً لما كتبه في السابق على ان التباين المذكور يكفينا مؤونة الرد على اقواله

اما خطابه فقد خصه بايرلندا ومستقبلها اذ قال ان سكان ولاية أولستر الايرلندية مصممون على رفض الضرائب التي تطلبها دار الندوة الايرلندية وإنه اي شامبرلن في ثقة من ان سكان المقاطعة المذكورة لا يغيرون عزمهم هذا

ونحن نرى في هذه العبارة نتيجتين مهمتين لسياسة انكلترا اما الاولى فمنزاها ثقة المحافظين وأشياعهم من خذلانهم وفوز الاحرار في الانتخابات الآتية وهذا هو لسان حال الرأي العام الانكليزي كما نرى في خطب افراده وكتابة جرائده وأما النتيجة الثانية فهي استخدام شامبرلن على عدم رضى المقاطعة ثورة ضد مشروع لا يزال في عالم التصور إذ ان بقاء الاحرار لا تضمن اقامة دار تلك الندوة وشروطها العمومية مع انكلترا والخصوصية مع ايرلندا نفسها فكأني به والحالة هذه لا يقصد إلا حصول تلك الثورة وقد استلفت الرأي العام الانكليزي اليها لعرقلة خطوات الاحرار وزيادة ظلم ايرلنده لغايات مذهبية

وكتب في ٢٥ يونيو من فينا

فينا عاصمة المملكة النمسوية وهي من اجمل مدن اوروبا وأحسنها رونقاً وأتمها نظافة وهندسة والعارف لغة اهلها يسر كثيراً فيها ولا سيما لان طرق المعيشة فيها اسهل من سواها بسبب طبيعة هذه البلاد على ان ساكن المدن العظيمة في اوروبا يمكنه ان يعيش حسب ارادته ومقدرته بعكس سكان المدن الشرقية حيث يتسابق اهلها الى الاقتداء بالمبذرين اكثر مما يتنافسون في تعميم المبادئ العلمية وفوائد الحرف والصنائع وهذه النقيصة في مدن الشرق قد اضرت بالهيئة الاجتماعية الشرقية فأمست الان بين شرقية وأوربية

ونرى سكان اوروبا حتى في اعظم مدنها واكثرها سكاناً يهتمون بتسهيل وسائط استمالة الغريب الى بلدتهم ليأتيها فيصرف فيها الاموال الكثيرة ولهذا كان لهم من الغرباء ايراد يذكر ولا سيما في مثل فرنسا التي انفردت بحسن هوائها وبذوقها فكان ايراد البلاد من الاجانب عظيماً جداً يقول الاقتصاديون عنه إنه من اهم ايرادات البلاد ولهذا اندفع السكان والحكومة الى زيادة التحسين ليزيد عدد القصاد

وكثيراً ماسأَلت في رسائلي العاصمية ان تتوسع الحكومة في زيادة اسباب راحة السياح لتكون مصرنا سويسرا الشتوية يقصدها الالوف فيصرفون الملايين الكثيرة وينتفع باكثرها ابناء البلاد وهو ايراد بدون رأسمال ولا يمكن للخزانة ان تضرب عليه ضريبة

سنة ١٨٩٣ .

كتب في ٨ جنايو عن منشور كولس الشهير ما عقبته الازمة الوزارية النهمية التي كان لها من الشأن العظيم ما لم ينسه القراء .

لم نكن نود اتخاذ منشور كولس باشا موضوع بحث اليوم ولكم تمنينا ان تكذب الاعمال ماسبقنا وانذرنا به رجال مصر منذ سنوات ودعوناهم الى مداركته قبل الوقوع في اضراره ولكن ابى غرور هذا وجهل ذلك الا تسهيل اعمال الانكليز وإنفاذ مطامعهم وهكذا كان ولهذا لم نعتب على الانكليزي لانهُ تداخل في اعمالنا وقبض عليها واستبد بها وتملك ادارات البلاد فانه لم يحتل بلادنا الا لذلك رغماً عن عهوده وأقسامه وتلك سياسته في جميع الاحيان والبلدان ولكنا نلوم المصريين الذين عملوا على تأييد سياسة التداخل وهم اكثر ذنباً بضعفهم من الذين سببوا التداخل العسكري عن جهل لان هؤلاء لم يعرفوا الى اين المصير وأما الاولون فعرفوا ولو لم يكن الا تنبيهات الاهرام وتهديداتهُ لكفى بها نذيراً لقوم يعقلون

اغتنم الانكليز مرض عطوفتلو مصطفى فهمي باشا وبعثوا بالمنشور المذكور الى جميع المديرين والمحافظين ووقع كولس باشا عليه باسم الناظر المريض وهي لحة لم نعرفها في غير تاريخ الانكليز الذين امسوا بانفاذ مبادئه اصحاب الامر والنهي في نظارة الداخلية واصبح المديرون مضطرين الى مخاطبتهم بجميع الاحوال المختصة بمسائل الخفراء والمشايخ والضبط والربط مما حصر سلطة ناظر الداخلية في معاونيها وكتاب اقلامها وامسى حكم الداخلية حكم الاشغال والحربية والمالية وهذا ماحذرنا منهُ حكومة مصر واستلفتنا اليه ضعف هذا الناظر

وغرور ذلك الوزير فكان لا حياة لمن تنادي

والآن اذ تأيد هذا الامر فقد وجب الغاء وظائف النظارات وسائر الاقلام واستخدام مايدفع لها في سبيل اصلاحات نافعة يستفيد منها الفلاح المزارع الذي يقوم بتلك الاموال وليس من العدل ان تنفقها في اضاعة حقوق بلاده المقدسة للاجانب عنهُ جنساً ولغة وعادة وديناً

وكيف جاز لكولس باشا ان يوقع على ذلك المنشور ولا يستشير الناظر او لماذا لم يوقع وكيل الناظر على المنشور المذكور وكيف يجوز تبديل خصائص احد الوزراء وحرمان المصري من حقوقه ولم يقرر ذلك مجلس نظار ولم يصدر به أمر خديوي

ناشدتكم الله ايها الانكليز المصلحون ولا سيما كباركم كيف استخدمتم التمس لاعلان ما تكمنونه ضد اميرنا المحبوب وعباسنا المعظم وقلتم من جملة ادعاءاتكم انه يتداخل في اعمال الادارات بدون واسطة رؤسائها ولنفرض صحة قولكم أفليس الخديوي هو امير البلاد وصاحبها أوليست الامة هي عباسها وهو الأمة أولا تعرفون ان حقوق الخديوي حقوق القطر والمصريين وجميعها واحدة قائمة بشخص الجناب العالي

ثم لاتجهلون ايها السادة الانكليز ان الخديوي برهن في اعمالهِ على انه اميل الامراء والحكام الى احترام المبادىء الدستورية باجتماعه بنظاره يومياً ومخابرة النظارات بواسطتهم مع اعتقاده واعتقاد المصريين والاجانب انه لم يقف منهم على مستتر وقد لمتموهُ لاغراضكم واستخدمتم التمس والستاندرد لشفاء غليلكم ولا نعجب اذا عضدتم كولس باشا وقلتم بأحقية منشوره لاعتقادكم ان لا أهلية للمصريين كما كتب ميلنر في كتابه

ولكن الحوادث فندت اقوالكم والاعمال كذبت جرائدكم بما اتاه الجناب الخديوي الذي احيى في المصريين تلك النهضة الوطنية ولهذا كنا في ثقة من إن سموه يأمر بالغاء منشور كولس باشا ووضع حد لامثاله بأن يعهد المناصب الى رجال مضريين اشربوا الوطنية في شرايينهم فلا يخضعون صاغرين للدخيل كما هي الاحوال اليوم واننا والله نعد اطراد الحالة المذكورة ذنباً سياسياً الا اذا كانت الغاية تأييد التداخل الانكليزي وضياع حقوق البلاد المالية والسياسية ورجال الحكومة يعرفون ان ليس من مصري في مصرنا يرضى عن هذه السياسة وقد حان ان نعرف ان الرأي العام لنا بالمرصاد فاذا لم نتدارك الشر من تلقاء انفسنا قضي علينا وخضعنا لاحكام ذلك القضاء المبرم صاغرين فان تضحية مصلحة نفر في سبيل خدمة الوطن العزيز وخديويه المعظم لمن اقدس المواجب واشرفها

تلك هي حالنا ايها الخديوي المحبوب رفعناها الى اعتابك السنية لترى فيها رأيك الصائب بفكرك الثاقب فتمنع انفاذ منشور كولس باشا وتأمر بالتعديلات والتغييرات اللازمة لندخل مع سنة خديويتك الثانية في شأن جديد يترتب عليه حفظ حقوق الوطن وتأييد مصلحته المصرية فتذكرنا بأحسن حسنات اجدادك ويحفظ لك التاريخ ذكراً وطنياً حميداً يتوارثه الابناء عن الآباء وكلهم دعوات خيرية لذاتك المحبوبة

وكتب في ١٨ منه بعد حدوث الازمة المشار اليها آنفاً

ان الجناب العباسي حفظه الله ايد باعماله الاخيرة الحازمة الوطنية امرين رئيسيين الاول عزل رئيس النظار او الناظر الذي لا يرضاه والثاني

تعيين الوزير او الرئيس الذي يريده وفي كلا الامرين نظر سموه الى مصلحة الامة والوطن لانه اذا كان النظار على غير رأيه فلا يخدمون الا الانكليز واذا كان الوزير على غير مبادئ سموه كان خادم المراقبين الدخلاء وعليه فلم ينظر الجناب الخديوي عباس باشا المحبوب الى شخصية هذا او ذلك بل نظر الى المبادئ والاعمال وهي خدم وطنية جليلة قابلها المصريون بتكرار الدعوات الكريمة بحفظ حضرته السنية وتعزيز الامة والوطن السعيد على يدها ولنا بتظاهر الامة اليوم بين يديه اكبر برهان

تلك هي خدم سموه الداخلية ولكنه حفظه الله لم يقتصر على ذلك بل خدمها خدمة عثمانية اوروبية اما اولاً فلما رأيناه من تلغرافات الحضرة السلطانية لسموه المؤيدة لاعمال خديوينا الذي قام بما تخوله إياه حقوقه المقدسة في الفرمانات السلطانية واما ثانياً فلان انكلترا نفسها بعد ان رأت الانفراد بمصر داخلياً وخارجياً اضطرت لمخابرة سفراء فرنسا والروسية والمانيا بلوندره واعترفت بهذه المخابرات ان المسالة اوروبية غير انكليزية وهو شأن من اهم الشؤون في حوادث مصر الداخلية لم نره من سبع سنوات

واخيراً فان الجناب الخديوي باعماله هذه طهر اعمال المصريين السابقة وكفر عن ضعف هذا وغرور الثاني واهمال الثالث واوجد لمصر عصراً وطنياً جديداً يجب ان تفتخر به الامة كما تعتز باميرها المحبوب وان يتخذه المصريون قاعدة لسياستهم ومثالاً لاجراءاتهم فيعرفون من الوزير الى الساعي انهم خدمة العباس يعزل هذا وينصب ذلك فيما تقتضيه مصلحة وطنه كما قال اليوم على مسمع الالوف « اني وقفت نفسي لخدمة أُمتي ووطني ولا اسال الموظفين إلا ان يجروا على هذه المبادئ واسال الامة الدعاء » ونحن نعلم ان الجميع

واحد في خدمة سموه وان اعتقاد المصريين انه الامة والوطن فبخدمة العباس صيانة مصالح القطر السعيد والامة المصرية

ونحن لايسعنا الا امتداح وطنية الفاضل فخري باشا ولا نعجب اذا ارانا سمو العباس من الالتفات اليه مايزيد المصريين اخلاصاً لحضرته العلية فان فخري باشا لما اشتدت عليه وطأة الازمة استقال لكي لا تكون شخصيته سبباً للخلاف والتنافر ولو فهم مصطفى باشا ذلك لما اوصلنا الى الحالة الراهنة قبل مرضه وبعده لايجهل ماكان عليه الرأي العام ضده وقد قضى عليه بلسان الاهرام وهو لسان حاله ونحن ننتظر اعمال الوزارة الجديدة مستبشرين لاعتقادنا انها تقوم بتعميم مبادئ الجناب العباسي النافعة فان الاهرام صدى الرأي العام والرأي العام على رأي اميره المحبوب

ولكن لايسعنا إلا ان نستقبح علناً ثورة الموظفين الانكليز في الحكومة المصرية وهم ينقدون الرواتب الفادحة من اموال الفلاح المسكين فقد كان يجب الانتظار على الاقل الى مابعد الوقوف على نتيجة المخابرات حتى لا ينفضح امركم ايها الانكليز المحترمون فلقد عرفنا غايتكم من كثرة التوظيف واندرنا بها حكومات مصر وبثورتكم هذه على الامير الخديوي وحكومته ايدتم ما أتيتموه بسوء سياستكم بتلغراف التمس وكتاب ميلنر ومنشور كولس وتعضيد مصطفى . وكان يجب ان يكون الجواب على ثورتكم عزلكم دفعة واحدة حتى لايقول التمس ان مثل هؤلاءِ حصون الاريكة الخديوية .

ناشدتكم الله اذا كانت تلك اعمالكم ايها الموظفون الملكيون فماذا نؤمل من ضباطكم في الجيش المصري إلا طاعة اللورد كرومر ضد سمو الخديوي وحكومته وكيف لايندد بكم المصري وينفر منكم وكيف يأتمنكم ويصدق لكم

وفوداً فاين تلك الوفود المكررة وأين تلك الاقسام المعظمة وأين وأين

ولقد عرفتم الآن ايها المصريون نضل عباسكم اميرنا المحبوب ووطنيته ومصريته وعرفتم ايضاً سياسة الانكليز وغاياتهم فيكم فكونوا واحداً في خدمة العباس وانا الكفيل لكم بصيانة حقوقكم وحفظ امتيازاتكم واستقلال ادارتكم ولنكن معكم واحداً بالدعاء للجناب الخديوي المعظم

وكتب في ١١ اكتوبر من طولون عن استقبال الاسطول الروسي

يعجز قلم الكاتب عن وصف احوال طولون في هذه الاعياد الفرنسوية الروسية فهو مشهد قل مثله وندر ندهُ لا من حيث الترتيب والذوق فهو عام في فرنسا وسيكون اعظم في باريس ولكن من حيث العاطفة الوطنية الفرنسوية وهي حالة تلك الجماهير المتجمهرة في طولون فالبحري والعسكري من اي المناصب والرتب على اتفاق في التهليل والتمجيد مع سائر الشعب وعيد طولون عيد عام يحتفل به الفرنسويون في كل مدينة وبندر بل في كل بيت وأسرة ولنا بالتلغرافات اليومية من جميع الانحاء الفرنسوية ومن الفرنسويين الذين خارج بلادهم برهان على ان جميعهم متهللون فرحاً وسروراً من اتفاقهم مع الروسية واتحادهم مع قيصرها المحبوب

وماذا عساني اقول عن الازدحام في طولون وقد قصدها اكثر من ثلاثمائة الف زائر حتى ضاقت بهم الفنادق والمساكن بل ارباض المدينة وسهولها وميادينها حتى اصبح الوف منهم يذهبون للمبيت إما بمرسيليا او نيس بعد ان يقضوا نهارهم وقسماً من ليلهم في طولون ويصرفوا ماعز عندهم ليشتركوا قلباً وقالباً في هذه الاعياد الوطنية

وما كان صباح الجمعة ١٣ الجاري إلا ماجت طولون بعالمها كما يموج البحر انتظاراً للعمارة الروسية فوصلت عند الظهر وحيت العلم الفرنسوي فأجابتها مدافع فرنسا وصاح الالوف فلتحيَ الروسية فلتحيَ فرنسا بهتافٍ كالرعد القاصف اسكت اصوات المدافع تقريباً وكرره الحضور عشرات بين صدح النشيد القيصري والفرنسوي

ثم نزل الاميرال الروسي الى البر فسلم على وزير البحرية الذي حياه تحية الاخلاص وقال له ما معناه « إني سعيد ان أرحب بك ايها الاميرال الشجاع فنني ماتاينا للروسية ولقيصركم من الجميل لما اتيتموه بزيارة عمارتنا كرونستاد واني باسان فرنسا ارحب بك ترحيبنا بالامة الروسية وعظمة قيصرها المحبوب » فأجابه الاميرال متشكراً ممتناً وختم خطابه بهذه العبارة قائلاً « اكتفي بان اقول انه منقوش على قلب كل روسي هاتان الكلمتان « فلتحيَ فرنسا » فقوبل كلامه باصوات التهليل والسرور وانا اكتفي بسرده دون شرحه فانه فوق كل وصف

ولا اذكر مالقي الاميرال واركان حربه من حسن الوفادة والمآدب والتشريفات والدعوات والخطب والليالي الزاهرة بل اكتفي ان اقول انه استقبال منفرد في بابه اتقاناً وكرماً وتهليلاً كيف لا ونحو النصف المليون من الناس يعيدون في بلدة صغيرة عيداً وطنياً يتردد صداه في فرنسا والروسية فيزيد أُبهة ومجداً ووطنية

ولا اذكر الخمسين سفينة من المدرعات الفرنساوية التي ينادي لسان حالها إني لا اخاف بحراً ولا بحرية في صيانة حقوقي والدفاع عن مصالح امتي ووطني ولا اذكر تلك العمارة الروسية التي لم تكن تذكر في الحرب الاخيرة

وهي الآن في نجاح يضمن لها مركزاً بحرياً اشبه بانكلترا وفرنسا في وقت ما٠٠

ولا اذكر العشرات من سفن الذين قصدوا طولون للاحتفال فاني اذا عددت ذلك ضاق بي الوقت واتسع على نطاق الجريدة ومترجمو الاهرام لا يبخلون على القراء بنشر الاهم منها

بل انا اذكر من هذه الزيارة اهميتها السياسية في فرنسا والروسيا واوروبا ولست منفرداً فيما اقوله فكثيراً ما سمعته من زملائي وغيرهم ونحن الشرقيين اليوم في زمن يجب ان نرى فيه جميع المسائل الاوروبية ولا سيما القاضية بالموازنة السياسية لما يترتب على ذلك من المصلحة لشرقنا العزيز ولمصرنا السعيدة

يلوم المغرضون فرنسا على عاطفتها الوطنية ويقولون قد بالغت في التجلة والاكرام وانه اذا كان لابد من الحرب تمنعت الروسية عن مساعدتها والاخذ بناصرها ولكن نسي هؤلاء ان الفرنسويين بعد ان ذاقوا مر الانكسار سنة السبعين تهددهم استبداد بسمارك مرة اخرى ولولا الاسكندر الثاني لتغلبت الالمان ثانية وكان يستحيل على فرنسا بعد انكسار ثان ان تقوم من ذلك السقوط القتال ثم نعرف ان فرنسا في جميع هذه السنين الاخيرة قد اضطرت الى الانزواء لانفرادها يراقبها التحالف الثلاثي وتهددها الاثرة الالمانية ورأينا في خلال هذه السنين تجديد التحالف الثلاثي وتأييده واجتماع ملوكه ورجاله في حفلات رسمية واستعراضات عسكرية بينا كانت فرنسا مهتمة في احوالها تهددها المسائل الداخلية ولكنها لاتلهيها عن مواجبها العسكرية والبحرية

وكان القيصر الاسكندر الثالث يناظر دول التحالف الثلاثي ويراقب احوال فرنسا ويدرسها فأراد باتحاده معها ان يحقق اماني شعبه وكان له

ما أراد وقد قال بزيارة كرونستاد فكان لها صدى ودويّ في اقطار الدنيا فهيب تلك الزيارة خصوم الدولتين وتهلل لها الشعبان وأصدقاء الامتين ورجال السلام وكم اهتم اعداء فرنسا بعد زيارة كرونستاد بالقاء النفور بين فرنسا والروسية ولكن ذهبت مساعيهم عبثاً لان القيصر لم يقل بذلك الاتحاد الا بعد اعتقاده بأنه لسان حال الامة الروسية وانه افيد لبلاده من اي تحالف فهو وان خدم فرنسا بتقربه منها فقد قصد قبل كل شيء خدمة الروسية

فهل نعجب بعد هذه الادوار من احتفال فرنسا كلها بالاميرال افيلان وقد حضر بعد استعراضات الالزاس وزيارة ولي عهد ايطاليا الى متس وهل نعجب من الامة الفرنسوية ان تحتفل بالامة الروسية احتفال هذه بفرنسا ايام كرونستاد مما يدلنا على ان هذا التحالف يرضي الامتين كيف كانت الحكومة ومهما تباينت الاحزاب وقد رأينا في فرنسا الاشتراكي والمتطرف والبونابرتي والملكي والجمهوري واحداً في الاحتفال وتأييد ذلك الاتحاد بينا لم نرَ ذلك في التحالف الثلاثي والاشتراكيون الالمانيون ضده وهم حزب عظيم ومثلهم قسم عظيم من شعب اوستريا وايطاليا

وان الفرنسويين يقابلون الآن الامة الروسية بأسرها وفي هذه المزية من السياسة مالايجهله الواقفون على حقائق الامور سواء اتفقت الحكومتان على بنود معدودة ووقعتا على تحالف ام لا وكيف لايذكر الفرنسويون جميل القيصر الذي زار سفن فرنسا في مياه الدانمرك بينا تحتفل طولون باميراله وعمارته بل كيف لاتهلل فرنسا بهذا الاتحاد وهو ترسها الذي يساعدها على خصومها وأين شوكة التحالف الثلاثي بعد كرونستاد منها قبلها وأين معاملة انكلترا بعد القطع بانشاء عمارة روسية بالمتوسط منها قبله وكل ذلك قد اضطر

فرنسا ان تعيد له اعياداً وطنية ايدت الاتحاد وهو عند الجميع مقدمة ذلك التحالف المرغوب فيه من الامتين

هذا وان باتفاق الروسية وفرنسا تأييد السلام ولا سيما والقيصر ارغب الملوك فيه ولا نرى في التحالف الثلاثي عاملاً مثله فضلاً عن ان الدولتين لاتعملان على اعلان القتال ولا على اسبابه ولكنهما لاتخافانه فاذا قال التحالف الثلاثي به قابلت فرنسا والروسية ذلك بما تقتضيه المواجب الوطنية والمعدات البرية والبحرية والله اعلم بالعواقب

سنة ١٨٩٤

لما جرت الحادثة الشهيرة بحادثة الحدود كتب فيها هذه المقالة التي دوت بها ارجاء القطر اياماً في ذلك العهد وهي

تخذتكم درعاً منيعاً لتدفعوا   سهام العدى عني فكنتم نصالها

هذه رسالتي ختام كتاباتي السابقة في مسألة الحدود اتكلم فيها عن سلوك الخديوي كأمير وكقائد وسلوك النظار وخطة كتشنر العسكرية ومبادئ كرومر السياسية وأقدر بها كلاً قدره كما تقتضيه مواجبنا الوطنية لانقصد التنديد المطلق او التحامل الاعمى وكفى بحرية مبادينا هذه اكبر برهان على صدق خدمتنا فانه لم يمنعنا مدح امس عن التنديد اليوم والاشخاص واحدة لاننا ننظر الى المبادئ وليس الى الشخصيات وهي سياستنا حتى مع الانكليز فاننا لانندد الا في سياستهم الاحتلالية

ان الجناب الخديوي كامير لتي من الاحتفاء والاحتفال ما تووده من الاهلين ومن البلاد وقد ايدت سياحته الصعيدية ان الامة على رأيه سياسة ووطنيـة ومصرية وقد ردد ابن اصوان ما قاله ابن الاسكندرية والارياف نعم لم تكن احتفالات مديرية الحدود لاول وهلة كاحتفال غيرها ولكن لما رأوا العباس نسوا أوامر المحتلين وعظموا اميرهم كما عظمه اهل بقية المديريات وقد لتي بعد ذلك سموه في جميع نقط الحدود ما لقيه في قنا والفيوم ورجع معززاً مكرماً محبوباً لايرى المصري بغيره سيداً وأميراً

وأما العباس كقائد فقد استعرض جيشه المصري بين اصوان وكروسكو وسرس وحلفا وامتدح الضباط والانفار الا الاورطة الثانية بحلفا فندد بها واعترف نفس قومندانها الانكليزي بأحقيـة التصور وانه من الموسيقى مما برهن ان العباس بامتداحه ذلك قدر نظام الجيش وقواده الانكليز تدرهم ولم يفرق بين السوداني والمصري اذ ان في الحدود اورطاً سودانية غير الاورطة الثانية وان باعتراف قائد الاورطة تأييداً لتنديد الخديوي الذي بعـد انتهاء الاستعراض اختلى بكتشنر السزدار وكرر مدحه للجيش وللضباط الا للاورطة الثانية اذ قال ان نظامها عار على الجيش فأجاب كتشنر مادمت انا مسئولاً والامير غير راض فأستقيل فأجابه الخديوي اي قائد معصوم من الغلط وانا قلت لك ما رأيته كمصري وكقائد الجيش اما انت فأردت استخدام القضية لغايات سياسية وإلا فلمَ الاستعفاء فلم يكن من كتشنر بعد ذلك الا ان استرد استعفاءه وانتهت المسألة ولم تقض حكمة سياسة العباس الا انه ابلغ حكومته ما جرى ونعم ما فعل ونحن لا نتكهن ولا نعرف سر سياسته ولكن سموه اتى باخبار حكومته احد امرين اما اعتقاده بوجود كتشنر فأبلغ النظارة

لتكون عارفة بجميع الامور واما ان تكون الحوادث علمته فاخبر نظاره ليعرفوا الحادث حتى اذا خالف كتشنر وعوده وخابرهم كرومر بالمسألة عرفوا كيف يجاوبون . تلك خطة الخديوي الادارية والعسكرية وهل من يقدر على التنديد بها او على غير تصويبها

اما السردار فبعد ان استرد استعفاءه في حلفا عاهد الخديوي على الكتمان المطلق وهو في اصوان وانه لايود ان يكون للمسألة شأن سياسي مطلقاً وقد ظهر من ادوار المسالة انه بينما كان يعاهد الخديوي بالكتمان ابلغها الى اللورد كرومر ولكن لاندري هل ابلغها لوكيل دولته السياسي من قبيل وجوب المعرفة بالامر ولا الجهل به كما اتى سموه مع حكومته ام خالف عهوده ذلك امر هو واللورد كرومر اعرف بخفاياه منا ونحن لانقصد برسالتنا الا سرد الحادثة على علاتها

اما اللورد كرومر فابلغها الى حكومته ولا ندري اكان ذلك بطاب السردار او انه رأى في الحادثة مايفيد سياسته فاستفاد منها وطبقها على مايوافق مبادئه فكان جواب حكومته وجوب اصدار الامر الخديوي تشكراً لكتشنر ومدحاً للضباط الانكليز وعزل ماهر باشا شر عزلة ومحاكمة الضباط الانكليز في الجيش المصري بمجلس عسكري انكليزي ولما وصل هذا الجواب اجتمع اللورد برياض باشا وتكران باشا وابلغهما ذلك وان روزبري يقول اذا رفضت مصر اجابة المطالب اضطرتنا الى اخذ الوسائط الفعالة لوضع الجيش المصري تحت قيادة قائد جيش الاحتلال وبمعنى اوضح لضم الجيش المصري الى الجيش الاحتلالي ولنزع القيادة من الحضرة الخديوية واخذهم تارة بالتهديد وآونة بالوعد والوعيد ثم لعب دهاؤه السياسي ادواره في جرائد

لندن بان آثارها ضد الخديوي وفي جرائده الاحتلالية تجهر بان كبرت المسالة وعظمتها وتحاملت جميعها على الجناب الخديوي وحده كل التحامل فقالت انهُ انكر على الجيش انهُ شاهاني وقصدت القاء الشقاق بينه وبين مختار باشا وأشاعت ان قنصلي فرنسا والروسية الجنرالين ضد الامير وان الارض زلزلت زلزالها واخرجت اثقالها وان لاخلاص من ذلك الا باجابة مطالب الانكايز وهي سياسة اكسبت اللورد كرومر معاونة نظارنا هداهم الله فكانوا والانكايز على الامير حتى صدق فيهم قول الشاعر في صدر هذه الرسالة

افلم يكن يجب على اللورد كرومر اذا كان قصده المسالمة ان يخاطب سمو الخديوي وحكومته قبل ابلاغ لندرا وكيف يصدق النظار ممالأتهُ لهم ومدحه سياستهم ودهاءهم بعد ان كبر المسألة وعظمها وهل هم اليوم غير اصحاب امس حتى سلقتهم جرائده بألسنة حداد ولهذا فان المصريين لايعذرون تحامل كرومر بل زادهم نفوراً من الانكايز وتعلقاً بخديويهم

اما الآن فنعود الى حضرات النظار الذين اساؤا بان اسروا الخبر في انفسهم وكان يجب ان يخبروا به كرومر وفي امثال هذه الحوادث يعرف دهاء السياسيين الذين عليهم قبل كل امر ان يتداركوا الحوادث واذا حدثت رغماً عنهم وجب ان يتلافوا اضرارها وقد قصرت الحكومة في هذين الامرين سامحها الله

وقد عرف النظار مطالب انكلترا وتهديدات سياسة الاحتلال فلماذا ذلك الخوف وهل من الحكمة ان تقابل الوزارة ضغط الانكايز عليها بمثله ضد الخديوي ليضطر الى العودة قبل الوقت المعين وماذا كان يمنعها من الانتظار

الى عودة سموه وهل بعد ان ارتكبت الغلطة الاولى من جهة العودة وجب ان يذهب من النظار عمدة مخصوصة لمقابلة الخديوي والضغط عليه ليخضع لاحكام الانكليز قبل حضوره . تلك غلطة رابعة

ثم اذا امكن الانكليز ان يضموا جيشنا الى الجيش الاحتلالي امكنهم وضع الحماية على مصر وضمها الى املاكهم وهذا مستحيل حصوله او لابد من الحرب فيه اذا اتته انكلترا عاجلاً او آجلاً اذ لاحياة لتركيا بعد ذهاب مصر ولا شوكة للروسية في الشرقين الاقصى والادنى وكانت المسألة المصرية اهم من مسألة الالزاس لفرنسا ومن المسألة الشرقية للروسية ومن كل مسألة للدولة العلية فالتهديد والحالة هذه فاسد

واذا كان النظار رأوا بحكمتهم ان لانكليز اولى من المصريين بحكم بلادهم وان مصالح القطر السياسية والمالية تقضي بحماية انكلترا وان الدول ضد هذه الغاية ولذلك قالوا بهذه السياسة تحقيقاً للحماية الانكليزية ليتركوا لهم الذكر الجميل في تاريخ البلاد السياسي رضخنا لاحكامهم وخضعنا لدهائهم السياسي الذي انفردوا فيه

ولكن يجب علينا اخلاصا للخدمة ان نقول لهم ما يردده المصريون والاوربيون حتى الانكليز اصحابهم اليوم وهو ان الحكومة قد شعرت بيومها الاخير فاستفادت من الحادثة بان ضمت السلطة الخديوية لتأييد مركزها ولمعرفتها ان الخديوي حازم يرفض التصديق تداركت الامر بان قالت وكررت له اننا نحن النظار نخدم سموكم ليس إلا ولو استقلنا لزادت الحالة صعوبة على سموكم لتمادي تحامل الانكليز عليكم ويقول المصريون عن النظار غير ذلك كثيراً مما لا أود نشره احتراماً لمبادىء السياسة والادب وقد قلت

اني لا انظر في المسالة إلا الى المبادىء لا الى الشخصيات

وما اضعف البراهين التي سمعناها بقولهم واين جيوش فرنسا والدولة العلية والروسية وأين وأين لكن فاتهم انه لو وجدت تلك الجيوش لخرجت انكلترا من مصر في طرفة عين ولما اتت ماعودتنا اياه من اجراآتها ولم تكن جيوش الدول المذكورة عند ذلك في حاجة لدهاء رجالنا نفعنا الله بحكمتهم

ولو فرضنا وكان في وسع انكلترا ضم جيشنا لجيشها الاحتلالي فهل بعد خضوعنا الاخير وخوفنا منه ما يفرق عن ذلك الانضمام وهل يعرف اليوم الجيش نفره وضابطه بين وطني وانكليزي غير حضرة السردار عسكرياً وجناب اللورد كرومر مدنياً وسياسياً

هذه حوادث المسألة ارفعها الى القراء وهي لسان حال الوطنيين باسرهم الا الذين غفلوا عن المواجب وصموا عن سماع الحقائق واعمتهم الغايات فهم لا يبصرون .

اما الجناب الخديوي فلم تخاطبه عمدة النظار الا وقد رأى بذلك الاجماع مايعذره لدى الرأي العام المصري والاوربي ولما اخذ الامر العسكري المرفوع له من حكومته على ما طلبه اللورد كرومر رفض التوقيع عليه الا بعد ان عدله التعديل الحق واشرك الجميع بمدحه الوطنيين والانكليز وهو حفظه الله لم يأت امراً مخالفاً لما اتاه في اصوان وكروسكو وسرس وحلفا ومدحه هذا الحاضر لايمحو قصور الاورطة الثانية كائناً من كان نفرها وضابطها ثم ان سموه رفض كل الرفض عزل ماهر باشا ولا نعجب اذا تعين المذكور بمنصب مناسب عند وجود الفرصة لاخلاصه ولصدقه حتى لا تكون لسياسة الانكليز العسكرية حجة ثانية يحركون بها عواملهم السياسية في لندن ومصر

مادام ماهر باشا في وكالة الحربية المصرية وأخيراً رفض سموه قبول محاكمة الضباط الانكليز في الجيش المصري بمجلس عسكري من ضباط جيش الاحتلال وهذا ماكان الى اليوم والله اعلم بما سيكون

اما نحن فلا نرى بعد الحوادث التي حصلت في الاشهر الاخيرة ولا سيما بعد مسالة الحدود الا واحداً من اثنين اما ان يكون النظار وجميع المصريين منفذين لاوامر الانكليز وهو الاستعباد ابن التملك والاسترقاق ابن الحماية الانكليزية واما ان يوفقوا بين مصالح البلاد ومصالح الانكليز وهو وحده الموافق للبلاد وللجميع والحكومة اعلم منا بحالها وأي الامرين اسهل عليها فان كان الاول وجب ان تستقيل احتراماً لشرفها وخدمة للعباس وللوطن وان كان الثاني وجب ان تبرهن باعمالها على ما يضمن لنا تلك النتيجة لان البلاد ضعيفة عن تحمل وطأة سيد واحد فكيف تحمل سيدين

وكتب في ٢٢ اغسطس من سويسرا

اهم الحوادث الحاضرة حرب الصين واليابان اولاً لشبوبها بين دولتين شرقيتين وثانياً لتناظر دولتي الروسيا وانكلترا فيها ولا يسوءنا نحن الشرقيين ارتباك بال الانكليز لانه كلما زادت مشاغلهم وبلابلهم ادركوا شدة احتلال مصر ولهذا لا ترى الانكليزي الان مسروراً باحتلال كسلا ونفوذ فرنسا اكثر من نفوذ حكومته وبحرب كوريا ولا تامل انكلترا مع مناظرة الروسيا وتباين مصالحها ان تستفيد من الحرب الاسيوية لانه لا شاغل لحكومة القيصر في اوربا او في الشرق عن الاهتمام بمسألة كوريا ولا يوافقها ان تسود بريطانيا في بحار الصين واليابان كما جرى في المتوسط

والذين تأملوا سياسية القيصر الحالي ادركوا معنا سرها وقد بسطناه للقراء في رسائلنا البطرسبرجية ذلك ان الروسيا سألت اوربا المحافظة على الحالة الحاضرة في الشرق وحولت عنايتها الى اسيا فاحتلت اكثر اراضيها واستعمرتها حتى تاخمت افغانستان وقد ايدت سلام اوربا واستخدمته في سبيل سياستها الاستعمارية وسرت اوربا بذلك لاهتمامها بامر السلام ولرغبتها في تاييده واذا قيل تلك واسطة للتحالف الثلاثي ينتهزها لمصلحته في اوربا والروسيا مضطربة البال في اسيا مشتبكة في القتال تارة مع الصين وتارة مع انكلترا قلنا ان بسمرك طالما اهتم باضرام نيران الحرب بين الروسيا والصين ولكنه لم يفلح لان الاولى لها من القوى على تخوم الثانية ما يكفيها لصد حملاتها ولو كان غير ذلك لما اتت الروسيا امراً يحول دون ما تريده وترغبه في اوربا اي تاييد السلام

وعليه فلا تؤمل انكلترا خيراً في كوريا سواء اتفقت مع اليابان او مع الصين لما يحول دون دولتها من معارضات الروسيا وقد اعلنت هذه سياستها على رؤوس الاشهاد اي انها لا ترضى الا باحترام حقوق كوريا وسوف لا نراها الا ناجحة في سياستها لانه اذا كانت تلك حالها مع اوربا وقد عرفت كيف تنتقم من فرنسا بحيادها سنة ٧٠ ومن انكلترا بمتاخمتها لافغانستان لقيام هاتين الدولتين عليها في حرب القريم فقد عرفت ايضاً كيف تنتقم من المانيا سنة ٧٥ وقد منعتها عن شهر الحرب على فرنسا ونراها اليوم قد تحالفت واتحدت مع هذه الدولة وهو كفارة عن شر اعمال بسمرك في مؤتمر برلين فلا يستحيل عليها ان تنال بعد ذلك مثل هذا الظفر في آسيا مع دولتين شرقيتين وليس لها من يناظرها الا دولة

انكلترا وهي لم تعد في مثل مركزها السابق قبل حرب السبعين والاولى في فرنسا عضد ونصير فلا تستطيع الثانية ان تستخدم الدول في سبيل مصالحها الانكليزية

وقد يحتمل ان تتوصل دول اوروبا (ولا سيما ولا باب الى نجاح دسائس السياسة الانكليزية) الى التوفيق بين مصلحة الصين واليابان على ما يضمن مصالح الدول الثانية المتناظرة ولا يكون ذلك الا اذا احترم المتحاربون والمتناظرون حقوق كوريا وشعبها وايدوا بالاتفاق وجوب احترام تلك الامتيازات

ولكن اذا تغلبت الاطماع وقويت شوكة التداخل كانت كوريا لاوروبا في تلك الاصقاع مصراً ثانية اي شاغلاً جديداً وحجر عثرة في سبيل تاييد السلام المرغوب فيه وصدقت حينئذٍ الجريدة الالمانية لسان حال خارجية هذه الدولة في قولها للدول تداركي مسألة كوريا والا كانت مصراً جديدة

اما الروسيا فقد عرفت مما تحدث في البلقان انها في غنى عن امثال هذه العراقيل واما انكلترا فقد ذاقت مرارة احتلال مصر فلا تقدم على احتلال أمرّ منه وليس ما يضمن لها سكوت الروسية او رضاها عن ذلك الاحتلال

ونحن يسرنا ما نراه في اوروبا من المناظرة التي يجب علينا ان نستخدمها في سبيل مصالحنا وان نعتبر هذه المناظرة انذاراً مهماً ضد الانكليز في مصر وان الدول ذوات المصلحة سواء في مصر او في الشرق الاقصى لا يتركن انكلترا وشأنها بل لا بد من ان يطالبنها بوعودها واحترام عهودها ولا سيما وقد رأت الدول من الشرقيين نهضة سياسية ووطنية تساعدهم على ما يصون حقوقهم ويضمن مصالحهم والله ولي التوفيق

وكتب في ١٧ اكتوبر من الاستانة العلية

وصلت الى دار السعادة في هذا الاسبوع وهي على ماهي عليه من المجد والعظمة تمثل لنا بكلياتها وجزئياتها الدولة العلية من كل وجوهها وقد أخذت مقاماً لي في ترابيا على البوسفور لانها من انزه الاماكن للتغريب ولان الحر لا يزال غير مطاق وقد لقيت يوماً ذكرني باشد الخماسين لم ير الاهلون هنا مثله منذ سنين حتى في معمعان فصل الصيف ولا يزال المصطافون مقيمين في البوسفور وهم لا يعودون الى المدينة الا في اواخر الجاري وأوائل القادم لانه لا ربيع في الاستانة وكاني بفصولها ثلاثة شتاء وصيف وخريف والاخير ربيعها ولهذا تفضل زيارتها في هذا الفصل زيارتها في غيره

ولا ارى مثل البوسفور في جنات الارض بالرغم عن محاسن سويسرا او التيرول الاوستري وكلما رأيته قلت انهُ افضل المواقع والمتنزهات باعتراف ابناء اوروبا ولا اعني بهذا موقعه الحربي فقط بل مناظره الطبيعية التي لو ساعدتها يد الانسان لاصبحت رمزاً الى جنات دار النعيم ذلك بان تزرع ارضه شجراً وتقام على ضفتيه المتنزهات وتسهل المواصلات بخطوط الترامواي وينار بالكهربائية اذاً لحسب الراقي نفسه في جنة السماء لا في جنة الارض ولا بد من ان يتم ذلك كله فان يد الاصلاح عاملة على تتميم حسنات العلم والمدنية وقد نشرت رايتها في ظل حضرة سلطان الامة عبد الحميد خان فلسنا نيأس من المستقبل وقد أرشدنا الى طريق الخير وكل من سار على الدرب وصل

ولا يسعني هنا الا ان اردد ما يشكو منه الجميع وهو القضاء المبرم

على ادارة البواخر الخيرية في البوسفور ولا ما يعذرها الا احد امرين اما ان الشرقي لا يحسن ادارة مصلحة او انه مرتش لا يبالي الا مصلحته ويسؤنا ان يظن الاوربي بنا كلا الامرين مع ان اهمالنا هو العامل على تسوئة ادارتنا فان الشرقي اذا آمن على مستقبله في الوظيفة والراتب استقام وأحسن ادارته والشرطان متوفران في الادارة المخصوصة عدا ان ايراداتها تزداد فلم لا نظام فيها ولا تزال على ماكانت عليه من الاهمال منذ سنوات فهل لم يسافر احد من اعضائها الى بحيرات سويسرا او الى نهر الرين الالماني او الى الدانوب او الى السين وباريس ويرى كيف يكون النظام وراحة المسافرين ورضاهم فيشير بالاصلاحات الواجبة والتعديلات اللازمة حتى لا تضر امثال هذه الادارات بسمعة الشرقي ويقضى عليه

نعم لا انكر ان للرشوة يداً طويلة في مشرقنا وانها اضرت بادب العمال وبحقوق الامة والوطن ولكنها في اوروبا كما هي عندنا وان تكن اضيق دائرة والفضل في ذلك للعلم المائز بين العنصرين ولكن قد ثبت ان الشرقي متى استوثق من وظيفته فلم يعزل اكراماً لخاطر رئيس او مطاوعة لمأرب رقيب وزيد راتبه كلما اثبتت اعماله حسن اهليته فاذا التقى بالاوروبي في ادارة واحدة كان اقوم سيراً واحمد خطة لان حاجات معيشته قليلة محدودة ولانه ابعد من غيره عن مخاطر البورص والالعاب ولا عبرة بأفراد شرقيين جنحوا عن المبادىء الصادقة فذنوبهم في رقابهم لانهم ابصروا سيئات الغريب فاتخذوها وتعاموا عن حسناته ومحسناته ولا يذنب هؤلاء الى انفسهم فقط بل الى وطنهم وهي ذنوب لا تغتفر لانه كان يجب على امثالهم ان يكونوا مثال الصلاح والفلاح على ما اتاه اليابانيون الذين درسوا في اوروبا وسعوا

الى تعميم حسنات علمها ومدنيتها فظهرت اليابان في مظهرها العظيم وهي اليوم (ارادت اوروبا ام لا) دولة من الدول العظام في النفوذ والشوكة في عالم اوروبا السياسي والحربي والاقتصادي

سنة ١٨٩٥

٢٧ فبراير

ان احتياج الانكليزي الى التجربة في مصر لاكثر من احتياج المصري الى علومه ومعارفه واعترافنا بفضل علم الانكليزي لايمنعنا من الاقرار بفضل علم المصري ولو ان الانكليزي اكثر اقداماً منه. ولو كان لنا ثبات الاجنبي واجتهاده واتفاقه لما تمكن الانكليز منا ولو ان القوة من جانبهم لان في وعودهم لنا ولاوروبا اكبر حليفاً ضد قوتهم وهم يعلمون انهم لم يدخلوا بلادنا دخول الفاتح وان اوروبا لاتزال تعارض احتلالهم لوادي النيل وهي امور مهمة ادرك الانكليز شدتها فاستخدموا بعض المصريين ضدها لتأييد احتلالهم وقد ساعدتهم الاحوال والرجال لانهم عرفوا ما يريدون وكيف يشتغلون

ولا لوم على الانكليز وقد جهروا بابتلاع مصر وامتلاكها ودليلنا اعمالهم أولم يقل اللورد كرومر لمحرر الجرنال « ان المصري كسول لابد له من رئيس وهو ميال الى التدخين وشرب القهوة » مما يفهم منه ان ذلك الرئيس هو الانكليزي وان لا اهلية للمصري واما اللوم فعلى رجالنا الذين عن ضعف منهم او عن اغترار اسعفوا الانكليز وايدوهم فزادوا شوكتهم ونفوذهم وهم لايشعرون

ونحن نكرر ما كتبناه مراراً في هذا الموضوع بان يصرف رجالنا اهتمامهم الى درس المسائل قبل فوات الفرصة لان الارجحية التي كانت لهم على المحتلين بالتجربة قد ضعفت كثيراً اذ ان الانكايز لم يدخروا درهماً او وقتاً في سبيل اكتساب فنون التجربة وقد تمكنوا (ولا معارضة لما يرتأون او لما يأمرون) من استخدام جميع قوى البلاد لبلوغ غايتهم مما زاد مواجب رجالنا عن ذي قبل ونحن نعلم ان اهتمام المسيو بوترون في ادارة الدومين لايمنعه من الاعتراف علانية بفضل الاعضاء الوطنيين الذين لولاهم لماتت الارض وزراعتها وهل مراقبة المفتشين في الدائرة السنية تمنع الاقرار بفضل مديريها واجتهادهم وحسن ادارتهم

فلو تسلح رجالنا بمعارفهم وتجاربهم لاعتبرهم الانكايز واشركوهم في مشروعاتهم ولم ينسبوها اليهم كما هو شأن السير بالمر في مشروع تعديل الضرائب التي بح صوتنا ونحن نسأل تخفيفها من سنة ٨٢ ولكن ابت الاغراض الاحتلالية الا مماكستها لخدمة حلفائهم الدائنين اما الآن ولا خوف على مصلحة الدائن والمبالغ الاحتياطية متوفرة ولا درهم لتنزيل الضرائب مع سوء الحالة الاقتصادية فقد قرر تعديل الضرائب وبوقت به جرائده الاحتلالية

ولا نعجب اذا كان ذلك قد حصل وتقرر ولم يعرفه رجال الحكومة الا من الجرائد اذ قرأوها او من مداولات الناس فيها وقد زارهم احدهم بل هي سياسة المحتلين وتلك هي احوال رجالنا فلا حول ولا ...

وكيف يهتم نظارنا بتعميم المعارف وقد قال بعضهم ان المتعلمين يعيشون من احتراف حرفة آبائهم ولا وظائف في الحكومة اذن وجب تحديد العلم وتخفيف وطأة التمدن قلنا ان ذلك برهان من افسد ما قيل فهل من

وقد راينا ان الغايات الشخصية كان لها شأن مهم ضد مصلحة مصر ومكنت الانكليزي منها واني اعرف عظيماً من كبار موظفي الحكومة سأله اللورد دوفرين عند ماقابله للمرة الاولى ماهي حالة الخديوي وطباعه فأجابه صديقه الوزير « تهدد تُطع لان الخديوي ضعيف ولا حزم عنده » فهل تؤمل مصر من امثال هذا الرجل خيراً وهل يُلام المحتلون اذا عضدوا هؤلاء الافراد وايدوهم موقتاً ليستتروا بهم امام اوروبا والمصريين ويقولوا للدول اننا نصالح مصر ويحكمها رجالها ويخاطبوا ابناء وادي النيل ان سواسكم منكم وفيكم فلمَ عويلكم وممَّ تشكون

وهل لم يطرد بعض كبار أُولي الامر خطة نصيحة ذلك الكبير لدوفرين فيلتي لسادته الانكليز مايحلو لهم ضد مواطنيه ورؤسائه وقد سمعنا كثيرين من نبهاء المصريين يرددون على رؤوس الملاء قولهم « ان اعداءنا رجالنا فهم الذين اشاعوا التعصب عنا وهم الذين يسلقون شباننا بالسنة حداد وبرهاننا ما عرفناه من المصادر المختلفة وطنية وأُوروبية ولا نلوم اللورد كرومر على ماقاله ضدنا لانه يخدم مصلحة بلاده ولكن ما هو عذر رجالنا المدينين بمناصبهم وبرواتبهم لمصر ولاميرها »

وهي احاديث نبهاء المصريين عن اولي الامر منا فاذا صحت الرواية فلا عجب لان القوم تعودوا وهم في مناصبهم ان يظنوها ابدية فيذهبون مع رياح اغراضهم وغاياتهم ولهذا قال احد الظرفاء « قضيتم على الشيوخ والشبان فمن اية صبغة انتم وقد جمعتم الامرين فهل نلام اذا قلنا وقد عرفتنا الحوادث احوال الرجال الماضين لم لا يكون لنا رجال جدد وعصرنا عصر جديد فاذا احسنوا فبها وإلا فانهم ليسوا باكثر ضرراً من غيرهم امس واليوم »

الواجب حصر العلم والتعليم في بضعة اشخاص من العاصمة والبنادر الكبيرة ام يقصد هؤلاء احتكار الوظائف لهم واذا كان ذلك ضرراً فلماذا عممته اوروبا وأمريكا وهل تغلبت اليابان على الصين الا به وهل كون بلاد امريكا زراعية منعها من نشر المعارف ولولا الاخيرة اقامت تلك الاختراعات المدينة بها الدنيا للعالم الامريكي

ونحن نسأل تعميم العلم لا لزيادة المترشحين للوظائف بل لمحاكة الموظفين برأي عام مدرب معلم نعم نسأل اقامة ألوف من الكتاتيب واصلاح الحالية منها طبقاً للمبادئ الصحية والتهذيبية والاقتصادية وهو اصلاح لا يتطلب الا عشرة او ١٥ الف جنيه سنوياً اولا يعلم هؤلاء المعارضون لهذه المشروعات الوطنية ان فلاسفة اوروبا وكبارها الاقتصاديين والسياسيين خرجوا من قراها وعزبها لا من مدنها وبنادرها

فنسأل تعميم العلم ليقف ابن المزارع على واجباته نحو نفسه ونحو وطنه. نسأله لاصلاح ارضه وتحسين زراعتها وقد وقف من العلم على فوائد الاختراعات والتحسينات العلمية والشعب متى تعلم لا يتردد ابناؤه عن الخدمة العسكرية وقد ذاقوا لذة الوطنية وتمتعوا بحسناتها وبفوائدها واذا ضاقت به بلاده قصد غيرها فبلاد الله واسعة واستخدم علمه واجتهاده فان العلم يزيده اقداماً وثباتاً وبالمهاجرة حياة جديدة للمهاجرين أما الامي المهاجر فاذا افلح فثلاحه لنفسه وفوائده محدودة وأما المتعلم فيفيد بلاده وأمته سواء اغتنى بالمال او تفنن في علومه ومعارفه

ولا نيأسن من اجابة ما نساله في خدمة الوطن تعميماً للمعارف والمدنية ولو عارضنا المحتلون ورجالهم المصريون لان تيار العلم اقوى منهم وغاية

مايفعلون تأخيره مدة لاغير اولا نرى ان اكثر ايرادات مصر المتخافة عن الدائن والموظف هي نصيب الدخيل الذي ما هجر وطنه إلا محتاجاً ودفعه الى الاسفار اقدامه واجتهاده وعلمه ام يجب ان يعيش المصري في عرف اولي الامر منا ذليلاً حقيراً انا لله وانا اليه راجعون

وقد عرف الاقتصادي والسياسي والاداري ان لافائدة من مشروعاتهم اذا لم يفهمها الشعب ويدرك حسناتها ولن يكون ذلك الا اذا تعمم العلم وقد قلت لاصحاب مشروع العمد ان لاضمانة لعدالة المشروع المذكور ولا فائدة تذكر له ولغيره طالما لاعلم عند العامة ولا معارف عند مجموع الامة فعلى رجالنا ان يتدبروا هذه الحقيقة وعليهم ان يدرسوها درسها الواجب علهم يوفقون الى انفاذها ويكونون قد اتوا حسنة واحدة في تاريخ حياتهم السياسية وهي تعد مأثرة كبيرة قد تنسينا اكثر اغلاطهم الماضية وتخذها مقدمة لسياسة الوطنية والاجتهاد والثبات والاقدام تحت راية اميرنا المحبوب ايده الله بمنه وكرمه

---

٩ مارس عن الاستعمار

ما اندفعت الدول الى الاستعمار الا هرباً من الحروب وما ايد السلام الا مخاوف القتال وقد توازنت قوات اوروبا سواء قبل اتحاد الروسية مع فرنسا او بعد الاتحاد لان انفصال الاولى عن التحالف الثلاثي واختيارها للحياد اثبتا تلك الموازنة ولانها قالت بلسان فقيدها الاسكندر اني سلمي أحارب الجانحين الى الحرب مما اضطر بسمرك الى الاعتدال فالاعتزال وقد قضى الاسكندر الروسي على سياسة التهديد والتهويل

ولا خلاف ان مصر كان لها الشان الاهم في السياسة العامة الاستعمارية ولولاها لما اضطرت انكلترا الى ممالأة التحالف الثلاثي واسترضاء المانيا خصوصاً ولولاها ولولا الالزاس لما اتت فرنسا في سياستها أموراً تشيب لها الولدان وقوتاها البحرية والبرية هائلتان مخيفتان وهي مع الروسية على اتفاق وفي فواتح صلاتها الحالية مع المانيا ما يزيد تقرب الدولتين تأييداً واتفاقاً والغاية الاستعمارية واحدة هذا فضلاً عن فتوحات فرنسا الاستعمارية التي انستنا الجمهورية بها افتتاحات نابوليون الاول ولويس الرابع عشر وقد اتت بها فرنسا دليلاً على مبادئها السلمية في اوروبا وانذاراً لما اتته انكلترا في مصر وهو أمر ادركه رجال بريطانيا السياسيون وفي مقدمتهم سالسبري ودوفرين

ولامر معلوم انهُ لم يبقَ من افريقيا الا مصر وسودانها وبمعنى اوضح ماهو تحت سلطة الدولة العلية ولولا تلك السلطة لقضي على جميعها وجنوح اوروبا الى الاستعمار برهان على بغضها للحرب ورغبتها في السلام ولهذا يؤمل ان لا يترتب على المشاكل الاستعمارية قتال وكفاح وهو ما عرفناهُ الى الآن بالرغم عن تهيج الانكليز من احوال الشرق الاقصى والكونغو مع المانيا ومع فرنسا ولهذا لانعجب اذا اتفقت الدولتان فرنسا وانكلترا على مصر ايضا ولن يكون الاتفاق الا باحترام الوعود والعهود والا نشبت تلك الحرب التي تهم الدول مجانبتها لان الخلاف لا ينحصر في وادي النيل بل يتناول جميع المسائل الشرقية والاوروبية ايضاً وهنالك الحرب العامة الهائلة

وقد وقفت اخيراً على كتاب لسياسي عثماني الى سياسي اوروبي بحث فيه في احوال مصر وارمينيا وهو صدى مايردده رجال العثمانية في محافل

ولا يفوتنا ان اوروبا تقصد بنهضتها الاستعمارية الى امرين الاول تأييد السلام والثاني ترويج اسواق التجارة لان مسابقة اوروبا ومناظرة ابنائها وتفنن مخترعيها زاد محاصيلها وبضائعها فنزلت الاسعار نزولاً لم يعهده احد في الماضي وشكا العملة من قلة العمل كما شكا الماليون من قلة المقطوعية فتوالت الازمات وتتابع اعتصاب العمال في اكثر عواصم اوروبا فازداد بذلك نفوذ الاشتراكية وقويت سواعدها حتى هددت معسكرات اوروبا وجيوشها وشاهدنا على ذلك ماحدث في المانيا مما اضطر الامبراطور غيليوم الى سن قانونه الجديد بعد ان كان جانحاً الى المسالمة والاعتدال ودليلنا انه عارض بسمرك لتطرفه في معاملة احزاب الثورة والهياج

واندفاع اوروبا الى الاستعمار أضر جداً بانكلترا وهذا بديهي فان الروسية هددتها في افغانستان والعجم وقد تاخمت الدولتين واهتزت منها عروش أمراء الهند وحكامها ولعبت في الحرب الصينية اليابانية اهم الادوار فغلت حرية انكلترا واضطرتها بعد ان نادت وبوقت بخطب رجالها وبجرائدها وهددت اليابانيين بعد ان ظفروا الى ان تعترف بأن القول الفصل لاوروبا ولاحكامها وقد رأينا من تمنع الدول وفي مقدمتها المانيا عن التداخل بين المتحاربين رغماً عن توسط انكلترا مراراً ان اوروبا ترى غير رأي بريطانيا التي رضخت لاحكام الزمان شأنها عند فشل سياستها

ولا حاجة الى تفصيل ماهو جار في افريقيا ولنا بمناظرة المانيا وفرنسا لاطماع الانكليز ما ايد وجهة اوروبا الاستعمارية واشتراكها بالفائدة وهو مظهر جديد نرجو ان يقضي على مشروع الهند الافريقية واضاع جهاد المستر رود ودهاء اللورد كرومر والايام بيننا

الاستانة وغيرها فرأيت ان انشر خلاصته ليكون ختاماً حسناً لجملتنا هـذه وبه تأييد لسياستنا العثمانية المصرية قال

« ان حركات انكلترا في ارمينيا زادت واجباتنا نحو مصر اذ اعتقد كل عثماني بعد ذلك ان بريطانيا خصم الدولة العثمانية سياسياً بما اتته من احتلال املاكها وملياً بما تختلقه من سياسة التفريق في الجنسيات والتعصبات المذهبية حتى اصبح كل عثماني متيقناً ان بضياع مصر ضياع الحقوق المزدوجة فيها وفي جميع الشرق ولمعلوم ان فرنسا مهما اعتدلت مع انكلترا وتحببت اليها لاترضى عن الاحتلال المصري الا اذا اعتاضت عنه باحسن وهو لحسن الحظ غيرمتوفر وكذا الدول الاخرى ولايخفى ان افريقيا تقوسمت الا مصر ويستحيل الاتفاق على الشرق الاقصى وعليه فالشرق القريب مطمع انكلترا وغيرها »

على ان اعتقادنا نحن العثمانيين بذلك زاد فروضنا لتأييد الحياتين السياسية والملية لاستحالة انفصال الواحدة عن الثانية ولنا في مصلحة الدول المتباينة نصير يشد ازرنا وهذا ما وجه اليه الجناب السلطاني اهتمامه ولا سيما مع الدولتين فرنسا والمانيا اللتين يعد اتفاقهما مع خصومنا علينا من الامور العسيرة التصديق والفضل لدهاء جلالة السلطان عبد الحميد »

تلك خلاصة كتاب السياسي العثماني وجوهرها لاعتقاد العثمانيين اليوم ان مصلحتهم في مصر سياسية وملية كما هي في كل الممالك العثمانية وغيرها وهو امضى سلاح ضد خصوم العثمانية التي لها برغائب الدول السلمية وتباين مصالحها الاستعمارية ووجوب احترام العهود الدولية ما يساعدها على تأييد حقوقها وصيانة مصالحها اللهم بشرط ان يطرد رجالها سياستها الحميدية في الدولة العلية وان يطرد رجال وادي النيل السياسة العباسية والله ولي النجاح والتوفيق

وكتب في ٢٠ ابريل منبئاً بالحملة التي جردت بعد ذلك على السودان واستعادته لانكلترا كما سبق فاخبر والامر يومئذ في عالم الغيب

وان تركنا السودان فهو لا يتركنا

كانت قاعدة سياسة الاهرام وجوب المحافظة على السودان لان به حياة مصر المادية والسياسية وطالما أثبتت لمحات السليم فقيدنا هذه القاعدة الرئيسية مما لايزال يرن صداه في آذان القراء رضي المحتلون او غضبوا

وقد ندّدنا اشد تنديد في مشورة جناب السير بارنغ وقتئذ لانه سأل المغفور له شريف باشا سلخ السودان ولم نبخل على القراء بايراد ما دار بيننا وبين المعتمد الانكليزي في هذا الصدد وقد كانت سياسة سلخ السودان فاتحة مغالطات السياسة الانكليزية وقاعدة حروبنا الكتابية ضدها ولم يبقَ بعدها شك في نيات الانكليز الفاتحة وغاياتهم الاستعمارية ليكون لهم في افريقيا هند ثانية من منبع النيل الى مصبه

رحم الله الشريف فقيد مصر فقد حادثته في السودان وأحواله فقال « ان سلخ السودان عن مصر يضر بها سياسياً لان من يمتلك السودان يملك مصر وحياة هذه نيلها ومنابعه في السودان وهو يضر بنا مادياً اذ تنقطع الموارد التجارية عن مصر اما وقد غالط الانكليز سياستهم فلا اعجب اذا أضروا بانفسهم من حيث يريدون الانتفاع لانه يستحيل على اوروبا مع رغائبها السلمية ان تترك افريقيا لانكلترا بل لابد من المناظرة والمسابقة

فرنسا والمانيا ولا سيما بعد النفور الذي استحكم بين باريس ولندن بسبب المسائل الاستعمارية واستفزت الغيرة الوطنيـة حزب الاستعمار او بالحري فرنسا باسرها فنهضت كرجل واحد مؤيدة سياسة الاستعمار معضدة حكومتها حتى قال سياسي روسي في الكلام على سياسة فرنسا في السنين الاخيرة « ان الامة باسرها هي القابضة على زمام السياسة والقائلة بالفتوحات الاستعمارية والتحالف الروسي الفرنسوي »

ولما رأى الانكليز ذلك قالوا بلزوم اعالي النيل لمصر وان المالك للخرطوم يقتل وادي النيل بتحويل مياهه عنها واتانا الاستعماري رود بدهائه بين خطوطه الحديدية واسلاكه البرقية ومعاهداته مع قبائل افريقيا وأمرائها ولكن مسألة الكونغو فضحته وحالت دون بغيته وقبضت فرنسا بحزمها على طريقه فحالت دون اغراضه حتى تخوف الانكليز من حملات ابناء فرنسا العلمية والتجارية وقالوا ان النيل مهدد وهو لمصر وأعاليه واجبة لها وهي في منطقة نفوذها وصوبت غرفة التجارة في لندن رأي الحكومة وأفراد البرلمان وكتاب الجرائد مما اضطر الوزير الفرنسوي الحازم المسيو هانوتو الى القاء خطابه فوضع حداً لمزاعم الانكليز وقال ان منطقة مصر لا يفهم فيها ومنها نفوذ انكلترا وانه اذا احترمت حقوق السلطنة ومصر اتفقت فرنسا وانكلترا على المسائل الثانية ولكن الوزير هانوتو لم ينكر بعثة مونتيل وسواها والغاية من توغل الفرنسويين في قلب افريقيا

وعليه فلم يكن امام انكلترا الا احد امرين إما تأييد سلخ السودان وانه فوض ملكه الى الذي يقبض عليه واما انه لمصر فتخيرت الثاني لاستحالة فصله عن مصر والمعاهدات صريحة فضلا عن ان رجال فرنسا اقرب الى

وحينئذ قد تأتي ساعة تضطر فيها انكلترا الى الاعتراف بما انكرته اليوم حتى لا يذهب السودان من وجهة مطامعها الاشعبية فتقول بوجوب ضمه الى مصر بل استرجاعه كما قالت اليوم بسلخه » ثم أردف رحمه الله ذلك بقوله

« وعندها يعرف المصريون اني استقلت لسببين الاول ان انكلترا خالفت وعودها والثاني كي لا أعرض وطني للضياع بتمكين الانكليز من مصر وسودانها »

ونرى اليوم ان الامرين قد تحققا فقد ثبت ان سلخ السودان لم يقصد منه الا تملكه اذا اضطرت الدول والحوادث بريطانيا لبراح مصر فتغتنم فصل السودان ذريعة لوضع يدها عليه بحجة انها لم تمس المعاهدات اذ ان مصر تركت السودان في حين ان النفقات المنصرفة في وادي حلفا وسواكن كافية لاسترجاع السودان تقريباً لو لم تكن غاية انكلترا امتلاك حكمداريات الخرطوم وتوابعها ثم ان انكلترا لم تقصد من التساهل مع ايطاليا في احتلال مصوع والتوغل في داخلية السودان الا الى تأييد فصله عن مصر وتزكية سياستها ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه

نعم ان مصر قد لعبت دوراً مهماً في سياسة اوروبا الاستعمارية فتحقق قول الشريف فقيدنا وقد اندفعت فرنسا والروسيا والمانيا وايطاليا الى الاستعمار في القارتين الافريقية والاسيوية اندفاعاً اضطربت له انكلترا لانه تهددها في الهند من التونكين وسيام ومن افغانستان وثبت ان رجال فرنسا خصوصاً لم يقولوا بتلك السياسة الا بسبب مصر لانها طريق الشرق الاقصى وباب افريقيا

ولقد ارتنا الحوادث العجائب والغرائب فشهدنا بالامس الامبراطورية الروسية المطلقة متفقة مع الجمهورية الحرة الفرنسوية وهو مقدمة الاتفاق بين

اعالي النيل من رجال انكلترا والآن اما ان تجرد بريطانيا تجريدة انكليزية او مصرية فاذا كانت الاولى وقعت في شر ما تخوفته وسبقتها فرنسا هذا فضلاً عن ان الرأي العام الانكليزي ضد هذه التجريدات بعساكر انكليزية ومال انكليزي ولهذا قالت بان تكون مصرية وبمال المصري المسكين

وأما التكذيبات الرسمية سواء في لندن او هنا فهي من قبيل وعودها بالجلاء وعليهِ فلا بد من التجريدة المصرية ولا نرى حشد الرديف في طره وتمريناته المتتابعة إلا استعداداً لارسال تلك القوة الى السودان كما ان الاخبار التي اخذناها عن القادمين من وادي حلفا تؤيد خبر التجريدة لان الاشغال قائمة على قدم وساق هنالك لانشاء خطين حديديين لتقريب الأبعاد

وهذه الغاية وحدها هي التي اوجبت انشاء خط اصوان وقنا واذا قيل وأين المال قلنا ان المتوفر لدى المالية بين المبالغ الاحتياطية وغيرها يقوم بأكثر من هذه النفقات وماذا يمنع الانكليز من الاستيلاء على اكثر المخصصات الادارية لانفاقها حيث يريدون وفي الطريقة الموافقة لاغراضهم وغاياتهم فيصدق من قال انهم لا يكتفون فقط بامتلاك مصر بل هم يريدون ان يمتلكوا السودان بابناء مصر ايضاً

ثبت والحالة هذه ان انكلترا لم تسلخ السودان عن مصر اولاً ولم تقل باسترجاعه ثانياً إلا لخوفها المزدوج من نقض شرفها ومن فرنسا اما الاول فانها وان احبت ابتلاع البلادين الا انها تخاف تبكيت ضميرها ولها من ابنائها كثيرون وهم الاغلبية يحافظون على القيام بوعودها ووفاء عهودها

واما الثاني فلاعتقادها أن فرنسا ان تنسى اتفاق انكلترا او العثمانية على

اخراج الفرنسيس من مصر في زمن كانت لا تذكر اهميتها فيه حتى يستحيل اتفاق فرنسا والعثمانية اليوم ضدها ولا سيما في زمن كثرت فيه مسابقة الدول العظيمة وتوازنت القوات بحراً وبراً

ولهذا بتنا ننتظر حدوث حوادث في جهات سرس وغيرها تضطر المحتلين الى اعلان وجوب الحملة ليقولوا لفرنسا ولغيرها اننا مسيرون غير مخيرين لان من الواجب درء صدمات التمايشي ولقد اسمعتنا الاخبار الاخيرة اكثر من مرة تجمهر الدراويش وما الغاية لاشاعتها إلا تمهيد سبل الحوادث المنتظرة

هذا ما تستعد له وتنويه انكلترا في السودان وسنبحث في مواجب الدولة العلية ومصر وفرنسا في جملة ثانية وموعدنا قريب ان شاء الله تعالى

وكتب في ١٢ اغسطس من اوستريا ما يصح الاعتبار به الى الآن

يقول رجال الانكليز لقد عبر علينا حين من الدهر في قطركم وانتم تناوشوننا وتعارضوننا وتارة تستنجدون بجلالة السلطان وتارة تستعينون بفرنسا وأواناً تعتضدون بروسيا ولا يزيدنا ذلك إلا تأييداً ورسوخ قدم في مصر وقد قبضنا على ادارتها فلا يوظف فيها أحد الا بارادتنا في حين انكم لو امتزجتم معنا واتفقتم لاجبرنا فرنسا وأوروبا على توحيد ديونكم وخففنا اثقال الضرائب عنكم وخصصنا مبالغ وافرة بالأمور الصحية وعممنا فوائد العلم واكثرنا المدارس فيستطيع المصريون مع الزمن ان يشتغلوا بفضل احتلالنا الذي يزيدهم استقلالا وحرية ويصبحون في بلادهم كاهل كندا يحكمونها ويديرون شؤونها ولنا نحن

بلغاريا ولولانا لما قامت قيامة المسألة الارمنية فان لحكومتنا غير قواتها البحرية والمالية والتقليدية قوة رابعة هي اليوم القوة الاولى بين قواتنا الا وهي الجرائد فاذا أردنا امراً قامت قيامة جرائدنا عليه يعضدها جيش جرار من مكاتبيها وطنطنت به وابرقت وارعدت وكل من استقرى المسألة الارمنية وتتبع حركاتها اعترف بفضل جرائد لندرا والتمس في مقدمتها .

فهل من الحكم يا ايها المصريون ان تقاومونا وانتم عاجزون عن القيام بمهام أموركم دون معاونة غريب حتى لو انجلينا عن بلادكم (وهو مستحيل) لغلت اوروبا ايديكم وقصرت من رداء حريتكم واستقلالكم وامتيازاتكم الادارية لانكم لو كنتم تصلحون للحكم لما كثر دينكم واختلست حكامكم فافلستم وخفقت راية الفوضى فوق ربوعكم وقام رجال الجيش على خديويكم فاستنصر بنا عليهم ليصون اريكته وامتيازات مصر

تلك خلاصة ما يردده الانكليز ومأجوروهم في احاديثهم الرسمية وابواقهم الاحتلالية فرأيت ان افندها واحدة واحدة حتى لا تنطلي تمويهاتهم هذه على البسطاء لان عقلاء الامة وفضلاءها عرفوا مثلنا فساد هذه المبادئ وغايات اصحابها واضرارها بنا

لم اتأخر عن التنديد بتردد سياسة الباب العالي في ايام الثورة العسكرية وكثيرا ما عرضت في سياسة الوزير فراسينه ومشورات صديقه دي لسبس وقد احجمت فرنسا عن الاشتراك مع انكلترا واشتداد صدى الاهرام تضطرم غيظاً وغيرة على سياسة الدولتين لاني خفت انفراد انكلترا وتيقنت سوء غايتها وانها عاملة على امتلاك مصر وتلك كانت كتاباتي في الاهرام وفي جريدة الديبا والريبوبليك فرانسز وفي البال مال غازيت وغيرها من جرائد انكلترا

فقط حق الاعتراض على الاعمال التي تمس نفوذنا المعنوي او تحول دون حقوقنا السياسية في مصر بما انها طريق الهند وأهم المواقع الحربية في البحر المتوسط والبحر الاحمر

ولو كنتم حقيقة من اولئك الاعراب الذين يحبون جنسهم ووطنهم لاتفقتم معنا وكان مستقبل الشرق لكم

ونحن اذا كنا أخذنا أهم مناصبكم وقبضنا على كبيرات الوظائف فاننا لم نأت غير ما اتاه فاتحو مصر قبلنا من اعراب وأتراك واذا كنا استخدمنا الدخلاء واسطة بيننا وبينكم فقد فعلنا خوفاً منكم واقتداء بالفاتحين ولكن اذا اصفيتم لنا الود واخلصتم طردنا من المناصب كل غريب وتولينا معكم كل الوظائف وتشاطرنا ميزانية الادارة

وهل عارضتمونا في شيء ونجح المعارضون وهل نظارتكم تطيع غير المستشار الانكليزي او الوكيل الانكليزي وهل ارتأى بالمر مشروعاً ولم ينتشر على خصومه حتى في اوقافكم المقدسة واعلموا ان وجهتنا في نظارة المعارف هي نشر اللغة الانكليزية في مصر وفي الحقانية تسير العدالة على الخطة السائرة عليها في هندنا ومتى تم لنا ذلك وهو امر قريب يئستم من معارضتنا ورضيتم باحتلالنا قسراً

ثم هل تساعدكم فرنسا عن حب لكم وهل نسيتم ضربات روسيا السابقة وافضال انكلترا عليكم فكيف تفضلون روسيا اليوم علينا

وقد علم رجال السلطنة انه اذا سهل عليهم ان يعادوا فرنسا او غيرها استحال عليهم ان يناوشوا انكلترا وقد رأوا منها ما رأوه في مشاكلهم الداخلية فنحن الذين حلنا دون دخول تركيا في امر الروملي الشرقية فانضمت الى

ولم ايمم عواصم اوروبا للاجتماع بهذا السياسي وذاك المكاتب إلا لتعميم افكاري والقول ان من مصلحة اوروبا ان تنجلي انكلترا عن مصر وقد فاتحني اللورد دوفرين في قصر الزهة والسير بارنغ لدى وصوله الى مصر معتمداً لدولته فابديت رأيي لهما كما نشرته في الاهرام وافتخر اني كنت منفردا في هذا الرأي الوطني المصري مخالفاً كل وزير وكل امير بينما كان الانكليز ورجال مصر ممتزجين قلباً وقالباً وهؤلاء غير عالمين بسوء نيات المحتلين .

والمصريون الرسميون مازجوا الانكليز في اكثر سني الاحتلال تقريباً وعملوا بجميع مشوراتهم ونصائحهم على زعمهم فقبض الانكليز على كل رخيص وغال كأني بمصر مستعمرة انكليزية ولولا ان قيض الله العباس لتولي الاريكة الخديوية لما كانت النهضة الوطنية التي استسلمت في السابق عن يأس لا عن قناعة وهو برهان على ان مصر تموت برجل وتحيا برجل فهل رأى المصريون بسني المجاملة عملا واحدا في سبيل تأييد الامتيازات المصرية في كل نظارة أو كل فرع من فروعها من الحربية الى المعارف فكيف تشكون اليوم من نور المصري وانتم علته وسببه

ونحن قد استنجدنا بالاستانة وافلحنا لان سياسة انكلترا في دار السعادة حبطت وانحلت بعد احتلال مصر وعرف رجال ضفاف البوسفور معرفة رجال ضفاف النيل ان وقوع مصر في قبضة الانكليز تؤدي الى انحطاط السلطنة والاضرار بالملة والامة فجمعوا كلمتهم ووفقوا بين آرائهم واذا لم تكن نتيجة استنجادنا بحضرة امير المؤمنين الا انها حالت دون اغراض المفسدين فيئسوا من تحقيق أمانيهم في مصر واميرها لكفى بها فائدة تذكر فتشكر وخصصنا فرنسا دون غيرها من الدول بطلب الاسعاف لما لها من المصلحة

في مصر والشرقين ولاننا نعتقد ان اقدس واجباتنا ان لا تتفق فرنسا مع انكلترا حتى لا تقوى الاخيرة على ارضائها ببديل عن مصر من املاكنا شأنها في سياستها الخارجية معنا ونحن اليوم نستعين بالمانيا وروسيا ولنا ملء الامل ان الدول الثلاث سيتفقن على طلب حياد مصر فلا تمتلكها دولة اجنبية ابداً ولا نعجب اذا كانت مسألة مصر من قواعد التحالف الفرنسوي الروسي ويأتيك بالاخبار من لم تزودِ

ثم انا اتفقنا معكم فأخذتم مناصبنا وامتزجنا بكم فاستلمتم مقاليد أمورنا وجعلتمونا في اعين الشرقيين ضعفاء بعنا وطننا وفي أعين الغربيين أناساً بلا حمية ولا شرف ولولا تداركنا لاغلاطنا هذه لخسرنا مصر وامتلكتموها غنيمة باردة وانتقم منا الفرنسوي فوطئ ارضاً ثانية وناصبنا الروسي ورهط آخرون

ولا يخفى عن الانكليز ان اتفاق اكثر الوزارات الفرنسوية معهم على تحويل الموحد وغيره لم يقنع فرنسا مطلقاً فضلاً عن ان مصر لم تستفد من التحويل بل تقاسمه ابناء الانكليز رواتب ونفقات ودليلنا الفرق الفاحش بين ميزانية مصر الادارية قبل الاحتلال واليوم وبين المبالغ التي كان يقبضها المصري وقتئذ والتي يقبضها اليوم ولو رضي المصريون بالاحتلال لما اضروا بمصرهم فقط بل بالسلطنة قاطبة وليعلم المصري من دعاة الاحتلال انه لو تم ذلك لاضر بالوطن والامة من كل جهة فهل يلام صادق في الوطنية اذا عارض الاحتلال (ولو إنهُ كله حسنات) فكيف وهو على ماهو عليه سيئات في سيئات حسبنا الله ونعم الوكيل

وقد برهنتم باعمالكم ولا سيما في السياسة العثمانية على انكم تريدون ابتلاع

مصر وسودانها والتفريق بين مصر والاستانة وبين العربي والتركي وبين الخديوي والسلطان وبمعنى اوضح ظهرتم في مظهر خصم للدولة ملياً وسياسياً فهل يتبعكم وتلك مبادئكم إلا الذين وطنيتهم درهمهم ومصريتهم منصبهم نعم ايدتم ارادتكم في مصر والامر امركم واستسلم النظار طائعين ولم يعارضكم احد ولكن ذلك التأييد لايزيدكم الا كراهية في مصر كما يزيد اوروبا ثورة عليكم وبرهاننا حرب جرائد فرنسا وسواها ولا ننكر قوة انكلترا في الجرائد وهي الآلة الصماء في يد الخارجية الانكليزية ولكن ثبت لاوروبا اليوم ان اختلاف جرائد لندن ومغالطتها يعادلان عظم انتشارها واتساعها او يزيدان ولنا فيما اختلقته على مصر في الحوادث الاخيرة وما كان من احاديثها الملفقة بعد مسألة الباميروما رددته في هذه الايام على مقدونية وبلغاريا وفيما لاتزال تنفثه من السموم في المسألة الارمنية شاهد عدل على مانقول

وسوف تضع مصر حداً لجميع هذه الامور التي فضحها الاحتلال فانكم تطاولتم على اميرنا ورجاله وسلبتم حقوقنا الادارية والمالية وهددتم السودان وفرقتم بين عناصر السلطنة ومسستم مصالح جميع الدول ومصر طريق الشرق الاقصى لاوروبا وأهم نقط البحر المتوسط الحربية ونحن العثمانيين لانعد روسيا خصماً لنا لاننا لو جاملناها كما جاملنا بريطانيا وحاربنا هذه لمصلحة القيصر كما حاربناه لمصلحة انكلترا لكانت النتيجة لنا احسن جداً ولهذا لايعجب الانكليز من تحالف الدولة العلية مع روسيا اذا لم تقم انكلترا بوعود الجلاء ونحن في هذه السياسة نقتدي بفرنسا ونتفق مع الدولتين على مصر وعلى غيرها

ولست في حاجة الى ذكر ماكان من الانكليز ضد النهضة العلمية المصرية

وضد الحقانية مما يظهر للمصري ان المجاملة استعباد والملاينة استرقاق فانه لو فرضنا المستحيل وقلنا ان اوروبا لم تتداخل في مصر وملكت انكلترا هذه البلاد لكانت النتيجة واحدة جاملناها او عارضناها ولكن المجاملة حطة وعار والمعارضة شرف وافتخار

وهب صدق الانكليز وقصرت اوروبا من حرية المصريين بعد الجلاء فلا يكون هنالك مايخيفنا على استقلالنا الاداري المنصوص عنه في الفرمانات بل تحفظ حقوق السلطنة وتؤيد امتيازات معه ويكون للمصري ميدان واسع يسابق فيه ويناظر ابن اوروبا ليقتدي به علماً ومدنيـة وحرية واستقلالاً ولا تحصر الفائدة عند ذلك في مصر والمصريين بل تمتد الى الدولة العليـة والشرق باسره

ولا نيأس من الانتظار وحرب السبعين قد مضى عليها ٢٥ سنة ولم تزد فرنسا الا رفعة وقوة والخلاف بين انكلترا وفرنسا على الارض الجديدة ومسائل افريقية قد عبر عليه سنون ولكن لم تيأس الدولتان لامن اتفاق سيحدث ولا من المعارضات المتبادلة ثم هل انفضت الى الآن مشاكل انكلترا وروسيا في البامير وغيرها فلماذا نيأس نحن واوربا ذات المصلحة مثلنا وصاحبـة القوة ساهرة يقظة لاتسالنا إلا متابعة خطتنا الوطنية بمعارضـة الاحتلال وطلب الجلاء والسلام

سنة ١٨٩٦

قال في الاستقلال وأساسه نشر المعارف

الاستقلال من لوازم الحياة السياسية وهو إما طبيعيٌّ فطريٌّ كما هو استقلال اكثر القبائل الرحل المتوغلة في مجاهل افريقيا وغيرها وإما اكتسابي وهو ما توصل اليه اصحابه بفضل الاجتهاد والعلم كاستقلال شعوب اوروبا التي ينقسم استقلالها الى قسمين الاول ان يكون الشعب مستقلاً حراً ولكنه خاضع خضوعاً تاماً لارادة ملكه المطلق والثاني ان تكون الامة مشتركة مع حكامها في فوائد الاستقلال كما هي الحال في فرنسا وانكلترا بفضل آداب شعبيهما ومدنيتهما وعلمهما

ولا وجود سياسي بغير الاستقلال ولن يكون هذا بغير العلم ولا سيما في الشعوب التي تعودت الانقياد لحكامها وللدخلاء ولهذا كانت واجبات المصري بالقياس لغيره من ابناء الشرق كثيرة لانه بخسرانه الاستقلال الاداري خسر الفوائد الثانية الاقتصادية وغيرها فاستلم زمام سياسته الاجنبي وتولى مهام ادارته الدخيل وأدار شؤون ماليته الرقيب كأني به عبدٌ لسواه من كل الوجوه وهي حال تضطرنا الى مداركة اضرارها وملافاة شرها قبل استفحال أمرها بتوسيع نطاق المعارف وتنظيم مصالحها وتعميم فوائدها

ويذكر قراؤنا الكرام اننا كتبنا مرات عديدة في هذا الموضوع المهم واستلفتنا انظار أولي الامر الى ذلك وسألنا الموسرين منا ان يشتركوا مع الحكومة في اقامة المدارس في كل صوب لانه اذا كان المصري جاهلا

واجباته نحو نفسه فكيف يدرك فروضه نحو غيره وكيف يسعى الى تحسين احواله الشخصية باصلاح احوال منزله وتهذيب اخلاق اولاده وتعليمهم المبادئ الوطنية والاقتصادية وهو خاضع لارادة غيره وطوع اشارة سواه

وقد سألت مراراً بعض افاضل المصريين ان يكتبوا في هذه المواضيع ويتفننوا في الكلام على تهذيب الاخلاق وتثقيف العقول بأن ينبهوا ابناء مصر الى اصلاح مااختل وتقويم ما اعتل يذكرون محاسن الاجنبي للاقتداء بها ويوردون فنون الاوروبيين في المبادىء الاقتصادية وغيرها حاثين على اتخاذها انموذجاً ومثالاً حتى اذا لم نحل دون اطماعهم فينا اشتركنا وإياهم في فوائد الارتزاق والاكتساب

وأرى الاستاذ المتكاسل والعالم المتجاهل والفاضل المتغافل من ابناء مصر عن هذه الواجبات اكبر ذنباً وأشد جريمة من اخوانهم الذين لهم عذر بجهلهم وقد صدق احد السياسيين اذ قال في حديث دار بيننا على هذا الموضوع « ان هؤلاءِ الافاضل لاشد عداءً لمصر وبنيها من المحتلين »

ولا يخفى انه كلما زادت معارف الامة زاد عدد النبهاءِ والافاضل فيها فتنبهوا الى فروضهم وطالبوا بحقوقهم وساعفوا الهيئة الحاكمة اذا اخلصت سعياً الى معارضة الرقيب وقضوا عليها اذا استمالت من جراء ضعفها وقنوطها لان الامة الحية لاتعدم الحياة في كثير من ابنائها يتولون أمورها ويصلحون شؤونها او لا نرى اليوم في فرنسا ان الشعب هو صاحب القول الفصل في اعمالهِ الداخلية والخارجية سواءٌ نبغ بين رجالها مثل تييرس ام لم يكن عندها سياسيّ عظيم واداريّ لبيب في حين نرى الامة التي لاعلم فيها طوع ارادة فردٍ من افرادها وطالما اضر بها وبنفسه

نعم قد وفقت مصر الى ان رأت في سمو العباس المحبوب رجلاً غيوراً على مصالحها ميالاً الى توسيع نطاق المعارف فيها معتصماً بحبل المبادىء الوطنية والجنسية عن علم ومعرفة مما يسعف كثيراً على الوصول الى تحقيق أماني سموه الوطنية ولا سيما اذا قام مجموع الامة وأفرادها قيام سموه بذلك للواجب المقدس ويسؤنا ان لا نرى ذلك من لدينا اما عن يأس او عن جهل وكلاهما نتيجة اهمالنا لتهذيب اخلاقنا وتثقيف عقولنا وبالتالي جهلنا لواجباتنا نحو نفوسنا ونحو غيرنا فاستعبدنا الغير وكان ماكان من استماتتنا امامه والاستنامة لارادته واشارته

ونحن لا نجهل اليوم بعد الحوادث الاخيرة ان للمصريين عصراً مجيداً طالما جلاء الانكليز عن بلادهم ولكن ذلك لا يكون اذا اهملنا فروضنا ولم يرَ النصراء والمسعفون اننا قادرون على ان نحكم انفسنا بأنفسنا ولا يجهل المصري انهُ متميز بموقعه الجغرافي عن سواه فان غيره اذا أراد ان يستقل وجب ان يشتغل وحده دون ان يساعده احد اما مصر فلها من الدول حتى من الانكليز انفسهم عضد ونصير

نعم ان الانكليز قتلوا بسياستهم السلطة الاهلية ليحولوا دون الجلاء ولكن حزم العباس فضح سياستهم وقد ساعدته حوادث آسيا وأفريقية فعرفت اوروبا اختلاقات السياسة البريطانية في مصر كما عرفتها في الترنسفال واليابان والبوسفور

فعلى أولي الامر والاغنياء والنجباء من الامة ان يعقدوا النية ويكونوا يداً واحدة في نشر لواء العلم واكثار المدارس في البلاد وتنويع علومها الادارية والاقتصادية لينبغ منها الاداريون المجربون والاقتصاديون العارفون

والسياسيون المحنكون ولنعلم ان مصر اذا رجعت الى حالتها قبل الاحتلال خدمت الشعوب المشرقية اجمع وتمتع الافريقيون المستقلون بوجودهم السياسي

ولا عذر لنا اذا عارض المحتلون زيادة ميزانية المعارف او حال رجال هذه النظارة دون بغيتنا الجليلة فانهم يعملون لمصلحتهم فلنسع نحن ايضاً في مصلحتنا وذلك بأن لانأسف لبذل الدرهم في سبيل وجودنا السياسي وان نقصي اليأس من نفوسنا وقد ثبت ان لايأس في الحياة السياسية

وان مارأيناه في هذه الآونة الاخيرة من مبادىء النهضة الاقتصادية والعامية في مصر يبشرنا بنمو تلك المبادىء وكمال هذه النهضة ومتى تعممت وانتشرت عرفنا مالنا وما علينا فطالبنا بحقوقنا الادارية والاقتصادية توصلا الى الحقوق السياسية وتمتعنا بامتيازاتنا على ما يقتضيه وجودنا السياسي وحياتنا القومية والله ولي التوفيق

وكتب في ١٨ مارس عن حملة السودان الاخيرة

إما ان تكون الحملة السودانية لخدمة مصر او لخدمة انكلترا فاذا كان الاول وجب عضدها بالمال وبالرجال واذا كان الثاني وجب رفضها وإلا عددنا المصريين القائلين بها خداماً لاغراض انكلترا لا لمصر وطنهم

ويذكر القراء يوم اوعز اللورد كرومر بسلخ السودان الى المرحوم الشريف انا قلنا ان الغاية من سياسة انكلترا ان تكون السودان او افريقيا هندا انكليزية. نعم ان هذه الامنية لم تحقق بعد ولكن ايدت الحوادث ما

قلناه قبل كل أحد سوانا وعرفنا ايضاً ان انكليز مصر عاملون ولا سيما بعد اتفاق المستر رود واللورد كرومر على وجوب فتح السودان الامر الذي اهتم به السردار كتشنر باشا كل سنة زار لندرا فيها ولكن السياسة الاوروبية العامة حالت دون مرام السياسة الاحتلالية التي لم تأسف في مخابراتها على الدرهم وغيره لاستمالة القبائل المتذبذبة تسهيلا للحملة المنوية يوم توافق انكلترا عليها مدفوعة من مصلحتها الخصوصية تحت ستار خدمة المدنية ضد الهمجية كما ذكر المستر كرزون أمس

وقد ثبت الآن ان مصر مسيرة في الحملة الاخيرة لان الامر صدر من لندرا وتقرر اولا بين حضرات اللورد كرومر والسردار وقائد جيش الاحتلال والسير الوين بالمر وعضدت هذه السياسة معارف سلاطين باشا وخبرته باحوال السودان وبعد الاتفاق النهائي أبلغت حكومة مصر الامر لانفاذه

وعليه فقد كان من الواجب على كبار رجال الحكومة المصرية ان يبحثوا بحثاً مدققاً في الغاية من هذه الحملة فاذا كانت لخدمة غير مصر وجب ان لا يصدقوا على تجريدها واذا قيل ان مصر لا قوة لها على ذلك قلنا ان لها القوة الشرعية التي مزقت بها الدولة العلية شمل أغراض الانكليز في مسألة ارمينيا واذا قيل ان انكلترا اقدر ان تنادي بحمايتها على مصر من ان تقوى على اول تعديل في قواعد مصر الاساسية التي تنص عنها الفرمانات السلطانية وتؤيدها اوروبا وقد عرفنا ان الاول مستحيل وهو امر لا تجهله انكلترا ورجالها هنا ورجالنا اذن كان ما تخاف منه في الامر الثاني اكثر استحالة

وقد اذكرتني مخاوف رجالنا في هذه المرة مخاوفهم في مسألة الحدود وقد

قالوا لو رفضنا مطالب كرومر لقبض الانكليز على جيشنا بجيشهم الاحتلالي وقتلوا الشوكة المصرية فقولوا لنا أيها المرددون اليوم للاقوال الماضية هل حالت طاعتكم العمياء وخضوعكم في مسألة الحدود دون قتل النفوذ المصري في الجيش المصري الاسمي

ناشدتكم الله ايها القابضون على زمام هذا القطر السعيد المنادون بذكر هذه المخاوف كل يوم عن ضعف او عن غايات في النفس والخاضعون للمحتلين بسببها ها قد جربتم ذلك مرارا ولم تزدادوا الا خذلانا وخدمتم الاحتلال وايدتموه فبالله الا ماجربتم بالرفض مرة واحدة على شرط ان لا تقبلوا ابداً لا ان ترفضوا لتقبلوا وعندها تعرفون ان المسألة دولية اوروبية وانه اذا كانت اوروبا قد حالت دون اغراض انكلترا في الشرقين حتى في الترنسفال فهل تتردد عن وضع حد لاطماعها الاشعبية في مصر واقول انه لو وثق الانكليز باننا حازمون ثابتون لما عادوا كراتهم علينا حتى قتلونا واماتونا

ونرجع الى راي اوروبا والقول انه يحتمل ان تكون المانيا موافقة للحملة لخدمة حليفتها ايطاليا فاين اثرة انكلترا وانها لا تطيع اشارة برلين وامبراطورها الشاب ام قصدت ان تستميله اليها على حساب مصر المنكودة الحظ

والذي نعتقده هو انه وان تكن الحملة بتصديق المانيا فلا يؤثر ذلك في في حقوق مصر السياسية لان غليوم الثاني يعرف انه اذا تمادى في هذه السياسة اغضب فرنسا وروسيا ولا مصلحة له في ذلك بعد ان ذاق مرارة التحبب الانكليزي والجرح لايزال جديدا داميا على انه وان ثبت هذا الراي فلا يزيدنا إلا ثباتاً في معارضة الحملة وكيف لا نعارضها وغايتها خدمة غير

مصر وغير المصريين بتضحية اموالها ورجالها على مذابح اغراض المحتلين
ونحن متيقنون ان روسيا وفرنسا لا ترضيان مطلقا بامثال هذه الاعمال
وقد عرفت اوروبا ان القول الفصل للتحالف الثنائي المذكور بما كان من
سياسة المانيا في جميع الحوادث الاخيرة مما يضمن لنا عدم الخوف والقلق
على مستقبلنا ولا تجهل فرنسا خصوصا انها اذا تساهلت خسرت جميع ما اكتسبته
في السنين الاخيرة من اميال الشرقيين عموماً وكانت بتصديقها لمقدمات بريطانيا
الاخيرة عاملة على تحقيق اقوال السياسي الالماني الشهير الذي قال
(ان المانيا مع مسألتي الالزاس واللورين اسلم عاقبة لفرنسا من انكلترا
المازجة مقدمات تمويهها بتقريرات جرائدها وخطب رجالها)

وكتب في ١٤ يونيو من باريس عن الفيلسوف جول سيمون وكان من مريديه

الله والوطن والحرية

احتفلت باريس بل فرنسا باسرها بل الفلسفة والعلم والادب والحضارة
الغربية والمدنية الاوروبية بمشهد جنازة الفيلسوف العلامة السياسي الوطني
الفرنسوي المرحوم جول سيمون الذي مات وعمره ٨٢ سنة قضاها في خدمة
بلاده ونصرة الفقير والبائس وعنوان حياته الله والوطن والحرية
واني لا اوفي في عجالتي هذه حقوق هذا الرجل الذي يحق لفرنسا ان
تفتخر به وبامثاله اولئك النوابغ والفطاحل الذين شادوا صروح علمها ومعالم مجدها
وعزها وايدوا مبادىء حريتها وخدموا الضعيف والمسكين فيها وقد ضحى المرحوم
جول سيمون مصلحته الشخصية في خدمة مبادئه الشريفة ومقاصده النبيلة ولذلك

مات فقير الحال . ولكنه خلف ذكراً مجيدا يغني عن كل مال.وترك صيتاً حميداً يتناقله الابناء عن الاباء مدى القرون والاجيال وقد جعلته رحمه الله موضوع رسالتي هذه شهادة بفضله وبفضل امته وبلاده التي لا يضيع فيها احسان واجمال . وتنويهاً بان الامة الفرنسوية كغيرها من امم اوروبا تقدر هؤلاء الرجال قدرهم ولذلك امتازت هذه الشعوب عن غيرها وفاقت على سواها واعتزت وكان الامر امرها في مشرق الارض ومغربها

افتتح جول سيمون حيوته الكريمة بخدمة العلم والحرية ندافع عن هذه دفاع الابطال في عصر نابوليون الثالث ولم تمنعه حريته هذه الشريفة من التنديد بعمال الجمهورية ايام ارادوا مصادرة هذه الحرية في سياستهم وتعاليمهم لانه حسب ضالته الحرية واحدة في عصور الامبراطورية والجمهورية والملكية وانه فوق المصلحة الحزبية والغايات الشخصية ولم يتخذها كغيره سلاحاً ضد الاستبداد وضد اخوانه ايضاً وقد دحر الاستبداد وذويه بل خدم الحرية نفسها قاصدا ان يتمتع بها الجمهوري في عهد الامبراطورية وعهد الملكية كتمتع ابناء هاتين الحكومتين بها في عصر الجمهورية الحاضر

وهذه الحرية التي خدمها انما خصصها لخدمة وطنه العزيز بما وضعه من المؤلفات الضخمة والمصنفات الجزلة وبما نشره في المجلات العلمية والجرائد السيارة من المقالات المبينة والاصول المنمقة وبما القاه في البرلمان وسواه من الخطب الرنانة التي كانت لها رنين ودوي في فرنسا وفي خارجها واذا كان لم يوفق الى منع حرب السبعين فانه ساعد تيرس مؤسس الجمهورية على تأييد هذه الحكومة وسلم فرنسا لاخوته ابناء هذه المملكة دولة عزيزة الشأن علية المقام والجناب يتهيبها الخصوم وتعنو لذكرها الرقاب

وهذه الوطنية وتلك الحرية قد وقفهما ايضاً على خدمة الحق سبحانه وتعالى فلم تؤثر فيه تلك الفلسفة المبلبلة الثرثارة المنكرة كل وجود سام غير مدرك ولا منظور بل حاربها وبدد شمل كتائبها وتذكرني رصانة هذا العلامة الفاضل وزكانة فكره طيش بعض ابناء المشرق الذين يجتزئون بمطالعة كتاب هذا المادي ومؤلف ذلك الكافر الملحد وتصفح فصول داروين العالم الطبيعي ثم يروحون يتحذلقون ويتشدقون باراء غيرهم ويفتخرون باذاعة تعاليم سواهم وهم قوم لا رأي لهم للاتباع ولا فكر ينافس بابداع بل يباهون بانهم ماديون عن فلاسفة اخريات هذه الايام ونحن نرى جول سيمون العالم المحقق والفيلسوف المدقق يعبد الحق عز وجل ويخدمه ويفتخر بايمانه وبمعتقده ولم تمنعه اعماله السياسية ولا واجباته العلمية والعائلية من احترام المبادي الدينية وتبجيلها واعلانها في خطبه وفي كتبه ومقالاته فكان بالحقيقة الفيلسوف الصادق والوطني الحر المخلص لدولته وبني قومه ونعم الرجل هو .

ثم ان هذا الرجل ابن اجتهاده وصنيعة اقدامه وثباته وقد دلتنا مؤلفاته وخطبه على انه عضد الفقير وسند العامل والمحترف وغوث الملهوف ونصير كل مبروت ضعيف وقد حرك بلسانه وبنانه جميع الحكومات والشعوب الاوروبية لمساعدة العملة على اختلاف اجناسهم ومذاهبهم ولا سيما القاصرين والعاجزين منهم وذلك بزيادة اجورهم واقلال ساعات عملهم وتخفيف احمال عنائهم ومشقتهم وأن تقام لهم الملاجيء والمساكن بأجور معتدلة ليتسنى لهم بعض الراحة والهناء في هذه الحياة الدنيا ويكون لهم وجه شبه بالاغنياء والعظماء وهو قد فاز في هذه الحروب القلمية والمعارك الادبية فوزاً مبيناً ولقبه العملة اباهم ونصيرهم وهو شرف مابعده شرف وغاية مجد مابعدها غاية

وكثيرون من قرائنا يتذكرون مالقيه هذا الفيلسوف المحب للانسانية من صنوف التجلة والتكريم في مؤتمر برلين الذي دعاه الى حضوره الامبراطور غليوم الثاني للمفاوضة بشأن اصلاح احوال العملة مما ساعف كثيراً على تايد تلك المبادىء كما عادت ايضاً على تحسين صلات فرنسا والمانيا منذ ذلك الحين

وكان جول سيمون كلما كبر في السن كبر في العلم والمعرفة وزاد فلسفة وأدباً ومحبة للانسانية واعتصاماً بمبادئه الدينية وتصبناً في الاعتقاد بوجود الله خالقه وكان كلما علا منصبه وتلألأ جاهه وقوض صروح الاستبداد والظلم زاد هياماً وكلفاً بالحرية وأراد ان تكون له كما لخصومه اذ الحرية لا تتجزأ ولا تتنوع وجول سيمون سواء في عبادة الحق جل جلاله او في تايد الحرية وتعميم فوائدها وبركاتها كانت وجهته خدمة وطنه العزيز فهكذا الرجال وهكذا الاعمال

فلا بدع إذاً بعد ذلك اذا رأينا فرنسا كاسفة البال حزينة لفقد رجلها وخادمها الامين وجعلت حكومتها نفقات مشهده على خزانة الدولة وأمرت بان يكون الاحتفال به رسمياً يسير فيه الوزراء والامراء والنواب ورجال العلم والادب وكبراء باريس وعظماؤها وقد ابنه كثيرون بابدع بيان. فذكروا فضله ونبله وعددوا مآثره وافعاله الحسنات . وبكاه جميع الذين عرفوه كما بكاه الفقراء والايتام والارامل الذين صار في كؤوس معايشهم المرة بعض حلاوة وطيب مذاق بفضل هذا الخادم للانسانية المخاص والفيلسوف الوطني الحر الذى اسلم روحه كما بدأ حياته بتكرار هذه الكلمات الشريفة « الله والوطن والحرية »

وكتب ايضاً في ذلك التاريخ من باريس

شهدنا في هذا اليوم الازهر . سباق باريس الاكبر الابهر . وقد غشيه نحو مليون نسمة فكان زحاماً غريباً يندر مثله في هذه المدينة الزاهرة ومشهداً درة تاجه حضرة رئيس الجمهورية الذي استقبل بالاحتفال الواجب والتكريم اللائق وقد علت ضوضاء المتراهنين وبلغت ارباح هذا اليوم ونفقاته ٥ ملايين من الفرنكات تقاسم الاهلون اكثرها ولهذا لم نعجب من ان بلدية باريس اخرت ذلك السباق اسبوعاً بقصد خدمة المدينة وقد اضطر المتسابقون والزوار الى البقاء ريثما يشهدون السباق المذكور كما ان رجال الحكومة لم يأسفوا على بذل الدرهم بسخاء وكرم في سبيل زيادة راحة السياح والاجانب من كل الوجوه لما يترتب على رضى هؤلاء من زيادة موارد باريس ومكاسبها ورواج متاجرها وعمالها وهذا يؤيد ماطالما التمسناه لمصر وهو وجوب زيادة العناية بأمر النزلاء والسياح ولا سيما وقد اشتهرت مصر بانها سويسرا الشتاء لكل مريض وغريب وسائح وناهيك ما بذلك من خدمة القطر المصري مادياً بما ينفق الغرباء من المال وأدبياً اذ يقف هذا السياسي وذلك النائب او الكاتب على حقائق البلاد فيعلمون اوروبا بأحوالنا ويعنون لها شؤوننا وشجوننا ويبثون لاهلها وساستها شكاياتنا فلا تضيع حقوقنا في طي مغالطة السياسة الانكليزية وسباسب اكاذيب جرائد لندن وترهاتها .

ولا يسعني ان اختتم هذه المجالة قبل ان اذكر فضل البوليس الباريسي واثني على العامة من الشعب وهنيئاً لمثل هذه البلاد وسقياً ورعياً لمثل هذه الامة الرفيعة المقام

وكتب من باريس عن كريت في ٢١ لوليو

ماضرنا لو رضينا بمطالب الكريتيين مباشرة وأنقذنا من انفسنا وعودنا لهم مادمنا بعد الاحوال الاخيرة نرضى اليوم بما رفضناه امس ونقبل غداً ماعارضنا بشانه اليوم وناهيك ما يترتب على مثل هذه السياسة الخرقاء من الاضرار بنا من جميع الوجوه فاننا ايدنا تداخل اوروبا في اعمالنا وبرهنا على ضعفنا بعدم ثباتنا على رفضنا .وهجنا خواطر الرعية وساعدنا الحوادث على التوسع والامتداد في ولايات اوروبا وآسيا وكابدنا النفقات الطائلة ثم اوقفنا حركة التجارة في الداخلية وجففنا موارد البلاد وولدنا الياس في قلوب الرعايا وهنالك الطامة الكبرى

ولا خسارة من كريت اذا متعناها بدستور اشبه بقانون لبنان فانه مادمنا لا أمل لنا منها بجند ولا بضرائب وجب علينا على الاقل ان نتخلص من الخسائر الناجمة عنها في المال والرجال وقد عرفنا ان الدول متفقات على عقد الصلح بين الكريتيين والحكومة لانه هو الحل الاوفق لها وهي لاتريد الحرب ولا ضعضعة المملكة العثمانية طبق ماتريده سياسة الانكليز مما يفهم منه ان اوروبا خصمنا وصديقنا لاتسمح لنا عند حدوث ثورة بغير مسالمة الثائرين كاننا حراس اغراض اوروبا وبوليس سياستها

ولا يخفى ان اطراد هذه الحالة في السلطنة يحول دون الاصلاحات الداخلية فضلا عما فيها من مس خواطر المسلمين وهم يرون ان الثورة من النصارى تقابل بالحسنات الادارية والمالية والاقتصادية وانهم هم القائمون باداء المال والرجال وهم مع ذلك محرومون من الاصلاح المطلوب وهذه الامور

لايجب ان نتجاهل انها سلاح خصومنا ضدنا وانه متى ظهرت استحال منعها ومتى حصلت قامت قيامة الانتقام على قدم وساق لان العامة عمياء لاتعرف جدالاً ولا برهاناً ولا كلمة للافراد في الدولة وهم لم يكونوا الى الآن الا علة الخراب وسبب الدمار وباللعار

فهل من مصلحة الامة السياسية او القومية ان تثور تلك الخواطر الثورية وتفور في جميع انحاء البلاد كل مذهب يحارب الثاني وكل عنصر يناصب الآخر وما نتيجة ذلك الا تداخل اوروبا الفعلي ومقاسمة الفوائد بين تلك الدول او لا نرى ان الشعوب البلقانية متفقات متحدات على انفاذ مآربها وهل اليونانية لاتنتظر تلك الساعة بنافذ الصبر والجلد وهل دولة غير روسيا حائلة اليوم دون اندفاع تلك الامارات والممالك الصغيرة ضدنا إذن فلماذا ياقوم نتجاهل المخاطر المحدقة بنا ونتغاضى عن واجباتنا الوطنية المقدسة وفروضنا نحو الامة والبلاد

ويعلم الله ان المسلم لاشد افتقاراً الى الاصلاح المطلوب من المسيحي والاول هو الذي يستفيد منه اكثر من الثاني لانه السواد الاعظم في البلاد التي لاتزال ارضها ملكه والعثمانية بلاد زراعية فاذا انتشر فيها علم الاصلاح وتأيدت العدالة والراحة ووشبت اعراق الحضارة والعمران اثرى اصحاب الاملاك وأخذت الخزانة نصيبها من تلك الفائدة وتمكنت عندها من ادخار الذخائر والمعدات وتحصين القلاع وتبوأت المملكة مقاماً علياً وحق لرجالها حينئذ ان يكرروا قول الملك الفرنسوى والفاتح الشهير هنري الرابع القائل « حصنت مدني واكثرت ذخائري وملأت خزائني مالا فمن أخاف »

ولا خلاف في ان الحالة الحاضرة في تركيا مجلبة لاعظم الاضرار على

مصر وسودانها ومسلمي افريقية قاطبة لانه فضلا عن اهتمام اوروبا بتلك الحوادث قصد التوسل الى حلها حتى لاتشب حرب دولية فهي اي اوروبا حائرة لاتدري كيف تتفق على انكلترا وقد يلد لنا الغد ولياليه الحبالى حوادث مهمة في ولايات ثانية تقضي على اوروبا المترددة في اعمالها ان تضرب صفحاً عن مبادئها الاولى وتكون مصر نصيب انكلترا وتحقق هذه أمانيها فينا وفي الاسلام ويصدق قول احد رجالها بان حلفاء سياسة انكلترا وأنصارها على ضياع السلطنة العثمانية هم رجال هذه الدولة وعمال هذه الامة »

ونحن لانيأس من الاصلاح يأس خصومنا بشرط ان نبدأ بهِ وان لا يكون كما نراه من تعيين بعض العمال في الولايات والالوية او من اعمال هؤلاء العمال ثم كيف تقوم قائمة سياستنا واكثر سفرائنا لاإرادة لهم ولا وطنية عندهم فهم من زملائهم ووزراء الممالك الثانية محتقرون غير محترمين

على انهُ مادامت الامة حية فالاهلية موجودة على شرط ان لانستعمل ابناء الاستانة على الولايات بل ان ننتخب الموظفين من الذين لم يتطرق اليهم فساد المبادىء ولم يتلوثوا بادران الاغراض والغايات وهؤلاء كثير عديدهم ولا يجب ان نميز بين عنصر وآخر ومذهب وثانٍ بل فلتكن المزية هي الاهلية المؤيدة بالاخلاص فاننا نرى وكثيرون من المسلمين يرون رأينا هذا ان المرحوم رستم باشا سفير الدولة السابق في لندن يساوي باهليته وباخلاصه عشرات من ولاة سورية وغيرها

ولسنا نرى مايراه البعض من ان حياة السلطنة بالدستور بل نرى ان بهِ خرابها وضياعها اذا كان دعاة ذلك الدستور امثال غلمان تركيا الفتاة بل الذي نسألهُ كما سألهُ مكاتبونا السوريون الافاضل مراراً هو توزيع السلطة وذلك

بأن لايضطر ابن العراق لاقامة دعواه الى ان يتجشم مشاق الاسفار ويتحمل النفقات ليذهب الى الاستانة ولا ان تسند مهام حوران مثلا الى ابناء دار السعادة وهم يجهلون احوال البلاد وعاداتها ولغتها بل ان نحسن انتخاب الوالي ونفرض على مجلس الادارة ان يراقبه ويكون هو والمجلس المسأولين عن انفاذ القانون وكيفية انتخاب العمال وليس المقام فسيحاً فأتوسع في الكلام عن هذا الموضوع بل ارجو من مكاتب الاهرام اللبناني الفاضل ان يبدي رأيه فيه كما تعودناه من مبادئه الصادقة وآرائه الصائبة

وليعلم العثمانيون قاطبة انه مهما عظمت مصائبنا فأقل الاصلاح يعيضنا اضعاف ماخسرناه ونحول به دون اغراض خصومنا وأعدائنا في الخارج وفي الداخل ولا يجب البتة ان نيأس مادامت لنا ارادة وما دمنا نهتم في مستقبلنا فان الانكسار في الحروب لايثين المنكسر ابداً أولم نرَ روسيا بعد ان كانت صاحبة القول الفصل في اوروبا في ايام القيصرين اسكندر ونقولا من سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٥٤ سقطت سقوطاً ادى اوروبا انها حية لان روسيا لم تهتم بعد حرب القريم الا في أمور داخليتها ولم تأت سنة ٧٠ حتى نهضت نهضة الاسد الضرغام واضطرت فرنسا وانكلترا خصميها في سنة ١٨٥٤ الى ان ترضيا مع اوروبا بمطالبها اي بمحو شروط عهدة ٥٦ الحائلة دون مرور سفنها في البحر الاسود وقد تم ذلك في عاصمة انكلترا ثم تابعت الدولة الروسية الجري على خطتها حتى استعادت مقامها الذي كان لها قبل سنة ١٨٥٤ وهي اليوم الدولة التي لا تحصد شوكتها النافذة ولا تقلم اظفارها الخادشة

وقصارى القول ان المجتهد الساهر على مصلحته لاييأس ولا يقنط وان

الحروب العظيمة لاتقتل الشعب ولا تميت الامة الحية بل قد قال الاميرال الانكليزي الذي انتصر في معركة وترلو « ابتعدوا عن الحروب الصغيرة » وهو الرجل الذي لم يكن يخاف الحروب العظيمة فاننا نخاف ان هذه الحروب الصغيرة كحوادث كريت وغيرها تقتلنا وتميتنا بينا حروبنا المتعددة مع روسيا زادتنا مجداً وعظمة

سنة ١٨٩٧

وكتب في ١٢ اكتوبر من عين صوفر بلبنان

ما أدركت قطُّ وجوب اصلاح شؤون حكامنا وبلادنا مثل اليوم بعد وقوفي على اشياء هذه البلاد وأشخاصها ولو انني كثيراً ما طالبت بذلك الاصلاح بلجاجة وإلحاح . غير انهُ لم يكن ليخطر ببالي ابداً اننا في مثل هذا الاحتياج اليه بعد معرفتنا اننا قريبون من اوروبا يهددنا خصومنا فيها ايما تهديد وانني لأراه أمراً محزناً ان اسأل ارباب الامر ان يتشبهوا بمثل دولة اليابان البعيدة عنا ونحن لاهون متغافلون . ولم أرَ فئة احوج الى الاصلاح من فئة الموظفين الموكول اليهم امر حماية الارزاق والاعراض والاعناق . وأغرب من ذلك كله اعتقاد بعض المغرورين بمناصبهم ان الحياة السياسية القومية يصح بقاؤها مع هذه الحال ومع ما نحن عليه نشجع المرتشي ونحمي الظالم ونحن للحائدين عن جادة الصدق انصار وأشياع

نعم لا أنكر ان لبنان لا يخلو من القصور والاهمال ولكن قد يعجب القراء اذا قلنا لهم انه مع افتقارهِ الى متممات الاصلاح ومع فقر أهلهِ وبلاده لاحسن جداً من الولايات حتى صدق القائلون بان الفرق بينه وبينها كالفرق بينه وبين اوروبا

على انه اذا كان في ذلك دليل على ان الشرقي قادر على حكم بلاده وانفاذ قانونهِ غير انهُ يحزننا ان يكون ذلك مخصوصاً بلبنان لا يتناول انحاء السلطنة العثمانية مع خصب تربتها وغنى بلادها واقدام اهلها ولذلك اقول مع العثمانيين عموماً والمسلمين منهم خصوصاً ان تعميم الاصلاح امر واجب وضربة لازب حفظاً لحقوق البلاد المقدسة وصوناً لمصالحها القومية والسياسية

ونحن اذا شكونا من اكثر الموظفين فاننا نسال قبل كل امر سنّ قانون عادل لهم يضمن حقوقهم وأن تزاد رواتبهم الزيادة الكافلة بحوائج معيشتهم حتى لا يبقى لهم عذر اذا ظلموا وتلوثوا باوضار الرشوة بل حوكموا حينئذ ونالوا قصاص ما جنت ايديهم والا فكيف يعدل او يعتدل القاضي وراتبه لا يكفي لنفقة خادم وحاجاته تستلزم اضعاف ذلك الراتب هذا اذا لم يكن سكيراً او مولعاً بالقمار او منغمساً في رذائل اخرى

ويسوءني ان اقول ان عدد هؤلاء كثير ولذلك عمّ الفساد وكان الضرر ادبياً ومادياً وساءت الحال مصيراً

ثم كيف يصح ان نعتذر بقولنا ان خصومنا سواء الانكليز او غيرهم يحولون دون اصلاحنا لانهم يسالون تحسين احوال هذه الولاية او تلك الايالة لان عدد المسيحيين كثير فيها ونحن نرى المسلمين اشد افتقاراً الى الاصلاحات والتحسينات ام كيف نجهل ونتجاهل ان اصلاح ولاية دمشق

وغيرها يفيد المسلم اكثر مما ينفع المسيحي بكثير لان هذا لايملك شيئاً فيها بل الارض وما عليها للمسلمين في معظم ارجاء تلك الولاية

نعم اننا لانجهل نية الخصوم فينا ولكن هل نجهل ان الرعية شاعرة كل الشعور بوجوب ذلك الاصلاح بل ماذا يكون عذرنا اذا طالبتنا بهِ كما طالبته اوروبا هل نلومها حينئذ على هذه المطالبة ام هل نقدر ان نعتذر بقولنا ان للأمة غايات ضد مصالحها اشبه بغاية خصومنا الانكليز وغيرهم ألا قل ان لاعذر لنا بتةً واننا باهمالنا وتهاوننا ألد عداءً من اعدائنا وخصومنا واننا عاملون على ضياع وطننا بأيدينا

ويفاخر العثماني بانهُ اقل الناس رسوماً ومكوساً وهذه حقيقة لامراء فيها ولكنه يدفع اضعافها من طريق الرشوة والمغارم مما يفوق طاقته ويتعدى قدرته ولهذا زاد الفقر وعمّ البلاء وأخذ الناس يهاجرون مئات وألوفاً يائسين قانطين ولو لم يفلحوا في اغترابهم وأسفارهم وعليهِ فالخزانة لاتستفيد من تلك المغارم درهماً والمستفيد منها نفر نصفهم من الموظفين والنصف الثاني من الملتزمين

وفوق ذلك فان رجال هذين الفريقين المنتفعين هم الذين اذا حادثتهم شكوا سوء الحال وهم الذين يوصلون اخبار المظالم والمغارم الى خصومنا وهم هم الذين اضروا بالبلاد في الداخل والخارج والبلاد في قبضة ايديهم وضحية اغراضهم وغاياتهم

لذلك قلّ المحترف او الفلاح او التاجر او المسكين الذي اذا سالته عن موظف قال انهُ مستقيم وأحسن كلام سمعته في حق موظف قولهم انهُ يرتشي ولكنه حازم ولا يرتشي ليضر بآخر بل لاعطاء كل ذي حق حقه

وهذه الحال غير خافية عن وكلاء الدول وكتاب جرائد اوروبا والاجانب المقيمين في داخلية البلاد والسياح الذين يجوسون خلال الديار ولكن قد يفيد اخفاؤها اكثرهم اما لغايات سياسية او شخصية واذا نطق بها واحد اسكته سكوت عشرين والضرر محصور بنا والوبال واقع على رؤوسنا ولله الامر،

ونحن نعترف انهُ يستحيل تعميم الاصلاح دفعة واحدة فالطفرة في الطبيعة محال ولكن يشترط علينا ان نبدأ بهِ فعلاً لا قولاً وانفاذاً لا كتابة فالقوانين متوفرة لدينا والرجال موجودون فلنوحد الاولى لكثرتها ولمناقضة بعضها البعض ولنحسن انتقاء الموظفين ولنقم محكمة عالية لمقاصة المخالفين منهم وليقف الوالي والمتصرف باسفارهِ في ولايتهِ ومتصرفيتهِ على احوال كل قرية ودسكرة وليدرس احوالها الدرس المدقق وليحادث اهلها بلغتهم ولتطلق للجرائد حرية الانتقاد على المأمورين فان الامة العثمانية التي يستطيع رجالها ان يباروا رجال اوروبا بالاقدام والاقتصاد (كما نراه في بيروت ودمشق حيث لايجد الاوروبي ما يرتزق منه لانحصار الاشغال التجارية في ايدي ابناء البلاد) يمكنهم ايضاً متى وثقوا من عدالة حكامهم ان يجاروا الاوروبي في عمله وأدبه وفنون حضارته وعمرانه فتتوفر معدات النجاح عندنا ونأمن على مستقبلنا ويكون لنا بهذا الحليف الصادق اي الاصلاح أعظم ضمان لحقوقنا السياسية ومصالحنا القومية

وكتب في ١٨ اكتوبر من القدس الشريف

لم اقصد بزيارة هذه المدينة اطلاع حضرات القراء على تاريخها فهو اشهر من نارٍ على علم . ولا تعريفهم آثارها ومعالمها التي سال بوصفها كل قرطاس وقلم . وكفى وصفاً لها انها لدى جميع الملل والنحل حرم يحج اليهِ المسلمون والمسيحيون والاسرائيليون من جميع الامصار والبلدان ولذلك تهافت رؤساء الاديان المسيحية على امتلاك اراضيه ورحابهِ فاصبحت لاترى مكاناً ينتسب الى السيد المسيح او الرسل الكرام والاولياء العظام الا وقد بنيت فيه الكنائس العظيمة وأقيمت عليه المقامات الرحيبة هذا للاتين وذلك للأرثوذكس والآخر للارمن وهكذا قد تسابق المحسنون وأرباب البر في العطاء تسابق ارباب الدين في الاخذ فبعضهم يهب للمعابد وآخر للمدارس والمستشفيات وترى القدس الشريف حافلاً بالبعيد والقريب والوطني والغريب . واعظم مقام فيه للمسيحيين كنيسة القيامة حيث قبر السيد المسيح وعود الصليب

وقد تقاسمت المذاهب المسيحية هذه الكنيسة واختصت باكثرها الطائفتان اللاتينية والارثوذكسية ولا اعدد هنا ما يدعو الى الخلاف والشقاق بين ارباب هذه المقامات المقدسة فذلك لا يجهله احد كما لا يجهل ان صلة التوفيق بين هذه الطوائف كلها عدالة الحكومة العثمانية المحافظة على تلك الحقوق المشتركة بما فيه تاييد الامن وتوفير الراحة للقصاد والزوار والحجاج والسياح وهي مأثرة جليلة للحكومة العثمانية والسلطنة السنية

وان ما يجمعه رؤساء الديانات المسيحية ويتبرع به الزوار في الاراضي المقدسة لمبالغ وافرة يستطيع اولئك الذين يستولون عليها ان يأتوا بمشروعات

افيد جداً من المدارس الابتدائية الحاضرة وذلك بان تقام مدارس كلية وصناعية يدرس فيها ابناء فلسطين وسورية لا ان تنحصر المناقشة المذهبية في زيادة عدد الكنائس والاكثار من بناء الصوامع والاديرة حتى لا تخطو خطوة الا وترى معبداً او ديراً او مقاماً ولا عذر بتة لحضرات الرؤساء المشار اليهم في ان لا يقوموا بتلك المشروعات النافعة بعد امتزاجهم واختلاطهم بالالوف من الزوار الاجانب الذين لم يمنعهم علمهم من زيادة التمسك بدينهم

وقد هاجر الى هذه المدينة عدد عظيم من الاسرائيليين فأصبح السواد الاعظم من سكانها منهم وهم لا ينقصون عن الخمسة والعشرين الى الثلاثين الف نفس في حين ان عدد المسلمين والمسيحيين وسائر الطوائف لا يزيد على العشرين الف نفس

ولو لم تصدر الارادة السنية بمنع تملك الاسرائيليين لاشتروا اكثر اراضي القدس وفلسطين لانهم قوم لديهم المال متوفر وكل منهم يفضل السكنى في ارض الميعاد على كل ارض سواها . اما ذلك المنع فقد حدث على اثر تشكي الاهلين والاسباب اقتصادية سياسية كما لا يخفى

ومع كل ما هو مشتد في القدس من التنافس بين المذاهب المسيحية لاختلاف المذاهب فيها اختلافاً كان له في العالم السياسي اهمية عظيمة مما خول فرنسا حماية الكاثوليك في الشرق كما خول روسيا حماية المذهب الارثوذكسي فان الخلاف والتنافس منحصران بين خدمة الدين فقط اما اهل الطوائف فعلى غاية الامتزاج مما يدلنا على ان فلسطين غير سوريا في هذه المبادىء الحسنة العثمانية فلا تكون فيها الا جامعة واحدة سياسية عثمانية

ومن معالم القدس الشهيرة الحرم الاقصى وهو ثالث الحرمين والحق

يقال انه من ابدع آثار هذه المدينة واجملها واتمها نظاماً ولم ار مثل هذا الجامع في اتساعه وجمال صنعه وبداعة نقشه وهندسته فاذا وقف ابن البلاد امامه تذكر مفاخر الاجداد ومآثر السلف الصالح في مظاهرهم العلمية والمدنية والخلاصة انه جامع لا تذكر في جنبه جوامع مصر وسوريا وغيرها ولكن حبذا لو التفتت اليه وزارة الاوقاف فأمرت بتخصيص النفقات اللازمة لفرشه وتنظيمه من الداخل اذ لا يدخل زائر او سائح هذه المدينة دون ان يزور هذا المقام الشريف

والغريب مع ذلك ان عدد من يحج اليه من المسلمين قليل جداً مع انه قائم في مكان متوسط من بلاد الدولة العلية وجميع البلاد الاسلامية فضلاً عن ازدياد التسهيلات في ايامنا هذه ولا سيما بعد مد الخط الحديدي بين يافا والقدس فقد نفع الزوار واهل البلاد نفعاً عظيماً خصوصاً وأن رؤساء ادارته ومديرها الحالي امناء في خدمتهم موصوفون بحسن معاملة الركاب ومجاملتهم والتساهل مع اهالي البلاد والعناية بالفقراء منهم وانتقاء جميع الموظفين من ابناء هذه الناحية وهي شركة فرنساوية ليس فيها الا فرنسويان اثنان المدير ووكيله واما الباقون فمن ابناء البلاد ولا احب ان اتعدى الكلام عن المسجد الاقصى قبل ان اسدي واجب الشكر والثناء لحضرة مفتي القدس العلامة محمد طاهر افندي لما بذل من الهمة في خدمة هذا المسجد والاوقاف عامة ايام كان مديراً لها وللمعارف

وفي هذا المقام نوجه الانظار الى انشاء مدرسة اسلامية في الجامع المذكور اشبه بالجامع الازهر في القاهرة اذ بهذه المدرسة يسترد هذا المقام

بعض مجده الاول ويصبح مجمعاً للدين والعلم وليس ذلك بعزيز على مكارم صاحب الخلافة العظمى اعزه الله

وقد زرت بيت لحم وغيرها من القرى المشهورة وسرني ما رأيته فيها من انتظام طرق العجلات مما تضارع به لبنان في قرب الابعاد وسهولة المواصلات ولم ار اسهل من طرقها وانظم في ولايات سورية مما يشهد بفضل الحكام والاهلين ولكن عسى ان لا يكون ذلك بقصد استزادة عدد السياح والزوار فقط بل بغية الاصلاح ايضاً

اما الامن فضارب اطنابه في جميع جهات فلسطين حتى يندر ان يسمع بسارق او قاتل وهو دليل على ان الاهلين ميالون الى احترام السلطة واستشعار هيبة الاحكام ولهذا كان الزائر لهذه المتصرفية يحسب ان اهلها من مذهب واحد وعنصر واحد مع انها مجتمع المنافسات المذهبية والمشاحنات الدينية فلسطين والقدس في مقدمتها مختصة بهذه الصفة اللازمة لها فلا خلاف مذهبي او جنسي بين سكانها بل الجميع عثمانيون يدعون للسلطان بالعز والتأييد ويتمتعون بعدالة القانون وهم ممتازون بهذه المبادي الشريفة عن كل بلاد عثمانية واذا كانت الرشوة فاشية بين بعض صغار الموظفين فان هنالك كثيرين يحسبون مثال النزاهة والاستقامة وفي طليعتهم سعادة المتصرف النزيه العادل الذي يحبه الجميع ويلهج بمدحه كل لسان

وان الالفة السائدة بين هذه الاقوام العديدة والاجناس المختلفة لقدوة حسنة ومثالا لسائر العثمانيين فعسى ان يقتدوا بها في اعمالهم وسائر شؤونهم المعاشية والمعادية لان البلاد واحدة والقوانين واحدة وحسن انتقاء الرؤساء ساعد على تعزيز هذه المبادىء مما يدلنا على ان الشرق ليس

يفتقر الى قوانين جديدة بل الى حسن انتقاء الرجال الامناء وانتخاب العمال الصادقين وهم كثيرون مع توزيع السلطة على المستحقين وذوي الكفاءة والقاء المسؤولية على عواتقهم حتى اذا احسنوا كوفئوا بالحسنى واذا اساؤوا عوقبوا . وجوزوا بما يستحقون وضمان مستقبل الموظف وتأمينه على راتبه ورتبته فلا يعزل بسبب وشاية ولا يوقف فدى لغرض وغاية وأول مايجب اصلاحه مسألة الاعشار والمحاكم الحقوقية ثم يتدرج الاصلاح الى غير ذلك من الشؤون والاحوال

هذا وقد رأيت من اهتمام حضرات الافاضل عزتلو الحاج سليم افندي الحسيني زاده رئيس البلدية وفضيلة نائب الشرع الشريف رافعي زاده وعزتلو اسمعيل بك الحسيني زاده مدير المعارف وعزتلو مصباح افندي محرم رئيس محكمة الجزاء وبشارة افندي حبيب ترجمان المتصرفية في انفاذ القوانين بالعدل والانصاف واصلاح شؤون البلدة ما ينطبق على خطة سعادة المتصرف واكرم بها خطة شريفة قويمة ادت الى تأليف قلوب الاهلين وتوثيق صلات الحب والوداد بينهم وحملهم على احترام حقوق بعضهم البعض وان بلدة فيها مثل الاسرة الحسينية الشريفة التي عميدها رجل فاضل نبيه مثل عزتلو سليم افندي رئيس بلدية القدس والمشهورة باخلاصها وولائها الصادق لعرش الخلافة الحميدية والمعروفة بوطنيتها النزيهة لابدع اذا تأيدت فيها الجامعة العثمانية وتصافت القلوب وتحادثت الارواح والالباب وامتزجت الاهالي بعضها ببعض مثل هذا الامتزاج الذي اعتده من اعظم اسباب الاصلاح وأعون الوسائل على نهضة الامة وترقيتها ورتوعها في بحابح الغبطة والنعيم

واني أودع هذه المدينة الشريفة وفي النية العود اليها كلما سنحت فرص

الزمان شاكراً مالقيته فيها من مكارم اخلاق حكامها وأعيانها وعلمائها حافظاً لحضراتهم في طي الفؤاد ذكراً جميلا مضمخاً بعبير الشكر وطيب الثناء

وكتب في ٤ دسمبر بحثاً في الاسلام

قال لي احد افاضل المسلمين ترانا اليوم على عكس ماكان عليه اجدادنا في صدر الاسلام وقد دوخوا اكثر بلاد الدنيا ونشروا رايتهم في كل صقع ولم تفتهم بلاد او جزيرة بينا ترانا اليوم مستسلمين للحوادث تقضي لبانتها منا ويحكمنا الغريب ونحن صاغرون ولا يخفى ان المسلم في اية بلاد وأرض على مبادىء واحدة مع اخوانه المسلمين وتلك قوة سياسية قومية وقل ايضاً مذهبية لاتعدلها قوة غيرها وهي مسألة طالما سهرتُ الليالي في درسها لاستكشاف حقائقها بمعرفة أسبابها وعللها ولعلي متى توصلت الى ذلك اكتب الابحاث الطويلة في هذا الموضوع المهم ويكون للافاضل قراء جريدتكم الوطنية ميدان للمسابقة فيه ولست اخفي عنكم اني ادرس كتابات اعدائنا قبل اصدقائنا لان اولئك وان تحاملوا علينا قد ندرك بواسطتهم مواضع الخلل فنصلحه لاننا نحن والصديق لانعرف عن انفسنا مايعرفه اعداؤنا من مواضع الضعف والخلل فينا

تلك خلاصة حديث هذا الوطني الفاضل وهو في مقدمة الذين لايختلف اثنان في وطنيتهم ومعارفهم الاقتصادية والسياسية ولهذا لانعدم من اصحاب الاقلام رأيهم في هذه الابحاث المهمة التي لاتنحصر فائدتها في المسلم فقط

بل تتناول كل الشعوب المشرقية التي تحكمها اوروبا مباشرة او التي لها عليها سيطرة ادبية

اما نحن فانا سردنا لحضرة الفاضل ما يذكره بعض الكتاب الاجانب علة لهذا الامر اذ يقولون ان تقدم المسلمين في صدر الاسلام اولاً وفي صدر خلافة بني عثمان ثانياً لم يكن الا لان المسلمين كانوا في ذلك الحين اعظم مدنية من الشعوب الاخرى ولانهم في ذلك الحين ايضاً صرفوا اهتمامهم الى الفتوحات مؤيدين اعمالهم بالعدالة واحترام الحقوق فتمكنوا من الفوز فانتشرت راية الهلال في كل بلاد ولكن هؤلاء الظافرين المنتصرين مالبثوا ان استسلموا الى ما وصلوا اليه فرضوا به وأقاموا على حالتهم تلك فأغفلوا اكثر المبادىء الحسنة وتطبعوا بطباع المغلوبين في اكثر الاحيان وتغلبت تقاليد المغلوبين عليهم فلم يستفيدوا حيث ملكوا الا السلطة الدينية غالباً والسياسية احياناً وحلوا محل أولئك في الاخلاق والكسل والاهمال والاستسلام

وعلى هذا القياس يقول هؤلاء الكتاب ان الاسلام ضد كل صلاح وان المسلمين غير قابلين للاصلاحات المطلوبة . نعم ان نهضة اوروبا مدنية وعلماً واقتصاداً قد ملكتها رقاب شعوب الارض طراً مباشرة بامتلاك اكثر الاراضي او مادياً بدفع الرسوم التجارية حتى انحصرت الارباح في شعوب هذه القارة ليومنا هذا وكان بدء طالع نجاح اوروبا بفصلها السلطة السياسية عن الدينية جرياً على المبادىء العصرية

ولما لم ينتبه امير شرقي لاصلاح شؤونه والتمثل بما تأتيه اوروبا لم يكن لنا ان نقضي بعدم قابلية المسلمين او ان الاسلام عدو الاصلاحات العصرية فان اتخاذ اكثر عادات اوروبا في بعض الهيئة الاجتماعية الشرقية واستخدام

بعض قوانينها في الهيئة السياسية لبرهاناً سديداً على قابليتنا للاصلاحات

ولهذا وجب ان تكون ضالتنا في اعمالنا كلها نشر المعارف والفنون الاقتصادية بدرس تواريخ اجدادنا والوقوف على الاحوال المصرية واستخدام المفيدة لنا في سبيل مصلحتنا وأن لانستسلم في اعمالنا لليأس والقنوط فنموت احياء وغيرنا يرزقون

ولولا قيام بعض الآحاد في فرنسا وغيرها من دول اوروبا أكانت تلك الامم قد تقدمت وهل منع استبداد ملوكها من اطراد زعماء تلك المبادىء خطتهم الشريفة ومالنا ولاوروبا فلنأخذ مثلا لنا اليونانية التي استمرت السنين الطوال تنازع حكامها في استقلالها فكم مات وقتل من بنيها

ومع ذلك رأيناهم مطردين خطتهم طلباً للاستقلال الذي لا شك في انهم لم ينالوه الا بمساعدة اوروبا ولكن لو لم تجد اوروبا في ذلك الشعب قابلية الاستقلال لما جهرت بمساعدتها اياه بل لو لم يطلبه اليوناني لما ناله بعد ان فقده قروناً وهكذا القول عن شعوب البلقان اجمع

اما نحن فاننا نسأل كثيراً ولا نعمل شيئاً فاذا كتب احدنا عارضه ألوف واذا صبر يوماً يئس عاماً حتى رأينا ان اقرب الدول مساعدة لنا ولسنا نقول حباً بنا بل لامتزاج مصلحتها بمصلحتنا قد يئست منا

واني اذكر قول سياسي من اعاظم ساسة عصرنا قاله لي في حديث جرى لي معه على الاحوال الشرقية وهو بحروفه

« ان الملايين من المسلمين المنتشرين على سطح الكرة الارضية لاقوة تذكر لهم وكنا لا نشعر بوجودهم لولا الخلافة العثمانية مما يدلك على ان القوة ليست في كثرة العدد بل هي في ان يشعر الشعب انه موجود

ويعمل على وجوده وهل انتفعت سلطنتكم من مسلمي الهند مع كثرة عددهم فيها واني لا اسأل اذا كانت قد انتفعت بارسال الهنود عساكر او ذخائر لها بل باجبار انكلترا ادبياً على احترام حقوق دولتكم العلية »

فاذا اردنا ان نبحث في كلام هذا السياسي عرفنا يأسه منا لضعفنا واذا نظرنا في اقوال كتاب اوروبا عرفنا ان تاخرنا مسبب عن اننا لم نعمل عمل الدول المتمدنة بالتمثل بها في احوالها الخارجية والداخلية

نعم ان لنا في جيشنا العثماني درعاً منيعة ضد خصومنا الا ان ذلك وحده غير كاف مادام المال يعوزنا والديون تكتنفنا ولسنا نجد الى المال سبيلا الا اذا اصلحنا شؤوننا الداخلية وهذا لايتم الا اذا سرنا على المبادىء العصرية وهو سهل علينا لاننا نعتقد ان الاسلام من اعظم دعائم الاصلاحات وان المسلمين يميلون اليها ميل غيرهم من الشعوب

هذا هو رأينا ولسنا نضن بنشر مايكتبه حضرات الافاضل في هذا الموضوع وما غايتنا الا خدمة الامة والوطن والله ولي التوفيق

سنة ١٨٩٨

كتب في ٢٧ مارس بحثاً تاريخياً موجزاً في السياسة الاوروبية

لولا حوادث القريم لما نشبت حربا ٦٦ و٧٠ ولولا فقد الموازنة الاوروبية بتغلب المانيا في الحربين المذكورتين لما نشبت الحرب الاخيرة بين العثمانية وروسيا وطرأت الحوادث التي تلتها في جميع القارات

ولسنا نلوم دولة دون اخرى على الحوادث السابقة والحروب المذكورة لانها لم تكن الا نتائج فساد سياسة بعض الافراد واطماع بعض الامراء فانكلترا لم تقصد باثارة الحرب بين العثمانية وروسيا الا منع اتحاد فرنسا معها واضعاف العثمانية وروسيا معاً

اما نابوليون الثالث فوافق على تلك الحرب مغروراً من الانكليز سعياً وراء الوحدة الايطالية وانتقاماً عن مبادئه البولونية فكان ماكان من حياد روسيا في عامي ٦٦ و٧٠ ومن الحروب بعد ذلك التاريخ في جهات آسيا واوروبا الى ان انتقمت من خصومها ولو انها نقدت عن ذلك ثمناً غالياً وكل من الدول الغالبة والمغلوبة نالت نصيبها من المصائب والكوارث والمشاكل سواء في سياستها العامة او في سياستها الخاصة الا انه لم يكن بدّ من النتيجة الحالية وهي قيام التحالفين الثلاثي والثنائي لما هنالك من شدة المناظرة بين الدول المذكورة فضلا عن ان شعوب اوروبا اليوم اميل الى السلم منها الى الحرب ولذا كان التحالفان المذكوران ضروريين للموازنة السياسية توصلا لحل المشاكل التي لابد من حدوثها لما هنالك من المصالح المختلفة المتباينة للدول المذكورة

وقد كان اهم الحوادث في الشرقين الادنى والاقصى وسنفرد للاول غداً مقالة خاصة اما مقالة اليوم فموضوعها الشرق الاقصى لانه مع حوادثه لايزال شاغلا اوروبا في مناظرتها ومزاحمتها ولانه سيكون في المستقبل القطب الذي تدور عليه السياسة الدولية ما دامت اوروبا مسيرة في اشغالها على المبادىء الاقتصادية يزاحم بعضها بعضاً وتشاطر الواحدة الأخرى حتى حمل ذلك احد السياسيين على القول انه قد كانت مصالح الزراع والمحترف

والمالي تحول دون انتشاب القتال واعلان الحروب رغماً عن اميال الامراء واطماع الملوك فصرنا نخاف ان تكون اغراض اصحاب هذه المصالح داعية الى الحروب وهم ذوو الرأي العام في بلادهم وأصحاب الكلمة النافذة والمشورة المسموعة لدى ملوكهم وحكامهم الا ان الخوف من مصائب الحرب لايزال الضمان الوحيد لتأييد السلم وحفظ راحة العالم

ولم تصبح سياسة الاستعمار وجهة اوروبا عموماً الا بعد حرب السبعين لان بسمرك رأى ان لا ثبات لوحدته الجرمانية مادامت فرنسا وروسيا تهددان تخوم بلاده وانه مهما حال دون اتفاق الدولتين وتحالفهما فالحوادث ستحقق هذا الامر بالرغم عنه وهكذا حصل وأيدته المانيا في مسألة اليابان مما اضر جداً بنفوذ انكلترا وسياستها الاستعمارية

اما انكلترا فأمست منفردة ولكن في مناظرتها لاوروبا بعد ان كانت منفردة بفوائد السياسة الاستعمارية متمتعة باستنزاف ثروة شعوب المشارق والمغارب تحمل الى هؤلاء التجارة الشرقية وتستوفي من الشرقيين ارباح الحاصلات والواردات فأمست هذه السياسة ضالة اوروبا اليوم بعد ان كانت ضالة انكلترا في السابق وذلك ان مصالحها التجارية رائد اعمالها الخارجية والاستعمارية والداخلية ايضاً وحات أهمية هذه المسألة محل كل اهمية سابقة حزبية او غيرها لان روح العمل قائمة في الثروة وهذه لا تكون الا بالاستعمار

وانكلترا لم تكن فقط مكاسة الشرق بل مكاسة اوروبا ايضاً اذ كانت تتقاضى المكوس والرسوم من كل شعب ومملكة ولم تستتمل اوروبا اولاً حتى ثارت عاطفة الاستقلال في نفس مستعمرات انكلترا فاستقلت امريكا استقلالا تاماً ثم استقلت اوستراليا وغيرها استقلالا اقتصادياً وادارياً وأخيراً ناظرتها

اليابان وزاحمتها ثم قامت اوروبا عليها سياسياً واقتصادياً فانفردت باعتزالها بعد ان عممت بأثرتها مبادئها الاستعمارية والاقتصادية

ولا يهمنا اليوم سواء انجلت اليابان عن الاراضي التي تحتلها في الصين او تقاسمت دول اوروبا منافع تجارة تلك البلاد في وارداتها وحاصلاتها لاعتقادنا ان مانالته المانيا اولاً وروسيا اخيراً وما ستناله فرنسا قريباً دون شك متفق عليه تماماً بين الدول الثلاث سواء صدقت عليه انكلترا او انكرته فانهُ مما لاشك فيه ايضاً انها سترضى به رضاها بغيره من المسائل الثانية وهي لم تعارض فيه لمنع حصولهِ بل للاستعاضة ببعض الفائدة وعملا بقولهم بعض الشر اهون من بعض

ولا نعلم ان كان اتفاق المانيا وفرنسا وروسيا سيضطر اليابان الى الجلاء عن مرافئ الصين ام تهتم الدول المذكورة باستمالة هذا الشعب اليها فلا يتحد مع انكلترا ضدها اذا قاومتها الدول الثلاث واذا كان الاول كان للصينيين انفسهم في خطة اليابان مايضمن لهم مستقبلاً حسناً اكثر مما لو اتحدت انكلترا مع اليابان لان دخول روسيا في الصين وتمكنها من اراضيها مع مالديها من القوة العظيمة في البر قد يضر بالصين وباليابان اذا مالتا الى انكلترا دون الدول الثلاث

ولكن لابدع في ان يكون شأن اليابان في الشرق الاقصى شأن انكلترا في الشرق الادنى اي استخدام خلاف الدول في سبيل مصالحها لان لها بقربها من الصين مزية مهمة على الدول الثانية ولولا روسيا لما كانت اليابان تخاف اتفاق اوروبا عليها في شرقها . وقد لا يبعد ان يكون عدم ثقتها بسياسة بريطانيا وكون هذه الدولة رقيبة عليها ومزاحمة لها في الاعمال

الاقتصادية والسياسية حاملين لها على تفضيل الاتفاق مع الدول الثلاث على اتفاقها مع انكلترا والحياد لان مصلحة اليابانيين هي ان يكونوا هم اصحاب السيطرة الاولى في الشرق الاقصى فاذا رأوا من اخوانهم الصينيين انهم سائرون في طريق الاصلاح عضدوهم ليكونوا واحداً ضد الغرباء والاجانب ولكن اذا ثبت لهم ان الصينيين خاسرون لامحالة اتفق اليابانيون والداملون على تمزيق الشعب الصيني ومقاسمة اراضيه وأملاكه ولكن مهما تكن الفائدة من الخطة الثانية فهي موقتة قد تكون مقدمة ضياع الياباني بينا في نجاح الاولى تغلب الشرقي وظهور العصر الآتي بمظهر جديد قد تترتب عليه انقلابات عظيمة سياسية واقتصادية وقومية والله اعلم

وكتب في ٢٩ مارس اتماماً للبحث السابق

اوردنا في مقالة امس نتائج حربي ٦٦ و٧٠ في الشرق الاقصى ونحن في مقالة اليوم باحثون عن تاثيرات فقدان تلك الموازنة في اوروبا عموماً والشرق الاقصى خصوصاً فيعلم القراء ان غلبة المانيا اضرت بنا مثل اضرار انكلترا في الزمن السابق او اكثر لان انكلترا ارادت ان تحول بنا دون تقدم الروس وان تضعف قوانا في وقت معاً

اما المانيا فحلت محل انكلترا سياسياً وتجاوزتها اقتصادياً اذ وضعت ايديها في كل جهة من داخليتنا وهي في الوقت نفسه لا تعارض روسيا بل تجاملها وتحاسنها

والذي لاخلاف فيه ان فاتحة نتائج حرب السبعين كانت محاربتنا لروسيا وبعد ان كنا واياها وجهاً بازاء وجه وأوستريا بين بين صرنا اليوم بازاء روسيا مباشرة تحف بنا شعوب البلقان من كل جهة وأوستريا ابعد عنا من ذي قبل لانها رأت ان مقاومة روسيا امر مستحيل فسعت في الماضي بواسطة المانيا ومباشرة الآن الى التوفيق بين مصالح الامتين وكانت باكورة خسائرنا من تنوع هذه السياسة فقد البوسنة والهرسك بغير حرب وقتال ولو اردنا ان نعدد المسائل الثانية لضاق بنا المقام وهي حوادث واقعة حسية لايختلف عثمانيان في حقائقها والله اعلم هل كانت المانيا تشير بمحاربة اليونان لولا ديون رعاياها ام هل كانت تشير الدول الباقية لو عارضتنا وضغطت علينا إلا بانفاذ مطالبها ورغائبها ولهذا قلنا ان من اضر الامور بنا ان نستخدم تباين مصالح الدول وخلافهن في سبيل مصالحنا القومية السياسية فانهُ قد ثبت اليوم ان تلك الحرب الاخيرة قد دلت العالم بأسره مع عدم احتياج جيشنا الى أدلة جديدة على ان الجيش العثماني من اشجع الجيوش وأبسلها ومع ذلك ساء انتصارنا شعوباً ونغص أمماً ولولا مدنية عصرنا الحالي لفاز المتعصبون من الانكليز بأمنيتهم ضدنا واتفقت اكثر الدول علينا وأشاروا باعلان حروب كحروب القرون الوسطى الدينية

ولا ننكر انهُ يجب علينا ان نستفيد من خلاف الدول ولكن على شرط ان نتبادل مع بعضها الفائدة الاقتصادية والسياسية وذلك غير مستحيل علينا اذا عرفنا ان نتخير أخاص هذه الدول ولاء لنا فاذا قيل ان المانيا اخلصهن قلنا ولماذا لاتجهر بمساعدتنا في مسألة مصر ولا تعمد الى تأييد مطالب السلطنة بشأنها مع مانرى من شدة منافستها لانكلترا ومقاومتها لاعمال

هذه الدولة الاقتصادية ولكن مصلحة المانيا قائمة بأن لا تحل مشكلة مصر حرصاً على بقاء النفار مستحكماً بين فرنسا وانكلترا وبين هذه والعثمانية جرياً على مبادئ سياسة بسمرك نابغة المانيا السياسي الذي ما اختلق تلك المشكلة الا ليأمن في اوروبا كل حادث يمس بالوحدة الالمانية ونفوذ الدولة الجرمانية

ولو كانت روسيا منفردة او متحالفة مع المانيا لقلنا ان عدم التقرب منها والاتحاد معها اولى ولكن تحالف فرنسا معها ضمان لنا جميل لان ماعرفناه من التقاليد الفرنسوية الى الآن هو ان هذه الدولة عودت الجميع ان تعطي اكثر مما تأخذ وأعظم دليل على ذلك اننا عند ما ضاعت موازنة اوروبا بعد حرب السبعين كنا نحن اخسر الخاسرين ثم انهُ لو لم يكن لدينا من الادلة والبراهين على اخلاص فرنسا معنا سوى ما كابدتهُ في سنة السبعين لكفى بهِ حجة ودليلاً لانه لولا مساعدتها لنا في حرب القريم ضد روسيا لما نشبت تلك الحرب السبعينية لان المانيا كانت واثقة من ان روسيا لا تدخل في غمارها بقصد ان تنتقم من فرنسا كما انتقمت من اوستريا في سنة ٦٦ وبمحاربتنا اخيراً كانت خاتمة الانتقام لها

واذا بحثنا في امتيازات صلات فرنسا عندها حصرناها في حماية المسيحيين الادبية وذلك بما تنفقه من الاموال الطائلة في انشاء المدارس ونشر العلوم التي استفاد منها المسلمون ايضاً فسبقتنا في بلادنا الى اهم واجباتنا مما جعلنا نتشبه بها ونهدي هديها وقد عرفنا حق المعرفة ان تلك البلاد المنتشرة فيها مدارس فرنسا اكثر عثمانية من البلاد التي لا مدارس لها فيها او التي النفوذ فيها لغيرها

وقد علمنا ايضاً ان فرنسا وحدها هي التي عضدتنا في المسألة المصرية

في حين كان يسهل عليها جداً ان تتفق مع انكلترا وتعتاض عن مصر بامصار وأقطار ولكنها ابت ذلك من قبل ولا تزال تأبى ممالأة انكلترا حتى الآن وفي المستقبل الا اذا كنا نحن الجانين على انفسنا باهمال واجباتنا فاننا نضطرها حينئذٍ الى مالا ترضاه ويخالف تقاليدها المألوفة وعاداتها المعروفة ونكون نحن الخاسرين دون سوانا

فقد بان مما تقدم ان المانيا لاتفيدنا الا كما افادتنا انكلترا من قبل لانهُ إما ان تعمل متفقة مع بريطانيا وروسيا اولا وسواء كان الاول او الثاني فان الخسارة واحدة لاتفاق الجميع على الاشتراك بالفائدة واقتسام الارباح الصادرة عنا لانهُ اذا بقيت المانيا جارية على خطتها الحالية معنا وحصرت الفائدة فيها استاءت منا روسيا وانكلترا وناصبتنا كلتاهما العداء واستحال على فرنسا ان تساعدنا بل خشينا ان تتفق مع الدول المذكورة فيكون حينئذٍ ذلك الاجماع الدولي الذي طالما انذرنا رجالنا بهِ لانه اذا تمَّ ادى الى عرقلة اشغالنا ولا سيما وأن لا خوف من خلاف الدول في الصين لاتفاقهنَّ على تقاسم الفائدة هنالك فاذا ناصبنا الاتفاق الحالي في الصين خفنا وخامة عواقبه علينا في حين يجب علينا ان نتخذه انذاراً لنا وذكرى ان كنا ممن يعقلون

على اننا اذا نسينا حوادث عصرنا الحالي بين حروبهِ وكوارثهِ وخسائره من المال والرجال ولم ننظر إلا الى حوادث السنة الغابرة رأينا اننا اليوم على ما كنا عليه قبل الحرب الاخيرة بل في موقف احرج . لما انتابنا من الخسائر المالية وقد وقف دولاب اعمالنا التجارية ولانهُ يستحيل علينا ان نأتي أمراً دون استشارة اوروبا والعمل برأيها ولهذا طلبنا في مقالاتنا

السابقة تحقيق مبادىء سياستنا التي لاتخرج عن دائرة رغائب الجناب السلطاني اي الاصلاح في الداخل والتحالف في الخارج

وكتب في ١٨ لوليو من الاستانة العلية

وعدتكم في رسالة سابقة بأن ابحث في هذه المقالة عن حليفنا الداخلي اي الاصلاح فاقول انهُ نوعان اداريٌّ وماليٌّ اما الاول فلا نرى الى اقامته سبيلاً إلا اذا وُزعت السلطة اي ان تعهد أمور كل ولاية الى والٍ مستقيم عادل يكون هو المسئول عن اعمال ولايته ورجالها وأن يكون لمجلس ادارة الولاية شأن في الاتفاق مع ذلك الوالي على اصلاح شؤون الموظفين والعمال ويكون توزيع هذه السلطة في كل ولاية جارياً على قاعدة واحدة لتكون الوحدة العثمانية في الوحدة الادارية وأما الامر الاهمّ فهو انتخاب الرجال وهذه مسألة يجب ان يوكل امرها الى لجنة مؤلفة من افضل افاضل المملكة علماً وخبرة ووطنية وان يكون في كل ولاية لجنة تأديبية للموظفين الذين يقصرون او يرتشون وان تستقل المحاكم القضائية وتفصل عن السلطة الادارية كالجاري في اوروبا المتمدنة وبمعنى اوضح ان تسير الادرة والقضاء عندنا سيرهما في اوروبا مع تطبيق قوانينهما على عادات الاهلين واحوال البلاد لان الطفرة محال وذلك يستلزم سن قانون وافٍ يضمن احترام القوانين ومصلحة الموظفين ايضاً فلا يعزل محمد وينصب عليٌّ الا لقصور الاول وأهلية الثاني وان تعين خصائص كل عامل ورواتب

كل منصب فلا تكون تلك الانضمامات المخلة بموازنة المالية والحائلة دون كل اصلاح

واما النوع الثاني من الاصلاح فهو موازنة المالية وهذه تقوم بان تمنع عجز الدخل عن الخرج وذلك بتحديد النفقات على اختلاف انواعها وضروبها هذا امر سهل ممتنع . سهل اذا اخلصنا الخدمة وممتنع اذا لم نخلص وقد عرفنا من تاريخ احوالنا الماضية والحاضرة انه بالرغم عن وعودنا لم نقم بهذا الواجب لان العجز يزيد سنة عن سنة ويستحيل ان يمتنع العجز والنقص ما دامت الوظائف بلا روابط والرواتب بلا قواعد وضوابط . ولكن اذا حددنا ذلك وقيدناه سهل علينا اجراء الاصلاح الذي لاحياة سياسية بدونه ولا نجاح بغيره

وقد علمت بعد اجتماعي بكثيرين من رجال الاستانة انهم يعتقدون هذا الاعتقاد وانه اذا لم تسع الدولة من تلقاء نفسها الى تحقيقه في الاقرب العاجل عرضنا انفسنا لخطرين لا مهرب من احدهما وذلك اما ان تتداخل الدول لاقامة مراقبة مالية اوروبية كما فعلت بادىء بدء في مصر واما ان تتقاسم نفوذها في بلادنا كما فعلت في الصين وهذا التقاسم يضر بوجودنا السياسي فيجب ان نتداركه واما الاول اي التداخل واقامة السيطرة المالية فقد يفيدنا ويضرنا اما فائدته فاصلاح ماليتنا واما ضرره فتوطيد دعائم التداخل الاجنبي في شؤوننا وهو كداء السل الرئوي قد ينتهي بنا الى الموت السياسي ولهذا لا نرى الا دواء واحداً لهذا الداء وهو ان نراقب اعمالنا بأنفسنا مع استخدامنا من الاجانب رجالا ماليين نتخذهم اساتذة لنا ونحسن السلوك معهم لنعاونهم على اداء هذه المهمة ونستنصر بهم معنوياً على منع التداخل الاوروبي الفعلي

وغير خافٍ انهُ يستحيل اجراءُ الاصلاحين الاداري والمالي بغير احد امرين اما ان يكون ذلك بأمر الحضرة السلطانية مباشرة واما بتداخل اوروبا وقد اوضحنا ما ينجم عن هذا التداخل من الاضرار والشرور واني اكتفي بما يقوله الاتراك والاجانب عن الاول فأقول

نحن نعلم ان من الدول من لاتريد اصلاح شؤوننا بل هي تساعدنا على زيادة الانحطاط والتأخر لتأخذنا غنيمة باردة كما نعلم انه من مصلحة اكثر الدول ان نصلح انفسنا فنوطد بذلك دعائم الموازنة الاوروبية السياسية في الشرق الادنى ونكون حاجزاً دون اطماع دول ثانية وهذه حقيقة لايختلف فيها اثنان وقد كانت في الزمن السابق ضالة سياسة عالي ورشيد وفؤاد ولا يزال رجال اليوم يجرون على آثارها ويحتذون مثالها ولكن لسوء الحظ لم يجر شيء من ذلك الاصلاح المطلوب والا لما انقلبت سياسة اوروبا علينا فرأينا اكثرها ضدنا بعد ان كانت معنا ثم مالت كلها عنا وجهرت بمطالبها الاجماعية وبتنا لانحادث صديقاً قديماً او جديداً الا يكون كلامه بمعنى واحد وهو ان اوروبا لا ثقة لها بنا واننا لا نريد الاصلاح وأن لاقابلية الامة لذلك الاصلاح مادامت صامتة راضية مما زاد رجال الفساد غطرسة وجوراً فأتوا ما اتوه من تجفيف معين ثروة البلاد فسادت المسكنة وخيم الفقر على البلاد وكان الفائز الغالب اكثر أولئك العمال جوراً وظلماً واستبداداً

هذا ما قالهُ ويقولهُ اصحاب المناصب عندنا امس واليوم وغداً وهو ما يتناقلهُ الاجانب عنا فهل وتلك حالتنا لا يحقّ لنا الخوف من ان ذلك الاصلاح لاينفذ ويجري إلا اذا اكرهنا عليه اكراهاً وكنا مسوقين اليه بسابق اهمالنا وقصورنا

والغريب اننا نرى هؤلاء الرجال مع اعتقادهم بسوء الحالة واستحالة البقاء عليها منخدعين بحوادث اوروبا فهم يبنون العلالي والقصور على زيارة غليوم الثاني ويصفقون طرباً لنشوب الحرب الاميركية الاسبانية ولحوادث الصين لانها تحول دون تداخل اوروبا مدة من الزمن يغنم هؤلاء الموظفون في خلالها مايحلو لهم من خيرات البلاد ويقضون مآربهم مجالا

ويسوءني وايم الحق ان أسطر مثل هذه الحقائق والامور لاني وقفت في هذه المرة على اشياء ماكنت لأصدقها وانا بعيد عن هذه العاصمة واني لاعلم واللبيب خبير ان نشر الحقيقة يصعب وقعه في النفوس ويثقل على الاسماع غير انني لا انشر امراً جديداً تجهله اوروبا لانها تعلمه اكثر مني فرادي إذاً ان تعرفه الرعية حتى لا تؤخذ على غرة والفرصة الحاضرة قد تكون الفرصة الاخيرة لنا فلا نلهونّ بالحاضر عن المستقبل ولا نعمدنّ الى التسويف والتأجيل . والله الهادي الى سواء السبيل

وكتب في ٢٩ اغسطس من ستوتكارت بالمانيا

رأيت قبل الذهاب الى سويسرة ان اعرج على بعض مدن المانيا عواصم الممالك الثانوية في الوحدة الجرمانية للوقوف على سياسة هذه الدولة ومعرفة الفرق بين احوالها اليوم اي بعد قيام الوحدة الالمانية وبين ماكانت عليه في الزمن السابق

وقد اخترت هذه المدينة عملا بقولهم تعرفون اسرارهم من صغارهم

وهذا امر طبيعي فان الاخباري اذا أم برلين فلا يعرف فيها ما يعرفه بزيارة عاصمة باڤاريا او مملكة الساكس او مملكة ورتمبرج كما ان سياسة الدول تعرف في عاصمة مثل بروكسل اكثر مما تعرف في قصبة مثل باريس او لندرا

واني لا أقول شيئاً عن نظام هذه المدينة وترتيب حكومتها فان اكثر مدن اوروبا متشابهة في النظام وترتيب الاحكام وتوفر اسباب الراحة للمسافرين بقدر تشابه مدن الشرق في التأخر والانحطاط وقد اجتمعت اتفاقاً بكثيرين من اصحاب الجرائد ورجال السياسة فعرفت منهم أموراً كثيرة أرى في نشر أهمها فائدة عظيمة لقراء الاهرام لما للمسائل العامة اليوم من الاتصال بمصالحنا الشرقية العمومية والمصرية الخصوصية

فالذي لاخلاف فيه ان ابناء هذه المملكة متهللون فرحون مفاخرون بالوحدة الالمانية معترفون بفضل بسمرك وغايوم الاول خصوصاً وقد اتفق قدومي الى هذه المدينة بعد موت بسمرك بأيام فأراد محدثي ان يشرح لي دهاء هذا الرجل وفضل سيده الامبراطور فقال

« اما بسمرك فنابغة عصره في السياسة ولم يقم في اوروبا رجل مثله الا الكردينال ريشليه الفرنسوي ومن حسن حظ بسمرك انهُ كان المانياً اذ لو وُلد فرنسوياً لكان يستحيل عليه ان يأتي في فرنسا مثل ما أتاه في المانيا والذي زادهُ توفيقاً انه وجد في عصر غايوم الاول الذي عرفه وأيد مكانته وعضده بالرغم عن قيام جميع الاحزاب ضده وهذا هو فضل غايوم الاول وأما بسمرك فبعد ان قرر مشروعه عرضه على مولاه فرضي بهِ واتفقا معاً على اعلان حروب ثلاث الاولى ضد الدانمرك والثانية ضد اوستريا

والثالثة ضد فرنسا وبعبارة اخرى ان بسمرك تذرع الى انشاء الوحدة الالمانية بالحرب وسفك الدماء اذ كان يستحيل عليه انشاؤها بغير الحرب والقتال ثم عمد الى تأييدها بالسلم اي بالمحالفة الثلاثيـة التي هو ابوها ومنشئها ايضاً

وبعد ان قرر بسمرك مشروع الوحدة مع سيده الامبراطور سعى الى استمالة روسيا اليه ووثق صلاته مع غورتشاكوف واسكندر الثاني ثم باح لهما بسر مشروعه فأبداه فيه على شرطين الاول ان تبقى المانيا وأوستريا معتزلتين في الحرب الشرقية والثاني نسخ اكثر بنود معاهدة برلين لتنتقم روسيا عن حرب القريم من العثمانية وفرنسا ولما قضى وطره السياسي من روسيا عمل على انفاذ مشروعه تدريجاً وهو امر قد عرفه الجميع فلا حاجة الى تفصيله

وعليه فانه كان يستحيل على غير بسمرك انفاذ ذلك المشروع ولكن كان يشك في نجاحه لو لم يعضده غليوم الاول . اما الممالك الثانيـة المتحدة مع بروسيا اليوم فراضية كل الرضى عن الوحدة الالمانية وقد تساهل كثيراً في بعض امتيازاتها الخصوصية فدى لهـذه الوحدة على شرط ان لا يندفع رجال برلين كثيراً ويستأثروا بكل المنافع والارباح ولهذا لا ترى غليوم الثاني محبوباً منا كثيراً وخواطر ابناء بافاريا والساكس وغيرهما كخواطرنا في هذا المعنى الامر الذي ادركه الامبراطور الحالي فبتنا نتوقع منـه ان يغير خطته حتى لا يخسر بأعماله ما سعى جده الى تحقيقه من تأييد الوحدة الجرمانية

والاحوال الداخلية صعبة المراس لما هنالك من الاختلاف بين ما يريده ابن برلين ويحافظ عليه ابناء الممالك الثانية ولا سيما في القوانين العسكرية

والامتيازات الحقوقية والادارية والاقتصادية ولا ننكر ان لسياسة الوحدة الجرمانية فضلاً عظيما في الامور الاقتصادية لاشتراكنا جميعاً بحسناتها وفوائدها فان الامبراطور الحالي قد برهن بأعمالهِ السامية على انهُ لا يحب الحرب وتوفق بشبانهِ الى انشاء العمارة البحرية لتعضيد مشروعاتنا الاقتصادية وغاية ما نرجوه منه الآن ان يحترم حقوقنا الداخلية تذرعاً الى تأييد تلك الوحدة القومية

أما سياسة المانيا الخارجية فقاعدتها محاسنة روسيا لنأمن شرها واضرار عداوتها واني لأعلم يقيناً بان غليوم الاول اوصى حفيده غليوم الثاني وهو على فراش الموت بان يحترم جوار روسيا وأن يهتم بان يكون حسن الصلات معها اذا استحال عليه ان يحالفها ولا ارى امبراطورنا الا عاملا لتحقيق هذه السياسة التي ايدتها الحوادث الاخيرة فعلا وقولا

وهنا مسألة لابأس من الالماع اليها ذلك ان بسمرك كان يقول انه لو بقي في منصة الاحكام لما قام التحالف الثنائي وبرهانه انه مع وجود التحالف الثلاثي كان بين المانيا وروسيا تحالف خصوصي ولهذا يبالغ انصار بسمرك في وصف دهائه ويطعنون على امبراطورنا الحالي على ان المقربين الى جلالة الامبراطور ينكرون كل الانكار ويقولون ان روسيا ما حالفت فرنسا الا للانتقام مما فعله بسمرك مع كورتشاكوف في مؤتمر برلين اولا ومما اتاه مع اسكندر الثالث من عدم الاخلاص ثانياً وذلك امر مشهور بين الجميع وقد فضحته مقابلة القيصر لبسمرك في برلين وعليه فالتحالف الثنائي قد حصل بسبب بسمرك لابسبب سقوطه من منصة الاحكام

واني أوافق على ما تقولهُ من ان الذي دفع روسيا الى محالفة فرنسا

اتفاق مصلحة الدولتين ووجوب الموازنة السياسية والعسكرية في اوروبا وان هذا التحالف ليس الا نتيجة مظهر المانيا الجديد بعد حربي ٦٦ و٧٠ وهي مجاورة لتخوم روسيا

اما تلك المعاهدة التي كانت بين المانيا وروسيا بالرغم عن وجود التحالف الثلاثي فقد كان الغرض منها استمالة روسيا وتصافي الدولتين بعد التجافي الذي وقع بينهما بسبب مؤتمر براين ولهذا صفا الجوّ لروسيا في شبه جزيرة البلقان بعد احترام الحالة الحاضرة فيها ومنحت الحرية المطلقة في جهات آسية سواء في افغانستان والصين نتقدمت كثيراً هنالك في حين ان انكلترا مهتمة بالقاء بذور الشقاق في الشرق الادنى بدون نتيجة تذكر لوقوف المانيا لها بالمرصاد

ولا أرى السلام إلا وطيداً راسخ الدعائم بالرغم عن جعجعة جرائد انكلترا بسبب مسألة الصين فان روسيا لا ترجع البتة عن انفاذ مشروعها هنالك ولا مناص للانكليز عن قبول ما تريده روسيا ليكون لها في الصين هند جديدة اسهل مراساً من الهند الانكليزية وأوسع ثروة وأعظم ارباحاً وسترى صدق قولي فاننا تعودنا سماع مثل تلك اللهجة من جرائد انكلترا وبعض خطباء هذه الدولة كما تعودنا ان تكون نتيجتها لها فشلاً فوق فشل ونتيجتها لروسيا ظفراً فوق ظفر . وفي فرصة ثانية أحادثكم ملياً عن صلاتنا مع فرنسا وسياسة بسمرك الحربية اولا والسلمية ثانياً واجتماعه بالمرحوم جول فري وموعدنا قريب

سنة ١٨٩٩

كتب تنبوءا بأزمة الشركات والمضاربات في مصرمنذ بدئها

لامراء في ان وفرة المال من لوازم رواج الاشغال التجارية والصناعية والزراعية اذ تقام الشركات وتعمم المشروعات النافعة وتخفف فوائد المال عن عواتق ارباب الاعمال عموماً والزراع منهم خصوصاً غير انهُ يشترط لنيل هذه الفائدة شروطٌ اقتصادية وادارية كثيرة والا كانت اضرار وفرة المال أشد من خسارة قلته وهي في الاول حكمها حكم ذلك الشاب الذي ورث الملايين عن ابيه فبذرها تبذيراً ظناً منهُ انهُ غنيّ مثرٍ وأما في الثاني فحكمها حكم ذلك الشاب المجتهد الذي دفعهُ احتياجهُ الى العمل فاجتهد وجدّ ووجد

ولا يخفى ان احوال القطر المصري الزراعية وغيرها تقتضي مشروعات عظيمة تقام بأموال طائلة واذا كان المال موجوداً عندنا فان الاقتصاديين بيننا قلائل ولهذا انحصرت الاشغال في ايدي الاجانب فقط على انه ليس من الحكمة والحالة هذه ان نسلمهم أموالنا ليستأثروا باكثر ارباحها فقد كفانا اننا نخدم اراضينا لدفع ضرائبها الفادحة بين فوائد لسنداتهم ورواتب للموظفين اخوانهم فلا يجوز بعد ذلك ان يذهب ما نوفره غنيمة لاصحاب الشركات والمشروعات ولهذا وجب استكمالا للفائدة المقصودة اذا اشتركنا بالشركات والمشروعات الجديدة ان لا تكون الشركة قسمة ضيزى بل ان يدفع الاجانب النصف من رؤوس المال وان يشركونا بالتأسيس والادارة

لنقف على حقيقة اعمالهم قولا وعملا كما فصلنا ذلك تفصيلا في جميع ابحاثنا الاقتصادية

ولم نشترط هذا الشرط الأولي الا لنحول دون تهور البعض لغايات ذاتية وأغراض شخصية اذ يعظمون هذا المشروع ويؤيدون الثاني ويعارضون الثالث على ماتقتضيه اهواؤهم وأميالهم وحتى لاتنحصر ايضاً تلك الاعمال في افراد معدودين من السماسرة وأرباب المشروعات العظيمة وحتى لا تكون غزارة اموال الاجانب سبباً في اندفاع بعض الوطنيين الى المضاربات البورصية لما يترتب عليها من ضياع المال وغيره فان حكم هؤلاء المضاربين حكم الابناء المبذرين المسرفين الذين ورثوا الاموال الطائلة فبددوها واضاعوها

ولهذا وجب على الحكومة ان تراعي في الشركات التي تتألف ان المصري مبتدئ في هذه الاشغال وان تجعل نفسها ازاءه كالأم الحنون فيجب عليها ان تتخذ جميع التحوطات التشريعية حتى لا تكون الاشغال المشار اليها سبباً في ضياع حقوق المصري ويتعين على الاغنياء من المصريين ان يزاحموا الاجانب في تأليف الشركات لينقاسموا الفوائد معهم وليحولوا ايضاً دون المضاربات البورصية مادام يستحيل علينا لاسباب عديدة ان نستغل بشركاتنا مالا ونكتسب فنون الادارة لقلة الاول وندورة وجود الاقتصاديين بيننا ولا يجب ان نغتر مطلقاً بما تستفيده العامة من كثرة المشروعات فان ماتربحه البلاد في سنة يخسره المضاربون في شهر كما ثبت ذلك من مضاربات الاشهر الاخيرة للذين اندفعوا الى الاشغال البورصية في القطن والبذرة والاسهم والسندات

على اننا واثقون بان الحكومة لاتهتم بهذا الواجب المقدس وان اغنياءنا

لا يكترثون بخدمة اخوانهم لجهلهم المبادىء الاقتصادية الحقة وان المضاربين سيثابرون على اتباع خطتهم الحاضرة اما عن غرور قد دفعهم اليهِ ربح قليل وإما عن أمل باسترجاع ما خسروه كما يطرد اصحاب المشروعات اعمالهم لاستغراق الاموال الموفرة عندنا الى ان يذوق المضاربون مرارة الخسارة فتحدث تلك الازمة التي نخافها وهنالك الطامة الكبرى اذ يقف دولاب الاشغال والاعمال وتنهال الخسائر لا على المتعاملين والمتجرين فقط بل على الزراع ايضاً وفي مقدمتهم الاغنياء والموسرون لانه اذا استفاد من الرواج افراد فان الازمات المالية تسبب خسائر عامة تتناول جميع طبقات الاهالي وتساوي بين الاواخر والاوالي

وكتب في ٢٣ اغسطس عن الصناعة في اوروبا

لا خلاف في ان التجارة كانت العامل الاول في اتساع نطاق الاعمال وتسابق ارباب الاختراع والاجتهاد حتى كان ما كان من انتشار تلك الحركة التجارية اولاً والصناعية ثانياً في العالمين القديم والجديد ثم في سائر انحاء الكرة الارضية ولا يستبعد ان تحدث الكهربائية في القرن العشرين انقلاباً اعظم وأهم في عالم الاعمال والاشغال ولربما اخترع ابناء ذاك القرن اختراعاً آخر يفوق كل اختراع سابق ولله في خلقه شؤون

وقد اثبت الاقتصاديون المحققون ان للصناعة اليد الطولى في رواج التجارة واتساعها سواء كثرت معادن الذهب او قلت لان الذهب هو العامل

الثاني بعد الصناعة واذا قابلنا بين ما استخرج من الذهب والفضة في سنة ٩٨ وقيمته ملياران من الفرنكات منها نصف مليار فضة وبين ما استخرج من معادن الحديد والقصدير والفحم والبترول وغيره مما بلغت اثمانه في سنة ٩٨ اضعاف ثمن الذهب والفضة وجدنا ان العامل الاول في رواج الاشغال هي الصناعة والعامل الثاني هي المناجم الذهبية والفضية على ان الثاني لا يفيد شيئاً اذا لم يستوعبه الاول ولكن الاول يفيد ولو نقص معدل استخراج الذهب لان الحركة الصناعية التجارية قد تستغني عن الذهب والفضة ولكنها لا تستغني عن الفحم والحديد والقصدير والنحاس وسائر المعادن . ثم لا خلاف ايضاً في ان وفرة المال لم تؤثر في اثمان المعادن بل ان هذه زادت اثمانها لرواج سوقها كما هي اليوم حال الحديد وغيره مما يؤيد اقوال الاقتصاديين المحققين بان الصناعة حياة الاشغال وروح المعاملات

وقد قلنا في مقالة سابقة ان كل دولة من دول اوروبا صرفت عنايتها بعد استقلالها السياسي الى ان تنال استقلالها الاقتصادي اي ان تتخلص من مكوس واردات البلاد الثانية وهكذا حصل اذ كانت نتيجة المناظرة في اوروبا تحقيق هذه الأمنية تقريباً الى سنة السبعين اذ رفعت عن عاتقها النير الانكليزي الاقتصادي الذي كان يجبي من اوروبا عموماً اموال شعوبها

ونيل اوروبا هذه الحرية قد دفعها الى المناظرة الصناعية في اوروبا وخارجها وهو ما قامت به المانيا بعد حرب السبعين في طليعة دول اوروبا الشمالية والمتوسطة ونجحت نجاحاً غريباً تهددت به انكلترا ليس في البلاد المستقلة عنها فقط بل في جميع مستعمراتها ايضاً وفي لندرا نفسها وبقية جزرها حتى كان ما كان من ثورة الرأي العام الانكليزي في جرائده وخطب زعمائه

وتقارير معتمديه في كل جهة ومكان مما جعل ساسة اليوم يعتقدون انه يستحيل الاتفاق بين المانيا وانكلترا بسبب مزاحمة البلادين الصناعية ومنافستهما الاقتصادية

وقد اقتدت فرنسا اخيراً بالمانيا ولكن ببطء ولا غنى لها عن اطراد هذه الخطة مادامت الصناعة قاعدة اوروبا في اشغالها وأعمالها والذي يدلنا على ذلك ليس فقط اهتمام الشركات بمناجمها بل سفر الالوف من الماليين والمهندسين الى التونكين واسبانيا ومدغسكر وخصوصاً الى روسيا للاشتغال بالصناعة وتوسيع نطاقها

وما نراه في فرنسا نراه ايضاً في ايطاليا حتى في اسبانيا بالرغم عما خسرتهُ في الحرب الاخيرة ولا ننسى ايضاً بلجيكا تلك الامة الصغيرة التي نافست اعظم أمم الارض وكان لها في الصناعة والتجارة والاقتصاد شأن يذكر فانها سبقت المانيا وغيرها وناظرت ولا تزال تناظر انكلترا وأميركا واذا قابلنا بين نتيجة حركة تجارتها وحركة اعظم دولة تجارية كانت هي النافزة بالنظر الى عدد شعبها القليل وعدد الشعوب الثانية الكثير

اما الدولة العظيمة انكلترا فلا تزال الى الآن في مقدمة دول العالم القديم صناعة واقتصاداً لان انكلترا هي التي ترسل الى قسم عظيم من الدنيا الفحم الحجري وهي التي حصرت الصناعة القطنية في معاملها وهي التي بسفنها التجارية العديدة تستورد وتشحن ما تحتاج اليه وتبيعه وتحمل الى الدول الثانية ايضاً اكثر صادراتها ووارداتها ولا تزال مع مزاحمة اوروبا لها اخيراً في طليعة الدول الاقتصادية لان ما خسرته في اوروبا قد استعاضت عنه في مستعمراتها الواسعة وهذا مادعاها الى الجري على سياستها الحاضرة في جهات

الصين ومصر والسودان واكثر انحاء افريقيا لوضع يدها على تلك الاراضي الشاسعة تعزيزاً لتجارتها وصناعتها . على انها لا تجهل ما يكنه لنا المستقبل من مزاحمة روسيا وهنا عقدة المسألة

ولا نذكر سكة حديد روسيا الممتدة الى الصين ونعني بها سكة حديد سيبيريا ولا مشروعها السياسي الذي اشار به الاسكندر الثالث وأيده نقولا الثاني وهو انشاء خليج من بحر البلطيك الى المحيط الاتلانتيكي فالبحر المتوسط وبه تقرب الابعاد بين داخلية بلادها والبحر الاسود فتصبح الاولى في الشرق الادنى بخليجها كما ستكون الاولى في الشرق الاقصى بسككها الحديدية بل نذكر تقدمها الاقتصادي في الصناعة والتجارة فقد ثبت ان هذه الدولة قد خففت كثيراً وطأة الصادرات الاجنبية وانها تقدمت في الربع الاخير من هذا القرن تقدم غيرها في قرن كامل واذا بقيت سالكة خطتها الحالية تمكنت في ربع قرن ثانٍ ليس فقط من نيل الاستقلال الصناعي بل من مزاحمة انكلترا المزاحمة القوية في الشرقين الادنى والاقصى فتمسي حينئذٍ الخصم الالد للعنصر السكسوني في السياسة وفي الاقتصاد

هذا ما اردنا تعليقه اليوم على حركة اوروبا الصناعية وسنبحث قريباً في حركة اميركا التي فاقت الاوائل والاواخر وانما يسؤنا ان لا نذكر عن احوالنا الشرقية الا الاستسلام من حكامنا والاستماتة من شعوبنا ولا سيما في زمن قد حملق فيه الاجانب الى بلادنا وعمدوا الى مناصبتنا في السياسة والاقتصاد مما اصبح معه الاستسلام جرماً سياسياً والاستماتة ذنباً وطنياً

وكتب في ٣٠ اغسطس عن الصناعة في اميركا

بحثنا في مقالةٍ سابقةٍ في احوال اوروبا الاقتصادية ورواج اسواق التجارة والصناعة فيها ووعدنا بنشر مقالةٍ خاصة عن اميركا ونحن منذ زون اليوم ماوعدنا بهِ فنقول

ان نوع حكومة هذهِ البلاد جعل كل فردٍ من ابنائها يهتمّ بأعمالهِ كأنهُ هو الأمة كلها وصاحب تلك القارة بأسرها ولهذا تسابق الاميريكيون الى الاكتشاف والاختراع واستخراج المعادن وبث هذا الاجتهاد في صدر كل فردٍ روح المنافسة والمناظرة فتنافس في البداية سكان كل ولاية على حدة ثم اخذت الولايات تزاحم بعضها بعضاً ثم كان من تلك الولايات المتحدة انها اتحدت على مزاحمة اوروبا ودارت رحى الحرب التجارية والصناعية بين العالم الجديد والعالم القديم

وقد جاهد الاميريكي ولا جهاد الابطال حتى توصل بصبره وثباتهِ وعلمهِ واختراعهِ الى نيل اكثر حاجاتهِ الخاصة والعامة من ارضه وبلادهِ ولهذا امتازت اميركا على سائر الدول بكون صادراتها تزيد عن وارداتها وزاحمت اوروبا في آسيا اولاً وفي القارة الاوروبية ثانياً ولم تحل دون واردات اوروبا الا لانها باختراعاتها الحديثة خفضت اثمان البضائع والصنائع وجعلت تبيعها في اوروبا نفسها بثمن أقل من اثمان المعامل الاوروبية وهو امرٌ لم تسبقها اليه دولة الا انكلترا ولكن ايام لم تكن اوروبا مهتمة بالصناعة اما اميركا فقد فعلت ذلك ودول اوروبا تزاحمها واحداها تناظر الاخرى

وقد تمكنت اميريكا بما اخترعته من آلاتها ان تستخرج ١٢ مليون طن من القصدير والحديد بعد ان كانت تستخرج ستة ملايين طن ويقدرون ان ماتستخرجه في هذه السنة يبلغ نحو ٢٠ مليوناً ثم انها كانت تستورد من الخارج سبعة اضعاف ماتستورده انكلترا فأمست الآن تصدر مليوناً زائداً وبعد ان كانت انكلترا تصدر اربعة ملايين صارت لاتصدر الا ثلاثة ارباع المليون وبذلك ضربت مزاحمة اميريكا تجارة انكلترا ضربتين شديدتين الاولى ان انكلترا اصبحت محتاجة الى واردات خارجية والثانية ان صادراتها امست تصادف مزاحمة في الاسواق الاجنبية وكانت انكلترا تستخرج نحو ٢٠٠ مليون طن من الفحم الحجري فأخذت اميركا تستخرج الآن ١٨٠ مليوناً منه وبذا لاتلبث ان تزاحمها في صادراتها كلها مما جعل اوبرت هيل الاقتصادي الاميركي يقول

« اننا نحن الاميريكيين انفسنا متعجبون من هذا النجاح والفلاح ولو انهما ثمرة اهتمامنا واجتهادنا اعواماً طوالاً قامت الامة في خلالها كرجل واحد وكان كل فرد منها كأنه الامة بأسرها يسعى الى رفع شأن الشعب وتعزيز جانبه والله اعلم بما ستكون نتيجة ذلك في السنين الآتية مادامت الكهربائية والديناميت يساعدان رجالنا على التفنن في الاختراع والابداع ولذلك فنحن واثقون بالتغلب على خصومنا وتذليل كل عقبة سياسية او اقتصادية »

وكفى بمثل اقوال هذا الاقتصادي برهاناً على همة الاميريكيين واقدامهم وحدث ولا حرج عن شركاتهم الحالية فان رأسمال اصغرها يعدل ثروة شركات دولة اوروبية وقد اضطرهم اتساع نطاق الصناعة الى توسيع نطاق

الشركات وتكثير اموالها فساعدها ذلك على تقليل النفقات واستطاعت ان تستخرج المعادن برجالها ومالها وان تنقلها على مركباتها وسككها وتصنعها في معاملها ثم تشحنها الى اوروبا على سفنها فكيف بعد ذلك لا تقوى على مزاحمة الصناعة الاوروبية عموماً والانكليزية خصوصاً ليس فقط في السودان حيث بنت كبري العطبرة بل في انكلترا نفسها

ولا ننكر ان تلك الشركات يعتور بعضها الخلل الذي يؤدي الى ضياع اكثر اموالها كما جرى في اوروبا واميركا منذ عشرين سنة مما حمل الماليين على استثمار اموالهم بشراء سندات الحكومة وغيرها من القراطيس ذات الايراد الثابت ولو كان قليلاً ولكن رواج الصناعة الحالي يقضي بالمضاربة واندفاع الناس الى المضاربة لا يخلو من الخطر الا انهُ خطر لا يذكر بازاء الارباح العظيمة التي يربحها المؤسسون والمساهمون والخزانة

اولا نرى ان الشعب الاميركي قد وضع نحو ٥٠٠ مليون جنيه في البنوك الاقتصادية وان ريع السكك الحديدية والسفن النقالة في البحار والانهار قد زاد كما زاد ريع سائر المشروعات النافعة ولولا اعتقاد اوروبا بان اراضي اميركا تسع ستة اضعاف سكانها الحاليين فتزداد حاجات معايشها اضعافاً لخافت كثيراً شرَّ مزاحمة اميركا ومناظرتها

وقد علمنا ان كثرة الشركات المالية حصلت بسبب اتساع نطاق الصناعة ولهذا باع الماليون سندات الحكومة املا منهم بزيادة الارباح فنزلت اثمان الرانت الفرنسوية وغيرها ذات الايراد الثابت كما علمنا ان استخراج كمية من الذهب ثمنها مليار فرنك لا يفي وحده بحاجات الصناعة مادام ثمن الحديد وحدهُ ملياراً اي بقدر ثمن الذهب فضلاً عن المعادن

الثانية التي يبلغ ثمن مجموعها السنوي بضعة عشر ملياراً مما ايد ماقالهُ أحد الاقتصاديين من ان العامل الاول في رواج الاعمال هو رواج الصناعة والمعادن الذهبية هي العامل الثاني

اما رواج الاسواق الصناعية مع كثرة الاختراعات الحديثة فلم يضر بالعامل والصانع على الاطلاق .بل ان حالتهُ اليوم احسن مما كانت عليه في السنين الغابرة وقد قال الاقتصادي الاميركي فلانت في هذا المعنى مامؤداه

« لقد حلت قوة الرجل العضوية محل القوة الآلية فامسى يشتغل بعقله وجسمه وهو يزداد همة واجتهاداً يوماً عن يوم ولهذا زادت حريته وراح يتمتع بفوائد العصر الجديد تمتعاً لم يعرفهُ السابقون الذين كانوا ينامون في سراديب تحت الارض لا منفذ للهواء اليها ولا يرون النار في البرد القارس ولايذوقون اللحم مرتين في الشهر . اما عامل اليوم فيعيش عيشةاعيان القرون الماضية ويمتاز عنهم بالحرية والفضل في ذلك لكبار العقول وفطاحل الرجال كفولتون وفرانكلن وغيرهما من نوابغ هذا العصر »

اما نحن فلم نقصد بما ذكرناهُ عن احوال التجارة والصناعة في اوروبا واميريكا وعما بلغتهُ الأمم الغربية من النجاح والتقدم الا استنهاض همم ابناء الشرق لا الى مسابقة اوروبا ومزاحمة اميريكا في اختراعاتها بل الى التشبه بها في العلم والمدنية لنعرف كيف نستفيد من تلك الاختراعات ونشترك مع ابنائها في فوائد علومها وفنونها وبعد ذلك يسهل علينا ان نزاحمها في ارضنا وان نناظرها في البلاد الثانية لان المصري احق بمكاسب السودان من سواه وأولى من غيره بخيرات بلاده وبركات قطره

سنة ١٩٠٠

كتب في ١٣ مارس عن اتحاد العناصر العثمانية على اختلافها وهي أمنية كل محب للشرق

رضينا بما ارتآه بعض الكتاب الشرقيين من تأليف القلوب بين جميع العناصر العثمانية وامتدحنا تلك النهضة الادبية من الكتاب المسلمين الذين قاموا أخيراً يناقشون الأمة وحكامها الحساب لاننا رأينا في هذه النتيجة تعزية خصوصية لنا بعد ان ناديناهم وأنذرناهم اعواماً طوالاً في صفحات الاهرام وزاد سرورنا تعضيدهم لمبادئنا وتأييدهم لسياستنا اي وجوب توسيع نطاق المعارف وتعميم العلوم العصرية وهي خطة شريفة ومبادىء وطنية نبيلة نرجو من اصحابها ان يثابروا عليها ويثبتوا فيها وأن لاييأسوا اذا لم يروا تلك النتيجة التي يؤملونها في وقت قصير فان الطفرة محال وهم يعلمون اننا صبرنا ربع قرن ولم نيأس بالرغم عما لاقيناه من المعارضات الرسمية واستسلام رجالنا ولا يخفى ان النهضة العلمية الحالية ليست سوى مقدمة نتائج مفيدة للبلاد سواء في الاقتصاد والادارة والسياسة ولنا بما اتاه اعيان المنوفية من تشييد المدارس ما يبرهن على ان المصري شعر بواجبه الوطني نحو أمته وبلاده

على ان هذا الشعور لايجب ان يضلنا عن الطريق المثلى الواجب اتباعها والسير عليها مندفعين بنزق الشباب ودعوى المعرفة ضد الاجنبي عن بلادنا

والغريب عن عاداتنا مع اعتقادنا اننا لولاه لاستحال علينا ان نجهر برأي ونفاخر بعرفان فهو اذا أضر باليمين أفاد باليسار فالواجب علينا ان نصطفي الحسن من اخلاقه وعاداته ونتشبه بهِ في اجتهاده وثباته لا ان نفوقه في فنون ألعاب الورق وشرب الخمور وسائر ما يخالف الدين والمصلحة ولا نتعلم منه كيف يقتصد ويكتسب او كيف يجتهد ويتعلم وأين ترددنا من حزمه او اين ثباته من ضعفنا وأين تألف قلوب الاجانب من تفرق قلوبنا وتشتت كلمتنا

لماذا نلوم هذه الدولة او تلك الامة لانها تجرد جيوشها لفتح بلاد ثانية واستعمارها واستثمار اراضيها . هل كانت اسباب الفتوحات في السابق عند العرب والعجم والترك والرومان واليونان غير اسبابها اليوم . هل تمكن الوهم منا الا اضعف عزيمتنا . ألم يقل سعيد باشا الصدر الاسبق يوم ضمت بلغاريا الروملي الشرقية اليها بوجوب الغارة على تلك الامارة وتأديبها عبرة لها ولسواها فماذا كانت نتيجة حزمهِ . كانت ابعاده عن منصة الاحكام ولزومه منزله كأنه اذنب الى وطنه والى أمتهِ بل نقول انهُ لولا بعض دول اوروبا لما أقدمنا على محاربة اليونانية مع ان قوادنا جهروا بأنهم يقدرون على سحق اليونانية في مدة قريبة ولكن استسلام الأمة واستمانة كبار رجالها واشتغال اكثرهم بمصالحهم الخصوصية أمور مكنت الاجنبي منا وكان هو صاحب الامر المطلق في حركاتنا وسكناتنا فاللوم إذاً يجب ان يقع علينا لانهُ هو يشتغل لمصلحته اما نحن فنعاكس مصالحنا بانفسنا

ثم اننا نذم انتشار الاشربة الروحية الواردة من اوروبا وحكامنا يجتهدون ان يسهلوا ورودها لتزيد ايرادات الخزينة وينكرون علينا هذا الاجتهاد واذا

قصدنا اية مدينة شرقية لا يمكنها اجنبي رأينا كثيراً من اصناف المسكرات يستعملها الاهالي ولا يعرفها الاجنبي فمن اوجد العرقي في دمشق ومن اوجد الحشيش في مصر والافيون في الهند

لايد للاجنبي في ذلك كله ولا لوم على اوروبا لانها هي نفسها تشكو إستفحال أمر المسكرات في بلادها ولكن هو التيار العام لاتقف في وجهه قوة ولا يحول دونهُ حاجز وعليه وجب ان تتخذ المبادىء الدينية والصحية سلاحاً لمحاربة هذا الداء وقطع دابرهِ كما تحارب اوروبا

وبعد فلنفرض اننا نحن الشرقيين خُلقنا من طينة غير طينة الاوروبي اي لا نقيصة عندنا وان ذلك الاجنبي دخل بلادنا بمساوئهِ ومحاسنه فلماذا لاننبذ مساوئهُ ونقتبس محاسنهُ في حين اننا نفعل عكس ذلك بل نحن نرى ان اكثر الذين تعلموا في اوروبا من ابناء الشرق هم الذين تصيبهم آفات الغرب وهم الذين ينقلون مساوئهُ الينا فهل يجب ان نقضي على الاجانب لاننا تعلمنا منهم رذائل فريق منهم وعمينا عن حسنات مجموعهم مع اعتقادنا بانهم اغنى منا وأعلم وان دولهم وحكوماتهم هي صاحبة الامر المطلق في بلادها والكلمة المسموعة في بلادنا

لهذا نرى ان الحكمة وصواب الرأي يقضيان علينا بأن ندعو اغنياء الامة الى اقامة المدارس وانشاء الشركات الاقتصادية النافعة وان نقتبس احسن صفات الاجنبي ومناقبهِ ونتعلم منهُ مبادىء الاقدام والحزم والثبات والائتلاف وان يكن عدواً لنا وخصماً . نحن ضد سياسة انكلترا التي احتلت مصر لتبتلعها مع السودان ولكن ذلك لايمنعنا من الاعتراف بفضل بعض الافراد من ابنائها وكم مرة رأينا الواحد منهم عرف في ادارته بعد ان استلم زمامها

شهراً مالم يعرفه ناظر او مدير بعد قضاء العمر فيها على انهم لو رأوا فينا مثل اجتهادهم وثباتهم لماالأونا وحاسنونا كما يفعلون مع اهل كندا او استراليا ولكن لو كانت تلك صفاتنا لما احتلوا بلادنا وتداخلوا في أمورنا وقبضوا على أزمة ادارتنا وحلوا بسلطتهم محل سلطتنا

على اننا مع اعترافنا بهذا الامر لانيأس من المستقبل ولكن على شرط ان نعمل عملهم ونقتدي بآثارهم ونتخذ صفاتهم لنعمل لمصلحتنا كما يعملون لمصلحتهم لانهم وان كانوا اصحاب القوة والامر إلا ان أمامهم من الحوادث الاستعمارية والمشاكل الاوروبية ما قد يساعدنا على تحقيق امانينا وصيانة حقوقنا والله وليّ التوفيق

وكتب في ١٥ لوليو من باريس عن انكلترا والمسألة الصينية

كانت افريقيا ولم تزل حجر عثرة في طريق سياسة انكلترا وقد ايدت حوادث الصين الاخيرة هذا القول كل التأييد واليك البيان

عرف القراء ان احتلال انكلترا لمصر ونكثها لعهودها ووعودها نفر منها الشرق وشعوبه وأبعد دولتنا العلية عنها وقربها من خصوم الانكليز القدماء وغلّ يدي انكلترا في جميع المسائل الاوروبية وأمست دولة من الدول بعد ان كانت بمثابة اوروبا كلها تقول وتفعل ما تشاء فلولا مصر لما حالفت فرنسا روسيا وأنت اعلم بما ترتب على هذا التحالف من الانقلاب السياسي الذي أيد روسيا في سياستها المخالفة لسياسة انكلترا في الشرق الاقصى بل

في سائر جهات آسيا وحمل المانيا نفسها على ان تفضل ممالأة روسيا على ممالأة انكلترا وهي حقائق يعترف بها اقطاب الدولة الانكليزية وان تكن جارحة ولكنهم يقولون ان ذلك كان لابد منه فيجب علينا ان نرضى بأفريقيا ملكاً لنا وهو عذر الضعيف ولو ان نتيجته مضرة بنا نحن العثمانيين عموماً وللمصريين خصوصاً

ولما ظهرت المسالة الصينيـة في مظهرها الجديد المخيف رأينا انكلترا مغلولة اليدين تمنعها حربها الظالمة في الترنسفال من الظهور في تلك الانحاء بالمظاهر التي تتطلبها مصلحتها السياسية ومرافقها المالية . نعم ان انتصارها على الترانسفال كان منتظراً ولها في تلك الجمهورية من العساكر جيش يزيد عدده على عدد سكان الترانسفال الضعيفة ولكن ذلك النصر لا يعتبر الآن نهائياً لان البوير لايرضون بالذل كغيرهم ولا يحنون رقابهم للنير الانكليزي بل ان انكلترا مضطرة ان تخصص جيشاً عظيماً لحفظ الامن في تلك البلاد التي قد تهب للاخذ بالثار في اول حرب تقع بين انكلترا وبين دولة اوروبية عظيمة

ولا يخفى ان الصيني والياباني والهنـدي لم يكونوا يعرفون في حياتهم السياسية سوى الانكليزي الى ان تغلبت اليابان على الصين وكان ماكان من اتفاق روسيا والمانيا وفرنسا على صد مطامع اليابان ومعاكسة سياسة انكلترا فعرف أولئك الشرقيون ان في العالم الاوروبي دولاً ثانية مما اضعف نفوذ انكلترا وان يكن هذا الضعف ناشئاً عن تحالف دول ثلاث ضـدها وقد عرفنا ماترتب على تداخل هذه الدول من فتح ابواب الصين وتحديد مناطق نفوذ كل منها في بعض املاك مملكة ابن السماء وقد رضيت به انكلترا صاغرة منقادة

وقد ارادت انكلترا الآن ان تستخدم المسألة الصينيـة وسيلة لارجاع نفوذها الاول الى تلك الاصقاع فسألت اميركا ان تتفق معها ومع اليابان على تأديب الصين فأبت الانفراد وسألت الاشتراك مع سائر الدول ذات المصلحة هنالك فلم يضعف ذلك عزم انكلترا بل اقترحت تأييد اليابان وطلبت من المانيا ان تقنع روسيا بذلك وحجتها ان قرب اليابان من الصين يمكنها من قمع الثورة الصينية وحدها دون معونة اوروبا في اقرب وقت ولكنها فشلت في طلبها لان المانيا اجابتها بخطاب عنيف اللهجة وهو الخطاب الذي لفظه الامبراطور غليوم وأبرق فيه وأرعد على الصـين وصب عليها صواعق الغضب والسخط وقد أبت المانيا ايضاً ان تشير على روسيا بقبول طلب انكلترا اولاً لاعتقادها ان روسيا ترفض الطلب وثانياً لان المانيا لا يروق لها ان يأخذ بثار سفيرها ياباني او انكليزي ولهـذا قالت جرائد المانيا الشبيهة بالرسميـة ان غليوم الثاني قال بسياسته هذه حتى لا يكون آلة لانفاذ اغراض الانكليز وكانت نتيجة المفاوضات الدولية اشتراك اكثر الدول في مقاتلة الصين وأن تسمح لليابان بان تشاركها كاحدى الدول ليس إلا وهكذا كان وكانت انكلترا في المسألة لاتختلف عن فرنسا واليابان وغيرهما وبمعنى اوضح ان ذلك المجتمع الاوروبي صاحب الكلمة النافذة والقول الفصل في اوروبا هو صاحب الكلمة والقول الفصل في الشرق الاقصى ايضاً وتلك نتيجة اضرت جداً بنفوذ انكلترا السياسي في الشرق الاقصى لانها مع قربها منه في الهند وأفريقيا لاتقدر على ارسال قسم من عساكرها الى تلك الانحاء ولهذا اكتفت بارسال عدد قليل من حامية الهند ولكن لولا حرب الترانسفال لما احجمت عن ارسال قوات عظيمة ولو اشتركت

معها اوروبا حتى لاتراها شعوب الشرق بالعين التي تنظر بها الى المانيا وغيرها وحتي لا تكون اقل نفوذاً من روسيا

وأنا لا أقول ذلك تحاملا على ساسة الانكليز بل هي الحقيقة التى لا ينكرها عليّ رجالهم انفسهم ولا بحث مع انكليزي الا وهو يرى هذا الرأي ايضاً ولو عارضه من بعض الوجوه ليبرر سياسة بلاده

واوروبا اليوم في مسألة الصين لاترى لها خصما سوى البوكسرس سواء اشتركت الحكومة الشرعية في الثورة اولا لانها بذلك تتوصل الى إخماد الثورة بطريقة اسهل وهذا لا يمنعها حينما يعود الامن ان تطالب تلك الحكومة الشرعية بانفاذ مطالبها واجراء رغائبها ليس فقط فيما يتعلق بمعاملة الاجانب على اختلاف مللهم ونحلهم بل باجراءِ الاصلاحات الواجبة في الولايات الصينية ولا سيما مد الخطوط الحديدية والاسلاك التلغرافية تقريباً للابعاد حتى يسهل على كل دولة اوروبية ان تسير جيشاً تقمع كل ثورة تشب نارها في جوار منطقة نفوذها لان اوروبا ستضع في تلك الجهات قوات كافية تداركاً لمثل هذه الثورة والتجارب خير واعظ ومؤدب

والذي نستنتجه من حوادث الشرق انها تقصي كل حرب عن اوروبا وبين دول اوروبا وانها توحد كلمتها وتؤيد اتفاقها في المسائل الاستعمارية عموماً وفي مسائل الشرق خصوصاً وان انكلترا بعد ان كانت منفردة طلقة اليدين خارج اوروبا أمست واحدة من المجموع الدولي وهي أمور مهمة سنعود الى البحث فيها قريباً

وكتب في ٢٢ يوليو من لندن عن تأثير زيارة الجناب الخديوي لتلك العاصمة

تكلمت جرائد مصر على سفر الجناب الخديوي ونتائجه قبل ان غادر سموه مصر وبعد ان زار جلالة ملكة انكلترا وتكلمت بعض الجرائد الانكليزية في الموضوع نفسه وأجمعت على أن خديوي مصر جاء الى انكلترا واعترف بفضل الاحتلال وانهُ رأى بعد التردد تارة والمعارضة تارة أخرى ان يخلص الاتفاق مع رجال الاحتلال لتعميم الاصلاح في القطرين المصري والسوداني

ذلك مغزى اقوال جرائد انكلترا وأما اقوال جرائد مصر فقد عرفها القراء ولهذا انحصر كلامي في هذه الرسالة في ايراد ما يقولهُ رجال الانكليز هنا عن هذه الزيارة وعن تأثيرها في المحافل السياسية غير الانكليزية

ان الانكليز الذين يستمدون رأيهم من جرائدهم يعتقدون ان زيارة سموه عبارة عن اعترافه بفضل الاحتلال وإنهُ ما حضر الى لندرا إلا ليبرهن لحكامها على انهُ ليس ذلك الرجل المعارض لهم الذي لا يود ان يسير وإياهم على وفاق واتحاد

وأما محافل لندرا الرسمية فتقول ان الجناب الخديوي ما زار لندرا إلا مجاملة لجلالة الملكة وانهُ قرر زيارتها في زمن كانت فيه احوال انكلترا في الترانسفال بالغة حد الاضطراب وانه من مصلحة انكلترا ان تهتم باستمالة خديوي مصر اليها وما دامت الزيارة قد تقررت وجب ان يقابل سموه المقابلة الرسمية الواجبة بقطع النظر عن وجود احتلال انكليزي في مصر ونقرر ايضاً حفظاً لحقوق السلطنة العثمانية ان يشهد الاحتفال حضرة سفير

الدولة العلية في لندرا وهكذا كان فان الجناب الخديوي قوبل مقابلة الملوك وحضر جميع الاحتفالات التي اقيمت له سفير الدولة العثمانية وُودع سموه كما قوبل

ومن المعلوم ان الحكومة الانكليزية لايمكنها ان تسأل الجناب الخديوي أمراً سياسياً لان مصر جزء من السلطنة ولان لاوروبا مصالح مهمة فيها ولكن حوادث الترنسفال الاخيرة وما انتاب انكلترا من حوادث تخوم الهند ومعرفة الانكليز ان المصريين والسودانيين غير راضين عن الاحتلال الانكليزي مهما كانت حسناته وطموح اوروبا الى الاستعمار ومزاحمتها لانكلترا في ميدان السياسة والتجارة كل ذلك يضطرها الى مسالمة خديوي مصر لانهُ اذا كان راضياً ولو في الظاهر قلل نفور الامة المصرية من الانكليز وقد رأوا ان سموه أيد في حوادث الخرطوم الاخيرة سلامة نيته وصفاء سريرته وإلا لما وقف الامر عند الحد الذي وقف عنده سواء كانت تلك الحادثة صحيحة او من عنديات الانكليز انفسهم

ومعلوم ايضاً ان الانكليز ادركوا مبلغ الخسارة التي خسروها في بلاد الدولة العلية بسبب احتلالهم لمصر وأيقنوا انهم اذا استمالوا سمو الخديوي اليهم فقد يمكنهم ان يستخدموا ميلهُ في سبيل اغراضهم في الاستانة ولهذا أرادوا هذه الزيارة وعملوا لتحقيقها لان السياسة الانكليزية ترمي الى بعيد والوقت حليفها فلا تيأس من الانتظار والانكليز اذا فازوا بذلك حسنوا علائق المصريين معهم وكان لهم بمصر ما يزيد نفوذهم في الاستانة كيفما أرادوا ان يصوبوا سهام سياستهم على ما تقتضيه اغراضهم ومآربهم

أجل هذه هي الغاية التي يسعى الانكليز الى تحقيقها ولكن الجناب الخديوي بزيارته لجلالة الملكة ومقابلتهِ لرجال حكومتها برهن على انهُ ليس

ذلك الرجل الذي يرميه بعض الانكليز بألسنتهم الحداد وقد اثبت بالخطابين اللذين ألقاهما في قاعة جلدهول بلندرا انهُ مصري وسياسي مع ان حضرة المحافظ ضمن خطابهُ تلميحات سياسية وتصريحات لا يخفى معناها على الفطن اللبيب ولكن الجناب الخديوي أجابهُ جواباً بسيطاً ولكنه سياسي اما بساطته فلأنهُ لم يذكر فيهِ تلميحات المحافظ بكلمة وأما كونهُ سياسياً فلأنهُ تكلم فيهِ عن بلاده كأنها مستقلة يود تقدمها ونجاحها بازدياد الصلات التجارية بينها وبين انكلترا . هذا ماكان من مخاطبة الخديوي الرسمية وأما زيارتهُ للورد سالسبري فاننا وان كنا لم نحضرها غير اننا لانستغرب ان يكون سموه قد قال لهُ تلميحاً « ها قد عرفتموني الآن وأنا عالم ما قالهُ ضدي بعض رجالكم وبعض رجالي المصريين وهو كلام يسهل تفنيدهُ فانكم لا يمكنكم ان تقولوا انكم تحبون مصر وخير مصر اكثر مني فاذا كانت مشاريعكم لفائدتنا فأنا اول معضد لها وإلا كنت مصيباً في معارضتها ولديَّ براهين عديدة على صحة قولي هذا وهو ان كثيراً من تلك المشاريع التي انفذتموها رغماً عن قولي لرجالكم انها غير مفيدة قد اضطرتكم تجربتها الى الغائها بعد ان تحمل الاهالي ضررها » هذا دون شك كان مغزى حديث الخديوي ولو لم نسمعه ولو لم يصرح سموه بهِ ولكن اللورد سالسبري واخوانه فهموه وأدركوه فاذا كان ذلك املنا ان يعتدل رجال الاحتلال في معاملتهم للمصريين ولا سيما في المشاريع التي لها علاقة بالشريعة الغراء كما قال سموه للسير جون سكوت عند ما تشرف بمقابلته في لندرا

وعليهِ فلا يجب ان نصدق ما اشاعه بعض الانكليز من ان الخديوي ورجاله الذين كانوا اشد خصوم الاحتلال اصبحوا بعد هذه الزيارة من

انصاره ومريديه لانه اذا كان سموه قد قال بوجوب توثيق عرى العلائق التجارية بين البلادين فهو قد اراد منع سوء التفاهم الذي كان حاصلاً قبلاً بسبب وشايات خصوم مصر واعدائها وفضلاً عن ذلك فان الجناب الخديوي يقدر حقوق السلطنة حق قدرها وهو قد سعى اكثر من كل خديوي قبله الى تأييدها وسيحضر احتفال العيد الفضي السلطاني لهذه الغاية وهو لايجهل ايضاً مالاوروبا من المصلحة في مصر والسودان وانه وان اخلص له الانكليز فليس من مصلحته ومن مصلحة الامة الاسلامية عموماً ان يبعد عنه الجناب السلطاني واوروبا اذ لولاهما لقضي على مصر من زمان طويل وقد تعين عليه ايضاً مع محافظته على مصر ان يمنع صيرورتها سبباً لخسارة غيرها من بلاد الشرق لان الدول لا تترك مصر لانكلترا دون عوض

واما المحافل السياسية غير الانكليزية فقد اثرت فيها زيارة الجناب الخديوي تأثيراً حسناً لانه لم يقل في كلامه الرسمي الا ما عرف عنه فهو بذلك ايد حقوق مصر وحقوق السلطنة وحقوق الدول وما دامت تلك مبادئه فلن ينال الانكليز منه تحقيق رغائبهم سواء في مصر او في الاستانة وبالتالي فانه ليس من الحكمة ان تترك مصر كل امل في نفسها وفي سلطانها وفي اوروبا وتلقي بنفسها بين مخالب الاسد الانكليزي فيفترسها

هذا ما استطعت ان اعرفه عن تأثير هذه الزيارة وسوف يكشف لنا المستقبل حقيقتها . على اننا نكرر اليوم ما قلناه مراراً وهو انه من مصلحة الانكليز ان لا يعبثوا بمصلحة مصر وان يوجهوا عنايتهم الى استمالة الامة المصرية واميرها اليهم وذلك لا يكون الا اذا اعتدلوا في سياستهم واحترموا حقوق الحضرة الخديوية وراعوا مصالح الامة المصرية

وكتب في ٧ نوفمبر تحت عنوان المسألة الصينية

اذا تذكر قراؤنا الكرام ما كتبناه عن هذه المسألة ونحن بين لندرا وباريز عرفوا ان ما قلناه نقلاً عن الثقات كان الحقيقة التي لم تغيرها الحوادث الاخيرة مطلقاً رغماً عما كان من منشورات روسيا والمانيا وفرنسا واتفاق انكلترا والمانيا اخيراً ونحن نعيد في مقالة اليوم خلاصة ذلك ثم نستوفي البحث

قلنا انه مهما تباينت اغراض الدول واختلفت مقاصدهن فلا خوف من حدوث خلاف بينهنّ اولا لان الاتفاق وان كان قليل الفائدة فنتيجته اضمن للمستقبل من نتيجة الخلاف ولو كان طفيفاً ثم ان المسألة الصينية جاءت مؤيدة لما سبقنا فقلناه وهو ان اوروبا اقرب الى الاتفاق منها الى الاختلاف في كل مشكلة سياسية تحدث خارجاً عن اوروبا وعن البلاد المتحدة لان جميع الدول على اتفاق في وجوب تأييد السلام في ربوعها ثم قلنا ان هذا الاتفاق قد لا يشوبهُ خلاف ابداً حتى في المسائل الاستعمارية ما زال في امكان الدول ان يقبضنَ اثمان ذلك من جيوب الشعوب الاخرى وهذا قد يطرد امره الى ان تتاخم الدول بعضها بعضاً في كل جهة وصوب وعند ذلك فاما ان يكون الخلاف كما كان في السابق بين دول اوروبا في اوروبا او ان تتغلب المدنية على الهمجية وتتآخى الشعوب في مستعمراتها وأملاكها الشاسعة الخارجية تآخيها اليوم في اوروبا بفضل المدنية والعلم والمعارف

والذي يحملنا على ترديد هذه المقدمة هو خدمة حكام المشرق عموماً الذين أرادوا ان يروا في مسألة الصين حاجزاً دون اغراض خصومنا فينا

مغترين بذلك اغترارهم السابق في خلاف الدول فيهملون الاصلاحات التي هي وحدها السور الحائل دون مطامع خصومنا وأعدائنا ونحن اليوم نذكرهم بتلك الاقوال وقد رأوا من اتفاق الدول ما ايد اقوالنا وبدد شمل غرورهم لعلهم يستفيدون

ولنرجع الى المسألة الصينية فنرى ان منشور فرنسا هو الذي نال اتفاق الدول جمعاء وكان لمندوبي الدول في بكين عاصمة الصين المحور الدائرة عليه المفاوضات مع مندوبي حكومة الصين ويسرنا ذلك لانه ايد اتفاق اوروبا وبهذا الاتفاق خدمة السلام ولانهُ كان انذاراً كافياً لحكومة الصين التي رأت ان لامناص لها من قبول ما قررته اوروبا اي دفع الغرامة اللازمة ومعاقبة المجرمين ومنع ارسال الاسلحة الى الصين والذخائر واقامة حرس دولي لامبراطور الصين في عاصمة بلاده وفتح اكثر من مدينة وولاية لتجارة اوروبا وللاجانب

وهذه الشروط وان تكن ضربة عنيفة على الصين الا اننا نراها ضربة اخف ويلاً وضرراً مما لو اصرت ورفضت مطالب اوروبا لانه مهما كان من تساهل الصين فهو لايضر باستقلالها ضرره ببلاد ثانية يسهل على اوروبا احتلالها في اكثر من جهة اما الصين فيمكنها مع هذه المطالب الفادحة ان تنهض من سقطتها اذا قام رجالها بواجباتهم الوطنية خير قيام واقتدوا بجارتهم اليابان علماً ومدنية وهو ما ننتظرهُ من نبهاء هذه الامة الذين اشاروا اليوم على امبراطورهم بقبول هذه الشروط ولهذا نقول ان لنا ملء الثقة بحل المشكلة الصينية حلا سلمياً مهما اختلفت غايات الدول وتباينت اغراضها

اما الاتفاق الانكليزي الالماني الذي طنطنت به جرائد انكلترا وتخوفت منه بعض جرائد اوروبا فهو ظفر بين لسياسة غليوم الثاني اذ اضطر

وكتب في ٧ نوفمبر تحت عنوان المسألة الصينية

اذا تذكر قراؤنا الكرام ما كتبناه عن هـذه المسألة ونحن بين لنـدرا وباريز عرفوا ان ما قلناه نقلاً عن الثقات كان الحقيقة التي لم تغيرها الحوادث الاخيرة مطلقاً رغماً عما كان من منشورات روسيا والمانيا وفرنسا واتفاق انكلترا والمـانيا اخيراً ونحن نعيد في مقالة اليوم خلاصة ذلك ثم نستوفي البحث

قلنا انه مهما تباينت اغراض الدول واختلفت مقاصدهن فلا خوف من حدوث خلاف بينهنّ اولا لان الاتفاق وان كان قليل الفائدة فنتيجته اضمن للمستقبل من نتيجة الخلاف ولو كان طفيفـاً ثم ان المسألة الصينية جاءت مؤيدة لمـا سبقنا فقلناه وهو ان اوروبا اقرب الى الاتفاق منها الى الاختلاف في كل مشكلة سياسية تحدث خارجاً عن اوروبا وعن البـلاد المتحدة لان جميع الدول على اتفاق في وجوب تأييد السلام في ربوعها ثم قلنا ان هذا الاتفاق قد لا يشوبهُ خلاف ابداً حتى في المسائل الاستعمارية ما زال في امكان الدول ان يقبضنَ اثمـان ذلك من جيوب الشعوب الاخرى وهذا قد يطرد امره الى ان تتاخم الدول بعضها بعضاً في كل جهة وصوب وعند ذلك فاما ان يكون الخلاف كما كان في السابق بين دول اوروبا في اوروبا او ان تتغلب المدنية على الهمجية وتتآخى الشعوب في مستعمراتها وأملاكها الشاسعة الخارجية تآخيها اليوم في اوروبا بفضل المدنية والعلم والمعارف

والذي يحملنا على ترديد هذه المقدمة هو خـدمة حكام المشرق عموماً الذين أرادوا ان يروا في مسألة الصـين حاجزاً دون اغراض خصومنا فينا

مغترين بذلك اغترارهم السابق في خلاف الدول فيهملون الاصلاحات التي هي وحدها السور الحائل دون مطامع خصومنا وأعدائنا ونحن اليوم نذكرهم بتلك الاقوال وقد رأوا من اتفاق الدول ما ايد اقوالنا وبدد شمل غرورهم لعلهم يستفيدون

ولنرجع الى المسألة الصينية فنرى ان منشور فرنسا هو الذي نال اتفاق الدول جمعاء وكان لمندوبي الدول في بكين عاصمة الصين المحور الدائرة عليه المفاوضات مع مندوبي حكومة الصين ويسرنا ذلك لانه ايد اتفاق اوروبا وبهذا الاتفاق خدمة السلام ولانهُ كان انذاراً كافياً لحكومة الصين التي رأت ان لامناص لها من قبول ما قررته اوروبا اي دفع الغرامة اللازمة ومعاقبة المجرمين ومنع ارسال الاسلحة الى الصين والذخائر واقامة حرس دولي لامبراطور الصين في عاصمة بلاده وفتح اكثر من مدينة وولاية لتجارة اوروبا وللاجانب

وهذه الشروط وان تكن ضربة عنيفة على الصين الا اننا نراها ضربة اخف ويلاً وضرراً مما لو اصرت ورفضت مطالب اوروبا لانه مهما كان من تساهل الصين فهو لايضر باستقلالها ضرره ببلادٍ ثانية يسهل على اوروبا احتلالها في اكثر من جهة اما الصين فيمكنها مع هذه المطالب الفادحة ان تنهض من سقطتها اذا قام رجالها بواجباتهم الوطنية خير قيام واقتدوا بجارتهم اليابان علماً ومدنية وهو ما ننتظرهُ من نبهاء هذه الامة الذين اشاروا اليوم على امبراطورهم بقبول هذه الشروط ولهذا نقول ان لنا ملء الثقة بحل المشكلة الصينية حلا سلمياً مهما اختلفت غايات الدول وتباينت اغراضها

اما الاتفاق الانكليزي الالماني الذي طنطنت به جرائد انكلترا وتخوفت منه بعض جرائد اوروبا فهو ظفر بين لسياسة غليوم الثاني اذ اضطر

انكلترا الى ان تعترف لالمانيا بحقوق كانت هي منفردة بها في منطقة نفوذها الصينية وما ذلك إلا نتيجة حرب الترنسفال

اما هذا الاتفاق فانهُ لم يمس مطلقاً مصالح الدول الاخرى بل لا نعجب اذا وافقنَ عليه لانه لا يخرج في جوهرهِ عما اشارت بهِ روسيا في منشورها وعما قالت به فرنسا في كتابها الاخير الذي امسى القاعدة الرئيسية للمفاوضات الدولية مع الصين

وكل ما نتمناه ان تحل المشكلة الصينية قريباً فيتأيد السلام وتروج الاعمال التجارية وتتقاسم الشعوب حسنات السلام والله الموفق

سنة ١٩٠١

كتب فى ١٦ مارس بعنون نظارة الزراعة

كثيراً ما كتبنا في مقالات سابقة عن ضرورة انشاء نظارة زراعية في قطرنا وايدنا قولنا بالبراهين السديدة والحجج الدامغة وقد اتفقت جرائد البلاد على تأييد هـذا المطلب الوطني اتفاقها على التنديد بتردد الحكومة وإحجام مستشاريها ولا نرى الان وقد دارت رحى المضاربات في انحاء البلاد الا ان نعيد الكرة لعلنا ننال هذه المرة ما لم ننلهُ في الماضي فنقول

ان البلاد زراعية وحياتها الزراعة وروح زراعتها النيل المبارك نعم انا لا ننكر على مصلحة الري اهتمامها بمياه النيل وبعدالة توزيعها وزيادة الاعتناء

بحفظها سواء باقامة السدود او بانشاء الخزانات ولكن ذلك غير كاف لخدمة البلاد وقد انحصرت اكثر اشغال المتعاملين والمتجرين بالقطن المصري متاجرة او مضاربة

ومعلوم ان تلك الفائدة التي استفادتها مصر من تحسنيات الري لا توازي الملايين الكثيرة التي ذهبت خسارة لامن جيوب المضاربين فقط بل من جيوب المزارعين ايضاً لعدم وقوفهم على حقيقة اخبار المحصول القطني في البلاد او لتناقض اخبار الاشغال واختلاف مصادرها حتى شكا الجميع وكانوا مصيبين في ما يشكون باعتراف رؤساء نظارة الاشغال انفسهم

فالاهتمام بمياه النيل وحدها اذاً غير واف بالغرض المقصود بل علينا ان نهتم بشؤون الزراعة سواء كان بتحسين مانزرعه او بادخال زروع جديدة مع الاهتمام بتحسين حالة الاطيان تحسيناً يستعيض معه الزارع عما ينفقه علاوة على نفقته مضطراً الى مخالفة السنة الزراعية حتى رايناه يزرع نصف ارضه فاكثر قطناً ومن زرع ثلثها فقط فقليل عددهم او هم نادرون

ومن المواد الحيوية للزراعة ان يكون هنالك قلم احصائي يعتمد عليه في تقاريره وتفاصيله وهذا القلم كان في اوروبا ولا يزال قاعدة كل اصلاح ولا سيما في الامور الزراعيـة ولهذا كانت اميركا وفرنسا الضقعين الزراعيين وقس عليهما غيرها من كل بلاد زراعية

وفوائد القلم الاحصائي كفوائد التحسينات الزراعية لاوجود لها في بلادنا لعدم اهتمام أُولي الامر بهـذا الشأن الخطير مع انه اهم الامور وبه حياة البلاد وقوامها المالي والاقتصادي والسياسي معاً ولا يعذر المصلحون بقولهم انه لامال لديهم وهم يتصرفون بأموال الخزانة تصرف المالك المطلق

مع انهم يعتقدون اعتقادنا . ان النظارة الزراعية ليست فقط اهم ما يجب انشاؤه لخدمة الزراعة والبلاد . بل هي النظارة الوحيدة الضرورية دون سواها على ما يعرفه مستشاروهم من احوال النظارات الاخرى التي اشغالها في ايديهم

فاذا كانت اهمية وجود هيئة نظار مصريين محصورة في وجود هيئة وطنية لاعمل لها ولا رأي لاربابها وهذا ما يطلق على كثيرين من كبار الموظفين في امثال هذه النظارات فالعدل يقضي والحالة هذه باقتصاد المبالغ اللازمة لانشاء وزارة زراعية من رواتب اولئك العمال الذين لا عمل لهم بل وهم من اموالهم في غنى عن كل راتب ولعلهم اذا كانوا احراراً دون تقييد بخدمة ينفعون البلاد من ابواب اخرى ويفيدون ويستفيدون واذا كان بقاء هؤلاءِ العمال لازماً ثم قيل انه لادرهم لدينا فلماذا لانطلب من صندوق الدين اعطاء الدراهم اللازمة للنظارة الزراعية مع ما في ذلك من خدمة البلاد واصحاب الديون معاً

ومعلوم انهُ لولا جمعية المحاصيل في الاسكندرية التى قامت بفضل تجار الثغر ولولا الجمعية الزراعية العمومية في القاهرة التى لم تقم إلا بفضل بعض الافراد لما عرف عن زراعتنا شيءٌ البتة مع ان خدم هذين القامين محدودة لايختلف فيها اثنان ومن الخرق في الرأي ان نكل الشؤون الزراعية والتجارية اليهما

وعليه فلا مندوحة للبلاد عن انشاء نظارة زراعية يكون مرجع المزارعين والمتجرين اليها في صدق اخبارها وتحسين احوالنا الزراعية وذلك بأن تنتخب الاكفاء العارفين الخبيرين للقيام بهذه المهام فننال هذه الغاية وقد طالما قلنا ان اهم الاصلاحات اثنان انشاء بنك زراعي يستدين منه المزارع الكبير والصغير

وهذا ماقام بهِ البنك الاهلي بما اتاهُ من تسليف الفلاحين والثاني نظارة زراعية وهو مالانمل من طلبه وهذان الاصلاحان اذا أنفذا كما يجب خدما البلاد اشرف خدمة وحق للمصلحين ان يفتخروا بهما فيعترف لهم بالفضل الوطنيون عن بكرة ابيهم وتتقدم البلاد تقدماً بيناً من جميع الوجوه والله يوفق الى تحقيق أمانينا هذه بمنهِ وكرمهِ

وكتب في ٤ ابريل عن سياسة الدول

عرف القراء الكرام من مقالاتنا السابقة ان الدول الاوروبية مهما تباينت غاياتها واختلفت مقاصدها فهي آمنة شبوب الحرب بينها واذا كانت حرب فقد تكون منها جميعها او من بعضها ضد الشعوب الاخرى ولا نقول هذا القول مجازفة وضرباً بالظن بل عن اعتقاد وخبرة ومعرفة وبرهاننا ان اكبر الدول مصلحة في اوروبا وهي المانيا واكثر الدول مصلحة في توسيع نطاقها الاستعماري وهي الروسية لا ترضيان بحرب اوروبية لانها تكون ضد مصالحها الحيوية ولهذا اتفقت الروسية وأوستريا على حفظ الحالة الحاضرة في البلقان كاتفاق الروسية والمانيا على عدم مساس الحالة الاوروبية الحاضرة واشترطت الروسية ان المانيا لاتعارضها في اعمالها الاستعمارية مطلقاً ولا سيما في الشرق الاقصى

ومعلوم ان جميع الحوادث التى حدثت في الشرقين الاقصى والادنى منذ بضع سنين حتى اليوم قد أيدت هذه المبادىء بالرغم عن الحركات

البلقانية ودسائس الجمعيات فرأينا اوستريا وهي حليفة المانيا والروسية وهي حليفة فرنسا متفقتين على احترام ما اتفق عليه قيصر الروسيا وامبراطور اوستريا في شبه جزيرة البلقان كما رأينا ان اوروبا قد تداخلت في الحرب اليونانية للحيلولة دون انقراض الدولة اليونانية لا لمساعدتها وهذا ايضاً يؤيد قولنا ان ضالة اوروبا هي مصالحها السياسية بقطع النظر عن المبادئ المذهبية والعنصرية

ومعلوم ايضاً ان حوادث الشرق الاقصى لم تغير من اتفاق اوروبا على تأييد السلام في انحاء تلك القارة فلم يتفق بعضها دون البعض ايام الحرب اليابانية ولم تتفق كلها أيام الحوادث الصينية إلا عملاً بما قررته من تأييد السلام بين الدول الاوروبية مع المحافظة على حقوقها في الخارج إما متفقة او منفردة وكل هذه حقائق راهنة لايختلف فيها اثنان

ولكن هذه السياسة الجديدة كما يعلم القراء لم ترض انكلترا مطلقاً لا لأن هذه الدولة تحب الحرب ولا لانها مستعدة لمحاربة دولة قوية ولكن لانها الدولة التي راجت سلعتها وعظمت كلمتها بسبب تحارب الدول وطحن بعضها بعضاً بينا تكون انكلترا هي النائلة الظافرة بلا حرب ولا قتال والتاريخ اصدق شاهد على هذا القول وقد كانت اكثر حوادث القرن الغابر وحروبه في سبيل خدمتها وهو مادعا اوروبا الى تغيير سياسة التعادي الاولى بالاتفاق على تأييد السلام

ولا ننكر ان الفضل في تمكين هذه السياسة للروسية والمانيا لان انكلترا أرادت ان تلعب المانيا دور فرنسا في المدة الاخيرة بان تلهى بأوروبا عن كل سياسة خارجية فخاب ظنها ولما يئست من المانيا بعد ان انفصلت عن

فرنسا وجهت همتها الى استمالة اميركا فلم تفلح ايضاً فلم يبق امامها الا الدولة اليابانية بعد ان خابت ظنونها في الصين

ومعلوم ان انكلترا كانت قد أملت غلبة الصين على اليابان فمالت مع الاولى ضد الثانية ولما رأت العكس وأرادت ان تكون مع اليابان قامت في وجهها فرنسا والروسية والمانيا فخسرت في الامرين وتضعضعت احوالها وأخذت ترقب فرصة حدوث خلاف مع دولة واحدة من الدول البحرية لاظهار بطشها واستعاضة ماخسرته من نفوذها فلم توفق الى مرغوبها لان الدول ادركت ما نوته السياسة البريطانية الى ان بدت مسألة الترنسفال وكان ماكان من فضيحة النظام العسكري الانكليزي باعتراف القائد العام واكابر القواد والكتاب الحربيين وجدال البرلمان الاخير برهان دامغ وحجة راهنة ولو خالف المكابرون

ولما عرفت انكلترا ان لا مقدرة لها على معارضة السياسة الاوروبية الجديدة حاولت ان تتفق مع بعض الدول لتعارض البعض الآخر لأنه لا يحلو لها ان تتقاسم الدول مرافق السياسة الاستعمارية وقد ذاقت هي وحدها حلاوة فوائدها ولكنها لم تفلح مع المانيا ولم تفلح ايضاً مع اميركا وقد علمت ان الدولة العلية كانت اول دولة رفضت مقدماتها هذه فلم يكن أمامها الا اليابان لتستخدمها في سبيل اغراضها في الشرق الاقصى استخدامها الدولة العثمانية في سابق العهد في الشرق الادنى ولهذا نرى مانراه من ضوضاء الجرائد الانكليزية وجعجعة كتابها ولو اصغى القارئ اليها لقال ان الحرب على الابواب ولكن من عرف الغاية من هذه الحرب القلمية لم يعبأ بأقوالها الا الذين لايرون بغير العين الانكليزية وهؤلاء معذورون لانهم مسيرون غير مخيرين

والعالم السياسي لا يعتقد ان حكومة اليابان مهما عظمت مصلحتها في الشرق الاقصى لا مصلحة لها من محاربة الروسيا ما دام بوسع الدولتين ان تتفقا في المسائل الصينية اتفاقهما في المسألة الكريدية ولا يفوت اليابان انهُ مهما كان من انكلترا وسياستها حتى ولو اتفقت معها ضد الروسية فكل هذا لا يزيد الاخيرة الا نفوذاً في الصين وتحقيقاً لامانيها في منشوريا ولهذا لا يكون حظ انكلترا من دفع اليابان الى معاداة الروسية إلا حظها من المانيا وأميركا والدول الاخرى وبمعنى اوضح فشل السياسة الانكليزية وفوز الروسية

وكتب في ١٥ مايو عن الدول البلقانية وهي آخر مقالة له

ان حركات الجمعيات البلغارية وسياسة جميع الشعوب البلقانية ومآرب بعض الدول الكبيرة لا تخرج واحدة منها عن مرامي طمع خصومنا فينا واتفاقهم على التهام حقوقنا ولو اختلفوا بينهم واسطة وسياسة وهي حقيقة عرفها رجال السلطنة كل المعرفة فقاموا بواجب الدفاع عن حقوق البلاد امتثالا لامر الجناب السلطاني الساهر على مصلحة أمته ووطنه والذي توصل بدهائه السياسي الى حمل بعض الدول على مناهضة اطماع الشعوب البلقانية ولهذا اتفقت الروسية وأوستريا على احترام الحالة الحاضرة في الانحاء البلقانية فساعد ذلك الروسية على زيادة الاهتمام بمسائل الصين واليابان فكانت الخدم والحالة هذه متبادلة بين العثمانية والروسية

ولكن انكلترا لم ترض عن ذلك الاتفاق الاوستري الروسي لما ترتب عليه من مزاحمة الروسية لها في الشرق الاقصى وحرب الترنسفال قد غلت ايديها وحالت دون اغراضها وأشغلتها عن كل شاغل غيرها

وقد هاجت المسألة الصينية بمظاهرها الاخيرة خواطر الانكليز فأتوا ما أتوه في المسألة المنشورية من معارضة الروسية وأملوا ان تميل المانيا اليهم ضد جارتها فلم يفلحوا في مساعيهم هذه فحولوا انظارهم الى المسائل البلقانية لعرفانهم ما هنالك من تباين الاغراض والمصالح سواء كان بين الشعوب البلقانية او بين الروسية وأوستريا

فظهرت بالرغم عن اتحاد اوستريا والروسية وعن استعداد الدولة العثمانيـة لدرء كل طارىء بلقاني وبالرغم عن مشورات ونصائح امبراطور الروسية لحكومة البلغار المسألة البلغارية في المظهر الذي أراده الانكليز وكان ما كان من اعمال تلك الجمعيات في مكدونيا وغيرها من بلاد الدولة العلية مما ساعد انكلترا على إنفاذ مآربها اذ اتجهت اميال الروماني واليوناني ضد البلغاري وما عرف ذلك حتى نشرت التيمس ان الروسية عقدت مع سربيا اتفاقاً عسكرياً ولم تقصد من اشاعة ذلك إلا ايغار صدر حكومة أوستريا ضد الروسية مع ان الخبر كذب لاصحة له وقد ساعدتها الظروف على ارجوفتها عقب موت الملك ميلان وتظاهر سربيا بالميل الى الروسية وكانت كأنها امارة اوسترية

ولم تقف سياسة انكلترا عند هذا الحد بل شجعت اليونان والفلاخ والبغدان ايضاً كانها تقول ان باتفاق هذين الشعبين ما يحول دون اطماع البلغاريين والسربيين ايضاً ولو لم تنل من هذه السياسة الا تمزيق الاتفاق

الاوستري الروسي واشغال الروسية في البلقان عن الشرق الاقصى لكنى ثم ان انكلترا لا تجهل ان اهتمام الدولتين اوستريا والروسيا في البلقان يضطر العثمانية الى ان تكون مع انكلترا ايضاً نتزيد مصاعب الروسية في الشرق القريب

ومعلوم ان هذا الاتفاق اذا افلحت به انكلترا واستمالت اوستريا اليها اشترطت النمسا تحقيق امانيها من املاكنا في سالونيك وغيرها ونيل اوستريا ذلك يساعد انكلترا على تمضيد اغراض المانيا في اوستريا الالمانية

هذا ما تسعى اليه انكلترا وتعمل على انفاذه وتحقيقه ولهذا اجتمع ملك اليونان بملك رومانيا ووقف سفير انكلترا واوستريا على دخائل ذلك الاجتماع وابحاثه

وقد فصلنا في هذه المقالة غايات انكلترا من سياستها البلقانية لا بقصد التحامل على هذه الدولة بل للاخبار بانها لو لم تكن لها مثل هذه المصالح لما قالت بهذه السياسة فهي باتفاقها مع اوستريا تريد الاضرار بالدولة العثمانية بحملها اياها على تمضيد اوستريا كما انها لا تريد من جهة اخرى تمضيد اماني اليونان والفلاخ والبلغار بل معارضة الروسية ولو اضر ذلك بالدولة العلية

قلنا هذا لنبرهن على ان لا مصلحة للعثمانية ان تميل مع دولة دون اخرى بل ان تلزم الحياد مباشرة بنفسها حماية حقوقها والذود عن مصالحها وقد ارتنا الحوادث في الماضي انه مهما تباينت مشارب الدول خصومنا كان اتفاقهن ضدنا اقرب من اختلافهن ولا سيما بعد حوادث سنة السبعين وعليه فلا مصلحة لتركيا بالاتحاد مع اوستريا او انكلترا ضد

الروسيةولا نخاف القول ان اتفاقنا مع الروسية ربما كان اقل ضرراً بنا من معاداتها لها بعد التجارب التي جربناها في العصر الماضي سواء كنا منفردين او متضمنين من دول اخرى

ومعلوم ان الروسية لاتجهل غايات انكلترا ولهذا ابدت مركزها العسكري في منشوريا واتفقت مع فرنسا على السياسة العمومية والخصوصية في الشرقين وفي اوروبا الأمر الذي لاتجهله المانيا ولا اوستريا ايضاً وقد لاننتظر طويلا حتى نسمع كيف تمزق الروسية شمل سياسة انكلترا في البلقان بتأييد اتفاقها مع اوستريا على احترام الحالة الحاضرة في تلك الانحاء فتخرج انكلترا فشلة ويزداد الخلاف بينها وبين الروسية في الشرق الاقصى وانكلترا لاتجهل اية الدولتين تكون الظافرة هناك اهي ام الروسية

اما نحن فغاية ما نتمناه ان لاتمس حقوقنا العثمانية اختلفت الروسية واوستريا او اتفقتا واننا في ثقة من تحقيق امانينا هذه لاعتقادنا ان الجناب السلطاني ساهر على مصالح الامة وحقوق الدولة واعظم برهان لدينا هو ما نراه من حشد الجنود واقامة المعاقل وتمين الذخائر لدرء كل ملمة وتمزيق شمل كل مفاجيء حفظه الله بعنايته وايده برعايته انه السميع المجيب